Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سليمان سليم علم الدين

دعوة التوحيد الدرزية

المدارس الفكرية والتيارات السياسية

تذكر يا مروان

Bibliotheca Alexandrina
0127798

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دعوة التوحيدِ الدّرزيّة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دعوة التوحيدِ الدّرزيّة

المدارسُ الفِكريّة والتيارات السياسيّة

تَذَكَّرْ يَا مَروَانُ

سليمان سَليم عَلم الدين

نوفل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جميع الحقوق محفوظة
للمؤلّف
الطبعة الاولى١٩٩٨
© Sulayman S. Alamuddin

نوفل
٩٩ شارع الصوراتي • بيروت • لبنان • فاكس ٣٥٤٣٩٤ (٠١)
تلفون ٣٥٤٨٩٨ (٠١) ٧٤٦١٣٠ (٠١) ٤٩٩٠٧٤ (٠١) ٣٥٣٥٠٨ (٠٣)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

توطئة

بين البحث التاريخي والدراسة الدينية التقاء في المنهج وافتراق في المقصد. كلاهما يتوخيان المعرفة وينهلان من منابعها. ولكنّ بين البحث التاريخي والدراسة الفكرية هامشاً تستوجبه حرمة المعتقد الديني ايا كان. وبمقدار، فلحرّية الرأي من حقوق تصونها الدساتير العصرية، كذلك للمعتقد الديني حرمة ذاتية تقف عند عتبتها حرية الرأي المسؤول ومهمة الباحث الموضوعي.

في عالم تزدحم وتتقارع فيه الافكار، اصبحت مهمة الباحث الموضوعي في معطيات التاريخ ان يوفق بين حرية الرأي وحرمة المعتقد فلا يفتئت على ذا ولا يجوز على ذاك ولا يظلم الحقيقة في الوقت نفسه.

ومهمة الباحث الامين تصبح اكثر دقة في سياق البحث في المعتقدات التي تستمد جوهرها من المعاني المستعلية، او الباطنية، للقرآن الكريم، كما مذهب الموحدين الدروز القائم على الاسلام والمفسر للآيات المنزلة، تفسيراً يتعدى ظاهر الشريعة ومذاهبها بالمعنى المحدود للتعبير.

يوم اسر لي الصديق الكريم الشيخ سليمان علم الدين برغبته في الكتابة عن نشأة مذهب التوحيد – او الدروز كما يعرفون في عالم اليوم – اكبرت فيه شغفه للبحث وثمنت توقه للمعرفة واطمأننت لقصده من قناعته الذاتية، بأن الخوض في جوهر معتقد التوحيد وحكمته هي مهمة المؤتمنين على مذهب التوحيد من المشايخ العارفين والحكماء المطلعين ومن يقينه بأن مهمة الباحث المؤرخ تقريب سبل المعرفة بين الجاهل والعارف.

طبيعي ان يكون اي جهد موثوق وموثّق للتقريب بين الجاهل والعارف من ابناء التوحيد سعياً مشكوراً، خصوصاً، اذا توخى هذا السعي حث الراغب في المعرفة تطفلاً، الى التوجه اليها شوقاً علّ توجهه يمهد له سبل الارتقاء يوماً الى مرتبة العقال والتفقه على ايدي من تتوفر فيهم الامانة الروحية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاب «تذكّرْ يا مروان» اطروحة تقرع باب المعرفة بيد الباحث الامين وتترك ولوج رحابها الواسعة لمن تتوفر فيهم شروط الاهلية الروحية والاستحقاق الخلقي لكي يصبحوا من حفّاظ الوديعة وحافظيها، «ولا يكلّف الله نفساً الا وسعها».

وحين يطرق اي باحث باب الفكر الاسلامي، لا بد له من ان يتطرق الى تأثير الفلسفة اليونانية عليه، والتي يقال ان من ادخلها زحاب الفكر الاسلامي كان المفكر احمد النسفي ومترجمات السريان النصارى الذين كان لهم الفضل الأول في تعريف الاسلام على الفلسفة اليونانية بحكم ترجمتهم المؤلفات اليونانية الى السريانية، ومن ثم الى العربية في مدارس حرّان – الرها – وديرقنسرين – وانطاكية ومدرسة جنديا سبور التي انشأها كسرى انوشروان، ودرس فيها حمزة بن علي بن احمد الزوزني. ثم كان «بيت الحكمة» الذي اسسه الخليفة العباسي المأمون عبدالله بن الرشيد وزوده بمئات الألوف من المؤلفات القيمة وبجيش من المترجمين، وقد قيل عن المأمون انه كان أعظم راع للفلسفة وخصوصاً اليونانية.

الاّ ان بعض المؤرخين المسلمين يقولون ان هدف النصارى من تشجيع ونشر الفلسفة اليونانية كان ادخال العقل المطلق على الفكر الاسلامي ليكون عامل شك يزعزع الايمان الديني المطلق على اعتبار ان العقل يرفض المعجزات والخوارق. وفي ذلك يقول أبو الحسن الأشعري، صاحب المدرسة الأشعرية، في كتابه «مقالات الاسلاميين». «ان الأهمية المطلقة للعقل لا تفضي الى دعم الدين، كما زعم المعتزلة، بل ان ذلك على العكس، يفضي الى نفي الدين والى استبدال الايمان بالعقل. اذ ما قيمة الايمان بالله اذن وبالكتاب المنزل ما دام العقل، بحد ذاته، ارفع من المعطيات الدينية؟»

في هذه الدراسة يحصر الكاتب تأثير الفلسفة اليونانية على عقيدة التوحيد، في فلسفة الفيض التي قال بها الفيلسوف افلوطين، الملقب بالشيخ الاسكندراني، واعتنقتها الاسماعيلية ونادت بها «رسائل اخوان الصفا» وهي فيض الله تعالى بنوره الشعشعاني على العقل، وفيض العقل على النفس، وفيض النفس على الهيولى. ويضيف الموحدون «الكلمة» إلى هذه المراتب.

يستفيض الكاتب في دراسة الاسماعيلية وتاريخها وتطور معتقداتها ثم تحولها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى عقيدة دينية مع قيام الدولة الفاطمية، ثم انقسامها الى فرق متعددة بعد عهد الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧هـ) ثم تقلصها اثر تسلط الايوبيين على حكم مصر وبلاد الشام، واستمرارها، حتى يومنا هذا، كتجمعات ثانوية، منتشرة في بعض البلدان الاسلامية.

قد لا يوافق البعض على اعطاء الاسماعيلية دوراً محدوداً وتأثيراً صغيراً على المعتقدات التوحيدية، فالكاتب يعتبر ان عقيدة التوحيد ليست، كما يظن البعض، وليدة الاسماعيلية، لان العقيدتين تفترقان في مبادئ عديدة وأساسية، في مقدمتها الامامة، وهي ركن اساسي في المعتقد الاسماعيلي بينما زالت كلياً من عقيدة التوحيد، فلا امامَ عند الموحدين.

ويتضح من دراسة الشيخ سليمان علم الدين ايمانه في عقائد الاعتزال وفي صوابية اعتماد المعتزلة على العقل المطلق في ايمانها الفكري. ويعتقد الكاتب ان الموحدين تأثروا بنظريتي التوحيد والعقل من هذه العقائد، فاستحقوا لقب الموحدين وأصبحوا أهل التوحيد يقدسون العقل ويعتبرونه الارادة الإلهية على الأرض، وبالتالي علة العلل ومدبر الكون.

ويفسح الكاتب للصوفية فصلاً مستفيضاً يبدأ من تاريخ نشأتها، كتيار زهد لدى المسلمين الاوائل الى انتشارها في العراق وبلاد فارس، ثم ازدهارها وانتقالها في العهدين، الايوبي والمملوكي، من الأندلس والمغرب الى مصر وبلاد الشام حيث عمّت الطرق الصوفية العالم الاسلامي. ويبدو ان العديد من ابناء التوحيد عمدوا في أعقاب انتقال دعوة التوحيد من مصر الى بلاد الشام، بعد المحنة، اي عام ٤١١هـ، الى الانضمام الى الاسماعيلية، في حين اتجه قسم منهم الى اعتناق الصوفية، خوفاً من اضطهاد الفاطميين وذلك بسبب تشتتهم في بلاد الشام بلا قيادة زمنية او دينية يرجعون اليها، وقد دام هذا التشتت والضياع العقائدي حتى القرن التاسع هجري، اي الى زمن الأمير السيد عبدالله التنوخي، الذي جمع رسائل الحكمة وكتب شروحاتها فحفظ عقيدة التوحيد كما نعرفها اليوم.

ويخص الكاتب القرامطة بدراسة مقتضبة ترجع جذورها الى قبيلة تيم الله بن ثعلبة القرمطية التي قدمت في القرن الثالث هجري من سواد الكوفة واستقرت في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وادي التيم الذي عرف باسمها منذ ذلك الحين. وفي وقت لاحق، انضمت اليهم فلول القرامطة في بلاد الشام وذلك بعد معركة الرملة عام ٣٦٨هـ بين الجيش الفاطمي بقيادة نشتكين الدزبري، وجيش افتكين القائد التركي العباسي وحلفائه القرامطة، بقيادة جعفر الجنابي، وكانت احدى نتائج هذه المعركة انتهاء دور القرامطة في بلاد الشام، ولكن جيوباً منهم بقيت في جبل السمّاق قرب حلب، وانطاكية وضواحي دمشق، ومن المرجح ان يكون معظم هؤلاء القرامطة قد اعتنقوا المذهب التوحيدي في ما بعد.

وتشمل هذه الدراسة معلومات تاريخية موثقة عن عدد من اعلام التوحيد، كالخليفة الفاطمي الامام الحاكم بامر الله، والامام حمزة بن علي بن احمد، وسلمان الفارسي والأمير رافع ابي الليل الكلبي والمقداد بن الاسود الكندي، والأمير السيد عبدالله التنوخي.

وليد ابي مرشد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تذكّر يا مروان

هذه الدراسة المقتضبة للتيارات الفكرية والاجتماعية والعوامل الروحانية العقلانية التي رافقت نشوء وانتشار الدعوة التوحيدية الدرزية توحي القاء الضوء على الصراع العقائدي الذين اثر على الرواد الاوائل للدعوة التوحيدية وجعل العقل لديهم، المخلوق الأول الذي اطلقه الله، عز وجل، من نوره الشعشعاني فجعل الإيمان العقلاني نعمة المولى الكريم ومعتقدهم المقدس.

رائدهم والحد الاول، مولاي العقل، وملجأهم الروحي مشيخة العقل، وشيوخهم لقبهم العقّال، كتبهم كتب الحكمة والحكمة وليدة العقل.

مروان سهيل المصفي، كتلة من الصفات الحميدة، دمث الاخلاق، حلو الشمائل، صادق في أعماقه واقواله، الحب عنده عطاء، لأن هدف من يعطي سعادة وسروراً للغير.

ولد مروان مثل ابناء ملته، موحداً درزياً، من دون أن يؤخذ رأيه في ما أعطي له وفي من يريد أن يكون والى ماذا ينتمي. جل ما يعرفه عن قومه، فخر واعتزاز باخلاقهم وتقاليدهم، وفي مقدمتها الكرم والشجاعة والوفاء والصدق واغاثة السائل. ولكن مروان الآن يطلب حقه الطبيعي الذي منحه اياه المولى تعالى، يريد معرفة جذور انتمائه والعقيدة التي تربطه بالله نور الأنوار، الذي يعبد ويخضع له، وهذا أمر مشروع في زمن يزداد فيه الاهتمام بتحديد الهويات ومعرفة الانتماء العقائدي، ويسأل بفضول خلقي وعلمي، لماذا لا أعرف ما يحق لي معرفته، والمعرفة تنير السبيل الى الحقيقة التي هي برهان العقل وأصل التوحيد يريدها الله تعالى لعباده، فالمعدوم مجهول والجهل بلاء وشر لا يريدهما الله لخلقه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغاية من هذه الدراسة

ان جاز لي ان ابدأ بنفسي، يسعدني أني قوي الايمان بالله تعالى، الرحمن الرحيم، هو، عز وجل، الحق ونور الأنوار، خالق الدنيا وما عليها، لا فاعل الاّ هو، جل ذكره، ولا معين غيره. له العبادة والصلاة وعليه التوكل. لا اله الاّ هو وحده لا شريك له.

انا لست مؤرخاً ولا باحثاً، بل مجرد انسان فضولي «كثير الغلبة» يتوق الى معرفة ما يجري امامه، علّه يعرف نفسه في هذا الوجود الرائع الذي أبدعه المولى لخلقه. من اين اتى؟ الى أين يسير؟ الى ماذا والى من ينتمي؟ وفي النهاية يطرح السؤال نفسه، من أنت؟ جل ما تعرفه أنك ولدت موحّداً؟

انا فضولي يهمني ان اؤمن بان ما اعتقده صدق يقبله عقلي، لأن العقل واجب الوجود، علة العلل، اشعاع المعرفة ووليد الحق وأول ما أبدعه الله من نوره الشعشعاني، وهو الارادة الالهية على الأرض لتدبير الكون، وهو ثاني الله تعالى. انا أرفض ما لا يقبله العقل، لأن العقل هو كل شيء وقبل كل شيء وفوق كل شيء.

انا أنتمي الى طائفةِ العقلُ مولاها، كتبها «الحكمة» والحكمة وليدة العقل والقيمون على عقائدها لقبهم «عقّال».

بالاضافة الى عبادة وتوحيد الله تعالى، والاعتماد الكلي على العقل، لي الايمان الثابت، والعمل الصادق بقول الامام الأول علي «الخلق كلُّهم عيال الله واحبهم اليه انفعهم لعياله». اي الإخاء بين الانسان والانسان.

انا أرفض أن أسلك طريقاً بلا نور، وأرفض نوراً أجهل مصدره وغاية وجوده. أرفض الايمان بالعدم، وأطلب الهداية التي ينيرها العقل فهي الطريق الى الايمان الصادق غير المغلق.

الايمان الواعي الصادق الذي يحده ويقبله العقل هو هبة الله تعالى لاطمئنان النفس، واطمئنان النفس هي السعادة التي تسبغ مسحة الرضى على الحياة، والرضى نهاية التوكيل ونعمة التوحيد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المذاهب والعقائد قد تتفاوت وتتناقض لأن الله وهب الانسان حرية الاعتقاد والعمل. فالناس يخلقون أعمالهم، فهم مخيّرون لا مسيّرون، ومن أجل هذا يثابون او يعاقبون، وهذا عدل المولى الكريم لأنه، سبحانه وتعالى، لا يفرض على عباده المعاصي ثم يعذبهم بها.

التاريخ حوادث وقعت تدون بصدق وأمانة، واسبابها تحلل بعقل ونزاهة، ونتائجها يستخلصها المؤرخ الواعي الأمين من الأخبار المدونة في كتب أصحاب العلم والمعرفة بتجرد وجرأة في الحق، وللحق وحده، والعزوف عن التعصب لعقيدة او لمذهب مع ايمانه أن «فوق كل ذي علم عليم».

اكرر ما قلته سابقاً، انا لست مؤرخاً أكتب بدافع الهواية. وكل ما في الأمر، اطلعت على بعض أحداثٍ ذات قيمة، أقدمها للقارئ كما حدثت، وأعرضها كما فهمتها، متوخياً الحقيقة، طالباً من المولى، عز وجل، ان يبعده عن التعصب المقيت والانفعالات النفسية ان كان لدين او عقائد سياسية ويجعل الصدق رائده، لأن الحضارات لا تشيد بالعواطف، بل بالعقول المفكرة المنفتحة بمنطق واتزان وهذه من مزايا المؤرخ الصادق الأمين.

يقول الدكتور طه حسين في كتابه، الفتنة الكبرى – عثمان. «وانا أريد ان أنظر الى هذه القضية نظرة خالصة مجرّدة، لا تصدر عن عاطفة ولا هوى، ولا تتأثر بالإيمان ولا بالدين، وانما هي نظرة المؤرخ الذي يجدد نفسه تجديداً كاملاً من النزعات والعواطف والاهواء مهما تختلف مظاهرها ومصادرها وغاياتها.»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

توضيح موضوع هذه الدراسة

قال المتصوف الكبير محيي الملة والدين العربي – الطائي الحاتمي الاندلسي، المعروف باسم ابن عربي:

فافهم، فديتك، سر الله فيك ولا
تظهره فهو عن الاغيار مكفون
وغر عليه، وصنه ما حييت به
فالسرّ ميت بقلب الحر مدفون[1]

أمانة مشايخ الأجاويد الموحدين الدروز صيانة المعتقدات والحفاظ عليها، لأن أسرار الحكمة هي أساس الايمان ومنطلق العرفان، والعرفان علم النبوة، وهم القيمون على الشريعة والكاتمون أسرارها والقادة الروحيّون للموحّدين.

هذه الدراسة المقتضبة محاولة تفسيرية لمعرفة تأثير بعض الأفكار والتيارات الاجتماعية الفلسفية واحداثها التاريخية على نشأة الدعوة التوحيدية وهي سجلّ صادقٌ لأحداث فكرية جرت وعبرة تستفيد الأجيال القادمة من جيدها وتحاول تفادي باطلها.

من يروي أحداث التاريخ بصدق وامانة متجرداً عن انفعالات نفسية ومقاصد شخصية يكون مسؤولاً فقط عن سرد حقائق وقعت من دون أن يكون مسؤولاً عن أسبابها أو نتائجها، فهو الراوي وليس المحدث لهذه الوقائع.

من هذا المنظار يمكن القول إن أبرز التيارات الدينية والفكرية المرتبطة بتاريخ نشوء الدعوة التوحيدية هي الامامة والمعتقدات التي تنحصر بفلسفة الفيض اليونانية والفكر المعتزلي العقلاني، وهم أهل العدل والتوحيد، ثم المبادئ والسلوك الصوفي.

---

(١) مخطوطة لدى الكاتب عن شرح قصيدة ابن عربي «التائية» كتبها الصوفي عبدالله الرومي البوسني.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لذلك لا علاقة لهذه الدراسة بالمذهب التوحيدي بالنسبة للسرية الصارمة التي فرضت عليه، في عام ٤٣٤هـ منذ اغلاق الدعوة التوحيدية في مصر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاوضاع السياسية في بلاد الشام في عهد الدعوة التوحيدية الدرزية

- الفاطميون في بلاد الشام
- بنو كلب
- بنو مرداس
- الحمدانيون
- بنو الجرّاح وقبيلة طي
- بنو عقيل
- القرامطة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاوضاع السياسية في بلاد الشام في عهد الدعوة التوحيدية الدرزية

قال أنس بن مالك: «قلت يا رسول الله اين الناس في يوم القيامة؟..»(*)

فقال: «في خير أرض الله وأحبها اليه، الشام وهي أرض فلسطين والاسكندرية في خير أرضين»(١).

قال عبدالله بن عمر بن الخطاب، ان رسول الله قال: «الخير عشرة أعشار. تسعة بالشام وواحد بسائر البلدان. والشر عشرة، واحد بالشام وتسعة في سائر البلدان. اذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم»(٢).

قال حفص بن سعد عن أبيه، قال رسول الله: «اذا وقعت الفتن فهاجروا الى الشام، فانها من الله بمنظر وهي أرض المحشر»(٣).

قال ابن حوالة لرسول الله الكريم: «اختر لي ان أدركني ذلك. قال: اني اختار لك الشام، فانه صفوة الله في بلاده واليه يجتبي صفوته من عباده»(٤).

ويقال ان كعب الاحبار قدم المدينة والتقى عمر بن الخطّاب الذي قال له: «ما يمنعك من النزول بالمدينة، فانها مهاجر رسول الله وبها مدفنه.»؟. فقال كعب «يا أمير المؤمنين، اني وجدت في كتاب الله المنزل في التوراة، ان الشام كنز الله في أرضه وفيها كنز الله من عباده»(٥).

(*) انس بن مالك هو صحابي معروف ومن اصحاب الحديث وليس الفقيه الكبير مالك بن أنس.

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر. «الامام محمد المعروف بابن منظور» ص ٥٩ .

(٢) كتاب تاريخ دمشق ابن عساكر مجلد ١ ص ١٤٣ . وكتاب بغية الطلب في أخبار حلب. ابن العديم ص ٣٤١ .

(٣) كتاب تاريخ دمشق. ابن عساكر. مجلد ١ ص ١٧١ .

(٤) كتاب تاريخ دمشق. ابن عساكر ص ٥١ .

(٥) كتاب تاريخ دمشق. ابن عساكر ص ٥٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويصف أبو القاسم ابن حوقل الموقع الجغرافي لبلاد الشام فيقول: «واما الشآم فان غربيها بحر الروم وشرقيها البادية من ايلة الى الفرات، ثم من الفرات الى حد الروم، وشماليها بلاد الروم، وجنوبيها مصر وتيه بني اسرائيل وآخر حدودها مما يلي مصر رفح، ومما يلي الروم الثغور المعروفة كانت قديماً بثغور الجزيرة وهي ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربه والمصيصة واذنه وطرسوس، فالنواحي التي قدمت ذكرها في تصوير الشام وفي اعادتها تطويل[٦].

بلاد الشام أرض المتناقضات، ففي قلبها صحراء سورية وهي جزء من الصحراء العربية، ثم هناك، ما يسمى بالهلال الخصيب الذي يمتد من العراق حتى لبنان ويشمل ساحل البحر المتوسط، وثم سهول ما يعرف ببلاد ما بين النهرين، اي وادي دجلة والفرات. وبلاد الشام بالواقع، حلقة اتصال بين آسيا وأفريقيا وأوروبا حيث عبرت شعوب ثم عادت لتعبر ثانية فوق أرضها. كما نما وتطور فيها الفكر والعلم، وسطر فيها التاريخ معارك للجيوش حتى قيل، «ان الحرب تأتي من الشرق، وتندلع ثم تحسم في الشرق».

هذا الموقع لبلاد الشام جعلها معبراً ومستقراً لقبائل وشعوب غير عربية. ففي العصور الغابرة قطنتها شعوب واحتلتها جيوش عديدة، نذكر منها الفينيقيين، الحثّيين، الأشوريين والمصريين والفرس والأغريق والرومان. ثم في القرون الوسطى، غزاها التركمان والمغول والتتر ثم الصليبيون، ولهذا يمكن القول إن شعب بلاد الشام، بالرغم من طغيان العنصر العربي عليه، لا بدّ أنه تأثر من بعض الصفات العنصرية والقومية التي كانت تتميز بها هذه الشعوب الغريبة التي احتكت بها.

تميز الحكم في بلاد الشام بعدم الاستقرار، فتارة كان في حكم واحد يخضع لسلطة مركزية واحدة، وأحياناً يتألف من امارات وولايات مستقلة ولكنها تخضع، أحيانا بالاسم فقط، لسلطة مركزية عاصمتها، اما دمشق أو بغداد أو القاهرة.

بعد أن قضى الاسكندر المقدوني على الامبراطورية الفارسية انضمت بلاد الشام، التي كانت جزءاً من امبراطورية فارس، الى المملكة الهلينية التي كانت

(٦) كتاب صورة الأرض ص ١٦٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عاصمتها انطاكية[٧]. ثم كان الفتح الروماني في القرن الأول قبل الميلاد، فأصبحت بلاد الشام ضمن الامبراطورية الرومانية التي انقسمت الى جزئين، شرقي وعاصمتها القسطنطينية، وعرفت بالدولة البيزنطية. وغربي وعاصمتها روما.

قبل الفتح الاسلامي كان دخول القبائل العربية الى بلاد الشام ظاهرة مستمرة، إما بدافع القحط وانحباس الأمطار والجفاف الذي كان يقضي على المراعي، وإما بسبب الغزو أو تصرف عدائي للقبيلة، أو حتى لأحد أفرادها، يؤدي الى صدامات دموية بين القبائل فتضطر احداها الى النزوح، وغالباً شمالاً الى بلاد الشام.

وفي الشمال بلاد الشام، التي تتألف من سهول فسيحة ووديان خصبة تهطل فيها الأمطار الموسمية، بالاضافة الى منطقة صحراوية معتدلة المناخ تصلح للرعي وأنهار غزيرة المياه، وكان الجاذب لقدومهم اليها كي ينالوا منها رزقهم بعد مشقة العيش والقحط.

تعتمد معيشة البدو على ابلهم، وغنمهم، والكلأ وشجرة النخيل، وحيناً على الغزو، وقال ابن خلدون: «رزق البدو في ظلال رماحهم».

يقول المؤرخ المصري الكبير محمد حسين هيكل: «ولم تلبث بادية الشام، حين انتشرت فيها قبائل العرب[٨] الذين هاجروا اليها ان صارت كأنها من شبه الجزيرة. وكان الغسانيون[٩] اقوى هذه القبائل عنصراً وأكثرهم على الحياة صبراً وجلداً، لذلك أقاموا مملكة بني غسان على حدود الشام، كما أقام اللخميون ملك الحيرة على شواطئ الفرات، ولقد كان دأب هؤلاء العرب يومئذ كدأب بني وطنهم دائماً، يشاركون الأمة التي يقيمون على حدودها في مصيرها ويشاطرونها آمالها، ومن ثم

(٧) اسم انطاكية أعجمي معرّب واسمها بالرومية انطوخيا وكانت تدعى مدينة الله لأنها أول بلد ظهر فيها دين المسيحية.

(٨) القبائل التي أتت بلاد الشام كانت: غسان، تغلب، اياد، النمر، قضاعة، طي، وكلاب وكلب، (كلاب بطن من عامر بن صعصعة وكلب بطن من قضاعة).

(٩) الغساسنة كانوا من الازد احدى قبائل عُمان التي تنسب الى شعب كهلان اليمني هم من القحطانية وانتشروا في البلقاء واليرموك وحمص.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلّموا في الشام بحكم الروم، وفي العراق بحكم الفرس»[١٠] فكانت مملكة الغساسنة حليفة البيزنطيين وكان ملوك الحيرة حلفاء الفرس.

بدأ الرسول دعوته في عام ٦١١ ميلادي وانضوت قبائل الجزيرة العربية تحت راية الاسلام. وفي عهد الخلفاء الراشدين والخلافة الأموية، انطلقت هذه القبائل في نشر العقيدة الاسلامية في بلاد الشام.

أرسل أبو بكر الصديق عام ١٢هـ، اول جيش بقيادة خالد بن سعيد بن العاص الأموي الذي ذهب عن طريق فلسطين، وعندما هزمه الجيش البيزنطي في معركة «مرج الصّفر»، اسرع لنجدته عكرمة بن جهل الذي قدم بجيش من اليمن، كان فيه عدي بن حاتم طي، ضرار بن الازور والحارث بن هشام(*).

وكان الجيش الثاني بأمرة عمرو بن العاص الذي سار الى فلسطين وكان مساعده سعيد بن الحارث السهمي، وكان معظم جيش عمرو من قضاعة وعذرة. وكان عمرو بن العاص يصلي في المسلمين اذ اجتمعوا. وفي الوقت نفسه، سار الى الأردن، جيش بقيادة الوليد بن عقبة. ثم سار جيش شرحبيل بن حسنة وضم اليه جيش الوليد بن عقبة الذي كان في الأردن.

ثم سار الجيش الرابع الى دمشق، وكان بأمرة يزيد بن أبي سفيان يساعده أخوه معاوية. كان جُلّ جنده من مَكّة. وكان الجيش الذي توجه الى حمص بقيادة الصحابي الكبير، أبو عبيدة ابن الجرّاح الذي أصبح، بعد وفاة أبو بكر الصديق، قائداً لجميع الجيوش الاسلامية.

بعد انطلاق الجيوش الاسلامية، وجُلّهم من القبائل العربية، وانضمام جيش الوليد بن عقبة، الذي كان ضم اليه جيش عكرمة بن ابي جهل، الى جيش شرحبيل

---

(١٠) كتاب ابو بكر الصديق، محمد حسين هيكل، ص ١٨٠ .

(*) القبائل التي كانت تدين بالمسيحية: غسان، تغلب، طي، لخم، جزام وعاملة، والحارث بن هشام المخزومي الجد الأول للعائلة الشهابيّة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بن حسنة، وانضمام جيش سعيد بن العاص الى جيش عمرو بن العاص، اصبحت الجيوش الاسلامية بقيادة عمرو بن العاص، وابو عبيدة ابن الجرّاح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان وكان عدد جنده يقارب الثلاثين الفاً، جلهم من القبائل العربية.

خاف المسلمون من جيش الروم الذي كان جنده يفوق المائتي ألف مقاتل من الروم وبعض قبائل العرب، فقرروا الاجتماع بجيش واحد فاجتمعت قواتهم الموّحدة على الشاطئ الأيسر من نهر اليرموك وبقيت محصورة مدة شهرين حتى قدم خالد بن الوليد من العراق على رأس جيش قوامه تسعة آلاف رجل.

اجتمع قادة الجيوش العربية فقال لهم خالد بن الوليد: «هلموا فلنتعاون الامارة، فليكن بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى تتأمروا كلكم، ودعوني أتأمر اليوم»(١١).

لم يتردد امراء الجيوش من اجابة طلب خالد بن الوليد وهو فاتح العراق وغازي اليمامة والذي دوخ الفرس وحطّم جيوشهم. وأطلق خالد مقولته الشهيرة عندما سمع أحد الجند يقول: «ما أكثر الروم وأقل المسلمين» فقال: «ما أقل الروم وأكثر المسلمين، انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال»(١٢).

انتصر المسلمون وقضي على كل أمل للروم في استعادة قوتهم لاستبقاء الشام، فجلا هرقل عن معسكره في مدينة حمص وسار منها الى انطاكية، التي كانت في ذلك الوقت من أهم مدن بيزنطية: أما دمشق فلم يتمكن هرقل من نجدتها، وبالرغم من دفاع أهلها المستميت، سقطت في يد المسلمين عام ١٤ هجري.

ذكر احمد بن يحيى البلاذري قال: حدثني أبو جعفر الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز: «لما فتح أبو عبيدة ابن الجرّاح دمشق، استخلف يزيد على دمشق وعمرو بن العاص على فلسطين، وشرحبيل على الأردن وخلف على حمص عبادة ابن الصامت»(١٣).

---

(١١) كتاب أبو بكر الصديق، محمد حسين هيكل، ص ٢٦٠ .

(١٢) كتاب أبو بكر الصديق، محمد حسين هيكل، ص ٢٦١ .

(١٣) كتاب بغية الطلب من تاريخ حلب، ابن العديم، ص ٥٨٥ . وكتاب انساب الاشراف. البلاذري مجلد ٣ ص ١٤٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استخدم عمر بن الخطّاب على الشام يزيد بن أبي سفيان، ثم بعد وفاة يزيد عام ١٩هـ. ولّى أخاه معاوية. ويقول أبو جعفر الطبري «وفي خلافة عثمان بن عفان، جعل معاوية بن أبي سفيان على الشام كله وألحقَ به ولاية الجزيرة»(١٤).

بقي معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام حتى اغتيال الامام علي بن أبي طالب عام ٤٠هـ. حيث بويع بالخلافة، وأسس عام ٤١هـ. المسمى بعام الجماعة، الدولة الأموية.

كانت قريش أشرف قبائل الجزيرة العربية وأرفعها مكانة يُخشى أمرها وتهاب سلطتها. وكانت فيها اسرتان، هاشم ومنها النبي محمد والامام علي بن أبي طالب، وامية، وكانت أوفر عدداً وأكثر مالاً من هاشم، ومنها سفيان بن حرب والد يزيد ومعاوية مؤسس الدولة الأموية.

قاد سفيان بن حرب جيش قريش في غزوة أحد وجيش الأحلاف في حرب الخندق. بقي سفيان مشركاً حتى كان عام الفتح، عندما أعلن رسول الله: «من اغمد سيفه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن». فعل رسول الله ذلك لحقن الدماء وتوحيد كلمة العرب. في ذلك العام، أطلق النبي محمد على بني أمية لقب «الطلقاء». وقيل إن بني أمية لم يعتنقوا الاسلام الاّ خوفاً أو طمعاً بحظوة بعد أن حاولوا عبثاً القضاء على رسالة النبي العظيم.

عرف النبي محمد مكانة بني أمية ونفوذهم بين العرب، فاستخدمهم في دولته الفتية. ويقول أحمد بن علي المقريزي. «وكان من عماله منهم على مكة أبو عتاب بن أسيد بن أبي أمية بن عبد شمس، أحد من أسلم يوم فتح مكة، كما كان منهم خالد بن سعيد بن العاص بن أمية عامل الرسول على صنعاء اليمن، حيث بعثه اليها في السنة العاشرة للهجرة وبقي فيها حتى وفاة الرسول. كما كان ابان بن سعيد بن العاص بن أمية على البحرين» ثم يقول «واستعمل ايضاً أبو سفيان بن حرب بن أمية على نجران، وظل في منصبه حتى توفي الرسول»(١٥).

---

(١٤) كتاب تاريخ الرسل والملوك، مجلد ٣ ص ١٤٨ .

(١٥) كتاب النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبني هاشم، ص ٤٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«مما يلفت النظر أن معظم الولاة الذين استخدموا من قبل الرسول وأبو بكر وعمر بن الخطّاب لم يكونوا من بني هاشم، بل جلّهم من بني أمية، مما دفع الأمويين الى طمعهم بالحكم فيما بعد»(١٦).

كانت دولة بني أمية دولة عربية، فالعنصر الحاكم فيها كان عربياً، والجيش الذي كان عماد الدولة وحاميها وحامل لوائها كان عربياً ايضاً؛ أفراده من قدماء المقاتلين في جيش الفتح الأول العربي، وقادته جلهم من زعماء القبائل التي نزحت من الجزيرة العربية. كما استلم ادارة الدولة وتصريف أعمالها عرب من النصارى لتفوقهم في العلم وادارة شؤون الحكم.

في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان حلّت اللغة العربية محل اللغات المحلية التي كانت سائدة في بلاد الشام كاليونانية، والفارسية في العراق. وكذلك سُكّ الدينار العربي وحل محل العملة البيزنطية والفارسية.

يمكن القول إن في عهد الأمويين تبوأ العرب الصدارة والقيادة، ولهذا سمّيت دولتهم، عن حق وجدارة، بالدولة العربية، كما دعيت لاحقاً دولة العباسيين، بالدولة الاسلامية لغياب العنصر العربي عن قيادتها، حيث آل الأمر الى الاعاجم، كالترك والفرس، الذين اعتنقوا الدين الاسلامي ولكنهم ظلّوا على عنصريتهم الغريبة والدخيلة على العرق العربي.

في العهد الأموي امتدت الفتوحات الاسلامية العربية الى اقصى حد، حتى شملت فارس وأجزاء من بيزنطية وتوغلت حتى الصين.

بعد الفتنة عام ٣٥هـ. التي اودت بحياة الخليفة عثمان بن عفان، تغيرت أسس الحكم الاسلامي، اذ كان أمر الخلافة يقوم على البيعة، أي رضا الرعية، وكان سلطان الخليفة مقيداً بالحدود التي رسمها الدين، فأصبحت في عهد الخليفة معاوية، كأنها ملك لصاحب السلطة ينقله الى من أحب من أبنائه دون مشورة الرعية، فبرزت بدعة توريث الملك، وتحولت الدعوة الدينية المسلمة الى دولة بقيادة زعامة عائلية قبلية، سيطرت على مقدرات البلاد السياسية والاقتصادية.

هذا البحث المقتضب عن الخلافة الأموية هو تتمة للتسلسل التاريخي للحكم

---

(١٦) كتاب النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبني هاشم، ص ٥٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاسلاميّ فقط، كي نقدم للقارئ فكرة واضحة عن الخلفيات التاريخية والعوامل الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي أثرت على نشوء وانتشار الدعوة التوحيدية الدرزية، وهي موضوع هذه الدراسة.

لن أشرح بالتفصيل أسباب ونتيجة هذا الصراع على الطائفة الدرزية لأن دراسةً مفصّلةً كاملةً خصّصت لهذا الموضوع المهم، في فصل «الخلافات الدرزية التي نتج عنها تخلّيهم عن حكم جبل لبنان».

ما يهمنا من هذه الدراسة المقتضبة عن العهد الأموي هو الصراع الشديد الذي نشب، خلال ذلك العهد، بين القيسية واليمنية الذي انتقل الى لبنان بواسطة بني كلب، وهم بطن من قضاعة القحطانيين، والقيسية بواسطة المعنيين وهم من بني كلاب بن مضر بطن من قبيلة ربيعة من العدنانيين. فعرف القحطانيون عرب الجنوب باليمنيين، وعرف العدنانيون عرب الشمال بالقيسيين.

كان عهد الخلافة العباسية، العهد الأهم بالنسبة لدراستنا، على اعتبار أن دعوة التوحيد الدرزية انتشرت ابانه وتأثرت بمناخاته الفكرية والاجتماعية والسياسية. في عهد الخلافة العباسية انطلقت المدارس الفكرية والعقائد الفلسفية، كالاعتزال والاسماعيلية، والصوفية، وفيه كذلك، انتشرت الفلسفة اليونانية والحكمة الهندية وكتبت رسائل اخوان الصفا. وجميع هذه العلوم الفكرية أثرت، بنسب متفاوتة، على العقيدة التوحيدية الدرزية.

اخذت الدولة العباسية اسمها نسبة الى العباس بن عبد المطلب عم النبي محمد الذي، بالرغم من انه لم يكن من الاوائل الذين اعتنقوا الاسلام، فقد أسلم عام فتح مكة، ولكنه لم يقف من النبي موقفاً معادياً، كما فعل شقيقه أبو لهب، بل بالعكس، كان يحمي الرسول من مشركي قريش، وكان على اتصال به، حتى بعد هجرته الى المدينة.

لم يظهر العباس طموحاً في الخلافة نظراً لأنه لم يكن من الأوائل الذين اسلموا، بل صب اهتمامه لتولية ابن أخيه علي بن أبي طالب، وهو من قال له بعد اجتماع السقيفة: «امدد يدك لنبايعك».

توفي العباس بن عبد المطلب عام ٣٢هـ وتولى زعامة الأسرة العباسية بعد وفاته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابنه عبدالله بن العباس الذي كان شخصية علمية مرموقة وكان حجّةً في رواية الحديث وتفسير القرآن[1] ومن المقربين الى ابن عمه علي بن أبي طالب، الذي، عند توليه الخلافة عام ٣٥هـ. ولّى عبدالله اعمال البصرة. وبعد اغتيال الامام علي عام ٤٠هـ وانتقال الخلافة الى معاوية بن أبي سفيان الأموي، ترك عبدالله بن العباس البصرة وأقام في الطائف يروي الحديث ويفسر القرآن وقيل كان له مدرسة في هذه العلوم يؤمها الكثيرون من طلاب علوم الدين. توفي عبدالله بن العباس عام ٦٨هـ. في خلافة عبد الملك بن مروان(*). «أنجب عبدالله بن العباس ولداً سمّاه علي لأنه ولد

---

(١) حسب رواية ابن الاثير ان سلمان الفارسي روى قصة اسلامه وسفره الى بلاد الشام الى عبدالله بن العباس.

(*) اما الدكتور طه حسين في كتابه – الفتنة الكبرى (ص ١٣٣) فيقول ان ابن عباس، الذي ولاّه الامام علي على البصرة، اختلف مع الامام علي، بعد أن شكاه صاحب بيت المال، أبو الأسود الدؤلي بأنه يعبث بأموال المسلمين. غضب الامام علي وكتب لابن عباس يؤنبه على تصرفه الشاذ منها قوله: «فانه لا يسعني تركك حتى تعلمني ما أخذت من الجزية، ومن اين اخذته وفيما وضعت ما انفقت منه. فاتق الله مما ائتمنتك عليه واسترعيتك حفظه (ص ١٣٦). اجاب ابن عباس «لعمري ان حقي من بيت المال لأعظم ما اخذت منه. ثم اتهم الامام علي «بسفك دماء المسلمين لأجل الملك وليس لأجل الله».

ثم يقول الدكتور طه حسين (ص ١٣٩) ان ابن عباس لم يخرج من البصرة فارغ اليدين كما دخلها حين ولي عليها، انما خرج وقد ملأ يديه بما كان في بيت المال مما ينقل وهو يعلم أنه ليس له في هذا المال حق والذي يقدره المؤرخون بستة ملايين درهم، «وانه لم يكد يستقر بمكة حتى أقبل على شيء من الترف واشترى ثلاث جواري مولدات حور بثلاثة آلاف دينار. ويستدرك الدكتور طه حسين بقوله «والغريب ان كثيراً من المحدثين اهملوا هذه القصة ولم يشيروا اليها تحرجاً من ذكرها لمكان ابن عباس من النبي ومكانه من الفقه بالدين أعظم من أن يظن به مثل هذا التجاوز للحق والخلاف على الامام» (ص ١٤٢).

يظهر تناقض واضح وكبير بين ما كتبه العالم الدكتور طه حسين وبين ما قاله بعض المؤرخين، اذ معظمهم قالوا ان ابن عباس ترك البصرة بعد اغتيال الامام علي واستقر في الطائف حيث أسس مدرسة لتعليم الفقه وعلوم الدين وانه كان يعيش حياة تقشف وزهد. اما الدكتور طه حسين، الذي استند في روايته الى رسائل تبادلها الامام علي وابن عباس، يقول ان ابن عباس، خلال حياة الامام علي، استولى على اموال بيت مال البصرة وسار الى مكة حيث عاش حياة ترف ورفاهية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في الليلة نفسها التي قتل فيها الامام علي عام ٤٠هـ»[٢] على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم.

استدعى الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ) علي بن عبدالله بن العباس الى الشام واقطعه قرية في البلقاء في شرق الأردن اسمها «الحميمة» وكان هدف الأمويين من ذلك، جعل بني العباس تحت رقابتهم بالشام لشكهم في نواياهم وخوفهم من موالاة بعض المسلمين لآل البيت اذ كان الأمويون يعتبرون بني العباس هاشميين وآل البيت من بني هاشم.

توفي علي بن عبدالله بن العباس في قرية «الحميمة» في البلقاء عام ١١٨هـ وترك ابناً، اسمه محمد، الذي اتصف بالشجاعة والطموح فنظّم الدعوة تنظيماً سرياً وأرسل الدعاة، وكانوا سبعين داعياً واثني عشر نقيباً، الى الجهات الملائمة لهذه الدعوة، واهمها خراسان حيث كان التذمر من أعمال الأمويين على أشده.

يقول بعض المؤرخين أن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية، وهو ابن علي بن أبي طالب من زوجته خولة بنت قيس الحنفي، قدم الى الحميمة، قبل وفاته بمدة قصيرة، وتنازل عن حقه بالخلافة الى محمد بن علي وسلّم له زمام الدعوة الكيسانية والحق في الخلافة الاّ ان الكثيرين من المؤرخين يعتبرون هذه الرواية مختلقة ولا يعترفون بصحتها.

كانت الدعوة تنشر باسم «الرضى من آل محمد» التي كانت تعني أي فردٍ من آل محمد، وكان الهدف من ذلك التمويه على الشيعة واستقطابا لمساندتهم.

توفي محمد بن علي بن عبدالله عام ١٢٥هـ في «الحميمة» وخلفه ابنه ابراهيم الذي كان على صلة ومعرفة بمولى فارسي اسمه عبد الرحمن بهزدان وكنيته أبو مسلم الخراساني، فأرسله داعياً الى خراسان عام ١٢٩هـ حيث تمكن في وقت قصير من ان يسيطر على الامارة بمساعدة اتباعه من موالي الفرس وجماعة اليمينية. ثم

---

(٢) كتاب في التاريخ العباسي والفاطمي، الدكتور احمد مختار العبادي، ص ١٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استولى على مرو، عاصمة خراسان، عام ١٣١هـ حيث اضطر واليها، نصر بن سيّار، ان يفر الى العراق ولكنه مات في الطريق في مدينة الري عام ١٣١هـ(*).

اتجهت جيوش ابو مسلم الخراساني نحو العراق بقيادة قحطبة بن شبيب وفي مسيرها اتت الكوفة حيث استسلم الوالي الامويّ محمد بن خالد بن عبدالله القسري، وهنا ظهر العبّاس واعلن إمامته فبايعه الناس بالخلافة في شهر ربيع أول عام ١٣٢هـ.

لم يبق امام العباسيين الاهزيمة وتحطيم الجيش الأموي، فأرسل أبو العباس عمه عبدالله بن علي يرافقه أبو مسلم الخراساني على رأس جيش، معظم جنده من اهل خراسان الفرس، فكانت معركة الزاب في شهر جمادى الآخرة عام ١٣٢هـ. حيث انتصر الجيش العباسي وفر الخليفة الأموي مروان بن محمد طالباً مصر للاعتصام بها، ولكن الجيش العباسي لحقه في بلدة «بوصير» حيث قتله، وذلك في اواخر عام ١٣٢هـ. وبذلك انتهت الدولة الأموية.

كما قلنا سابقاً، ان العهد العباسي، خصوصاً في بلاد الشام، هو الاهم في هذه الدراسة لأن خلاله نشأت الدعوة التوحيدية الدرزية في مصر ثم انتقلت الى بلاد الشام في اوائل القرن الخامس هجري.

اكرر القول: إنَّ هذه الدراسة عن المدارس الفكرية والسياسية، التي قد تكون أثرت على نشوء وانتشار دعوة التوحيد، وربما على غيرها من الدعوات العقائدية التي انتشرت في ذلك الزمن، كالاسماعيلية والقرمطية وغيرهما، هي دراسة محض تاريخية لا علاقة لها بالمذاهب الدينية، وأخص بالذكر، المذهب التوحيدي الدرزي أو المعتقدات الدرزية التي يحيطها مشايخ الأجاويد الموحدين بالسرية التامة وهم القيمون عليها.

ان هذه الدراسة التاريخية تبحث في حوادث وقعت في ذلك الزمن سجلتها وأفاضت بالكتابة عنها كتب التاريخ الاسلامية، وغير الاسلامية، اذ تناولتها

(*) اضطهاد الوالي زياد بن ابيه ومن بعده ابنه عبيد الله بن زياد للعلويين في الكوفة والبصرة وطردهم الى خراسان جعل منهم قوة انضمت الى ابي مسلم الخراساني.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالتفصيل ودققت في صحتها وكتب عنها مجلدات عديدة مستشرقون من الملل كافةً باسهاب وشرح كامل، وأصبحت كتبهم في متناول كل من يرغب في الاطلاع على هذا الموضوع الذي يتناول حقبة من الزمن معروفة من التاريخ الاسلامي.

كما هو معروف ومدوّن في كتب التاريخ، ان دعوة التوحيد نشأت في مصر في عهد الخليفة الفاطمي الامام أبو علي المنصور الحاكم بأمر الله (٣٧٥ = ٤١١ هـ) ثم انتقلت الى بلاد الشام حيث كانت في ذلك الزمن دول وقبائل عديدة تتصارع على النفوذ السياسي والسيطرة الاقتصادية على مرافق الحياة.

كانت الحياة السياسية مضطربة في بلاد الشام لأسباب عديدة في مقدمتها ضعف الخلافة العباسية والفساد المستشري في الدولة وسيطرة الفرس والأتراك والجيش وحتى الجواري خصوصاً «القهرمانات»[٣] على الخلفاء، فأصبح منصب الخلافة رهناً بتسلط الغرباء على خلفاء لا هم لهم الاّ اللهو والمجون.

انذاك انقسمت الدولة العباسية الى مناطق نفوذ ومقاطعات تخضع لحكم الغرباء، كبني بويه والسلجوقين الأتراك، والسامانيين الفرس من خراسان، والقرامطة في الاحساء، والحمدانيين في شمال بلاد الشام والفاطميين في شمال افريقيا ومصر.

بغداد ظلت تحت حكم الخليفة العباسي الذي كان خاضعاً لتحكّم الغرباء من فرس وأتراك، فأصبحت الاحاطة بأوضاع تلك الحقبة التاريخية تستوجب دراسة وضع كل دولة، قبيلة أو فئة منفردة ثم علاقاتها مع الدول الأخرى.

ان العودة الى هذه الخلفية التاريخية والى تياراتها الفكرية والسياسية يساعد على تكوين صورة واضحة وشاملة عن التيارات والأوضاع التي نشأت في ظلها عقيدة التوحيد الدرزية.

هذه الدراسة المختصرة لا تتسع طبعاً لتدوين كل ما حدث تاريخياً او فكرياً في ذلك العصر، فهي تقتصر فقط على موضوعها، أي المدارس الفكرية التي أثرت على عقيدة التوحيد الدرزية.

---

(٣) القهرمانه هي المسؤولة عن الجواري.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفاطميون في بلاد الشام

قبل أن نخوض في تاريخ الفاطميين في بلاد الشام، من المناسب أن نشرح، ولو باقتضاب، نشوء الدولة الفاطمية كي يكون لدينا صورة، ولو كانت مختصرة، عن العوامل التي تسببت في خلق هذه الدولة التي كانت من اقوى الدول الاسلامية في ذلك الوقت وأول دولة شيعية في تاريخ الاسلام.

الفترة بين وفاة الامام جعفر الصادق وقيام الدولة الفاطمية عرفت بدور السّتْر، لأن الائمة الاسماعيلية، اتخذوا السّتْر خوفاً من اضطهاد وبطش العباسيين. ان دور السّتْر يبدأ بالامام محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق، وينتهي بمبايعة الامام عبيدالله المهدي اميراً للمؤمنين في مدينة سجلماسة عام ٢٩٦ هجري.

بعد أن أعلن عبيدالله المهدي عن امامته، أخرج بذلك الامامة من السرية الى العلنية وأنهى دور السّتْر المعروف ولم يعد هناك من مبرر لاخفاء أسماء الأئمة وانتظار المهدي القائد الروحي الذي يتولى تأمين الاستقرار ونشر العدالة، فهرعت الناس لاعتناق الدعوة الاسماعيلية.

حصر عبيدالله المهدي الخلافة بالفاطميين، أي بنسل فاطمة الزهراء ابنة الرسول الكريم وزوجة علي بن أبي طالب، وانتقى هذا الاسم، لربط اسم الدولة الجديدة باسم مرغوب فيه ومحبب لقلوب الناس في المغرب، وفي الوقت نفسه، لا يشمل حق الخلافة جميع أبناء علي بن أبي طالب، وكان عددهم عند وفاته أربعة وعشرين ولداً، قيل واحداً وثلاثين. منذ ذلك الحين، اقتصرت الخلافة على ابناء فاطمة وأحفادها فلقبت الدعوة بالخلافة الفاطمية نسبة اليها. اما الاسماعيلية، فبقيت الاسم الديني للذين يعتنقون المعتقدات الاسماعيلية، وهذا اللقب عاد للظهور بعد انهيار الدولة الفاطمية.

بدأت الدعوة الاسماعيلية في المغرب عندما أرسل الامام جعفر الصادق الداعيين، أبا سفيان والحلواني الى المغرب، اللّذين أخذا يدعوان الناس لطاعة آل البيت.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم أتى الداعي عبدالله الحسين بن احمد بن زكريا، المعروف باسم أبو عبدالله الشيعي الى المغرب من الحجاز مع رجال من قبيلة كتامة، كان التقاهم في مكة في موسم الحج، فأعجبوا بعلمه وسعة اطلاعه على علوم الدين، فدعوه الى بلادهم كي يعلمهم المذهب الاسماعيلي.

أبو عبدالله الشيعي أصله من الكوفة، ذهب الى اليمن بطلب من الامام المستور الحسين بن احمد بن عبدالله الملقب بالاهوازي (توفي عام ٢٨٩هـ)، حيث التحق بالداعي الشيعي، ابن حوشب الذي شجعه على الذهاب الى المغرب ليكمل دعوة أبي سفيان والحلواني.

تمكن أبو عبدالله الشيعي من استقطاب قبيلة كتامة، وكانت أكبر قبيلة بربرية، فجعل منهم جيشاً كبيراً تمكن بواسطته من القضاء على دولة الاغالبة (١٨٤ - ٢٦٦هـ) الذين كانوا يدينون بالولاء للخلافة العباسية وذلك عام ٢٦٦هـ. ثم على الدولة الرستمية (١٤٤ - ١٩٦هـ) وهي دولة من الخوارج الاباضية[٤] وذلك عام ١٩٦هـ ثم على الدولة المدرارية وهي دولة من الخوارج الاصفرية[٥] ولكن هذه الدولة بقيت، ولو ضعيفة، مستقلة الى أن قضى عليها القائد جوهر الصقلبي عام ٣٤٩هـ . ثم دولة الادارسة التي كانت شيعية أسسها ادريس بن عبدالله الذي يرجع نسبه الى الحسن بن علي بن أبي طالب.

أرسل أبو عبدالله الشيعي الى الامام عبيدالله المهدي، الذي كان يدعو باسمه وانه هو المهدي المنتظر، وكان متخفياً في «سلمية»، خوفاً من العباسيين، وكذلك القرامطة، فأتى عبيدالله المهدي المغرب عن طريق فلسطين ومصر، وعند وصوله الى مدينة سجلماسة، سجنه واليها، «اليسع بن مدرار»، طلباً للفدية، حتى احتلها أبو عبدالله الشيعي وأطلق سراحه ونادى به أميراً للمؤمنين والمهدي المنتظر.

جرّب أبو عبدالله الشيعي الاستمرار في ادارة الدولة والاشتراك في الحكم، ولكن عبيدالله المهدي كان يريد الاستئثار بالسلطة، فاتهم أبا عبدالله بالدعوة للعصيان عليه بمساعدة بني كتامة، فامر بقتله مع أخيه أبي العباس وانفرد بالحكم.

---

(٤) نسبة الى عبدالله بن يحيى الاباضي من بني مرة بن عبيد بن تميم.

(٥) نسبة الى زياد بْن الاصفر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد موت أمير المؤمنين عبيدالله المهدي عام ٣٢٢هـ انتقلت الخلافة الى ابنه القائم بأمر الله (٣٢٢ - ٣٣٤هـ) وعند وفاته انتقلت الى ولده المنصور بالله (٣٣٤ - ٣٤١هـ).

خلال حكم المنصور بالله قامت ثورة أبو يزيد مخلد بن كيداد من قبيلة زناته البربرية وكانت خطراً حقيقيا كادت تقضي على الخلافة الفاطمية الناشئة ولكن المنصور بالله تمكن من القضاء على هذه الثورة.

ثم تولى الخلافة المعز لدين الله وكنيته أبو تميم (٣٤١ - ٣٦٥هـ) فأخضع المغرب للنفوذ الفاطمي وتم توحيده تحت حكمهم.

ان سرد الوقائع التاريخية للعهد الأول الفاطمي، اي من عهد عبيدالله المهدي حتى عهد المنصور بالله، باقتضاب، لأن لا تأثير لهذا العهد على نشوء الدعوة التوحيدية ولهذا اقتضى الاختصار. فهذه الدراسة ليست عن تاريخ الخلافة الفاطمية بل هي محصورة في النزعات والمدارس الفكرية التي سادت في بلاد الشام في وقت النفوذ الفاطمي في ذلك الزمن الذي ابتدأ في عهد الخليفة المعز لدين الله واستمر حتى الحكم الأيوبي.

أما عن الفتح الفاطمي لمصر فيقول الدكتور أحمد مختار العبادي، «سبقت الاشارة الى اهتمام الفاطميين بامتلاك مصر منذ بداية قيام دولتهم بالمغرب، لما تمتاز به من موقع جغرافي فريد في قلب العالم العربي، ليتيح لهم فرصة الاستيلاء على المراكز الاسلامية القديمة، مثل مكة والمدينة ودمشق، بل وبغداد نفسها، حاضرة الخلافة العباسية المعادية لهم»(٦).

أرسل الفاطميون ثلاث حملات لغزو مصر الأولى سنة ٣٠١هـ، والثانية سنة ٣٠٧هـ والثالثة سنة ٣٢٢هـ، واستغرقت كل حملة من هذه الحملات مدة سنتين على الأقل، ولكنها فشلت لأن الخلافة العباسية، في ذلك الوقت، كانت من القوة بحيث تستطيع أن تصد تلك الحملات(٧).

---

(٦) كتاب في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٤٧ .

(٧) كتاب في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٤٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في عهد الخليفة المعز لدين الله كانت المحاولة الرابعة والناجحة فجهّز المعز لدين الله جيشاً من مائة ألف رجل، معظمهم من قبيلة كتامة المغربية، وجعل على رأسه القائد جوهر الصقلبي(٨). وقيل ان تكاليف الجيش بلغت فوق العشرين مليون دينار.

سار الجيش الفاطمي في ١٤ ربيع الأول عام ٣٥٨هـ واستولى على مدينة الاسكندرية حيث قابله وفد من اعيان مصر وسلموا له البلاد من دون مقاومة، الاّ معركة قصيرة مع تجمع اخشيدي(*). كتب جوهر الصقلبي اماناً لأهل مصر وتركهم احراراً على مذاهبهم الدينية. وكان اهل مصر في ذلك الوقت، ثلثين على مذهب السنة وثلثاً نصارى مع بعض اليهود وقلة من الشيعة، اعتنقت المذهب الشيعي خلال ولاية محمد بن أبي بكر الصديق على مصر في عهد علي بن أبي طالب.

كان حلم الخليفة المعز لدين الله احتلال بغداد والقضاء على الخلافة العباسية، أما جوهر الصقلبي ، امير الجيوش، فكان يرى أنه لا بد لتأمين حدود مصر في ناحية الشمال، لمنع خطر البيزنطيين من احتلال بلاد الشام، وجلاء الأخشيد عنها وجعلها، حسب رغبة الخليفة، جسراً تعبره الجيوش الفاطمية لفتح بغداد والقضاء على الخلافة العباسية. كان الخليفة العباسي، في ذلك الوقت، المطيع لله أبو القاسم الفضل ابن المقتدر (٣٣٤ - ٣٦٢هـ).

جهز القائد جوهر الصقلبي جيشاً، جله من الجنود المغاربة، وأرسله لاحتلال بلاد الشام وعلى رأسه القائد جعفر بن فلاح ابن أبي مرزوق الكتامي القائد الفاطمي ومن كبار زعماء قبيلة كتامة.

---

(٨) كان مملوكاً صقليا ولد في صقلية التي كانت تابعة للحكم الفاطمي ثم التحق بخدمة الخليفة المعز لدين الله. عن سيرته أنظر كتاب، صلاح الدين الصفدي. امراء دمشق في الاسلام، ص ٢٤ .

(*) بعد الاسكندرية سار جوهر الصقلبي الى الجيزة. ويقول ابن زولاق: «كتاب الذيل على كتاب الامراء للكنديّ». غداة يوم الثلثاء لسبع عشر خلت من شعبان سنة ٣٥٨ خرج أبو جعفرالحسيني وجعفر بن الفضل الوزير، وسائر الاشراف والقضاة والعلماء والوجوه ووجوه التجار والرعية الى الجيزة، فلما تكامل الناس، أقبل جوهر في عساكره وتقدم الناس وأبو جعفر احمد بن نصر يعرفه بالناس واحداً واحداً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان القائد الكتامي جعفر بن فلاح يرى نفسه أجل من المملوك الصقلبي جوهر، ثم كان الجيش الفاطمي من المغاربة الكتاميين مع أقلية من الصقالبة، فلهذا كان جوهر يخافه ولا يثق بولائه، ولكي يبعده عن مصر وعن الخليفة المعز لدين الله أرسله لاحتلال بلاد الشام.

كانت المعركة الأولى بين الجيش الأخشيدي والجيش الفاطمي في مدينة الرملة في شهر ذي الحجة عام ٣٥٩هـ فانهزم الأخشيد ووقع قائدهم الحسن بن أخشيد اسيراً، فبعث به جعفر بن فلاح الى مصر ومنها أرسل الى المغرب حيث بقي فيها حتى مات.

بعد احتلال الرملة سار جعفر بن فلاح الى طبريّة حيث استلمها من دون قتال من واليها «ملهم» الذي اقام الخطبة للخليفة المعز لدين الله.

بعد احتلال طبرية توجه جعفر بن فلاح الى دمشق، ولكن قبل تركه طبرية، اتاه وفد من اعيان دمشق، منهم عقيل بن الحسن بن الحسين العلوي، وابن ابي يعلى العباسي يطلبون منه الأمان على أرواح أهل دمشق وعدم نهب وتدمير المنازل على أن يسلموه المدينة من دون قتال. رفض جعفر طلبهم واساء معاملتهم، فعادوا الى دمشق خائبين، وعندما علم الأهالي بذلك قرّروا المقاومة.

وصل جعفر بن الفلاح وجيشه الى دمشق فدارت رحى الحرب بينهم وبين أهالي المدينة الذين كانوا بقيادة محمد بن عصودا وابن يعلى العباسي. انهزم اهالي دمشق ولكن تمكنوا من قتل عدد كبير من الجنود المغاربة.

احتل جعفر بن فلاح دمشق وترك جنوده المغاربة يسلبون الأهالي وينهبون بيوتهم. ومما زاد في حدة الخلاف وسوء المعاملة، كان الخلاف المذهبي بين الطرفين، فالدمشقيون كانوا على مذهب السنة والمغاربة من الشيعة الاسماعيلية.

عندما كثر الشغب والتعدي وكادت الفوضى أن تصير عامة، قرر جعفر ان الأمن لن يستتب الاّ بالقضاء على زعماء الفتنة فأعدم جماعة من زعماء دمشق فأدى سلوكه الغاشم هذا الى ازدياد نقمة الشعب وفرار عدد من زعمائه، فقد فر ظالم بن موهوب العقيلي ومحمد ابن عصودا الى الاحساء حيث اوغرا صدور القرامطة على الفاطميين وأثارا حماستهم لقتالهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استطاع جعفر بن فلاح أن يقيم الخطبة في دمشق للخليفة المعز لدين الله الفاطمي الاسماعيلي، الخطبة لأمام اسماعيلي شيعي على شعب يدين بالمذهب السني، ولكنّه لم يتمكن من الاستيلاء على جميع بلاد الشام. فكان الحمدانيون في حلب يناوئون الفاطميين من حين الى آخر ويحتمون بالبيزنطيين، ثم فشلت حملته على انطاكية بقيادة غلامه «فتوح» ثم ظهر الخطر القرمطي، الذي استنفرهم ظالم بن موهوب العقيلي.

في عام ٣٦٠هـ قدم القائد القرمطي حسن الأعصم الى دمشق مع حلفائه الحمدانيين وبعض الأخشيدية وجمع كبير من جند العقيليين بقيادة ظالم بن موهوب العقيلي وجرت معركة في مكان يقال له «الدكة» فانهزم جعفر بن فلاح وتشتت جيشه بعد أن قتل عدد كبير من جنده ثم تمكن القرامطة من قتله في شهر ذي القعدة من العام نفسه.

استولى القرامطة على دمشق وخطبوا للخليفة العباسي المطيع لله ابو القاسم الفضل بن المقتدر (٣٣٤ - ٣٦٣هـ) ومن دمشق سار حسن الأعصم القرمطي الى الرملة.

«احتل حسن الأعصم الرملة بعد قتال شديد واستولى على جميع ما فيها من الثروة فامتلأت أيدي القرامطة من المال والسلاح وغيره».[٩] ثم اتجه الى مصر بعد أن ترك والياً على الرملة من قبله وأرسل الى يافا جيشاً بقيادة القائد القرمطي «المنجا»[١٠] والزعيم ظالم بن موهوب العقيلي، اللذين اختلفا على حكم المدينة وعلى اقتسام الجزية التي جمعاها من الأهالي.

سار القائد حسن الأعصم الى مصر مع حلفائه الأخشيد والعقيليين والحمدانيين في عام ٣٦١هـ فاحتل مدينة القلزم ثم عين شمس ثم اتجه الى القاهرة.

ان محاولة حسن الأعصم احتلال مصر والمعارك التي جرت، من أجل ذلك، ثم محاولته الثانية عام ٣٦٢هـ مع حلفائه بني الجرّاح ستبحث في فصل «القرامطة» الذي يلي هذا الفصل عن الفاطميين.

---

(٩) كتاب تاريخ دمشق، ابن القلانسي، ص ٣ .

(١٠) هو القائد أبو الهيجا عبدالله بن علي المنجا احد الأصحاب المقرّبين من حسن الاعصم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان الفضل الأكبر لانتصار الفاطميين هو لقيادة جوهر الصقلبي الحازمة وبراعته كقائد عسكري وسياسة الوزير يعقوب بن يوسف بن كلس الحكيمة[١١].

على الرغم من نجاح الفاطميين في استرجاع حكمهم في بلاد الشام، جابهوا انتفاضات كثيرة وخصوصاً في دمشق، حيث ثار الأهالي على الجنود المغاربة الذين كانوا بقيادة أبي محمود بن فلاح الكتامي فكانت فتنة قتل فيها الكثيرون وحرقت بيوت وشوارع حتى المساجد[١٢].

انتهت الفتنة في دمشق باقالة الوالي ظالم بن موهوب العقيلي واستلام الحكم من القائد جيش بن الصمصامة، ابن أخت القائد، الذي كان سبب الفتنة، أبي محمود بن فلاح الكتامي.

اكرر ما قلناه سابقاً، ان اختلاف المذاهب في دمشق بين الأهالي، وكانوا على مذهب السنة، والفاطميين الاسماعيليين الشيعة، وتعديات الجنود المغاربة على الأهالي، وعدم طاعتهم لقادتهم، وحتى اختلاف اللهجة المغربية، التي تطغى عليها اللهجة البربرية، عن لهجة الدمشقيين العربية، جعل الدمشقيين ينظرون اليهم كجيش غريب محتل لبلدهم ويسعون للخلاص منه.

وفي عام ٣٦٤هـ قدم القائد التركي العباسي أبو منصور أفتكين وكان معه ثلاثمائة جندي من الأتراك. ترك أفتكين بغداد وكان قائد الفرقة التركية في الجيش العباسي، بعد الفتنة التي حصلت بين الديلم والترك واستلام الخليفة الطائع لله أبو الفضل (٣٦٢ - ٣٨١هـ) الذي كان يميل الى الديلم ولا يثق بافتكين، ممّا اضطر أن يترك بغداد الى بلاد الشام ولكنه بقي على ولائه للعباسيين.

وصل افتكين الى حمص ومنها سار الى دمشق فخرج اليه اعيانها وسألوه الاقامة عندهم، ودفع أذية وتعدي المغاربة عنهم فقبل ذلك وأحسن السيرة وقمع

---

(١١) يعقوب بن كلس يهودي من العراق اتى مصر والتحق بكافور الأخشيدي حيث أعلن اسلامه. ثم ذهب الى المغرب فالتحق بالمعزّ لدين الله ورافق جيش جوهر الصقلبي لمصر حيث وضع أساس النظام الاداري للدولة الفاطمية وتسلم الوزارة مرات عدة وتوفي في أيام الخليفة العزيز بالله.

(١٢) كتاب تاريخ دمشق لابن القلانسي من ص ١٠ الى ص ٢٠ تفصيل كامل عن هذه الفتنة المدمرة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفساد وهاجم المغاربة وقتل الكثير منهم فاستتب الأمن وسادت الطمأنينة في المدينة وخطب للخليفة الطائع العباسي في المساجد وبذلك قضى على النفوذ الفاطمي في دمشق وذلك عام ٣٦٤هـ.

سار افتكين الى بعلبك لتحجيم نفوذ ظالم موهوب العقيلي الذي فر الى صيدا، ولكن في ذلك الوقت، كان الاجتياح البيزنطي بقيادة الامبراطور «يوحنا تريكس» الذي هدد دمشق. وبما أن افتكين كان على خلاف مع الفاطميين لا يستطيع طلب المساعدة منهم، فاتفق مع البيزنطيين على أن يدفع لهم ثلاثين ألف دينار سنوياً، وهكذا عدل البيزنطيون عن احتلال دمشق.

ويقول المؤرخ ابن ايبك الدواداري «وأراد افتكين احتلال بلاد الشام بأجمعها وجعلها تحت نفوذه، فسار الى صيدا حيث اصطدم مع واليها ابن الشيخ وظالم بن موهوب العقيلي، فاستولى عليها بعد معركة قتل فيها عدد كبير من الجند والأهالي، ثم اتجه الى عكا وحاصرها ولكنه لم يتمكن من دخولها ثم احتل مدينة طبرية»(١٣).

وخاف الخليفة المعز لدين الله من امتداد نفوذ افتكين وتقريه من البيزنطين، فجهز جيشاً ليسير به الى بلاد الشام ولكنه مات عام ٣٦٥هـ وخلفه ابنه ابو المنصور العزيز بالله(*) الذي كتب الى افتكين يطلب الاجتماع به واعداً بحسن المعاملة كي يمنع سفك دماء المسلمين فكان جواب افتكين. «هذا بلد أخذته بالسيف وما ادين فيه لأحد بطاعة ولا اقبل منه امراً»(١٤).

أرسل الخليفة العزيز بالله جيشاً بقيادة جوهر الصقلبي، بعد أن أعاده الى منصبه أميراً للجيوش، فوصل دمشق في ذي القعدة عام ٣٦٥ وحاصرها، فأرسل افتكين

---

(١٣) كتاب الدرة المضيئة في اخبار الدولة الفاطمية، ص ١٧٦ .

(*) ولد العزيز بالله في مدينة المنصورية في تونس وتسلم الخلافة عام ٣٦٥هـ وتوفي في بلبيس عام ٣٨٦هـ.

(١٤) كتاب تاريخ دمشق. ابن القلانسي ص ٢٩ . وكتاب تكملة تاريخ الطبري، محمد الهمذاني ص ٢٢٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يستدعي القرمطي محمد حسن الجنابي المعروف «بالحسن الأعصم»[١٥]. فلما علم جوهر بذلك رفع الحصار عن دمشق وذهب الى الرملة حيث اشتبك مع جيش افتكين وجيش القرامطة في شهر محرم عام ٣٦٧هـ.

انهزم افتكين والتجأ الى المفرج بن دغفل زعيم بني الجرّاح، وجاء به الى الخليفة العزيز بالله الذي عامله معاملة كريمة وأسكنه قصراً في القاهرة مع جميع ما يحتاجه من مال وخدم. وكان قائد الجيش القرمطي جعفر ابن عم الأعصم الذي اجتمع برسول الخليفة العزيز بالله واتفق على أن لا يرجع الى بلاد الشام مقابل عشرين ألف دينار تدفع له سنويا[١٦] وكان ذلك انتهاء حروب القرامطة في بلاد الشام ولم يرجعوا بعد ذلك اليها.

سنلقي نظرة سريعة ومختصرة على بعض الحوادث التي جرت مع الفاطميين في بلاد الشام كي لا نترك فجوة في تاريخهم في تلك البلاد، هذا مع العلم بأن هذه الحوادث لم تؤثر على نشوء وانتشار دعوة التوحيد.

أول حادث مهم كان تسليم مدينة حلب، لأول مرة في تاريخ الفاطميين، الى الخليفة الحاكم بأمر الله بواسطة «فتح» غلام مرتضى الدولة وذلك عام ٤٠٦هـ.

بتسلّم الفاطميين مدينة حلب تحققت أول خطوة لامكانية القضاء على الخلافة العباسية، الذي كان حلم الفاطميين منذ عهد الخليفة المعز لدين الله، لأن حلب تعتبر المدخل الطبيعي للعراق. لم يتحقق هذا الحلم في ذلك الوقت لضعف الجيش الفاطمي.

---

(١٥) توفي الحسن الأعصم عام ٣٦٦ وخلفه ابن عمه جعفر في قيادة القرامطة. حسن الأعصم هو ابن سعيد بن الحسن الجنابي الذي عندما مات عام ٣٥٩هـ تولى ولده الحسن زعامة القرامطة.

(١٦) كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين. الدكتوره أمينة بيطار، ص ٧٧ . يقول محمد بن عبد الملك الهمذاني كتاب تكملة تاريخ الطبري ص ٢٢٨ ان المبلغ كان سبعين ألف دينار.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم كانت مبايعة بني الجرّاح لأبي الفتوح الحسن بن جعفر العلوي والي مكة، بالخلافة وقدومه الى بلاد الشام مع جيش صغير من العلويين عام ٤٠١ هـ. وكان ذلك في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله(*).

أعلن الحسن بن جعفر العلوي خلافته في المسجد في مكة وتوجه مع جيشه من العلويين الى الرملة متقلداً «ذو الفقار» سيف الامام علي بن أبي طالب. أرسل الحاكم بأمر الله جيشاً للقضاء على هذه الانتفاضة العلوية، فحصلت معركة قرب «داروم» وانهزم الجيش الفاطمي وبذلك قوي نفوذ بني الجرّاح في بلاد الشام واشتد عزمهم على مبايعة أبي الفتوح العلوي(**).

لجأ الحاكم بأمر الله الى المال فأرسل الى حسّان ابن الجرّاح مبلغاً كبيراً فتخلى عن أبي الفتوح، الذي كان قد نفد ماله، فرجع الى مكة عام ٤٠٣ هـ وكتب الى الحاكم بأمر الله يطلب العفو والغفران فصفح عنه الحاكم بأمر الله وأرجعه والياً على مكة.

وكان الحلف الثلاثي عام ٤١٥ هـ عندما قسمت بلاد الشام الى ثلاث مناطق. من الرملة الى حدود مصر لبني الجرّاح، دمشق وضواحيها الى بني كلب، وللمرداسيين من حلب الى نهر الفرات. انتشرت الفوضى في بلاد الشام اذ استولى بنو الجرّاح عام ٤١٥ هـ على الرملة، وكانت أكبر مدينة في فلسطين، فأحرقوها بعد نهبها، كما احرقوا ونهبوا قرى عديدة غيرها.

أرسل الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله (٤١١ = ٤٢٧ هـ) عام ٤١٩ هـ جيشاً مؤلفاً من سبعة آلاف فارس، بقيادة القائد التركي انوشتكين الدزبري، لقتال هذا الحلف والقضاء عليه.

(*) كتاب تاريخ دمشق. ابن القلانسي ص ٣٢ الى ص ٣٦ . وكتاب تاريخ الاسماعيلية، عارف تامر ص ١٥٧ الى ص ١٦٢ وكتاب موقف أمراء العرب من الفاطميين. الدكتورة امينة بيطار يعطي وصفاً مفصلاً عن معركة الرملة وما جرى بين افتكين والعزيز بالله.

(**) تلقب الحسن بن جعفر العلوي باسم الخليفة الراشد بالله.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جرت المعركة في مكان في فلسطين يدعى الاقحوانة[١٧] حيث انهزمت فيها جموع العرب وقتل فيها صالح بن مرداس زعيم بني مرداس وولده الأصغر[١٨].

ما يهم الموحدين الدروز من معركة الاقحوانة أنهم اشتركوا فيها مع رجال بني كلب، بقيادة الأمير رافع بن ابي الليل الكلبي[١٩] ثم مقتل عدوهم صالح بن مرداس، الذي اشترك مع والي دمشق عبد الرحيم بن الياس، في اضطهادهم وقتل الكثير منهم.

أما نصر بن صالح بن مرداس، الذي تزعم المرداسيين بعد موت والده في معركة الاقحوانة، فقد هاجم الموحدين عند انتفاضتهم عام ٤٢٣هـ في جبل السمّاق وانطاكية حيث جرت مذابح قُتل فيها الكثيرون من الموحدين الدروز.

قتل نصر بن صالح بن مرداس عام ٤٢٨ في معركة «تل فاس» قرب سلمية عندما فر أخوه ثمال بن صالح الى حلب وتركه، مع قلة من الجند، يحارب الجيش الفاطمي، ويقال ان هذا الجيش كان بقيادة الأمير رافع بن أبي الليل الكلبي(*).

في عام ٤٥٠هـ في عهد الخليفة المستنصر بالله، احتل القائد أرسلان البساسيري بمساعدة الفيلسوف الاسماعيلي هبة الله الشيرازي وبني عقيل بغداد وخطب للخليفة المستنصر في مساجدها وسك النقود باسمه. وبهذا الاحتلال، الذي لم يدم الاّ سنة واحدة، تحقق ما كان يحلم به جميع الخلفاء الفاطميين وخصوصا المعزّ لدين الله. بما أن هذا الحدث المهم حصل في العراق، وهو خارج عن نطاق هذه الدراسة، فلا فائدة من التعمق في دراسته.

---

(١٧) كتاب تاريخ دمشق. ابن القلانسي ص ١١٨ - ١٢٠ .

(١٨) قيل ان الذي قتل صالح بن مرداس كان طريف من قبيلة فزارة. تاريخ دمشق ابن القلانسي. ص ١١٩ . ويقال أنه الأمير ابن أبي الليل الكلبي. وكذلك قيل أنه القائد الكتامي جعفر بن كليد الذي كان والي حمص ومساعد الدزبري.

(١٩) الأمير رافع بن أبي الليل الكلبي هو ابن عم أمير قبيلة بني كلب سنان بن عليان.

(*) هذه الحوادث سيأتي ذكرها مرة أخرى في الفصل عن امارة المرداسيين والفصل عن قبيلة بني كلب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من العوامل التي ساعدت على فشل الفاطميين، زيادةً على سوء تصرف قادتهم وجنودهم المغاربة، كان فشلهم في تحقيق دعوتهم بعودة المهدي المنتظر لنشر الخير والعدل بين الناس والقضاء على الظلم والفساد. ان هذه الوعود كانت أساس الدعوة الفاطمية التي بثها الدعاة الاسماعيليّون وروج لها الخلفاء الفاطميون الذين ارتكزت سياستهم على قاعدة من العلاقات العامة نشرها الألوف من الدعاة في العالم الاسلامي وهؤلاء الدعاة درسوا العقائد الاسماعيلية في «دار الحكمة» في القاهرة ويقولون إن في عهد الداعي الكبير احمد حميد الدين الكرماني، وكان مديراً لدار الحكمة حيث تدرب الدعاة، كان لديه أكثر من ألف وأربعماية داع منتشرين في البلاد الاسلامية يبثون الدعوة الاسماعيلية ومنها عودة المهدي المنتظر.

علاقة الموحدين الدروز بالفاطميين علاقة مهمة جداً، لأن في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله انطلقت الدعوة التوحيدية وفي عهد ابنه الظاهر لاعزار دين الله اضطهدت في مصر وانتقلت الى بلاد الشام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بنو كلب

بنو عمرو بن لؤي بن رهم بن معاوية بن أسلم بن أحمس بن الغوث من قضاعة[1]. بنو قضاعة قبيلة من حمَير من القحطانية[2].

تقول الدكتورة أمينة بيطار. «بنو كلب» من قضاعة، وهم بنو كلب بن وبرة. أما بنو بحدل فبطن من بني كلب بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحافي من قضاعة. وكانت رئاسة بني كلب في الاسلام لبني بحدل[3].

قلنا سابقاً، انحدر العرب من جدين عظيمين هما: قحطان الذي عاش في جنوب شبه الجزيرة العربية، وعدنان الذي عاش في شمالها. الحزبان اللذان تحاربا في مرج راهط عام ٦٤هـ كانا ابناء الجنوب اليمانيين، وعلى رأسهم بنو كلب، وفي الجانب المقابل، ابناء الشمال القيسيين وجلهم من بني كلاب.

نزل بنو كلب بادية الشام وحلب وتدمر وقراها، وكانوا يعتبرون من انصاف أهل البادية، يعيشون من تربية الماشية والزراعة، كما انهم ساعدوا على ازدهار التجارة في بلاد الشام، حتى قيل إنهم ورثوا المركز التجاري الذي كان للغساسنة.

ومما يلفت النظر من الناحية الدرزية، «ان بني كلب كانوا من بني قضاعة وهم مؤلفون من قبائل شتى بينها بهراء وتنوخ»[4]. ان معظم العائلات الدرزية من سلالة

---

(١) كتاب نهاية الارب في معرفة انساب العرب ابو العباس القلقشندي ص ٤٠٨ .

(٢) كتاب نهاية الارب في معرفة انساب العرب ابو العباس القلقشندي ص ٤٠٠ .

(٣) كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين ص ١٤٣ .

(٤) قحطان هو ابن عابر، وهو هود. وقد تفرع عنه سبأ بن يشجب بن يعرب وحمْير وكهلان ومنهم بطون كثيرة خرجت من اليمن وانتشرت في بلاد العرب، وأشهر بطون كهلان هم الازد وهم أولاد الازد بن الغوث بن مالك بن زيد بن كهلان، تفرقوا بعد خراب سد مأرب ومنهم الأوس والخزرج الذين سكنوا المدينة (يثرب) ومن الازد الغساسنة الذين سكنوا بلاد الشام. من كهلان قبيلة مذحج ومن مذحج قبيلة عنس وهي قبيلة الصحابي عمّار بن ياسر. كتاب عشائر الشام. وصفي زكريا. مجلد ١ ص ٧٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التنوخيين، ثم ان المقداد بن الأسود الذي يحترمه، الدروز لشجاعته وفروسيته والذي قال عنه عمرو بن العاص «يقوم مقام ألف رجل»[٥]، كان من قبيلة البهراء ومن الاوائل الذين شايعوا للامام علي بن أبي طالب. في معركة بدر لم يكن لدى المسلمين الا فرس واحدة اسمها «سبحة» وكانت للمقداد بن الأسود.

كان القسم الأعظم من بني كلب وهم من حلف تنوخ، يعتنق النصرانية، وذلك لأنهم كانوا يقيمون في بلاد الشام في مجتمع نصراني. ولكن عند قدوم القائد أبو عبيدة عامر ابن الجرّاح الى ضواحي حلب حيث مضارب بني كلب، «أرسل هؤلاء الى خالد بن الوليد يستعطفونه ويبدون له انهم، انما ذهبوا الى البيزنطيين مرغمين ودون ارادتهم ولم يكن من رأيهم قتال المسلمين. فاستجاب خالد لندائهم وقبل منهم ما عرضوا عليه وتركهم»[٦]. أسلم معظم بني كلب على يد خالد بن الوليد وانضموا اليه وقاتلوا في صفوفه.

قبل قيام الخلافة الأموية تزوج الخليفة الراشد الثالث، عثمان بن عفان، بنائلة بنت القرافصة بن الاحوض الكلبي[٧]. ثم رأى معاوية بن أبي سفيان أن يتقرب من بني كلب، وهي من أكبر القبائل العربية في بلاد الشام، فتزوج ميسون بنت بحدل[٥] زعيم بني كلب، فولدت له يزيد، فأصبح بنو كلب اخوال ولي العهد وحماة طبيعيين له فقويت شوكتهم.

---

(٥) كتاب تاريخ اليعقوبي. احمد بن يعقوب اليعقوبي مجلد ١ ص ١٤٨ .

(٦) كتاب خطط الشام. محمد كرد علي ص ٦٧ .

(٧) كتاب انساب الاشراف. احمد بن يحيى بن جابر البلاذري مجلد ٥ ص ١٢ .

(٥) ميسون بنت بحدل صاحبة الشعر المعروف:

ولبس عباءةٍ وتقرّعيني ... احب الي من لبس الشفوف
وبيتٍ تعصف الارياح فيه ... احب الي من قصر منيف
واكل كسيرة من كسر بيتي ... احب الي من اكل الرغيف
واصوات الرياح بكل فج ... احب الي من نقر الدّفوف
وخرق من بني عمي نحيف ... احب الي من علج عنيف

ولما سمع معاوية هذا الشعر قال «ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتني علجاً عنيفاً، مخطوطة للامام أبو محمد القاسم بن علي الحريري – درة الخواص. ورقة ٣٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ان زواج معاوية بن أبي سفيان من بني كلب، وتفضيله لهم على اشراف قريش وأهل بيته خاصة، جعل لهم نفوذاً كبيراً مما أثار حقد قبيلة كلاب القيسية عليهم وامتعاض بني ثقيف، حلفاء بني امية حتى قبل الاسلام، الذين شعروا بخطر تقارب السلطة لبني كلب على نفوذهم ومصالحهم.

عندما قام عبدالله بن الزبير بن العوام بدعوته للخلافة انضم القيسيون اليه بقيادة الضحاك بن قيس، وكانت علاقة اليمنيين، بني كلب، بالسلطة في ذلك الوقت، قد اعتراها نفور، حتى عداء، لأنهم نادوا بالقدرية، التي كانت أمية تحاربها، لأنها تقول بحرية الانسان في أعماله وان الخلافة حق للمسلمين يختارون لها أقدرهم عليها وأصلحهم لها. ذلك يعني تجريد الأمويين من حق الخلافة الوراثي وانتخاب غيرهم. ثم هاجموا سياسة أمية المالية بالتصرف بأموال المسلمين حسب أهوائهم ومصالحهم التي لا علاقة لها بالاسلام. أدى ذلك الى نفور كبير بين بني كلب اليمانيين والأمويين لدرجة أن أهدر الخلفاء الأمويون دماء من يقول بالقدرية، وذلك يشمل بني كلب.

بعد موت يزيد بن معاوية عام ٦٤هـ تولى الخلافة ابنه معاوية الثاني ولكنه تنحى عنها بعد أربعين يوماً واعتكف في بيته حتى مات.

عند موت معاوية الثاني تقدم للخلافة مروان بن الحكم الذي كان يطمع بها منذ زمن الخليفة عثمان بن عفان. عارض أول الأمر ترشيح مروان بن الحكم بنو كلب فكان موقفهم مؤيداً لفكرة ابقاء الخلافة في نسل يزيد، اي في ابنه خالد، وهو من نسل ابنتهم ميسون، والدة يزيد، وليس تحويلها الى المروانيين.

برز في دمشق الضّحاك بن قيس الفهري واستطاع استلام قيادة الناس وكان يميل الى ابن الزبير الذي اعتبره أحق بالخلافة من مروان بن الحكم.

تأزم الوضع في دمشق فاقترح المعارضون لابن الزبير عقد مؤتمر في مكان يدعى «الجابية» في حوران.

تمكن مروان بن الحكم من أخذ البيعة لنفسه في مؤتمر الجابية بعد أن اتفق مع حسّان بن مالك بن بحدل، زعيم بني كلب، على أن تكون الخلافة لمروان بن الحكم ولكن يتولى بعده خالد بن يزيد بن معاوية فترجع الخلافة الى السفيانيين.

وتكلم حسّان بن مالك بن بحدل زعيم بني كلب فقال: «رأي لرأيكم، انما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كرهت أن تعدل الخلافة الى ابن الزبير وتخرج من هذا البيت»[٨].

عندما اجتمعت كلمة المؤتمرين في الجابية على مروان بن الحكم، جرت معركة «مرج راهط» عام ٦٤هـ التي استمرت أياماً عدّة واسفرت عن نصر مروان بن الحكم ومن معه، وعن مقتل بعض زعماء بني كلاب القيسيين، منهم الضّحاك بن قيس الفهري.

والمعروف أن من أهداف الفاطميين كان احتلال بلاد الشام وجعلها ممراً الى بغداد للقضاء على الخلافة العباسية، ولكن نجاحهم اقتصر على جنوب بلاد الشام، في فترات متقطعة، واخفقوا في الشمال، اولاً، لبعد عاصمتهم القاهرة عن حلب، ثم ضعف الخلافة الفاطمية وامتداد سلطتها على مسافات شاسعة ومقاومة البيزنطيين للوجود الفاطمي، مما ساعد في توطيد نفوذ القبائل العربية البدوية في بلاد الشام، التي كانت تملك قوة كبيرة وفعّالة، خصوصاً الفرص التي أتاحتها اليها الأوضاع غير المستقرّة، ثم غياب السلطة المركزية فاستولت على مدن ومناطق أسست فيها أسراً حاكمة بدوية، أو شبه البدوية، كأسر بني طي، كلاب وحمدان ومرداس وكلب.

كان لبني كلب مقاييسهم الخاصة في الاخلاص السياسي؛ فان طبيعتهم البدوية جعلتهم يغترون ببريق المال، فسرعان ما كانوا يتركون نصرة قائد وينضمون الى أخر اذا ما عرض عليهم المال، ولهذا نجدهم ينضمون الى فئة دون أخرى، ليس بتأثير الدين او العنصرية بل بمصالحهم المادية.

كانت علاقة بني كلب بالقرامطة مبهمة ولم تشر اليها المصادر التاريخية الاسلامية الاّ كحوادث عرضية وأخبار متفرقة، ومنها التي وردت في أحد كتب التاريخ الاسلامي. «ان بني كلب والتنوخيين(*) كانوا حلفاء وهم يرجعون الى قضاعة القحطانية وانهم انتقلوا الى الاحساء وتحالفوا مع القرامطة». ويقول محمد عبد الفتاح عليان «وكان أعراب تلك البادية وموالوهم يقومون بنقل المتاجر على ابلهم فيما بين الكوفة ودمشق، ولهذا مال بنو كلب، الذين يسكنون بادية «المسمارة» واعتنقوا مذهب القرامطة»[٩].

---

(٨) كتاب انساب الاشراف. احمد بن يحيى البلاذري. مجلد ٥ ص ١٢٨ .

(*) كان بنو كلب من القبائل التي شكلت الحلف التنوخي.

(٩) رسالة القرامطة ص ٨١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول ابن القلانسي، نقلاً عن سبط الجوزي (مرآة الزمان) «ان حازم بن نبهان القرمطي هو أمير بني كلب»[١٠].

أما محمد كرد علي فيقول «فاما بنو كلب فقد انضموا الى غانم القرمطي، الذي خرج في أيام الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) وقوي امر القرمطي بهم، فوجه الخليفة المقتدر اليهم الحسين بن حمدان بن حمدون فحاربهم[١١].

ما يهمنا كموحدين دروز، هو علاقة بني كلب، الذين نزح بعضهم لاحقاً الى لبنان، بالقرامطة، بالاضافة، ان الذين اعتنقوا العقيدة التوحيدية في جبل السمّاق ووادي التيم كانوا من جماعات القرامطة الذين لم ينزحوا من بلاد الشام بعد معركة الرملة عام ٣٦٧هـ واتخذوا اسم غلاة الاسماعيلية بالنسبة لكره الناس للقرامطة لما اقترفوه من التدمير والقتل في حروبهم في بلاد الشام ثم اتهامهم بالكفر لنسخهم الفروض الاسلامية وهجومهم على مكة.

قدم جماعة من بني كلب الى لبنان وجلبوا معهم العصبية اليمنية وبهذا يقول الشاعر أبو الفتح منصور المعروف بالبيني.

سقى الله قوماً حول لبنان مثلما ترشفت فيه من رضاب ظبائه
قبائل من كلب اذا نزلت به فقد نزلت فيه نجوم سمائه
نزلوا على الوادي الذي حرّ مهجتي وحرّ الحشا شوقاً الى برد مائه
ترى كل عين فيه ما في ضميرها كذلك لون الماء لون إنائه[١٢]

بعد سقوط خلافة بني امية عام ١٣٢هـ وقيام الخلافة العباسية، التي اعتمدت على العناصر الاسلامية واهملت العرب، ضعفت القبائل العربية في بلاد الشام وزال نفوذها، ومن هؤلاء بنو كلب الذين زال عنهم ما كان يتمتعون به من السلطة والنفوذ في زمن بني أمية، فأصبحت وظائفهم حراسة طرق القوافل في الصحراء وتأمين سلامة طرق التجارة بين بلاد الشام والعراق والحجاز.

---

(١٠) كتاب تاريخ دمشق. حاشية، ص ٩٧ .

(١١) كتاب خطط الشام، ص ٢١٠ .

(١٢) كتاب اخبار مصر في سنتي ٤١٤ و ٤١٥ . المسبحي ص، ٦٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استعاد بنو كلب مكانتهم ونفوذهم بعد الاحتلال الفاطمي اذ كانت الدولة الفاطمية تخشى وقوفهم الى جانب أعدائها، وخصوصاً في الأوقات التي كان يسود فيها الاضطراب والحروب الأهلية، ولم يكن للفاطميين الا جيشهم ومعظمه من المغاربة الغرباء، لفرض سلطتهم وحمايتهم، فاضطروا الى الاعتماد على مقاتلي بني كلب كرديف للجيش الفاطمي وكسلطة محلية يثق الناس بها لتهدئة الأوضاع الأمنية.

اشترك بنو كلب في حروب عديدة معظم أسبابها كان الكسب المادي، فيوماً كانوا حلفاء الفاطميين، ويوماً قاتلوهم وكذلك الأمر مع البيزنطيين وغيرهم. ولهذا لا ضرورة لدراسة هذه الحروب لأن سببها ونتائجها كان الحصول على المادة وهي ليست موضوع هذه الدراسة.

خلال العهد الفاطمي برز زعماء من بني كلب أهمهم:

- سنان بن عليان الكلبي: قاتل الفاطميين ثم انحاز اليهم بعد ان اغروه بالمال. ثم عقد حلفاً مع صالح بن مرداس وحسّان بن مفرج بن الجرّاح واقتسموا بلاد الشام الى ثلاث مناطق بقيت حتى معركة «الاقحوانة» حين هزم هذا الحلف الثلاثي القائد نشتكين الدزبري.

- الامير رافع بن أبي الليل الكلبي: يقول بعض الموحدين الدروز أن الأمير رافع بن أبي الليل اعتنق مذهب التوحيد الدرزي وانه، في معركة «الاقحوانة» في فلسطين، حارب مع جمع من الموحدين في صفوف القائد الفاطمي نشتكين الدزبري، ويروى، ان الذي تولى قتل صالح بن مرداس هو الامير رافع بن أبي الليل الكلبي ولكن معظم المؤرخين يشك في ذلك.

الأمير رافع بن أبي الليل بسط حمايته على الموحدين الدروز وساعدهم كثيراً ولكنه لم ينفصل عن عمه سنان بن عليان، بل الواقع أن الزعيم سنان بن عليان مات عام ٤١٩هـ / ١٠٢٨م وحدث خلاف على الامارة بين زعماء بني كلب فذهب الأمير رافع بن ابي الليل الى القاهرة حيث عيّنه الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أميراً على بني كلب وخليفة لعمه.

يقول ابن القلانسي «وكان صالح بن مرداس على فرسه المشهور، فوقف به من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كد الهزيمة ولم ينهض به، فلحقه رجل من العرب يعرف بطريف من فزارة، فضربه بالسيف في رأسه وكان مكشوفاً فصاح ووقع ولم يعرفه، ثم جدّ في طلب فرسه، فمر به رجل من البادية فعرفه فقطع رأسه وعاد يرقص به فلقيه الأمير عز الدولة رافع (رافع بن أبي الليل من امراء كلب) فأخذه منه وجاء به الى الأمير المظفر»[١٢].

عيّن القائد نشتكين الدزبري الأمير رافع بن أبي الليل قائداً على فرقة من جيشه فاشترك في معركة «تل فاس» في ١٥ شعبان عام ٤٢٧ هـ حيث قتل نصر بن صالح بن مرداس. وفي عام ٤٢٧ هـ زوّج الأمير رافع ابنته الى نشتكين الدزبري فأصبح مقرباً إليه وصاحب نفوذ كبير.

بالنسبة الى المكانة الرفيعة والاحترام الذي يكنه الموحدون الدروز للأمير رافع بن أبي الليل بن عليان الكلبي أصبح من الواجب والضرورة اعطاء بعض التفاصيل، ولو قليلة نقلتها كتب التاريخ الاسلامية، عن أعمال هذا الأمير الشجاع الوفي وعلاقته مع الفاطميين.

الواقع ان علاقة بني كلب بالفاطميين بدأت على شكل عدائي اثناء رياسة أميرهم سنان بن عليان الكلبي، عم الأمير رافع بن أبي الليل. ولكن ما أن توفي الأمير سنان بن عليان عام ٤١٩ هـ (١٠٢٨م) حتّى تمكن الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله من

(١٢) الأمير المظفر أمير الجيوش عضد الدولة أبو منصور أبو نشتكين الدزبري كان تركيا ولد في منطقة خطل حيث نهر جيحون. بيع وهو غلام في كاشغر تركيا ولكنه فرّ الى بخارى في فارس حيث قبض عليه وأرسل الى دمشق حيث وصلها عام ٤٠٠ هـ ثم بيع في دمشق الى ضابط فاطمي من أصل فارسي يعرف باسم «دزبر» وكان هذا لقبه في عام ٤٠٣ قدم الى الحاكم بأمر الله حيث خدم لمدة سنة ثم عام ٤٠٦ هـ سار الى دمشق مع الجيش الفاطمي. عيّن واليا على بعلبك لمدة أربع سنوات ثم نقل الى قيسرية حيث رقي الى منصب والي فلسطين. عزل من منصبه كوالي حلب بسبب دسائس الوزير الجرجرائي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن يكسب بني كلب الى جانبه ويوقف هجومهم على مدينة دمشق واوساط بلاد الشام. وبهذا انتهت فترة عداء بني كلب للفاطميين ودانوا لهم بالطاعة لفترة طويلة امتدت حتى ظهور القائد الفاطمي بدر الجمالي وسيطرته على مقاليد الحكم في الدولة الفاطمية في عهد الخليفة المستنصر بالله.

دخل رافع بن أبي الليل بن عليان في طاعة الخليفة الفاطمي الظاهر لاعزاز دين الله، فقرّبه اليه وأولاه ثقته، وكما قلنا سابقاً، عقد له الامارة على الكلبيين وأوكل اليه قتال بني الجرّاح حلفاء عمه بالأمس، كما أمر القائد انوشتكين الدزبري أن يولي رافع بن أبي الليل على قسم في الجيش الفاطمي الذي كان موجوداً في حلب وكما أشرنا سابقاً في شعبان عام ٤٢٧ هـ قاد رافع بن أبي الليل الجيش الفاطمي في معركة «تل فاس» الى القرب من بلدة «لطمين» واشتبك في معركة مع نصر بن صالح بن مرداس حيث هزمه وقتل نصر وأرسل جسده الى حماه ليصلب على أسوار قلعتها. منذ أن تولى رافع بن أبي الليل بن عليان امارة بني كلب بقي على ولائه واخلاصه للفاطميين يساعدهم في حروبهم حتى وفاته.

- مسمار بن سنان بن عليان الكلبي. في عام ٤٥٨ هـ حارب القائد الفاطمي بدر الجمالي ومنعه من احتلال دمشق بل اضطره الى الهرب الى صيدا. في الثورة التي اندلعت في دمشق بين الأهالي والجنود الفاطميين المغاربة وقف مسمار بن سنان مع الأهالي.

- حازم بن نبهان القرمطي صار أمير بني كلب بعد مسمار بن سنان وكان حليف القرامطة.

- بدر بن حازم بن نبهان الكلبي. انضم الى الفاطميين في قتالهم مع «اتسز» التركماني حيث اشترك مع الفين من رجاله وهزموا اتسز التركماني.

وفي عام ٤٤٨ هـ، عندما سار الداعي الاسماعيلي هبة الله الشيرازي مع القائد البويهي، أبي الحارث أرسلان البساسيري لاحتلال العراق والقضاء على الخلافة العباسية، كان معه ثلاثة آلاف رجل من بني كلب وكانوا عماد الجيش، الاّ أنهم، رفضوا أن يكونوا في صف واحد مع الترك والأكراد وأصروا على الانفصال عنهم لاستعلائهم على كل عنصر غير عربي، وكذلك تسببوا بمصاعب جمة بسبب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تفردهم بقراراتهم ورفضهم التقيد بأوامر القادة غير العرب[١٣].

تجب الاشارة الى انتفاضة الموحدين الدروز في جبل السمّاق وانطاكية عام ٤٢٣هـ وذلك خلال خلافة الظاهر لاعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧هـ) ووجود القائد الفاطمي انوشتكين الدزبري في شمال بلاد الشام، (تزوج ابنة الأمير رافع بن أبي الليل عام ٤٢٧هـ في حلب) وكان الأمير رافع بن أبي الليل أميراً على بني كلب وقائداً للجيش الفاطمي في حلب، ولكن تمكن نصر بن صالح بن مرداس وحاكم انطاكية البيزنطي من قتل الآلاف من الموحدين الدروز وتدمير قراهم. ولكن الأمير رافع قتل نصر وحطم جيشه في معركة «تل فاس»[١٤].

يقول محمد بن علي بن ميسر «لا يوجد ما يشير الى وجود بعثة دعوة اسماعيلية أو أتباع للمذهب الاسماعيلي في حلب في فترة بحثنا، ويبدو أن الدعاة الاسماعيلين الذين ظهروا فيما بعد في حلب، كان نشاطهم مركزاً في فترتنا على المناطق المحيطة بحلب، وقد وضح هذا في منطقة جبل السمّاق وسرمين، وكانت هذه المنطقة مسرحاً لبعض نشاطات الدعوة الاسماعيلية الاخرى، والمعنى بذلك نشاط فرقة الدروز الذين آمنوا بربوبية الحاكم بأمر الله الفاطمي، وقد تمخضت الأعمال التبشيرية لدعاة الدروز عن اعلان الثورة في سنة ٤٢٣هـ / ١٠٣١م»(*).

---

(١٣) كتاب أخبار مصر. مجلد ٢ ص ٣٧ . كتاب زبدة الحلَب من تاريخ حلب ابن العديم مجلد ١٢ ص ١٢٢ .

(١٤) كتاب امارة حلب. الدكتور سهيل زكار ص ٢١٣ .

(*) القصيدة التي نشرها محمد عبيدالله المسبحي في كتابه أخبار مصر في سنتي ٤١٤ و ٤١٥هـ التي تدل على قدوم بني كلب الى لبنان تدل على قدوم قسم من بني كلب قبل هذا التاريخ والقسم الأكبر من القبيلة بقي في سوريا لأنّ معركة الاقحوانة التي اشترك بها بنو كلب كانت عام ٤٤٨هـ واشتراكهم في جيش البساسبيري في غزو العراق كان ٤٤٨هـ اي بعد تاريخ كتاب المسبّحي. وكما ولّي الأمير رافع بن أبي الليل أميراً على بني كلب عام ٤١٩هـ وزوج ابنته من القائد نشتكين الدزبري في حلب عام ٤٢٧هـ مما يدل على أن من قدم لبنان من بني كلب كان فئة قليلة وليست هجرة ولهذا لم يذكرها المؤرخون العرب في كتبهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقدم لنا يحيى بن سعيد الأنطاكي رواية مفصلة عن هذه الثورة بقوله[١٥].
«وكان قد اجتمع في جبل السمّاق من بلد الروم جماعة من الدرزية وجاهروا بمذهبهم، وخرّبوا ما عندهم من المساجد، وتحصن دعاتهم وكثير من عوامهم في مغاور شاهقة منيعة وقصدهم وانضوى اليهم خلق من أهل نحلتهم، وتوفر عددهم واستعانوا بالمسلمين المجاورين لهم من أهل بلدان حلب والذين بينهم وأطعموا عوامهم بقوة أيديهم وكثرة استيلائهم على البلاد والأعمال القريبة والبعيدة، وعندما عظم خطرهم قام حاكم انطاكية البيزنطي تعاونه عساكر حلب بحصار مغاورهم، واستخدم ضدهم النار والدخان حتى أمكنه القضاء على ثورتهم»[١٦].

(١٥) كتاب امارة حلب. الدكتور سهيل زكار ص ٢١٢ .
(١٦) كتاب تاريخ يحيى سعيد الانطاكي ص ٢٦٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بنو الجرّاح وقبيلة طي

لا تكتمل معرفة نشأة الدروز من دون معرفة تاريخ القبائل العربية التي ينتسب معظمهم اليها.

وهذه القبائل العربية التي تشمل، تنوخ، وربيعة، وتيم الله بن ثعلبة القرمطية، وكلب ولخم استقرت في بلاد الشام، قبل وبعد الفتوحات الاسلامية.

من القبائل العربية التي قدمت بلاد الشام والتي بلغت شأنا عظيماً وتركت بصمات مهمة على تاريخ المنطقة، كانت قبيلة بني الجرّاح وهي من بطون طي وتنتسب الى كهلان بطن من أسد بن خزيمة من القحطانية[1] منهم الصحابي الكبير زيد الخيل بن مهلهل وحاتم طي، الذي أصبح اسمه مرادفاً للكرم، وابنه عدي الذي كان من ابطال المسلمين وأسلم بعد معركة بدر. ومن طي كان أبو تمام الشاعر العربي الكبير.

وتقول الدكتورة أمينة بيطار «فاما بنو الجرّاح فهم أحد بطون طيء التي أقامت في فلسطين وهم ينتسبون الى جدهم حوط بن عمر بن خالد معبد بن عدي بن أفلت الطائي، وبنو طيء قبيلة عظيمة من كهلان القحطانية وتتفرع منها بطون وأفخاذ عديدة. ثم تقول «وكانت منازل طي في اليمن، ثم ما لبثوا أن خرجوا منها بعد سيل عرم الى الحجاز واستقروا هناك. ثم تفرقوا في أول الاسلام، زمن الفتوحات الاسلامية وانتشروا في الشام والحجاز والعراق»[2].

يجب ان نرد أصول القبائل العربية التي قدمت بلاد الشام الى مصادرها القديمة، ولو اضطررنا الى العودة الى الوراء في محاولة لتتبع جذور هذه القبائل عبر تاريخها القديم الذي يرجع الى قرون طويلة قبل قيامها بدورها الجديد في بلاد الشام في العصور الوسطى[3].

---

(١) كتاب نهاية الارب في معرفة انساب العرب. ابو العباس القلقشندي، ص ٣٢٦ .

(٢) كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين، ص ٨٣ .

(٣) كتاب الامارات العربية في بلاد الشام. الدكتور محمد مرسي الشيخ، ص ١٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول المستشرق الفرنسي «ر. ديسو». «ليس من السهل تحديد زمن معيّن لوصول القبائل والبطون العربية الى مسرحها الجديد لأن دخول البدو الى الشام كان ظاهرة مستمرة وعادية حتى قبل ظهور الاسلام، كما أن الصلات بين بلاد الشام ووسط وجنوب الجزيرة العربية، صلات قديمة بطبيعة الحال. واذا كان الفتح الاسلامي، الذي حدث في القرن السابع ميلادي، يبدو كما لو كان حدثاً فريداً في اتساعه، فهو في الحقيقة يعد حركة طبيعية للقبائل العربية التي كانت تتجه دائماً، لا الى الأقاليم الحضارية فحسب، بل الى الاقامة فيها ايضاً»(٤).

لا بد أن نشير الى موضوع العصبية القبلية التي سببت نزاعاً، شبه متواصل، في بلاد الشام وكان لها الدور الرئيسي الحاسم لانحطاط الدور السياسي لطائفة التوحيد الدرزية وأنهت حكمها بجبل لبنان (جبل الدروز) في أواخر القرن السادس عشر، وهو النزاع البغيض بين العصبية القيسية والعصبية اليمنية الذي تسرب الى جبل لبنان من بلاد الشام بواسطة بني كلب اليمانيين وبني معن وهم من بني كلاب القيسيين.

لتوضيح هذه العصبية القبلية التي سادت مدة طويلة في بلاد الشام ونتج عنها صراع دموي ونزوح كامل لقبائل كثيرة من بلد الى آخر، كنزوح بعض القيسية الى الأندلس، بعد معركة مرج راهط عام ٦٤هـ، لا بد من العودة الى الوراء اي الى نشوء هذه العصبية.

اهتم بأخبار النزاع بين العصبيتين، القيسية واليمانية، المستشرق الهولندي المعروف «ر. دوزي» فيقول «ذلك أن معظم النسابين والكتاب القدامى اتفقوا على رد الأمة العربية في مجموعها الى رجلين» ثم يقول: «واقدم الرجلين دون شك هو قحطان(*)، الذي غزا نسله بلاد العرب الجنوبية قبل الميلاد بقرونٍ عدّة، وأخضعوا

---

(٤) كتاب Topographie Historique de La Syrie Antique et Médiévale, Page 2. R. Dussaud.

(*) قحطان: هو قحطان بن عابر بن شالح بن ارمخشد بن سام بن نوح (مروج الذهب مجلد ١ صفحة ٢٧٦). وفي سفر التكوين الاصحاح العاشر آية ٢٥ من التوراة يرد اسمه «يقطان بن شالح بن عابر بن ارفكشاد بن سام».

العدنانيون او المعديون هم من صلب اسماعيل بن ابراهيم وامرأته رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي، كان موطنهم تهامة، ومكة من تهامة. (ابن الأثير مجلد ١ صفحة ٤٩).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لحكمهم الجنس الذي يسكن تلك البقعة، ومن ثم جرت العادة على تسمية القحطانيين باسم اليمنيين، نسبة الى أكثر أقاليم جنوب شبه الجزيرة رخاء»(٥).

أما الشعب الآخر، فينتسب الى عدنان، أحد حفدة اسماعيل، الذي يروون أنه سكن منطقة الحجاز الممتدة من فلسطين حتى اليمن والتي توجد بها مكة والمدينة فضلاً عن نجد، وسمي هذا الشعب بمعد أو نزار أو مضر أو قيس(٦). ويقول جواد علي: «فعرف القحطانيون باليمنيين والكلبيين، وعرف العدنانيون بالقيسيين والمضريين»(٧).

كما قلنا سابقاً، كانت قبيلة طيء في الأصل قبيلة يمنية، اعتنق أهلها النصرانية ونزحوا من اليمن الى الحجاز ثم سكنوا العراق وبلاد الشام بعد الاسلام(*).

في اعقاب الدعوة الاسلامية اعتنق العديد من ابناء قبيلة طي الاسلام وكانوا من أصحاب الرئاسة في العرب ولم يرتدوا مع المرتدين بل تمسكوا بالاسلام، فحاربوا مع خالد بن الوليد في حروب الردة «وشاركوا في الفتوحات مع المثنى في العراق عام ١٤هـ كما ناصروا علي بن أبي طالب في معركتي الجمل عام ٣٦هـ ومعركة صفين عام ٣٧هـ»(٨).

في العهدين الأموي والعباسي لم ترد سيرة بني طيء ولكن بدأ ظهورهم في عهد الطولونيين (٢٥٤ - ٢٩٢هـ). «ففي عام ٢٨٥هـ نهضوا بقيادة زعيمهم صالح بن مدرك بقطع طريق الحج في منطقة «الجفر» وأخذوا من الأموال والمماليك والنساء الكثير، ما يفوق المليون دينار»(٩).

ويقول المؤرخ تغري بردي «وتكررت هذه الحادثة مرة أخرى بعد مضي سنتين فقط. فقد شعر بنو طيء بعدم وجود سلطة حاكمة قوية، فنهض زعيمهم صالح

---

(٥) كتاب تاريخ مسلمي اسبانيا مجلد ١ ص ٧٦ ترجمه د. حسن حبشي.

(٦) كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر. عبد الرحمن ابن خلدون. مجلد ٢ ص ٣٠٠ .

(٧) كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام. جواد علي. مجلد ١ ص ٢٩٢ .

(*) كان بنو طي وبنو كلب من اليمانيين. وبنو كلاب وبنو نمير، بنو خفاجة وبنو ربيعة من القيسيين.

(٨) كتاب معجم قبائل العرب القديمة والحديثة. عمر رضا كحالة. مجلد ٢ ص ٦٩١ .

(٩) كتاب النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة. تغري بردي مجلد ٣ ص ١١٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بن مدرك في محرم سنة ٢٨٧ بمهاجمة الحاج العراقي، وكان برفقته ما يزيد عن ثلاثة آلاف من عرب طيء ما بين فارس وراجل. وقام أمير الحاج بمهمة قتال قبيلة طيء وزعيمها صالح بن مدرك يوماً وليلة، حتى تمكن من هزيمتهم بعد أن قتل عددا كبيراً من اعيانهم، وأنقذ الحاج من خطرهم»[١٠]. وكانت هذه آخر معاركهم وهجماتهم على الحاج.

أما بنو الجراح فهم بطن من قبيلة طي استوطنوا فلسطين ولعبوا دوراً مهماً بين عامي ٣٥٨هـ و ٤٣٣هـ ، وكان آخر زعمائم حسّان بن مفرج بن دغفل بن الجرّاح الذي فر من الفاطميين والتجأ الى البيزنطيين عام ٤٢٢هـ وانتهى بذلك دور بني الجرّاح في بلاد الشام الاّ بعض حوادث ليست لها اهمية تذكر.

لم يشكل بنو الجرّاح امارة خاصة بهم، بالرغم من كثرة عددهم وقوتهم لأن شدة قبضة القوات الفاطمية على المناطق الجنوبية في بلاد الشام لم يسمح لبني الجرّاح بتشكيل امارة يهدد وجودها الخلافة الفاطمية بل بقوا قبيلة كبيرة في فلسطين لها تحالفاتها مع القبائل والقوى الموجودة في جوارها، تتحكم في أعمالها الطبائع العربية القبلية ونفور العربي من السلطة وعدم الخضوع لها وكان بنو الجرّاح يرفضون الخضوع للقانون وللسلطة المركزية وينضمون الى الجهة التي تؤثر على مصالحهم وخصوصاً المادية.

استغل بنو الجرّاح الفوضى التي سادت بلاد الشام في العهد الفاطمي وعدم استقرار الحكم واندلاع الثورات للسيطرة على الأرض التي في جنوب البلاد، فحصلت حروب واصطدامات عديدة، لكنها لا تقع تحت هذه الدراسة لأن لا علاقة أو تأثير لها على المعتقدات التوحيدية الدرزية، ولكن لا بد من الاشارة الى بعض الحروب المهمة التي خاضها بنو الجرّاح وكان لها تأثير في تاريخ بلاد الشام.

من هذه الحروب التي اشترك فيها بنو الجرّاح كانت حرب القرامطة عام ٣٦١هـ بقيادة الحسن الاعصم، حيث جرت معركة قرب القاهرة، ولكن انسحب الحسن

---

(١٠) كتاب النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة. مجلد ٣ ص ١٢١ - ١٢٢ . كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين. الدكتورة أمينة بيطار، ص ٨٥ - ٨٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاعصم وجيشه بسبب شجاعة الجيش الفاطمي وكثرة الاسلاب التي كانت مع القرامطة والتي قدرت بحمولة خمسة عشر الف بغل وجمل من أواني الذهب والفضة والسلاح والأقمشة.

وفي عام ٣٦٣هـ رجع الحسن الأعصم وهاجم القاهرة، وكان معظم جيشه من بني الجرّاح. أرسل الخليفة المعز لدين الله مائة الف دينار من الذهب الى زعيم بني الجرّاح حسّان بن الجرّاح كي ينسحب من المعركة مما سبب هزيمة القرامطة.

وفي عام ٣٦٥هـ تحالف بنو الجرّاح مع القائد التركي العباسي «أفتكين»، فكانت معركة الرملة حيث استسلم أفتكين الى الخليفة العزيز بالله، وانسحب القرامطة الى الاحساء بعد أن قبلوا أن يدفع لهم سبعين ألف دينار سنوياً كي لا يرجعوا الى بلاد الشام، أما بنو الجرّاح فأعلنوا طاعتهم للفاطميين.

وفي عام ٤١٢هـ عقد في مدينة حلب الحلف الثلاثي بين صالح بن مرداس أمير بني كلاب، وحسّان ابن الجرّاح زعيم بني جرّاح وسنان بن عليان الكلبي زعيم بني كلب.

اتفق هؤلاء الزعماء على تقسيم بلاد الشام فيما بينهم الى مناطق نفوذ ثلاث. واحدة من حلب الى نهر الفرات ويسيطر عليها بنو مرداس، والثانية تمتد من الرملة حتى حدود مصر، ويسيطر عليها بنو الجرّاح، والثالثة منطقة دمشق وتوابعها التي تخضع الى سنان بن عليان، عم الأمير رافع بن أبي الليل الكلبي، الذي يعتبره الموحدون الدروز موحداً درزياً. كانت مدينة الرملة في فلسطين ضمن نفوذ بني الجرّاح.

عاث أولياء هذه المناطق الثلاث فساداً ونهباً في مناطقهم، فعمت الثورات حتى ضاق صدر الخليفة الظاهر باعزاز دين الله فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة انشتكين الدزبري في محرم عام ٤١٧هـ للقضاء على هذا الحلف(*).

(*) يعتبر عام ٤١٧ من سنوات «المحنة» عند الموحدين وكانوا ينظرون لعداء الظاهر الذي اضطهدهم، فمن الصعب ان ينضموا الى الجيش الفاطمي، ولكن قد يجوز أنهم اشتركوا كفرقة مستقلة لقتال عدوهم صالح بن مرداس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي محرم عام ٤١٧هـ نشبت معركة الاقحوانة في فلسطين، ويقال إنه كان برفقة الجيش الفاطمي أنذاك بعض الموحدين الدروز بقيادة الامير الكلبي رافع بن أبي الليل(١١).

كانت الدعوة بالخلافة للحسن بن جعفر الحسين العلوي، الملقب بأبي الفتوح، أمير مكة، وقد كان ولاّه عليها الحاكم بامر الله. وقد شجّع الحسن العلوي على هذه الدعوة، الداعي والوزير الاسماعيلي، أبو القاسم الحسين بن المغربي، الذي كان على خلاف مع الحاكم بأمر الله. كذلك حرّض ابو القاسم الحسين بن المغربي، الزعيم حسّان بن مفرج، زعيم بني الجرّاح، على الدولة الفاطمية وأغراه بالمال.

أعلن حسّان بن مفرج ولاءَه لأبي الفتوح وطلب منه القدوم الى بلاد الشام، كما بايعه بالخلافة. شاور أبو الفتوح أقرباءه العلويين فوافقوا على الفكرة وبايعوه بالخلافة وتلقب بالخليفة الراشد لدين الله وخطب له في مساجد مكة والمدينة.

سار أبو الفتوح العلوي الى فلسطين متقلداً سيفاً ادعى أنه سيف الامام علي بن أبي طالب المعروف باسم «ذو الفقار» والذي اشتهر بالمقولة «لا فتى الاّ علي ولا سيف الاّ ذو الفقار» وكان أهداه النبي الكريم الى الامام علي في معركة بدر.

عندما اقترب أبو الفتوح من مدينة الرملة، مع ألف فارس من العلويين، تلقاه ابن الجرّاح وسلّم عليه بأمرة أمير المؤمنين.

أرسل الحاكم بامر الله جيشاً الى فلسطين للقضاء على هذه الحركة غير أن هذا الجيش انهزم، مما زاد في نفوذ بني الجرّاح وأمل أبو الفتوح بالخلافة.

وكان الحاكم يعرف ضعف بني الجرّاح الى المال فالتجأ اليه وأجزل لهم العطاء، فتخلى ابن الجرّاح عن أبي الفتوح الذي كان نضب ماله، وأرسله الى مكة عام ٤٠٣هـ مع جماعة من بني طي. توسل أبو الفتوح الخليفة الحاكم بامر الله الذي عفا عنه وأرجعه والياً على مكة والمدينة.

---

(١١) صالح بن مرداس ملعون عند الدروز لاضطهادهم وقتلهم. أرسل جيشاً الى وادي التيم للقضاء عليهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وآخر معارك بني الجرّاح، وكان زعيمهم حسّان بن مفرج بن الجرّاح، كانت مع والي دمشق ناصر الدولة الحسين بن حمدان، حيث وقعت بينهم معركة عنيفة في فلسطين، لم يعرف عنها الكثير لأن التاريخ لا يذكرها بالتفصيل، «الاّ أن الخليفة المستنصر بالله قبض على زعمائهم، مثل حازم بن علي الجرّاح وحميد بن محمود بن الجرّاح، وقد ظلوا بالسجن ما يزيد عن عشرين سنة»[١٢]. بعد هذه المعركة انتهى أمر بني الجرّاح ولم تقم لهم بعدها قائمة، وكان ذلك في منتصف القرن الخامس هجري. اذن دامت حروب بني الجرّاح من عام ٣٥٨هـ الى عام ٤٣٣ هجري.

يقال إن الأمير زمّاخ بن مفرج بن دغفل بن جرّاح الطائي وأخاه جابر كانا من دعاة مذهب التوحيد الدرزي.

(١٢) كتاب موقف الامراء العرب من الفاطميين، الدكتورة أمينة بيطار، ص ١٣٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحمدانيون

الحمدانيون بطن من تغلب، وتغلب بن وائل من بطون ربيعة بن نزار العدنانية. كانت بلاد تغلب في الجزيرة الفراتية بجهات «نصيبين» وتعرف بديار ربيعة. ومنهم الشاعر عمرو بن كلثوم[1].

كان بنو تغلب كثيري العدد واشتهروا بالفروسية والشجاعة حتى قال عنهم أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي «انه لو لم يظهر الاسلام لكان بنو تغلب التهموا كل العرب».

قبل الدعوة الاسلامية، كان بنو تغلب يعتنقون النصرانية، الاّ أن قسماً كبيراً منهم اعتنق الاسلام في حياة الرسول الكريم، وحاربوا مع المثنّى بن حارثة الشيباني[2] ضد الفرس عام ١٣هـ وكانوا الى جانب القائد العربي سعد بن أبي وقاص[3] عند احتلاله العراق عام ١٦هـ.

أما الحمدانيون، موضوع دراستنا، فان مؤسس هذه الأسرة العربية، هو حمدان بن حمدون التغلبي، الذي كان ذا مكانة بارزة في منطقته، ومن أبنائه المرموقين كان أبو الهيجاء والد الأمير سيف الدولة الحمداني.

---

(١) كتاب نهاية الارب في معرفة انساب العرب. أبو العباس القلقشندي، ص ١٨٦ و ٢٣٦ .

(٢) هو المثنى بن حارثة الشيباني - شيبان بطن من وائل من العدنانية - كان يلقب مؤسس العراق وموحده. كان، قبل الاسلام، يغير على أهل فارس مع قبائل بكر بن وائل وتميم. قدم المدينة عام ١١هـ وطلب من أبي بكر الصديق مساعدته على قتال الفرس فقبل أبو بكر، حققت غاراته نجاحاً كبيراً فأرسل أبو بكر خالد بن الوليد لمساعدته بعد تحطيم الجيش الفارسي نزل خالد بن الوليد الى بلاد الشام. عند استلام عمر بن الخطاب عزله كما عزل خالد بن الوليد.

(٣) هو سعد بن مالك من بني زهرة، وزهرة عائلة من قريش. بعد وفاة المثنى الشيباني حشد الفرس جيشاً كبيراً بقيادة رستم فالتقاه سعد بن أبي وقّاص في سهل القادسية، وكان انضم اليه جيش من بلاد الشام بقيادة القعقاع بن عمرو التميمي. بقيت المعركة ثلاثة أيام، انهزم فيها الفرس وكانت ابتداء احتلال فارس والعراق. حضّر هذه المعركة سلمان الفارسي وقد كان داعية ورائد المقاتلين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول أبو العباس القلقشندي. «وأول ملك منهم، أبو الهيجاء عبدالله بن حمدان، ثم أخواه سعيد ونصر أبناء حمدان. ثم استولى على الشام وحلب معين الدولة علي بن أبي الهيجاء بن حمدان، ثم لؤلؤ مولى سعيد الدولة بن حمدان، وبقي حتى غلبه على ذلك صالح بن مرداس أمير بني كلاب وانتزعه منه في سنة اثنين وأربعماية»(٤).

زال الحكم العربي العصبي بزوال حكم بني أمية، وكانت نتيجته السياسية العباسية، التي أهملت العرب وانحازت الى الفرس والأتراك، اذ ضعف نفوذ القبائل العربية، ومنها قبيلة تغلب التي انحدر منها الحمدانيون.

انتعش العنصر العربي، بعد ضعف العباسيين، وذلك خلال العصر الثاني من الدولة العباسية، وكان انتعاشاً محصوراً في الحكم المحلي، اي بغداد وضواحيها، وذلك في عهد الخليفة المعتضد بالله أحمد بن الموفق (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) حتى عهد المتقي بالله ابراهيم بن المقتدر (٣٢٩ - ٣٣٣هـ) وأخذت الامارات العجمية والعربية تنتشر في أطراف الدولة العباسية المتهاوية. وانتشرت الدويلات، حتى في المناطق التي بقيت خاضعة للحكم العباسي.

وأما بنو حمدان، فقد رأوا أن لهم القوة التي تمكنهم تأسيس امارة لهم والاستقلال بدولة مثل هذه الدويلات، فهم عرب ينحدرون من قبائل عربية فيها المنعة والقوة والعصبية ولها وجود مفروض على الوجود السياسي الحاكم.

في عام ٢٧٢هـ (٨٩٠م) تمكن حمدان بن حمدون التغلبي، مؤسس الدولة الحمدانية وزعيم بني تغلب، من الاستيلاء، بمساعدة حليفه الخارجي هارون الشاري، على قلعة «ماردين» ولكنه أجبر على التخلي عنها، الى الخليفة المعتضد بالله أحمد بن الموفق (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) عام ٢٨١هـ عند قدومه الى الموصل وهرب الى البادية، ولكنه بعد عجزه على الاستمرار بالفرار والعيش في البادية بين قبائل لا تكن له الصداقة والخير، استسلم للخليفة المعتضد الذي أودعه السجن، حيث بقي الى أن أخرجه ابنه الحسين بن حمدان الذي كان نال رضا الخليفة المعتضد حين هزم الخارجي هارون الشاري.

---

(٤) كتاب نهاية الأرب في معرفة انساب العرب، ص ٢٣٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اعتمد الخليفة المعتضد بالله على حسين بن حمدان فوجهه باتجاه القرامطة للحد من شرهم، ثم أرسله لطرد الطولونيين من حلب، وكان يدفعه لقمع كل ثورة تنشب ضد الخلافة في بغداد. ثم عيّنه والياً على مدينة «قم» في فارس. ولكن في خلافة المقتدر بالله بن المعتضد، (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) حصل خلاف بينهما فأمر الخليفة بسجنه حيث بقي حتى مات عام ٣٠٦هـ.

بعد وفاة حمدان بن حمدون التغلبي عام ٢٩٤هـ عيّن أبو الهيجاء، أخو الحسين الحمداني ووالد الأمير سيف الدولة، أميراً على الموصل من قبل الخليفة المقتدر بالله وظل يحكمها حتى توفي عام ٣١٧هـ (٩٢٩م).

بعد وفاة أبي الهيجاء، آلت الامارة لابنه الحسن بن حمدان وعاونه في ذلك أخوه الأصغر، علي بن عبدالله المعروف باسم سيف الدولة الحمداني. بسط الحسن سلطانه على الجزيرة كلها وشمالي بلاد الشام.

وفي عام ٣٣٠هـ. فرّ الخليفة المتقي بالله أبو اسحق ابراهيم بن المقتدر (٣٢٩ - ٣٣٣هـ) الى الموصل هرباً من خطر هجوم أمير خوزستان البريدي على العراق، وكان برفقته أمير أمراء الجيش القائد محمد بن رائق الذي كانت السلطة بيده، حتى أن اسمه كان يذكر مع اسم الخليفة في خطبة الجمعة في مساجد بغداد. كان محمد بن رائق مسيطراً على الحكم ولم يكن للخليفة الاّ المنصب دون النفوذ أو السلطة.

قتل الحسن بن حمدان أمير أمراء الجيش محمد بن رائق[٥] وارجع السلطة للخليفة، ولكن بعد أن أكرهه على تعيينه أمير أمراء الجيش، وخلع عليه لقب ناصر الدولة وعلى شقيقه علي لقب سيف الدولة، ومقابل ذلك اعاد له الخطبة في مساجد بغداد وغيرها من المدن العراقية.

وفي عام ٣٣٤هـ احتل معز الدولة البويهي بغداد وشن حرباً على الحمدانيين في الموصل انتهت بسقوط دولتهم، ولكن بقي الأمير ناصر الدولة أميراً على الموصل وديار الشام على أن يؤدي جزية سنوية لبغداد ويخطب للخليفة العباسي في المساجد، وبقيت الحالة على ذلك حتى وفاة الحسن بن حمدان عام ٣٥٧هـ.

---

(٥) كتاب تكملة تاريخ الطبري. محمد بن عبد الملك الهمذاني في شرح وافي عن مقتل ابن رائق، ص ١٢٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أثر مقتل أبو العلاء بن حمدان على يد ابن أخيه ناصر الدولة، نشب خلاف حاد بين افراد العائلة الحمدانية ولكنه انتهى عند زحف عضد الدولة البويهي على الموصل عام ٣٦٧هـ فاجتمعت العائلة لصد هذا الخطر، ولكن عضد الدولة، اضطر أن يرجع الى بغداد بسبب اشتباك الجنود البويهيين الشيعة واهالي بغداد السنة.

اقتنع الحمدانيون بأن لا مستقبل لهم في العراق، بالنسبة للصراع الدائم على السلطة في بغداد وخطر البيزنطيين والأكراد والأتراك في الشمال، فاتجهت أنظارهم الى بلاد الشام الغنية بمحاصيلها وتجارتها، وحيث السلطة المركزية شبه معدومة والنفوذ العباسي غير العربي، مكروه من الشعب الشامي.

كان الأخشيد قد احتلوا حلب عام ٣٢٥هـ وعينوا أبا الفتح الكلابي اميراً عليها، ولكنّ الأمور لم تستقم لهم بل سادت الفوضى والقلاقل، وخصوصاً بعد أن وصلت، الى شمال بلاد الشام جموع من قبائل بني كلاب ونمير وعقيل وسببت هذه الهجرة فوضى سياسية وأمنية في المناطق التي نزلت فيها.

وكانت قبيلة كلاب، ومنها أبو الفتح الكلابي أمير حلب، تعاني من التمزق والخلاف بين زعمائها فاتصلوا بسيف الدولة ودعوه للقدوم الى حلب وتسلم الحكم فيها ووضع حد للفوضى والفساد. قرر سيف الدولة أن يستغل الخلاف القائم بين الكلابيين وضعف واليها أبي الفتح، فقدم حلب ودخلها من دون مقاومة يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول سنة ٣٣٣هـ[٦] وذلك بعد انصراف أبي بكر محمد بن طغج الأخشيدي وأبو الفتح الكلابي.

وفي عام ٣٣٤هـ نشبت بعض المعارك بين سيف الدولة والأخشيد أسفرت عن عقد اتفاق على أن تكون حلب وحمص وانطاكية لسيف الدولة[٧]. وتزوج سيف الدولة ابنة أخ عبيدالله بن طغج الأخشيدي.

حروب الحمدانيين، خصوصاً حروب الأمير سيف الدولة، تنقسم الى أربع فئات:

---

(٦) مخطوطة الدول المنقطعة. ابن ظافر الازدي، ص ٤ .

(٧) كتاب تاريخ دول الاسلام. ف. رزق الله، ص ٢٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ - حروب الأخشيد
٢ - حروب القبائل العربية
٣ - حروب البيزنطيين
٤ - حروب الفاطميين

يقول المستشرق (Kay) . «كان على الامارة الحمدانية أن تتعامل مع القبائل العربية النازحة قديماً وحديثاً والتي استقرت على طول السهول الممتدة بين شمال العراق وسوريا لتلعب دورها في تاريخ المنطقة منذ ذلك الوقت»[٨].

أسس سيف الدولة الحمداني حكم الدولة في حلب عام ٣٣٣هـ (٩٤٥م) وأقام الخطبة للخليفة العباسي المستكفي بالله عبدالله بن المكتفي (٣٣٣ - ٣٣٤هـ) ولأخيه ناصر الدولة الحمداني امير الموصل، ثم سار الى حمص في طريقه الى دمشق، وعند محلة «رستن» اشتبك في معركة مع الجيش الأخشيدي وأنزل به هزيمة كبيرة. وفي عام ٣٣٤هـ كانت معركة «قنسرين» وكان قائد الأخشيد محمد بن طغج الذي أنزل الهزيمة بسيف الدولة ثم عقد معه صلحاً على أن تكون حلب وضواحيها لسيف الدولة، على أن يدفع له خمسين ألف دينار سنوياً، وتكون دمشق واعمالها للأخشيد.

وفي جمادى الآخرة عام ٣٣٥هـ هزم كافور والجيش المصري الأخشيدي، سيف الدولة قرب دمشق. وتقهقر سيف الدولة الى حمص حيث انضم اليه بنو عقيل وكلب، ولكنه انهزم في معركة «مرج عذراء» قرب حمص ودخل الأخشيد حلب بعد أن فر سيف الدولة الى الرقة[٩].

عقد صلح بين الأخشيد وسيف الدولة على أن تكون حلب لسيف الدولة، ولكن كافور رفض أن يدفع هذه المرة مبلغ خمسين الف دينار. رحب الأخشيد بتلك الاتفاقية اذ جعلت من سيف الدولة حصناً منيعاً بينهم وبين البيزنطيين[١٠].

---

(٨) كتاب Kay. Notes on the history of the Banu Okayl page 508 (Published May 1880).

(٩) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب. ابن العديم. مجلد ١، ص ١١٧ .

(١٠) كتاب تاريخ الاسلام السياسي. حسن ابراهيم حسن. مجلد ص، ص ٢١١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي عام ٣٣٧هـ هاجم بنو كلاب، حلفاء الحمدانيين، بني كلب وقتلوا منهم الكثير وسبوا نساءَهم ونهبوا أموالهم، وكان ذلك في انشغال سيف الدولة في حربه مع القائد البيزنطي «انطرطوس». هاجم سيف الدولة، مع ابن عمه الشاعر أبي فراس، بني كلاب في موقعة «كفرطاب» والحق بهم خسائر جسيمة ونهب أموالهم(١١).

وفي عام ٣٣٩هـ أنزل أبو فراس هزيمة في بني كلاب في معركة «بالس» وقتل زعيمهم «كثير بن عوسجة».

وفي عام ٣٤٣هـ وجه سيف الدولة حملةً ضد بني كلاب، بمساعدة أبو فراس الذي كان والياً على «منبج» وحدثت معركة عند جبل «بشر» حيث أنزل بهم هزيمة كبيرة وقتل الكثير من رجالهم ونهب أموالهم(١٢).

وفي عام ٣٤٤هـ كان التجمع القبلي من عناصر يمنية من بني كلب وطي بالاضافة الى القيسيين من بني عامر بن صعصعة، وبني نمير وبني كعب بن ربيعة وعقيل حيث اجتمعوا في «سلمية» ومنها هاجموا «قنسرين» وأنزلوا الهزيمة بعامل الحمدانين، «الصباح بن عمارة المخارقي»، عندئذ تصدى لهم سيف الدولة، ومعه ابن عمه أبو فراس، ودارت حرب ضارية انتهت بهزيمة القبائل العربية وقتل الكثير منهم وفرّوا حتى مدينة تدمر حيث تبعهم سيف الدولة – فقتلهم وأهلكهم عطشاً وقتلاً بالسماوة والأرض(١٣).

وفي ذي القعدة عام ٣٥٤هـ ثار في انطاكية العاملان رشيق النسيمي وابن الاهوازي منتهزين فرصة مرض سيف الدولة وضعف الجيش الحمداني، فهاجما حلب ولكن تمكن الجيش، بقيادة أبي فراس، من صدهم والحاق الهزيمة بهم وقتل العامل رشيق النسيمي. ولكن قائداً آخر من انطاكية اسمه «دزبر بن اونيم» واصل العصيان في أنطاكية فهزم الجيش الحمداني ودخل حلب في جمادى الأولى عام ٣٥٥هـ ثمّ احتل «قنسرين» حيث انضم اليه بنو كلاب.

---

(١١) كتاب. Marius Canard. Histoire de La Dynastie des Hamdanides de Jazira et de Syrie. Page 599.

(١٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٠٨ .

(١٣) ديوان أبي فراس – الرهان – مجلد ٢، ص ١٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالرغم من مرضه، خرج سيف الدولة، محمولاً على محفة، واشترك في معركة شرق مدينة حلب في مكان يقال له «سبعين» فتخلى بنو كلاب عن «دزبر ابن اونيم» وانضموا الى الجيش الحمداني مما أدى الى هزيمة جيش دزبر ابن اونيم، وقيل إن قتلاهم بلغت الألوف ولكن لم يمض ثلاثة أيام حتى مات سيف الدولة وذلك يوم العاشر من صفر عام ٣٥٦هـ[١٤].

بعد وفاة سيف الدولة الحمداني، تفجر الصراع بين ابنه سعد الدولة وبين الشاعر أبي فراس، الذي اراد أن يستولي على السلطة، وذلك عام ٣٥٧هـ فحصلت معركة في سلمية حيث انهزم ابو فراس وأسر، فأمر قرغويه غلام سعد الدولة، بضرب عنقه فخسر العرب شاعراً كبيراً[١٥].

كانت الدولة الحمدانية في حلب مستقلة عن الدولة العباسية في بغداد ما عدا الخطبة في المساجد للخليفة العباسي، واكتفت الدولة العباسية بذلك، لأن الحمدانيين كفوها شر قتال البيزنطيين وكانوا حصناً مانعاً ضد خطر الاحتلال البيزنطي لبلاد الشام.

كانت حروب سيف الدولة والبيزنطيين متعددة. في عام ٣٣٧هـ جرت معركة في «مرعش» انهزم بها سيف الدولة واستولى الروم على مرعش[١٦].

وفي عام ٣٤٠هـ أعاد سيف الدولة جمع جيشه وهاجم البيزنطيين في عقر دارهم واوغل في بلادهم ولكن عند رجوعه الى حلب سد البيزنطيون عليه الطريق، فخاض معهم معركة عنيفة خسرها وتقهقر الى حلب مع من بقي معه من الجند.

وفي عام ٣٤٢هـ هاجم بلدة «زبطرة» في بلاد الروم وعاد الى حلب منتصراً حيث استقر حتى عام ٣٤٥هـ، عندما حاول الكرة وتوغل كثيراً في بلاد الروم حتى التقى بالقائد قسطنطين ابن الدمستق فاشتبكا في معركة عنيفة قتل فيها القائد قسطنطين وهزم البيزنطيون ورجع سيف الدولة الى حلب مع كميات كبيرة من الاسلاب والغنائم.

---

(١٤) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب. ابن العديم، ص ١٥١ .

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) كتاب تكملة تاريخ الطبري، محمد عبد الملك الهمذاني، ص ١٦٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي عام ٣٥٠هـ هاجم «نقفور فوكاس»[١٧] البيزنطي طرسوس، عين زربة ومرعش فدمرهما ثم سار الى حلب بجيش قوامه مائتا ألف فارس وثلاثون ألف راجل فاحتلها ونهبها وأحرق المساجد ومعظم الأسواق، وقتل آلافاً من الأهالي بطريقة وحشية وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى، لقد كاد أن يفرغ حلب من الحياة.

بعد أن دمّر «نقفور فوكاس» البيزنطي حلب وقتل وأسر معظم سكانها، جلب سيف الدولة، لملء الفراغ، عائلات شيعية من مدينة «حرّان» الى حلب فانتشر المذهب الشيعي الاثنا عشري؛ ولم يطل الأمر، حتى اعتنقه معظم سكان حلب[١٨].

من الصعب أن نبحث بدقة علاقة سيف الدولة بالفاطميين لأنه توفي عام ٣٥٦هـ، أي قبل الفتح الفاطمي لمصر وديار الشام. المستشرق Marius Canard يقول. «فان الفترة الحاسمة من تاريخ العلاقات بين الحمدانيين والفاطميين تقع فيما بين سنتي ٣٥٩هـ و ٤٠٦هـ، وعلى وجه التخصيص، بعد وفاة المعز لدين الله الفاطمي، وتولي العزيز بالله الخلافة»[١٩].

بالرغم من ان المذهب الشيعي وحبّ آل البيت تغلب على الحمدانيين، ولكن علاقتهم بالفاطميين، والفاطميون من الشيعة السبعية اي الاسماعيلية، فقد غلب الطابع العدائي على علاقتهم، وذلك للأسباب التالية:

١ – كان خوفهم من الفاطميين في توسعهم في بلاد الشام على اعتبارها الممر الطبيعي الى بغداد حيث الخلافة العباسية التي يريدون القضاء عليها.

٢ – كان الحمدانيون يعترفون بالسيادة العباسية ويخطبون للخليفة العباسي في مساجدهم ويخافون منهم لقربهم من حدودهم ولقوتهم العسكرية القائمة على عناصر غير عربية تكره العنصر العربي، كالفرس والأتراك(*).

---

(١٧) كتاب. تاريخ الشعوب الاسلامية. كارل بروكلمان، ص ٢٤٢ يقول ان اسم القائد البيزنطي كان «بيرزوس فوكاس».

(١٨) كتاب. اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء. محمد راغب الطباخ. مجلد ١، ص ٢٧٩ .

(١٩) كتاب Histoire de La Dynastie des Hamdanides. Page 579.

(*) مما يلفت النظر أن حروب سيف الدولة مع البيزنطيين كانت غارات من دون هدف واضح.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ – علاقة الحمدانيين بالقرامطة، الذين كانوا من الد اعداء الفاطميين، كانت علاقة جيدة، خصوصاً في عهد ناصر الدولة بن حمدان، شقيق سيف الدولة، ويقال إن جيش الحسن الأعصم القرمطي، الذي هاجم مصر للمرة الأولى عام ٣٦١هـ كان يضم عدداً كبيراً من الحمدانيين.

يقول الدكتور محمد محمد مرسي الشيخ. «والواقع أن سيف الدولة كان قد خلف لابنه أبي المعالي سعد الدولة ٣٥٦ – ٣٨١هـ تركة مثقلة بالاعباء والمتاعب وامارة تتكاثر من حولها الاطماع وتتجمع في افقها الغيوم والعواصف»[٢٠].

من الصعب والجهد غير المجدي سرد الحوادث التاريخية والصراع السياسي الذي حدث بعد وفاة سيف الدولة لأن ذلك محصور في نزاعات محلية معظمها يدور على الاستيلاء على السلطة والحكم الذي لم يتعدّ حدود الامارة الحمدانية، بالاضافة، الى ان هذه الأحداث لم تكن لها علاقة بنشوء وانتشار الدعوة التوحيدية الدرزية موضوع هذه الدراسة.

يمكننا سرد بعض الحوادث المهمة كي لا نترك فراغاً في التسلسل التاريخي في حياة الامارة الحمدانية.

انتهت ثورة أبي فراس الحمداني، ابن عم الأمير سيف الدولة في اوائل سنة ٣٥٧هـ[٢١] وتغلب غلام سيف الدولة «قرغويه» على حلب وأجبر أبا المعالي سعد الدولة على الاستقرار في حلب[٢٢]. ثم قام بنو كلاب، بمساعدة أبي المعالي سعد الدولة، على استرداد حلب واودعوا قرغويه في السجن وثم استسلم بكجور، حليف قرغويه، الذي كان انشق عنه، فعفا عنه سعد الدولة وولاه مدينة حمص عام ٣٦٦هـ.

في عام ٣٨١هـ قام بكجور بمحاولة الاستيلاء على الحكم فحدثت معركة «الناعورة» حيث قتل بكجور ولكن سعد الدولة توفي في رمضان عام ٣٨١هـ.

تولى امارة الحمدانيين أبو الفضائل سعيد الدولة عام ٣٨١هـ وكان وصيّه لؤلؤ السيفي «فتعرضت حلب الى هجمات الفاطميين بقيادة «منجوتكين» الفاطمي

(٢٠) كتاب الامارات العربية في بلاد الشام، ص ٧٩ .

(٢١) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب. ابن العديم مجلد ١، ص ١٥٦ .

(٢٢) كتاب تاريخ دمشق. ابن القلانسي، ص ٢٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وذلك في جمادى الأولى عام ٣٨٢هـ وذي القعدة عام ٣٨٢هـ وصفر عام ٣٨٤هـ، فساءت أحوالها وأوشكت على الاستسلام»[٢٣]. تتابعت هجمات منجوتكين الفاطمي ثم اشترك في الغزوات الجيش البيزنطي فتمكن أبو الفضائل سعيد الدولة، مع لؤلؤ من المقاومة، ولكنه تخلى عن الحكم الى مولاه لؤلؤ الذي دس له ولزوجته، ابنة لؤلؤ، السم فماتا في ليلة النصف من صفر سنة ٣٩٢هـ»[٢٤].

بعد وفاة الأمير سعيد الدولة أرسل لؤلؤ أبناء أبي المعالي سعيد الدولة، أبا الحسن علي وأبا المعالي شريفاً الى مصر وأصبح الحاكم الفعلي لحلب وجعل ابنه منصور ولياً على الدولة منذ عام ٣٩٤هـ. مات لؤلؤ عام ٣٩٩هـ فخلفه ابنه منصور وخطب في المساجد للخليفة الحاكم بأمر الله وذلك عام ٤٠٢هـ الذي أرسل له سجلاً بتمليكه حلب وأعمالها وأطلق عليه لقب مرتضى الدولة.

عهد مرتضى الدولة، ابن منصور بن لؤلؤ، كان حافلاً بالدسائس والمؤامرات حتى تمكن غلامه «فتح» من الاتصال بالحاكم بأمر الله وطلب منه ارسال ولاته لتسلم حلب، فرحل مرتضى الدولة الى البيزنطيين عام ٤٠٦ والتجأ اليهم.

سر الحاكم بأمر الله بخضوع حلب له، التي أصبحت، لأول مرة، تابعة للحكم الفاطمي فلقب فتح «مبارك الدولة» وسعدها واعطاه ولاية صيدا وبيروت.

بقيت حلب تحت حكم نواب الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله حتى عام ٤٠٧هـ حتى صارت ولايتها الى الأمير عزيز الملك فاتك الحمداني الذي، بعد اختفاء الحاكم بأمر الله عام ٤١١هـ، حاول الاستقلال بامارة حلب فتآمرت ست الملك، التي كانت وصية على الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله، مع بدر غلام الأمير عزيز الملك فاتك فقتله واستلم حكم حلب، ثم سلمها الى الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله، وبذلك زال حكم الحمدانيين في الشام نهائياً عام ٤١٣هـ.

---

(٢٣) كتاب تاريخ الانطاكي. يحيى بن سعيد الانطاكي، ص ١٧٤ .

(٢٤) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب. مجلد ١، ص ١٩٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عرف عن سيف الدولة اهتمامه بالعلوم والفنون ورعايته لها. وكان ابن عمه الشاعر المشهور أبو فراس الحمداني من أنشط من رفع شأن الأدب والشعر، وله قصائد رائعة ومنها قصيدة مشهورة، قالها في مدح آل البيت، يتناقلها الشيعة حتى يومنا هذا.

وفي عام ٣٣٧هـ قدم الى بلاط سيف الدولة في حلب الشاعر أبو الطيب المتنبي[٢٥] الذي أصبح شاعر سيف الدولة الذي أحبه وقربه اليه واستصحبه الى الحروب والغزوات المختلفة. أقام المتنبي عند سيف الدولة تسع سنوات نظم في اثنائها ثمانيَ وثلاثين قصيدة، منها أربع عشرة في معارك الأمير مع الروم[٢٦].

تعدت الحركة الفكرية في حلب الشعر والأدب الى العلم والفلسفة، لمع في سمائها أبو نصر الفارابي[٢٧] الذي أتى حلب من بغداد عام ٣٣٠هـ حيث حل في كنف الحمدانيين وعمل على نشر الفلسفة اليونانية، خصوصاً فلسفة أفلاطون وأرسطو طاليس، واكتسب ثقافة واسعة لُقب بسببها «المعلم الثاني» على أن أرسطو طاليس هو «المعلم الأول».

كما قلنا سابقاً، اعتنق الحمدانيون مذهب الشيعة الاثني عشرية، في عهد الأمير سيف الدولة الحمداني، وكانوا في نسبهم ينتمون الى قبيلة تغلب، وتغلب بن وائل

---

(٢٥) هو احمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفي. وجعفي بن سعد عشيرة من مذحج من كهلان من قحطان. ولد في الكوفة عام ٣٠٣هـ وقتل عام ٣٥٤هـ. كان والده يعرف بعبدان السقا، كان يترفع عن ذكر نسبه فقال:

لا بقومي شرفت، بل شرفوا بي وبنفسي فخرتُ، لا بجدودي

كان علوي النشأة، اسماعيلي المذهب وقرمطي النزعة. نصب نفسه داعية اسماعيلياً وادعى النبوة.

(٢٦) كتاب الجديد في الأدب العربي. حنا الفاخوري، ص ١٨١ .

(٢٧) هو أبو نصر محمد بن طرخان بن اوزلع المعروف بالفارابي. ولد عام ٢٥٩هـ في مدينة فاراب في تركيا وكان والده قائداً في الجيش التركي. قدم الى بغداد حيث درس علم المنطق والفلسفة والرياضيات على يد «يوحنا بن حبلان». قدم حلب عام ٣٣٠هـ حيث التحق بالبلاط الحمداني. كان مفكراً زاهداً متقشفاً كان يعتزل الناس ويحب الخلوة الى نفسه له مؤلفات عديدة في فلسفة أفلاطون وأرسطو طاليس وتأثيرهما على الفلسفة الاسلامية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بن بطون ربيعة، كانت تنتشر في الجزيرة العربية وقسم من العراق بعيدة عن الموصل معقل الحمدانيين، ولهذا كان ضعف القاعدة القبلية، بل انعدامها فعلياً، عند الحمدانيين، سبباً لاضطرارهم تجنيد الأتراك والفرس، وهم على مذهب السنة، في جيشهم والاعتماد على المال، وليس على الدين والقبيلة، لكسب ولاء الجنود، مما سبب للحمدانيين انفاقاً باهظاً تحول عبئاً كبيراً على مركزهم المالي، فاضطروا الى رفع الضرائب مما سبب في فوضى معيشية وتذمر ونفور بين الأهالي.

من المعروف تاريخياً أن أول انطلاقة لعقيدة التوحيد الدرزية في بلاد الشام، كانت في أواخر عهد الخليفة الحاكم بأمر الله، أي من عام ٤٠٨هـ حتى عام ٤١١هـ، ثم خلال أوائل عهد الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أي من عام ٤١١ حتى عام ٤١٧هـ أي أيام المحنة. كانت هذه الانطلاقة في بعض قرى الغوطة في ضواحي دمشق، وجبل السمّاق قرب حلب، والتجمع الدرزي في وادي التيم، اذ أن هؤلاء الموحدين كانوا بقايا القرامطة الذين بقوا في بلاد الشام بعد معركة الرملة عام ٣٦٧هـ ونزوح القرامطة النهائي الى الاحساء. بعد عام ٤١١هـ أطلق على الموحدين الدروز في مصر اسم «المنتظرة» أي منتظرين رجوع الحاكم بأمر الله، وفي بلاد الشام اسم غلاة الاسماعيلية خوفاً من اضطهاد السلطة الحاكمة لهم.

حصلت انطلاقة التوحيد الدرزية في آخر عهد الحمدانيين اذ انتهت امارتهم عام ٤١٣هـ.

في لبنان عائلات حمدان من الصعب القول إنها من سلالة العائلة الحمدانية التي حكمت حلب، بالنسبة لعدم وجود مراجع تاريخية تنص على ذلك، منهم عائلة مشايخ حمدان المعروفة في باتر الشوف وكان منهم القاضي عادل حمدان. ويقال إنّ هذه العائلة أتت الى لبنان عند قدوم علي باشا جنبلاط وابنه رباح عام ١٦٣٠م.

ثم هناك عائلة حمدان في قرية «البنّيه»، فهذه الأسرة من سلالة التنوخيين وكانوا من أصحاب النفوذ يقطنون قرية «كفرا» ولا تزال خرائبها موجودة قرب بلدة عيناب في قضاء عاليه. كان بنو حمدان من العصبية اليمينية فاشتبكوا في معركة مع المعنيين القيسيين، فخسروها، فدمّر المعنيون «كفرا» وهاجرت عائلة حمدان، كغيرها من العائلات اليمانية، الى سوريا حيث صاروا زعماء جبل الدروز حتى منتصف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القرن الماضي اذ انتقلت زعامة الجبل الى عائلة الأطرش. في حرب الدروز ضد جيش ابراهيم باشا المصري في منطقة «اللجاه» كان الشيخ يحيى حمدان قائد الدروز[٢٨].

يقول الكاتب George Washington Chasseud وهو ابن قنصل انجلترا في لبنان عام ١٨٤١م انه عندما زار بلدة عيناب عام ١٩٤٢ نزل ضيفاً على شيخها وكان من عائلة حمدان[٢٩].

(٢٨) كتاب سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي. بازيلي، ص ١٨٩ .

(٢٩) كتاب . Druses of the Lebanon, Printed 1855

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بنو مرداس الكلابيون

المرداسيون فرع من بني كلاب، وهم بطن من بني عوف بن سليم بن عامر بن صعصعة من العدنانية[١]. كانت مساكنهم بين قابس وبلد العناب قبل أن ينتقلوا الى «يثرب»[٢] في الجزيرة العربية، ومن يثرب انتقلوا الى شمال بلاد الشام في الفتوحات الاسلامية الأولى.

اسرة بني مرداس هي وليدة بني كلاب أصل العصبية القيسية وأعداء بني كلب اليمانيين. بعد معركة مرج راهط عام ٦٤هـ، ضعف نفوذ بني كلاب حتى قيل فيهم «مساكين كقيسي في حمص» يقال إنهم كانوا أكثر العرب عدداً وأشدهم بأساً وأكثرهم خبرة في الغزو والقتال، لهم صفة البداوة وخشونتها، والنفرة من النظام وعدم التقيد بالولاء الاّ لمن كانت مصالحهم في يده.

اما عن بروز اسم بني مرداس كدولة في ذلك الوقت فيقول المؤرخ M. Canard «برز اسم بني مرداس لأول مرة عندما استعان الخليفة الحاكم بأمر الله بصالح بن مرداس وحرضه على قتال مرتضى الدولة بن لؤلؤ والي حلب ومنحه مقابل ذلك، ولاية مدينة «الرحبة» ولقبه بأسد الدولة، وكان بنو كلاب قد أخذوا في ذلك الوقت يسيطرون على شمال بلاد الشام بعد أن ضعف الحمدانيون»[٣].

اما المؤرخ ابن الأثير، فتختلف روايته عن رواية M. Canard اذ يقول: «في عام ٣٩٩هـ حدثت فتنة في مدينة «الرحبة» وكان واليها رجل يدعى ابن «قحطان» فراسل صالح بن مرداس يستعين به لاخماد الفتنة، وكان صالح لا يزال أسير عاداته الجافية وقسوته البدوية، فقاتل حليفه ابن «محكان» على البلد ثم استولى على الرحبة

(١) كتاب نهاية الأرب في معرفة انساب العرب، ابو العباس القلقشندي، ص ٤١٨ .

(٢) يثرب هو الاسم القديم للمدينة المنورة.

(٣) كتاب Marius Canard, Histoire de la Dynastie des Hamadanides de Jazira et de Syrie, page 714.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأقام الدعوة بها للمصريين. وفي عام ٤٠٠هـ بدأ يتدخل في شؤون حلب. وكانت هذه أول مرة سمع فيها بصالح بن مرداس»[٤].

اما المؤرخان ابن العديم[٥] ويحيى بن سعيد الأنطاكي[٦] فتختلف روايتهما، وهي التي يعتمدها معظم المؤرخين المسلمين، عن غيرها في بعض التفاصيل، وهذه بعض المقتطفات عن الأحداث التي جرت في ذلك الوقت:

«توفي يوم الخامس من صفر عام ٣٩٢هـ أبو الفضائل سعيد الدولة الحمداني، وكان ذلك بمثابة النهاية الفعلية لحكم الأسرة الحمدانية بحلب وأصبح الحكم الفعلي للحاجب لؤلؤ، الذي كان من غلمان سيف الدولة[٧].

حكم لؤلؤ باسم ولدي الأمير سعيد الدولة الحمداني، أبو الحسن علي وأبو المعالي شريف، ثم بعثهما الى مصر وأعلن نفسه حاكماً منفرداً لحلب وساعده ابنه المنصور الذي نكّل واضطهد، مع والده، ببقية الأسرة الحمدانية[٨].

توفي لؤلؤ في نهاية عام ٣٩٩هـ وبوفاته غدا ابنه منصور حاكماً منفرداً لحلب وكان قصير النظر سكيراً فاسداً وماجناً.

ضاق سكان حلب من أعمال منصور وظلمه وفساده وشرعوا بالبحث عن طريق يتخلصون بها منه فكان امامهم، اما استدعاء احد أولاد الأمير سعيد الدولة من مصر او جلب أبي الهيجاء من بيزنطية.

قرر أهل حلب جلب أبو الهيجاء من بيزنطية وساندهم بذلك زعماء بني كلاب الذين كان لديهم قوة فعّالة في حلب. طلب أهالي حلب من عهد الدولة الحاكم المرواني لديار بكر ووالد زوجة الأمير الحمداني أبي الهيجاء الذي كان على علاقة طيبة مع البيزنطيين المساعدة، فوافق على ذلك وقدم المال اللازم مع مائتي فارس لمرافقة أبي الهيجاء وذلك عام ٤٠٠هـ.

---

(٤) كتاب التاريخ الباهر في دولة الاتابكية، ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي الخزري.

(٥) كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب وكتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب.

(٦) كتاب تاريخ المجتمع في التحقيق والتصديق، يحيى بن سعيد الأنطاكي.

(٧) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب، مجلد ١، ص ١٩٠ .

(٨) المرجع نفسه، مجلد ١، ص ١٩٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خلال وجود أبي الهيجاء في «ميافارقين» عند والد زوجته ممهد الدولة، اجتمع بجماعة من شيوخ بني كلاب الذين وعدوه بالتأييد حتى يصل الى هدفه.

وصل أبو الهيجاء الحمداني الى اطراف حلب وكان برفقته بنو كلاب وحشودهم، ولكن للكلابيين وشيوخهم مقاييس خاصة في الاخلاص السياسي ومفهوم الوعود والاتفاقيات اذ كانوا، كمعظم أهل البداوة، على استعداد للنظر في هذه الوعود والاتفاقيات بعين الاعتبار لمنافعهم الشخصية ومرابحهم. كان منصور اتصل سرياً ببني كلاب، قبل قدومهم الى حلب، وعرض عليهم المال والاشتراك في حكم حلب اذا تخلوا عن ابي الهيجاء.

عند وصول الجيش الفاطمي، الذي أرسله الخليفة الحاكم بأمر الله لمساعدة منصور، بقيادة قاضي طرابلس علي بن عبد الواحد بن حيدرة، الى معسكر أبي الهيجاء تفرق الكلبيون وانسحبوا من المعركة، وذلك حسب اتفاقهم مع منصور. فانهزم جيش أبي الهيجاء الذي فر الى القسطنطينية حيث قضى بقية حياته[٩].

حاول القاضي علي بن عبد الواحد بن حيدرة احتلال حلب، ولكن الوالي منصور أغلق أبواب حلب في وجهه فرجع الى طرابلس خائبا من دون نتيجة تذكر للدولة الفاطمية.

غضب الخليفة الحاكم بامر الله من منع جيشه احتلال حلب، فأرسل قوات جديدة بقيادة ابي المعالي شريف بن سعيد الدولة، وهو أحد الأميرين الحمدانيين من أبناء سعيد الدولة اللذين ارسلهما منصور الى مصر. وصل الجيش الفاطمي الى معرة النعمان عام هـ٤٠٢, حيث اشتبك مع بني كلاب في معركة عنيفة أضطر على أثرها الى التراجع الى القاهرة[١٠].

اعلن منصور طاعته للحاكم فنال رضاه فبعث اليه سجلاً في رمضان عام ٤٠٤ هـ اكد فيه ولايته على حلب، ويقال انه كان أول حاكم لحلب اعترف بسلطان الخلافة الفاطمية بدلاً من العباسية[١١].

---

(٩) كتاب المجموع على التحقيق والتصديق، يحيى سعيد الانطاكي، ص ٢١١ .

(١٠) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب، ابن العديم، مجلد ١، ص ٢٠٠ .

(١١) كتاب الكامل في التاريخ، الطبري، مجلد ٩، ص ١٥٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طالب الكلابيون الوالي منصور الوفاء بوعده لهم بالمال والمشاركة في الحكم، خصوصاً، زواج ابنته من صالح بن مرداس وتقسيم دخل الدولة معه. تنكر منصور لذلك وماطل وأراد التملص من وعوده، فحاصر صالح بن مرداس والكلبيون حلب ومنعوا دخول المؤن اليها وعاثوا في ضواحيها فقطعوا الأشجار وأتلفوا المزروعات وسببوا مصاعب جمة لسكانها(١٢).

اعلن منصور أنه يريد الوفاء بوعوده السابقة بل سيسعى الى تحالف واتفاق جديد مع شيوخ بني كلاب، فدعا زعماء القبيلة وشيوخها الى وليمة كبيرة داخل قصره، قيل قدم اليها أكثر من سبعماية شخص من كبار الكلابيين، وعند دخولهم قصر منصور كان بانتظارهم جمهور من غلمانه وجنده والسيوف بأيديهم فقتل عدد كبير من الكلابيين وسجن الباقون في زنزانات سجن القلعة. حدث ذلك في اليوم الثاني من ذي القعدة عام ٤٠٢ هـ.

كان بين السجناء صالح بن مرداس أحد زعماء بني كلاب الذي حاول منصور اذلاله واهانته فأجبره على طلاق زوجته «طرود» وتزوجها ووضع الحديد في رجليه.. بقي صالح بن مرداس في السجن من عام ٤٠٢ هـ الى عام ٤٠٥ هـ ثم تمكن، بمساعدة بعض أتباعه، من الفرار من سجنه عام ٤٠٥ هـ وذهب الى مرج دابق حيث مضارب بني كلاب.

وفي احدى الروايات التي شاعت: «ان صديقاً مجهولاً أعطى صالح بن مرداس مبرداً فتمكن بواسطته من قطع واحد من قيود قدميه ولكنه عجز عن قطع القيد الثاني فقام بربط السلسلة حول ساقه وقفز في ظلمة الليل في الأول من محرم ٤٠٥ هـ منطلقاً نحو حريته». يرفض هذه الرواية الكثير من المؤرخين. «على ان المرء يحتاج الى معجزة كي يستطيع أن يقفز من أعلى سور القلعة المرتفع وهناك قيد وسلسلة مربوط بلبنة من الحديد ثقيلة قد لفت حول احدى الساقين. يستطيع أن يقفز ويصل دون ان تصيبه جراحة او دون اثارة انتباه الحرس»(١٣).

---

(١٢) كتاب تاريخ الانطاكي، يحيى بن سعيد الانطاكي، ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(١٣) كتاب امارة حلب، الدكتور سهيل زكار، ص ٤٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جمع صالح بن مرداس جيشاً من بني مرداس وكانوا حاقدين على منصور لقتله وسجنه الكثير من زعمائهم في خديعة «الوليمة» عام ٤٠٢هـ، فوعدوه بالطاعة والقتال معه. حاول منصور القتال فنشبت معركة في ١٢ صفر عام ٤٠٥هـ فهزم منصور وجيشه وقتل الكثير من أهل حلب ووقع منصور بالأسر مع كبار قادته.

ربح صالح بن مرداس معركة حلب ضد الوالي منصور بن لؤلؤ ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على المدينة، ولهذا جرت تسوية امكن الوصول بواسطتها الى مصالحة، اطلق بموجبها صالح سراح الوالي منصور، الذي كان اسيراً عنده، وأطلق منصور سجناء بني كلاب ودفع مبلغ خمسين ألف دينار ذهبي وعشرين رطلاً من الفضة وأطلق النساء الكلبيات اللاّتي قد تزوجهن، منهن زوجة صالح بن مرداس، على أن يتزوج صالح ابنة الوالي منصور ويصبح شريكاً في حكم حلب يتقاسمان خراجها بينهما. ثم يعترف منصور بأن صالح أعلى أمير في بني كلاب وعلى جميع امرائها طاعته. كانت هذه الاتفاقية أول خطوة في ارساء قاعدة حكم الأسرة المرداسية(١٤).

وكانت نهاية حكم الوالي منصور في اختلافه مع غلامه «فتح القلعي» حاكم قلعة حلب. فقد اتهمه منصور بأنه ساعد صالح بن مرداس على الفرار من سجنه عام ٤٠٥هـ. ساد النفور بينهما وأعلن «فتح» العصيان ونادى بولائه لصالح بن مرداس وذلك في ٢٤ رجب عام ٤٠٦هـ. خاف منصور أن يكون صالح وراء عصيان فتح، فهرب مع أولاده الى انطاكية حيث التجأ الى البيزنطيين، وكان ذلك نهاية الحكم الحمداني(١٥).

بعد اعلان حلب ولاية فاطمية وبعد أن صارت الخطبة للخليفة الحاكم بأمر الله، ارسلت القاهرة ولاة فاطميين على حلب منهم، فاتك ولقبه أمير الأمراء وعزيز الدولة الذي وصل حلب في رمضان عام ٤٠٧هـ وتمكن من استمالة صالح بن

---

(١٤) كتاب تاريخ يحيى الانطاكي، ص ٢١٠ - ٢١٣ . كتاب الكامل في التاريخ، ابن الاثير مجلد ٩، ص ١٠٥ .

(١٥) كتاب تاريخ يحيى الانطاكي ص ٢١٤ . كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب ابن العديم مجلد ١، ص ٢٠٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مرداس، الذي بقي موالياً له مدة خمس سنوات. عند اختفاء الخليفة الحاكم بأمر الله عام ٤١١ هـ حاول عزيز الدولة فاتك التقرب من الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله ولكن ست الملك، شقيقة الحاكم والتي كانت مسيطرة على الحكم، كانت تعرف عن فاتك محاولاته للاستقلال والانشقاق عن القاهرة، فحرضت غلامه بدر على قتله ثم أرسلت مَن قتلَه بعد ثلاثة أشهر من توليه ولاية حلب.

بعد بدر، وفي الاربعاء ١١ رجب عام ٤١٣ هـ قدم حلب واليان، والٍ للمدينة صفي الدولة محمد بن علي بن جعفر بن فلاح الكتام، ووالٍ للقلعة يمن الدولة الخادم. لم يستمر هذا التعيين طويلاً، ففي ١٥ محرم عام ٤١٤ هـ صرف الوالي الكتامي واستبدل بكتامي أخر، سيد الدولة الحسن بن محمد بن ثعبان، الذي انتهى حكمه بموته في ٢١ ربيع عام ٤١٥ هـ.

كان صالح بن مرداس في ذلك الوقت قوياً ناشطاً يسير بقيادته معظم قبيلة كلاب فسيطر على السلطة في حلب، ولكنه بقي على ولائه للفاطميين.

عندما احتل حلب صالح بن مرداس عام ٤١٤ هـ، بعد ان فتح له سالم بن مستفاد، غلام سيف الدولة، باب قنسرين، استقر في حكمه واتخذ وزيراً هوتادروس بن الحسن النصراني واستكمل مظاهر العظمة وعيّن قاضياً أبا يعلى عبد المنعم بن عبد الكريم بن سنان، فانتقل من حياة البداوة الى حياة الرخاء والرفاهية والترف.

سبق وقلنا قام الحلف الثلاثي بين القبائل الكبيرة في بلاد الشام وقسمت البلاد الى ثلاث مناطق نفوذ: المرداسيون في حلب وآل الجرّاح في فلسطين وبنو كلب في دمشق وجوارها.

كتبنا سابقاً بالتفصيل عن هذا الحلف وعن معركة الاقحوانة[١٦] التي قضت على هذا الحلف وانهت دور صالح بن مرداس الذي قتل خلالها مع ابنه الصغير.

كان مقتل صالح بن مرداس في معركة الاقحوانة، بعد سنوات قليلة من تأسيس الامارة المرداسية، ضربة قوية لهذه الامارة الناشئة ولكنه كان قد نجح في ارساء الحكم المرداسي في حلب وأسس امارة ثابتة وقوية لبني كلاب في بلاد الشام.

---

(١٦) كتاب تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ١١٩، (تفصيل دقيق عن معركة الاقحوانة).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقول الدكتورة أمينة بيطار: «ولم تعش الامارة المرداسية طويلا، وأول من تولى الأمارة فيها هو صالح بن مرداس الكلابي في سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٤م. حتى ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م. ثم شبل الدولة نصر بن مرداس من سنة ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م حتى ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م، ثم معز الدولة ثمال بن مرداس من سنة ٤٣٣هـ / ١٠٤٢م حتى سنة ٤٥٣ / ١٠٦١ . ثم عطية بن صالح ومحمود بن مرداس من سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م. حتى سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٥م.

بعد مقتل صالح بن مرداس واستلام أولاده، نصر، ثمال وعطية الحكم، جرت حروب عديدة على جميع الجبهات ومع جميع القوى والقبائل من عدو وحتى صديق حليف، وهذه الحروب التي كان سببها الغزو والنهب والسيطرة ونتائجها القتل والسلب والدمار لا تدخل في موضوع هذه الدراسة لأنها ليست دراسة في تاريخ الامارة المرداسية، بل عن علاقة عقيدة التوحيد الدرزية في تاريخ الامارة المرداسية.

تنحصر علاقة الموحدين الدروز بالمرداسيين في قضيتين: الاولى اضطهاد الدروز في ضواحي دمشق من الوالي عبد الرحيم بن الياس ومساعدة صالح بن مرداس له ثم ارسالهم جيشاً الى وادي التيم للقضاء على الدعوة التوحيدية. اما القضية الثانية فهي انتفاضة الموحدين الدروز في جبل السمّاق عام ٤٢٣هـ وقمعها بشراسة من نصر بن صالح بن مرداس بمعاونة القائد البيزنطي «فقيطا» او «نقياس» ثم امتداد المذبحة الى انطاكية.

ويجب أن نذكر أن القائد نشتكين الدزبري، وبعض المؤرخين يقولون أن الأمير رافع أبا الليل الكلبي، قتل نصر بن صالح بن مرداس في معركة «تل فاس» قرب بلدة «لطمين» في ١٣ شعبان عام ٤٢٧هـ.

انتهت امارة المرداسيين عام ٤٧١هـ عندما احتل مسلم العقيلي أمير الموصل حلب[١٧].

(١٧) كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين، الدكتورة امينه بيطار، ص ٢٩١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بنو عقيل

بنو عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من العدنانية ومنهم الشاعر مجنون بن عامر، قيس بن الملّوح - الملقب - بمجنون ليلى[1].

ويقول القلقشندي: «وكانت مساكنهم بالبحرين في كثير من العرب. وكان أعظم قبائلهم هناك، بنو عقيل، وبنو تغلب، وبنو سليم، وكان أظهرهم في الكثرة والعز بنو تغلب. ثم اجتمع بنو عقيل وبنو تغلب على بني سليم حتى أخرجوهم من البحرين ودخلوا الى مصر». ويقول: «ثم اختلفت بنو عقيل وبنو تغلب بن مرة، فغلبت بنو تغلب على بني عقيل وطردوهم من البحرين، فساروا الى العراق وملكوا الكوفة والبلاد الفراتية وتغلبوا على الموصل، وملكوا تلك البلاد ومنهم، كان المقلد، وقرواش، وقريش وابنه مسلم بن قريش»[2].

لا تزال قبيلة عقيل، حتى يومنا هذا، ذات شأن ونفوذ في الجزيرة العربية وكذلك في جنوب العراق.

بما أن هذه الدراسة هي توضيح وتفسير العوامل التاريخية والفكرية التي أثرت على نشوء دعوة التوحيد الدرزية وليست عن تاريخ القبائل العربية التي كانت تعيش في بلاد الشام في القرنين الرابع والخامس هجري، ولأن بني عقيل لم يؤثروا على هذه العقائد، الاّ في تحالفهم احياناً مع القرامطة، وكان تحالفاً عسكرياً وليس فكرياً او عقائدياً، فعليه سأحصر دراستنا عن بني عقيل في بعض الحوادث التاريخية لتكملة التسلسل التاريخي في بلاد الشام في تلك الحقبة من الزمن.

تقول الدكتورة امينة بيطار: «وكان لبني عامر بن صعصعة، الذين ينحدر منهم بنو عقيل، نفوذ واسع في الجزيرة الفراتية عند بعثة الرسول محمد، حتى انه عرض

(١) كتاب نهاية الأرب في معرفة انساب العرب، القلقشندي، ص ٣٦٦ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٦٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفسه عليهم، عندما أبلغ رسالته، طالباً مساعدتهم وتأييدهم له. وكان لبني عامر بن صعصعة نصيب وافر من غنائم غزوة حنين التي وزعها الرسول على المبايعين له[٣].

كان ولاء بني عقيل لآل البيت ولكن حاربوا الفاطميين مراراً وتحالفوا مع اعدائهم لمصالحهم الخاصة، كما انهم عرفوا بتعصبهم الشديد لنزعتهم العربية ضد الفرس والاتراك.

عندما ثار نصر بن شيث العقيلي عام ١٩٨هـ، ارسل الى الخليفة المأمون عبدالله بن الرشيد (١٩٨ - ٢١٨هـ). «انه يحاربه دفاعاً عن العرب لأنه قدم عليهم العجم». ثم قال كذلك: «انه حارب الخليفة المأمون لأن امه فارسية وساعد أخاه الأمين، لأن أم الأمين عربية»[٤].

منذ ثورة نصر بن شيث عام ١٩٨هـ حتى تأسيس امارتهم في الموصل عام ٣٨٠هـ بواسطة الأمير محمد بن المسيّب العقيلي، كان بنو عقيل رعايا لبني حمدان.

كما قلنا سابقاً، ان هذه الدراسة ليست عن تاريخ بني عقيل، فلهذا سنختصر بحث ما قام به بنو عقيل من حروب مع القرامطة، الفاطميين وغيرهم.

تقول الدكتورة امينة بيطار عن زعماء بني عقيل:

١ - ابو الذؤاد محمد بن المسيّب العقيلي، الملقب نجدة الدولة ابو كامل منصور. وقد أسس الدولة العقيلية في الموصل سنة ٣٨٠هـ وتوفي عام ٣٨٦هـ.

٢ - المقلد بن المسيّب، الملقب حسام الدولة، والذي قتل سنة ٣٩١هـ غيلة على يد غلمانه من الأتراك.

٣ - قرواش بن المقلد الملقب معتمد الدولة، الذي قتل سنة ٤٤٤هـ.

٤ - قريش بن بدران العقيلي، الملقب علم الدين أبو المعالي، والذي ظل يتولى امارة الموصل حتى سنة ٤٥٣هـ.

٥ - مسلم بن قريش الملقب شرف الدولة ابو البركات.

---

(٣) كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين، ص ٣١٩ .

(٤) كتاب دولة بني عقيل بن الموصل، خاشع المعاصيدي، ص ٤٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم تقول الدكتورة امينة بيطار «اما ظالم بن موهوب فلم يكن له دور في الامارة، ولكنه لعب دوراً بارزاً في احداث الشام ايام الفتح الفاطمي»[٥].

عندما احتل الفاطميون بلاد الشام، او قسما منها، كانت خطة القائد الفاطمي الكتامي، جعفر بن فلاح، ضرب وتشتيت القبائل العربية، فأرسل بني مرة وفزارة لقتال بني عقيل في حوران فهزموهم، فانسحب بنو عقيل الى البحرين حيث انضموا الى القرامطة. في البحرين، بعد قدومه من دمشق، حرّض ظالم موهوب العقيلي، زعيم بني عقيل، القرامطة على الفاطميين. سار القرامطة الى دمشق عام ٣٦٠هـ فاحتلوها وقتلوا القائد الفاطمي جعفر بن فلاح الكتامي وعيّنوا ظالم موهوب العقيلي والياً عليها.

حرّض أبو منجا الحمداني، المعروف بالنابلسي، القائد القرمطي الحسن الأعصم على ظالم موهوب العقيلي لاختلافهما على خراج يافا ورئاسة الجيش، فجرت معركة عام ٣٦١هـ أسر بها ظالم موهوب العقيلي، ولكنه تمكن من الفرار من سجنه وذهب الى العراق[٦].

بعد هذه المعركة، تغير موقف ظالم العقيلي من القرامطة وأعلن ولاءَه للفاطميين الذين كانوا يحاولون التقرب من القبائل العربية والاعتماد عليهم لصد هجمات القرامطة على بلاد الشام.

في العاشر من رمضان عام ٣٦٣هـ احتل الفاطميون دمشق وعينوا ظالم بن موهوب العقيلي والياً عليها. فقبض ظالم العقيلي على ابي المنجا، الذي كان والياً على دمشق من قبل القرامطة، وأرسله الى القاهرة حيث أمر بقتله الخليفة المعز لدين الله. في العام نفسه ٣٦٣هـ اقيمت الخطبة للخليفة الفاطمي المعز لدين الله في مساجد دمشق وسيطر الفاطميون على بلاد الشام ما عدا حلب.

في يوم الثلثاء، لثلاثةٍ بقين من شهر رمضان عام ٣٦٣هـ[٧] قدم القائد

---

(٥) كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين، ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

(٦) المرجع نفسه.

(٧) كتاب تاريخ دمشق، ابن القلانسي، ص ٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتامي ابو محمود بن ابراهيم بن جعفر بن فلاح دمشق مع جيش من المغاربة الذين عاثوا فساداً وكثرت تعدياتهم على الأهالي، فثار أهالي دمشق وجرت معارك شرسة حرق بها بيوت كثيرة حتى المخازن والمساجد وقتل الألوف من الناس والجند[٨].

كانت نتيجة الفتنة، الخراب والدمار وحرق قسم كبير من مدينة دمشق. اما الوالي، ظالم موهوب العقيلي، فأخذ جانب أهالي دمشق، فحمل السيف ضد الجنود المغاربة وقاتلهم قتالاً شديداً، ولكنه لم يستطع قمع شغب المغاربة واستهتارهم بالسلطة، او تهدئة أحداث دمشق وكانوا بقيادة زعيمهم محمد بن عصودا، فسعى الى المصالحة حتى يستتب الأمن ولكن من دون نتيجة، فنحي عن ولاية دمشق في ذي القعدة عام ٣٦٣ واستلمها القائد جيش بن الصمصامة، ابن شقيقة القائد الفاطمي ابو محمود ابراهيم، فترك ظالم العقيلي دمشق وسار الى بعلبك حيث عيّن والياً عليها.

خلال ولاية ظالم العقيلي على بعلبك قدم القائد التركي «افتكين» فجرت معركة انهزم على أثرها ظالم العقيلي وحليفه القائد الفاطمي أبو محمود بن ابراهيم بن جعفر بن فلاح فاضطر ظالم العقيلي الى التقهقر الى صور.

في عهد الأمير قريش بن بدران، الذي تولى الامارة عام ٤٤٤هـ بعد وفاة عمه قرواش، انحاز قريش الى البساسيري عام ٤٤٨هـ وقاتل تحت لوائه في معركة «القيارة» جنوب الموصل وبعد ذلك اختلفوا مع الداعي هبة الله الشيرازي لكثرة طلبهم للمال، ولكنهم انضموا اليه في زحفه على الموصل ثم ساروا مع البساسيري ودخلوا بغداد في ٨ ذي القعدة عام ٤٥٠هـ من دون مقاومة تذكر[٩].

كانت حروب بني عقيل مع السلجوقيين مرهقة لهم، ففي عام ٤٧٤هـ احتل القائد السلجوقي «تتش» دمشق، فتصدى له الأمير مسلم بن قريش العقيلي، وفي عام ٤٧٥هـ جرت معركة حشد فيها «تتش» جيشه كافة، فانهزم مسلم بن قريش ورجع الى الموصل بعد ان تكبد خسائر فادحة. وفي عام ٤٧٩هـ سقطت حلب بيد التركمان ثم لحقها الموصل عام ٤٨٩هـ وبذلك انتهت امارة بني عقيل.

---

(٨) كتاب تاريخ دمشق ابن القلانسي، تفاصيل عن هذه المعارك من ص ٩ الى ص ٢٠ .

(٩) كتاب النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، محمد جمال الدين سرور، ص ١١٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القرامطة في بلاد الشام

ما يعنينا من القرامطة في هذه الدراسة، هي عقائدهم وتقاليدهم وحروبهم في بلاد الشام، وما عدا ذلك، كتاريخهم واعمالهم في الاحساء، والعراق، واليمن والجزيرة العربية فهو موضوع يهم من يريد البحث عن أصل القرامطة ومنشأ دعوتهم كتاريخ كامل لهذه الحركة الثورية الاشتراكية، وحتى الشيوعية، اوجدتها الظروف الصعبة في زمن مليء بالقلق والاضطراب الفكري والديني متخم بالصراع الطبقي والعقائدي يتحكم فيه التناحر العنصري بين العرب والفرس والأتراك، حتى الأكراد والأرمن ويسوده النفور والبغضاء بين الموالي والارقاء والأرستقراطية العربية المسيطرة على الثروة الاقتصادية ولكن ليس على الحكم.

عم الرخاء والترف وكثر المال الذي سبب اللهو والمجون فاستشرى الفساد والانحلال الاخلاقي في طبقة الحكّام وأصحاب النفوذ وقادة الجيوش، فكانت قصور الخلفاء مليئة بالجواري والغلمان والارقاء من جميع الأجناس والألوان التي كانت تباع كالسلع في أسواق النخاسة فعم الفجور والتهتك مما سبب ثورات عديدة وانتفاضات منها الحركة الثورية الاشتراكية الدينية القرمطية، التي بدأت من أجل تحرير الانسان من القهر والظلم والفقر، واقامة مجتمع العدالة والمساواة، حين اطلقت المبادئ الاشتراكية، واعتبرت الانسان العامل الأول والأساسي في المجتمع وليس المادة، فالمادة وجدت لخدمة الانسان والانسان لم يخلق عبداً للمادة.

ولكن بعض المؤرخين اعتبر أن الحركة القرمطية بدعة كفر عبثت بالقيم والأخلاق، فدمرت المدن وقتلت النساء والأطفال والشيوخ ودنست الأماكن المقدسة ولم تترك للتاريخ الاّ أخباراً كئيبة وفواجع قاسية والآلاف من الضحايا البريئة أوجدها سوء الطالع في الأماكن التي اجتاحها هؤلاء القساة السفاحون.

يقول احد المؤرخين الأوائل ان القرامطة أحلوا سفك دماء الناس واخذ اموالهم والشهادة عليهم بالكفر، على مذهب الازارقة الخوارج، واعتمدوا في ذلك قول الله تعالى «واقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» (سورة التوبة، آية ٥). ثم كذلك أوّلوا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قول الله سبحانه «لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً (سورة نوح، آية ٢٦). وقالوا يجب ان يقتل من قال بامامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق وكل من نصب اماماً غير اسماعيل وابنه محمد. وقتل من نصب اماماً من بني هاشم. او من قال بالامامة ممن ليس على قولهم ومذهبهم. والقتل يشمل الجميع من رجال ونساء وأطفال.

القرامطة كانوا من جماعات الدعوة الاسماعيلية، ويمكن القول، انهم فرع من فروع الاسماعيلية. ولهذا لا بد من ان نتقبل فكرة الأصل المشترك للدعوتين، على الرغم من ان العلاقة بينهما تباينت بها اختلافات عقائدية، فجنحت القرمطية الى الممارسة بالبدع والعقائد التي يرفضها الاسلام، «فنسخوا الفروض الاسلامية وتنكروا للأنبياء»[1].

ويقول احد شعراء القرامطة[2]:

خذي الدف يا هذه والعبي ... وغني هزاريك ثم اطربي
تولى نبي بني هاشم ... وهذا نبي بني يعرب
لكل نبي مضى شرعه ... وهذي شرائع هذ النبي
فقد حط عنا فروض الصلاة ... وحط الصيام ولم يتعب
اذا الناس صلوا فلا تنهضي ... وان صاموا كلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفا ... ولا زورة القبر في يثرب
وما الخمر الا كماء السماء ... حلالاً فقُدست من مذهب

في عام ٣١٧هـ هاجم ابو طاهر الجنابي القرمطي مكة، فقتل الآلاف من المسلمين وقال لأصحابه «ضعوا السيف واقتلوا من لقيتم، لا تشتغلوا الاّ بالقتل ولم

(١) كتاب كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة، محمد بن مالك الحمادي، تاريخ القرامطة، الدكتور سهيل زكار، ص ٢٠٣ - ٢٠٧ .

(٢) مخطوطة من مكتبة جامعة ليدن رقم ٢٠٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يزل كذلك ثلاثة أيام»[٣]. ثم دخل الكعبة وقال «اين ربكم يا اهل مكة يذود عنكم».

(المؤرخ ابو الفرج عبد الرحمن علي بن جعفر الجوزي - كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم).

(والمفكر قاضي القضاة عبد الجبار الهمذاني - كتاب دلائل نبوة سيدنا محمد).

(ومحمد بن مالك ابن ابي الفضل الحمادي - كتاب كشف أسرار الفاطمية واخبار القرامطة).

فقد قالوا: «القرامطة انهم باطنية ملحدون، قد جحدوا الشرائع، وكان الباعث لهم هو تهديم الاسلام وتعلقوا بتعاليم زرادشت ومزدك، كانوا يحللون المحظورات، ويحللون المحرمات والاباحية المطلقة، وقالوا ان جميع الأنبياء كذبوا على امهم».

ويقول المفكر الاسماعيلي ناصر خسرو «وفيها اكثر من عشرين الف محارب (الاحساء). وقيل ان سلطانهم كان شريفاً وقد ردهم عن الاسلام، وقال اني اعفيتكم من الصلاة والصوم، ودعاهم الى ان مرجعهم لا يكون الاّ اليه واسمه ابو سعيد، وحين يسألون عن مذهبهم يقولون، إنّا ابو سعيديون، وهم لا يصلون ولا يصومون، ولكنهم يقرون بمحمد المصطفى، صلى الله عليه وسلم، وبرسالته. وقد قال لهم ابو سعيد، اني راجع اليكم، يعني بعد الوفاة». ثم يقول: «وليس في مدينة الاحساء مسجد جمعة ولا تقام بها صلاة او خطبة»[٤].

يقول معظم المؤرخين ان الحركة القرمطية نشأت في سواد الكوفة، ولكن قلة قالت ان أبا القاسم بن الفرج بن حوشب هو الذي بثها في اليمن ثم انتقلت الى سواد الكوفة. ان هذا الادعاء الضعيف قد يكون سببه عدم التفريق بين الدعوة الاسماعيلية، التي بثها ابو حوشب في اليمن، وبين الحركة القرمطية «التي بدأت في عام ٢٦٦هـ»[٥].

---

(٣) كتاب تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد، قاضي القضاة عبد الجبار الهمذاني، كتاب اخبار القرامطة الدكتور سهيل زكار، ص ١٥٦ .

(٤) كتاب سفرنامه، نقله الى العربية الدكتور يحيى الخشاب، ص ١٤٢ .

(٥) كتاب القرامطة، ميكال بان دي خويه، ترجمة حسني زينة، ص ٣٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان من السهل القيام بهذه الانتفاضة الاشتراكية في سواد الكوفة لتصحيح الوضع الاجتماعي والمعيشي لأن المال والأرض كانت بأيدي قلة من الزعماء، والأكثرية من عامة الشعب مستعبدة تعيش كفاف يومها دون أمل بتحسين اوضاعها.

ومما زاد في اذكاء وانتشار هذه الانتفاضة الاسماعيلية - القرمطية في سواد الكوفة بين عامة الناس، كون قادتها الاسماعيليين من آل البيت يحوزون على عطف ومحبة الجماهير ويقرّون لهم بالحق في الحكم، فهم من سلالة فاطمة بنت الرسول وقد اعتدي على حقهم واضطهدوا. هذا مع العلم بان معظم سكان الكوفة كانوا من اتباع العلويين، والكوفة كانت معقل الامام الأول علي بن ابي طالب.

ويقول المؤرخ الاسماعيلي الدكتور عارف تامر «ان أول اتصال بالقرامطة، وذلك ابتغاء لنشر الدعوة الاسماعيلية، كان الامام المستور حسين بن احمد ابن عبدالله الملقب بالاهوازي[٦] وهو الامام العاشر من جده علي بن ابي طالب. ولد حسين الاهوازي في بلدة مصياف سنة ١٩٨هـ وكان يملك ثروة طائلة وقرى عديدة ومزارع، وكان كثير التنقل والذهاب الى بلاد فارس والبحرين والحجاز»[٧].

واثناء وجود الامام حسين الاهوازي في سواد الكوفة التقى بحمدان بن الأشعث المعروف «بقرمط»[٨]. ويقول ابن العديم: «وانما سمي بقرمط لأنه كان

---

(٦) مؤرخو الاسماعيلية يقولون ان حسين الأهوازي هو امام الستر الثالث والد عبيدالله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية. اما باقي المؤرخين المسلمين فيعتبرونه داعيةً اسماعيلياً كان يعمل للامام احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل. اما قاضي القضاة عبد الجبار الهمذاني - كتابه دلائل نبوة سيدنا محمد - فيقول ان حسين الاهوازي كان داعيةً لابن ميمون القداح.
ويقول الدكتور محمد احمد زيود، كتاب العلاقات بين الشام ومصر. «وقد اخذ حمدان هذه الدعوة عن الحسين الأهوازي وهو احد دعاة عبدالله بن ميمون القداح»، ص ١٥٣ .

(٧) كتاب تاريخ الاسماعيلية مجلد ١، ص ١٣٢ .

(٨) المصدر نفسه، ص ١٣٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصيراً. وكانت رجلاه قصيرتين، خطواته متقاربة، فسمي لهذا السبب قرمطاً»[٩] وقيل ان قرمط لقب رجل من سواد الكوفة كان يحمل غلة على اثوار واسمه حمدان[١٠].

ويقول ابن خلكان «القرمطي والقرمطة في اللغة تقارب الشيء بعضه من بعض، يقال خط مقرمط ومشي مقرمط اذا كان كذلك، وكان ابو سعيد المذكور قصيراً مجتمع الخلق اسمر اللون كريه المنظر، فلذلك قيل له قرمطي»[١١]. يقول المستشرق سلفستر دي ساسي، «كلمة قرمط اي غضب وعبس».

ويقول ثابت بن سنان ابن مرة الصابئي: «في سنة ٢٧٨هـ فيها تحرّك بسواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطة، كان ابتداء امرهم – فيما ذكر – ان زعيم هذه الطائفة قدم من بلدة من خوزستان الى عاصمة الكوفة، فنزل بموضع يقال له النهرين وتظاهر بالزهد والورع والتقشف». ثم يقول: «ثم مرض فمكث على الطريق مطروحاً، وكان في القرية رجل يدعى «كرميتة»، لحمرة عينه يحمل على أثوار له غلة، فكلم البقّال في حمل المريض الى بيته، فحمله وأقام حتى برىء. ودعا اهل القرية الى اعتناق مذهبه وكان يأخذ من كل رجل دينارا ويزعم انه للامام». ثم يقول «وسمي نفسه باسم الرجل الذي كان في داره «كرميتة»، صاحب الأثوار، ثم خفف فقيل قرمط»[١٢].

ويقول الدكتور عارف تامر عن التقاء الامام حسين الأهوازي بحمدان بن الأشعث، قرمط، «بعد ان توثقت بينهما اواصر الصداقة تمكن من التأثير عليه وادخاله في دعوته»[١٣]. وفي الوقت نفسه، التقى بزكرويه بن مهرويه وهو ثري وصاحب قرى كثيرة ومن بلد يقال له «الصوان»، ولهذا لقب بالصواني. اصبح

---

(٩) كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب، كتاب تاريخ القرامطة، الدكتور سهيل زكار، ص ٢٧٧ .

(١٠) مخطوطة لثابت بن سنان بن مرة موجودة عند المستشرق برنارد لويس.

(١١) كتاب وفيات الأعيان مجلد ٢، ص ١٥٠ .

(١٢) كتاب تاريخ القرامطة، الدكتور سهيل زكار، ص ٧ و ٨ .

(١٣) المصدر نفسه، ص ٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زكرويه من قادة القرامطة ولعب مع اولاده، ابو العباس احمد بن عبدالله، الملقب بأبي الناقة، والحسين بن زكرويه (ابن المهزول) الذي ادعى بأنه امير المؤمنين والمهدي، ولقب بأبي الشامة او الخال وذلك لشامة كانت على وجهه. قيل ان زكرويه بن مهرويه باع جميع ما كان يملك من بساتين النخل والقرى ووزع ثمنها على الفقراء والمحتاجين، تحقيقاً لمبادئ الاشتراكية التي كان يؤمن بها ويدعو اليها».

انضم الى الحركة القرمطية علماء ومفكرون ساعدوا على تنظيمها وادارتها وانتشارها كالحسن بن سنبر، والد زوجة ابي سعيد الجنابي، وأبي طريف عدي بن محمد بن الغمر، كانا الوزيرين الاولين، ثم ابي الحسن احمد بن بشر الحارثي، وزير العدل، وثور بن ثور الكلابي»[١٤]. «اما الذين ساعدوا على استقطاب القبائل العربية التي كانت في سواد الكوفة فهم تستر البوراني وابو الفوارس وهذه القبائل كانت بني عابس، عنزة، تيم الله بن ثعلبة[١٥]، تيم ثعل وبني شيبان وذهل»[١٦].

اما تقي الدين المقريزي فيقول عن حمدان الأشعث، قرمط: «وكان ذكياً داهية اخذ على اكثر اهل السواد، فكان ممن اجابه، مهرويه بن زكرويه السليماني، وجلندي الرازي وعكرمة البابلي، واسحاق البوراني، وعطيف النبيلي وغيرهم وبث دعاته في السواد يأخذون على الناس. وكان من اكبر دعاته عبدان، وكان فطناً خبيثاً، خارجاً عن طبقة نظرائه من اهل السواد، ذا فهم وحذق، وكان يعمل عند نفسه على نصب له، من غير ان يتجاوز به الى غيره، ولا يظهر غير التشيع والعلم، ويدعو الى الامام من آل رسول الله محمد بن اسماعيل بن جعفر»[١٧].

---

(١٤) كتاب القرامطة، ميكال بان دي خويه، ص ١٢٣ .

(١٥) تيم الله بن ثعلبة بن عكاية بن علي بن بكر بن وائل، بطن من ربيعة اعتنقوا الاسماعيلية ثم انضموا الى القرامطة ونزلوا سواد الكوفة وقدموا الى بلاد الشام حيث سكنوا في الوادي المعروف اليوم باسم وادي التيم، كتاب القرامطة الدكتور سهيل زكار، ص ٣٢٩ – ٢٩٥ .

(١٦) كتاب تاريخ الاسماعيلية الدكتور عارف تامر، ص ١٥٣ .

(١٧) كتاب اتعاظ الحنفاء باخبار الائمة الفاطميين الخلفاء، تاريخ القرامطة الدكتور سهيل زكار، ص ٣٢٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واما المؤرخ الاسماعيلي الدكتور عارف تامر فيقول «اما عبدان، فكان من الشخصيات المثقفة الذين عرفوا بسعة العلم، والفطنة، والفهم والحذق، والاحاطة بكل شيء حوله، فقد قدم الخدمات، وأصاب النجاح، وألف الكتب واعطى الدروس حتى اعتبر انه احد الذين ساهموا بوضع دستور الدولة القرمطية الاشتراكية. ومن الجدير بالذكر، ان عبدان هو الذي أثر في ابي سعيد الجنابي، الزعيم البحراني الواسع النفوذ، الذي لعب دوراً كبيراً على مسرح السياسة وتمكن من نقل الدولة القرمطية الى البحرين»[١٨]. كان عبدان صهر حمدان بن الأشعث، قرمط.

وبهذا نكون قدمنا وشرحنا، ولو باختصار، الخلفيات التاريخية لانطلاق الحركة القرمطية الاسماعيلية في البلاد الاسلامية كما حدثت قبل انتشار الدعوة التوحيدية الدرزية، وثم تفسير المعتقدات الدينية القرمطية التي من الصعب مقارنتها مع عقيدة التوحيد الدرزية، وعما اذا كانت تأثرت بها وذلك بسبب الغطاء المتشدّد المفروض على سريّة مذهب التوحيد، مع العلم بان هذه الدراسة هي عن المدارس الفكرية فقط التي اثرت على عقيدة التوحيد وليست عن المذهب الديني، ولهذا سنحصر درسنا فقط بالعقيدة القرمطية كما روتها كتب التاريخ الاسلامي دون البحث في مذهب التوحيد الدرزي.

واما حروب القرامطة التي جرت في الاحساء، العراق، واليمن، والجزيرة العربية، فهي خارجة عن نطاق هذه الدراسة، لأن لا علاقة لها او تأثيراً على عقيدة التوحيد التي لم تتعد بلاد الشام، الاّ اذا تطرقنا الى انتشار الدعوة الاسماعيلية في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥هـ) في مدينة «ملتان» في بلاد السند وكان ذلك لمدة قصيرة قبل ان يقضي عليها الجيش الغزنوي بقيادة السلطان محمود الذي غزاها لأول مرة عام ٤٠١هـ ثم هاجمها في عام ٤١٦هـ وقتل معظم الاسماعيليين.

وفي عام ٢٨٤هـ هاجم بنو طي، بتشجيع من حلفائهم قرامطة سواد الكوفة، طريق المواصلات بين سورية والحجاز، فعطلوا طريق الحج في بلاد الشام، ولكن كان هذا الاجتياح غزوة قبلية، اعتبرها المؤرخون حادث شغب أمني قليل الاهمية.

---

(١٨) كتاب تاريخ الاسماعيلية، ص ١٥٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي أول عهدهم كان القرامطة يدينون بالولاء الى الخلفاء الفاطميين، وعندما استلم زعامة القرامطة احمد اخو طاهر الجنابي، طلب منه الخليفة المعز لدين الله مساعدته لفتح مصر، فانصاع له ابو طاهر وأرسل جيشاً من القرامطة الى بلاد الشام. وفي عام ٣٥٧هـ احرز ابو طاهر انتصاراً باهراً على الجيش الأخشيدي فهرب الوالي حسين بن عبيدالله الى مصر. ولكن بدلاً من متابعة المسيرة الى مصر هادن احمد القرمطي حسين بن عبيدالله على فدية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار تدفع له سنوياً»[١٩].

اما الغزوة الاولى فكانت عام ٢٤٣هـ حين قدم الى بلاد الشام قائد قرمطي اسمه ابو غانم مع جمع من بني كلب واسد. وصل الى بصرى وازرع في حوران فقتل ونهب ثم سار الى طبريا في الأردن حيث استولى عليها وقتل واليها يوسف بن ابراهيم بعارمردي ثم نهبها ودمّر القسم الأكبر منها. ولكن الخليفة المتوكل على الله ابو الفضل جعفر (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) ارسل جيشاً بقيادة الحسين ابن حمدان التغلبي حيث اشتبك مع الجيش القرمطي في معركة «وادي خندف» قرب دمشق، فانهزم القرمطي فأسره بنو كلب وقتلوه. بعض المؤرخين يقول، انه لم يقتل بل فرّ الى البادية.

وفي عام ٢٨٩هـ، اواخر الدولة الطولونية في مصر، إذ صار محمد بن طغج الفرغاني[٢٠] عاملاً على الشام عام ٢٩٧هـ. انطلق الزعيم القرمطي زكرويه بن مهرويه الى بلاد الشام على رأس جيش من قرامطة سواد الكوفة وجموع من البدو من اسد وطي وتميم، فالتقى مع الجيش العباسي بقيادة شبل الديلمي في مكان يقال له «الرصافة» في العراق فانهزم الجيش العباسي، وابيدت اكثر قواته.

سار زكرويه بن مهرويه الى بلاد الشام فوصل الى مكان يقال له المزة في ضواحي دمشق بعد ان دمّر القرى وقتل الآلاف من الشيوخ والرجال والنساء وحتى الاطفال، ثم تخلى عن قيادة الجيش الى ابنه يحيى بن الحسين، الملقب بصاحب الناقة، وقفل راجعاً الى سواد الكوفة.

---

(١٩) كتاب الكامل في التاريخ، ابن الأثير، مجلد ٨ ص ٤٥٢هـ. وكتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابو المحاسن يوسف بن تغري بردي، مجلد ٤، ص ٧٥ .

(٢٠) المصدر نفسه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان والي دمشق طغج بن جف الفرغاني من قبل احمد بن طولون. نشبت معركة في المزة بين الجيش القرمطي وجيش طغج بن جف، فانهزم طغج وقتل الكثير من جنده، فالتجأ الى قلعة دمشق حيث لم يتمكن القرامطة من الوصول اليه لمناعتها وحسن تحصينها.

بقي طغج بن جف سبعة اشهر يقاوم من قلعة دمشق حتى وصل جيش كبير من مصر بقيادة «بدر الحمامي» الذي اشتبك في معركة ضارية مع القرامطة، فانهزم القرامطة وقتل قائدهم «صاحب الناقة». «رماه بعض المغاربة بمزراق (رمح قصير) منفّط وملتهب، فاحترق به شيخ القرامطة»(٢١).

ويقول سنان بن ثابت الصابئي «ولما قتل ومن معه اجتمع من بقي منهم على اخيه الحسين، ويسمي نفسه احمد، وكنيته ابو العباس، ودعا الناس اليه فأجابه اكثر اهل البوادي وغيرهم واشتدت شوكته، واظهر شامة في وجهه وادعى أنها آيته وختم نبوته»(٢٢).

هذه الهزيمة الكبيرة للقرامطة، مع مقتل قائدهم صاحب الناقة لم تؤثر عليهم او تثبط عزائمهم، فاعدوا تنظيم جيشهم واندفعوا باتجاه دمشق. وعند وصولهم الى مدينة «الرقة» عام ٢٨٩هـ اشتبكوا في معركة ضارية مع الجيش العباسي فابادوه وقضوا على معظم جنده، ثم تابعوا سيرهم عبر حلب وحمص وحماه حيث دمّروا وقتلوا وسبوا النساء حتى دخلوا مدينة دمشق فأعملوا السيف في رقاب أهلها بعد أن قتلوا الوالي طغج بن جف انتقاماً عن هزيمتهم السابقة ومقتل قائدهم «صاحب الناقة».

ترك صاحب الخال دمشق وسار الى حمص حيث خطب له في مساجدها كأمير المؤمنين والمهدي وأعلن ابن عمّه المدعو عبدالله بن محمد المكنى «بالمدثر» مساعداً ونائباً عنه وخليفته على المسلمين. ثم سار الى حماه وحمص ومعرة النعمان وبعلبك حيث قتل ودمّر وأحرق القرى ثم اتجه الى «سلمية» «مدينة الزعفران» ليقتل الامام عبيدالله المهدي لأن قيل له، ان عبيدالله المهدي يرفض القول ان الامام محمد

(٢١) كتاب اخبار القرامطة، الدكتور سهيل زكار، ص ١٩ (عن سنان بن ثابت الصابئي).
(٢٢) المصدر نفسه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بن اسماعيل بن جعفر الصادق هو صاحب الزمان وقائم الحق الذي برجوعه تكون القيامة ويحاسب الناس على اعمالهم ويعطي الحق لصاحبه[٢٣]. عندما عرف الامام عبيدالله ذلك هرب الى شمال افريقيا حيث أسسس الدولة الفاطمية[*].

«وصل صاحب الشامة الى سلمية، وكان ذلك في مستهل رمضان، فمنعه اهلها، ولم يقدر على مقاومتهم، فصالحهم وامنهم ففتحوا له بابها، فبدأ بمن فيها من بني هاشم، وكانوا جماعةً فقتلهم ولم يبق منهم احداً، وقتل الصبيان والفقهاء والشيوخ والبهائم وخرج منها وليس بها عين تطرف، ودخل في القرى المجاورة لها يسبي ويقتل وينهب ويقطع السبيل ويأتي من المنكرات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت»[٢٤].

---

(٢٣) كتاب المقالات والفرق يقول سعد القمي، وهو من معاصري القرامطة وأول من كتب عنهم «ان سابع الأئمة هو محمد بن اسماعيل وهو حي لم يمت وانه غائب مستتر وانه القائم المهدي. ومعنى القائم عندهم (القرامطة) يبعث بالرسالة وبشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد. ويقول القاضي النعمان – كتاب الرسالة المذهبية في الحكمة والتأويل – القائم هو سابع سبعة ودوره آخر الادوار، يأتي ويلغي كل الشرائع السابقة.. ويقول الداعي ابن منصور اليمن. كتاب الكشف فسره الفيلسوف «شتروطمان» (اكسفورد عام ١٩٥٢) «عندما يخرج المهدي القائم، حينئذ يشرب الثور والسبع من حوض واحد ويخلف الراعي الذئب على غنمه، ولا يدع بدعة من البدع الاّ اطفئت ومحقت ويرد الحق الى أهله حتى يعود الانسان كما ولد.

(*) اعتنق القرامطة عقيدة الامام المنتظر وقالوا انه قمة الايمان وقائم الحق وصاحب الزمان، حتى انهم استبقوا قدومه فألغوا الامامة، فالمهدي امامهم، نسخوا دور الأنبياء والشرائع لأن المهدي المنتظر سيأتي بشريعة جديدة تنسخ ما قبلها من الشرائع وتعم العالم. تخلّوا عن الفروض كالصلاة والزكاة والصوم والحج. سيطرت فكرة رجعة الامام من غيبته على مجمل تفكيرهم، ونسمع عن الزعيم القرمطي ابي طاهر الجنابي يستقدم من الهند علماء الفلك والمنجمين كي يخبروه عن وقت رجعة الامام المهدي.

(٢٤) كتاب اخبار القرامطة، الدكتور سهيل زكار، ص ٢٠، عن ثابت بن سنان ابن قرة الصابئي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول محمد بن جرير الطبري «لم يبق في سلمية حتى كلب ينبح او عين تطرف»[٢٥].

غضب الخليفة العباسي المكتفي بالله علي بن المعتضد (٢٨٩ - ٢٩٥هـ) فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة ابي الآغر السلمي، فلقي القرامطة في حلب حيث اوقعوا به هزيمة كبرى، ثم أرسل اليهم جيشاً آخر بقيادة محمد بن سليمان الكاتب الذي قصد حلب والتقى بالقرامطة عام ٢٩١هـ في مكان قريب من حماه، وهناك نشبت معركة عنيفة حيث انهزم القرامطة وشرّد جيشهم، وهرب «صاحب الشامة» مع ابن عمه وخليفته «المدثر» ودليل رومي، وعندما صاروا على مقربة من الرحبة عرفهم أهالي البلدة فقبضوا عليهم وأتوا بهم الى الوالي الذي أرسلهم الى بغداد حيث عذبوا وضربت اعناقهم وصلبوا على أبواب المدينة. وكان ذلك عام ٢٩٢ هجري[٢٦].

بعد مقتل ولديه، صاحب الناقة وصاحب الشامة، خرج زكرويه بن مهرويه من عزلته في قرية «الذرية»، طالبا الثأر لأولاده، فاستجابت له بنو كلب وبنو القليص وغيرهم، فجند جيشاً كبيراً، فحاصر دمشق ودخلها ثم سار الى بلاد حوران ففتحها ثم عاد الى دمشق حيث اشتبك مع الجيش العباسي وكان على رأسه صالح ابي الفضل فهزمه وقتل القائد صالح أبي الفضل ولكنه لم يدخل دمشق بل سار الى طبرية حيث دمّر القرى وقتل الكثير من الناس(*).

ثم سار عام ٢٩٣ الى الكوفة مع جيشه واعملوا القتل في اهاليها ثم وصل الجيش العباسي وكانت معركة كبيرة انهزم بها الجيش العباسي بعد خسارة كبيرة. وفي عام ٢٩٤هـ هاجم زكرويه الحج ولكن القافلة ارتحلت قبل قدومه ثم غار على بني اسد فدمّر بيوتهم ثم هاجم قافلة من خراسان لم ينج منها الاّ القليل واستولى على جميع الأموال وسبى النساء وقتل الشيوخ والاطفال.

---

(٢٥) كتاب تاريخ الرسل والملوك، تحقيق بان دي خويه ليدن.

(٢٦) كتاب ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب تحقيق الدكتور سهيل زكّار. تفصيل أسر واعدام ابو الشامة من ص ٢٨١ الى ص ٢٨٦ .

(*) عدد الهاشميين، وهم من آل البيت، الذين قتلهم صاحب الشامه من سلمية كان ١٤١ منهم ٩٥ شيخ من الفقهاء. بنو هاشم بن عبد مناف والد عبد المطلب جد النبي محمد وهم «اهل البيت». آل البيت سلالة علي بن أبي طالب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وغضب الخليفة المكتفي بالله ممّا جرى للحجيج فأرسل جيشاً بقيادة وصيف بن سوارتكين عام ٢٩٤هـ فحدثت معركة كبيرة على طريق «خفان» قرب الكوفة، قتل فيها من القرامطة ما لا يحصى عدده، اما زكرويه فقد ضربه رجل بسيفه على رأسه فوقع على الأرض فحملوه أسيراً، ولكنه مات بعد مضي خمسة أيام فأرسلت جثته الى بغداد(*).

انتهت حروب قرامطة سواد الكوفة وآل مهرويه، وكان سبب اخفاقهم عدم التنظيم اذ كان جيشهم من البدو بدون قيادة يطيعونها، ثم السلب والنهب والقتل والتدمير حتى كرههم الناس، واوجد قتل الهاشميين في سلمية نقمة واشمئزازاً من الشعب كافةً وخصوصاً الاسماعيلية والهاشميين.

قبل ان ننتقل الى حروب القرامطة من أسرة الجنابي في بلاد الشام، وهي حروب القرمطي حسن الاعصم، لا بد من كلمة موجزة عن اشتراكية القرامطة.

يقول ناصر خسرو «ومن الى مطاحن مملوكة للسلطان تطحن الحبوب للرعية مجاناً ويدفع السلطان نفقات اصلاحها وأجور الطحانين»(٢٧).

وصلت اشتراكية قرامطة البحرين الى درجة الشيوعية المطلقة حتى قيل، «ان القرمطي لا يملك الاّ سيفه وجواده» ويقول المستشرق «كيار» (Un grand maître des Assassins) «ان الحركة القرمطية، كحركة اصلاحية ثورية تقدمية اشتراكية، وصلت الى اعلى درجة من التطبيق الاشتراكي الى المشاعية، التي لم يصل اليها اي نظام اشتراكي في وقتنا الحاضر. اقامت جمهورية شورى اجتماعية في البحرين من العمال والفلاحين والجنود المثقفين انصهرت في بوتقتها المذاهب والأديان والأجناس والعناصر كافة دونما تفريق بسبب الدين او اللون او العرق.

«وكان لكل قرية داع يجمع ما يملكه اهل القرية من ماشية ومتاع، وبالمقابل يوفر لهم الكساء وما يحتاجون اليه من قوت وينفق عليهم ما يكفيهم حتى لم يبق محتاج واحد من الناس»(*).

(*) كتاب القرامطة، الدكتور سهيل زكار، ص ٣٤ . الطبري، ٢٢٧٥ .

(٢٧) كتاب سفرنامه، نقله الى العربية الدكتور يحيى خشاب، ص ١٤٣ .

(*) كتاب القرامطة، بان دي خويه، ص ٣٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منذ زمن الامام عبيدالله المهدي واعلانه قيام الدولة السياسية الفاطمية، وتحجيم دور الدعوة الاسماعيلية، التي يعتنقها القرامطة، والتي كانت الصلة الوحيدة التي تربطهم باسماعيلية بلاد الشام كعقيدة دينية فقط، ثم ارتياب القرامطة بنسب عبيدالله المهدي الى آل البيت، بسبب الاشاعة ان ائمة الستر من نسل ميمون القدّاح، ضعّف التعاون بين القرامطة والفاطميين، الاّ امامتهم، مع الشك بها، بقيت معترفاً بها، وحصّتهم من الفائدات ترسل لهم، ولكن التعاون بينهما اخذت تشوبه سياسة احتراس ومهادنة بعيدة كل البعد عن التعصب الديني الجامح الذي كان يحرك الأوائل منهم.

عند احتلال الفاطميين لمصر اصبح القرامطة والفاطميون متجاورين، ولكن هذا الجوار لم يرق للقرامطة، خصوصاً عند اعلان الخليفة المعز لدين الله انه سيجعل بلاد الشام ممراً الى بغداد للقضاء على الخلافة العباسية، كما رفض القائد جوهر الصقلبي التعاون مع القرامطة لأنه يريد بلاد الشام حصناً للدفاع عن الحدود الشمالية للدولة الفاطمية من خطر البيزنطيين، وهذا يعني للقرامطة أن بلاد الشام التي يعتبرونها من اقطاعهم أصبحت قسماً من الدولة الفاطمية وهم غرباء عنها.

ثم كانت القشة التي قصمت ظهر البعير عندما اوقف الخليفة المعز لدين الله دفع مبلغ ثلاثمائة ألف دينار كان الأخشيديون يدفعونها للقرامطة كاتاوة بعد انتصارهم في معركة عام ٣٥٧هـ ويستعملها القرامطة لتغطية مصاريف جيشهم.

وتقول الدكتورة امينة بيطار: «كان هذا هو السبب المباشر الذي ادى الى الصدام بين القرامطة والفاطميين. اما السبب الحقيقي لهذا الصدام، فيمكن تلخيصه في أن القرامطة كانوا يعتبرون بلاد الشام مجالاً حيوياً لنفوذهم وسيادتهم، وخصوصاً بعد أن استطاعوا الانتصار على الأخشيديين في المعارك التي جرت بينهم في سنة ٣٥٣هـ وسنة ٣٥٧هـ. ولما استولى الفاطميون على بلاد الشام اعتبر القرامطة ذلك اعتداء منهم على مجال نفوذهم وتضييقاً على نشاطهم»[٢٨].

(٢٨) كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين، ص ٥٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونأتي الآن الى قرامطة البحرين الذين اجتاحوا بلاد الشام بعد أن قضي على أسرة زكرويه بن مهرويه، وهم قرامطة سواد الكوفة. برزت لقيادة القرامطة اسرة الجنابي التي اشتهر منها القائد حسن الأعصم الذي وصل بجيوشه مدينة القاهرة.

انشأ أسرة الجنابي ابو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي وكان من فارس وادعى انه من سلالة الامام علي بن أبي طالب. نادى ابو سعيد بدعوته في الاحساء فكان «ان استجاب له بنو سنبر وهم الحسين وعلي وحمدان»[٢٩].

انتشرت دعوته وقاتل من خالفه، وهدم مدينة هجر وبنى دار الهجرة بمدينة الاحساء، التي كانت في السابق ولاية فارسية وسكانها من الفرس.

يقول المفكر الفرنسي سلفستر دي ساسي: «علم ابو سعيد ان الله يمقت العرب لأنهم قتلوا الحسين وانه يحب رعايا الاكاسرة وخلائفهم لأنهم الوحيدون الذين قاموا لنصرة حقوق الأئمة في الخلافة»[٣٠]. مات ابو سعيد الجنابي عام ٣٠٢هـ، قتله غلامه في الحمام.

خلف ابا سعيد ابنه ابو طاهر سليمان الذي عرف بكثرة حروبه المدمرة وقتله الحجيج في طريقهم الى مكة، وانتزاع الحجر الأسود من الكعبة، ونقله الى الاحساء، وذلك لاستبدال الاحساء بمكة وسلب مكة طابعها المقدس، وقتله الآلاف من المسلمين والقاء جثثهم في بئر زمزم وفي الكعبة، وقوله: «اين ربكم يا اهل مكة يذود عنكم». قيل عن ابي سعيد: «كان جواداً وحريصاً على تصيد افضل الفرص للنهب والسبي». مات ابو طاهر سليمان بداء الجدري في رمضان عام ٣٣٢هـ.

بعد وفاة ابي طاهر سليمان بويع أخوه احمد بالزعامة، بالرغم من ميل بعض اهل الشورى الى مبايعة ابنه سابور الذي قبل ان يسند اليه زعامة الجيش. وعند استلامه قيادة الجيش، القى القبض على عمه احمد واودعه السجن. ولكن احمد،

---

(٢٩) كتاب اخبار القرامطة، الدكتور سهيل زكار، ص ٤٠٠ (كتاب المقفى الكبير في تراجم اهل مصر والوافدين عليها).

(٣٠) كتاب دين الدروز ، المقدمة، ص ١٢٦ . سلفستر دي ساسي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بمساعدة بعض اتباعه، خرج من السجن وقتل ابن اخيه سابور وذلك في ١٥ رمضان عام ٣٥٨هـ(*).

يقول ابن حوقل النصيبي: «ان مقتل سابور كان ابتداء انحطاط القرامطة واختلافهم، وبمقتله تحول ولاء القرامطة الى العباسيين بدلاً من الفاطميين» كان سابور من غلاة الاسماعيلية يكره العباسيين ويشنّ غارات متواصلة على معاقلهم في جنوب العراق.

بعد مقتل سابور عام ٣٥٨هـ استلم زعامة الجيش الحسن الأعصم وهو ابن احمد بن الحسن بن بهرام الجنابي، اي حفيد ابي سعيد منشئ الأسرة الجنابية، ولد في الاحساء وتوفي في طبرية عام ٣٦٦هـ وقيل ان جعفر ابن عمه، الذي استلم قيادة الجيش القرمطي، بعد وفاة الحسن الأعصم، نقل رفاته الى الاحساء.

وهكذا ادى التخلص من سابور الى تباعد القرامطة عن الفاطميين وتقربهم الى العباسيين. اراد الحسن الأعصم الابقاء على علاقة، ولو باهتة، مع الفاطميين، فأرسل الى الخليفة المعز لدين الله يطلب الضريبة التي كان يدفعها لهم الأخشيد. رفض الخليفة المعز لدين الله الطلب، بل كتب للأعصم واغلظ له بالكلام. فساء الحسن الأعصم ذلك، زيادة على خوفه من تسلط الفاطميين على بلاد الشام واضمحلال، بل انحسار، نفوذه على بلادٍ يعتبرها تابعة له.

خلع الحسن الأعصم طاعة الخليفة المعز لدين الله وخطب في المساجد للخليفة العباسي المطيع لله الفضل بن المقتدر (٣٣٤ - ٣٦٣هـ) ولبس السواد تقرباً من العباسيين[٣١] وكتب القرامطة على اعلامهم عبارة «السادة الراجعون الى الحق» على الرغم من انه يجمعهم والفاطميين مذهب واحد هو المذهب الاسماعيلي..

(*) كتاب القرامطة، ميكال بان دي خويه، ص ١٥٠ .

(٣١) كتاب وفيات الأعيان وابناء الزمان، ابن خلكان، مجلد ٤، ص ٤٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عمل الحسن الأعصم جاهداً على استمالة جميع الأطراف التي كانت على عداء مع الفاطميين، كالعباسيين والحمدانيين والعقيليين وبعض قبائل العرب ثم اتصل بالسلطان البويهي، عز الدولة بختيار، طالبا منه المساعدة بالمال والسلاح واعداً اياه بطرد الفاطميين من بلاد الشام وحتى من مصر، على ان يحكمها باسمهم.

وافق السلطان عز الدولة بختيار البويهي ان يساعد الحسن الاعصم، ولكن الخليفة العباسي المطيع لله رفض مساعدته وقال كلمته المشهورة: «كلهم قرامطة وعلى دين واحد، اما المصريون فأقاموا السنيين وقتلوا، واما هولاء القرامطة فقتلوا الحاج وقلعوا الحجر الأسود وفعلوا ما فعلوا»(٣٢).

اصر السلطان عز الدولة على مساعدة الحسن الأعصم «وأمر باعطائه الف الف درهم، والف سيف، والف رمح والف قوس والف جعبة وكمية كبيرة من العلف للجياد ومونة للرجال»(٣٣). ارسل هذا السلاح الى الأعصم في الكوفة.

سار الحسن الأعصم بجيشه لاحتلال دمشق، وكانت جنوده، زيادة عن القرامطة، خليطاً من الحمدانيين والأخشيديين والعقيليين، الذين كانوا بزعامة ظالم موهوب العقيلي الذي، بعد فتنة دمشق عام ٣٦٣هـ وتنحيته عن ولايتها وتولية جيش بن الصمصامة مكانه، فر الى الاحساء مع محمد ابن عصودا، قائد المليشيات الشامية واوغر صدور القرامطة وأثار حماستهم على الفاطميين وحثهم على قتالهم.

بلغ الحسن الأعصم بجيشه ورجال القبائل التي انضمت اليه، دمشق وفيها قوة من الجيش الفاطمي بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي الذي لم يعبأ بهم ولهذا لم يطلب مدداً من مصر بل اكتفى بما لديه من الجيش، وجل جنده من المغاربة المكروهين من اهل دمشق. جرت معركة في مكان يقال له «الدكة» فانهزم جعفر وقتل عدد كبير من جنده، كما قتل جعفر بن فلاح في ستة ذي القعدة عام ٣٦٠هـ.

استولى الحسن الأعصم على دمشق وقطع الخطبة للخليفة الفاطمي المعز لدين الله وخطب للخليفة العباسي المطيع لله.

---

(٣٢) كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، مجلد ١١، ص ١٥ .

(٣٣) تاريخ دمشق، ابن القلانسي، ص ١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقال ان سبب هزيمة جعفر بن فلاح، وهو من زعماء قبيلة كتامة المغربية، هو التأخر في طلب المساعدة من جوهر الصقلبي لسوء علاقته به. كان جوهر يمقت جعفر بن فلاح لترفعه عليه بصفته زعيما كتامياً، وجعفر ينظر الى جوهر الصقلبي كمملوك رومي مجهول النسب وأتباعه في الجيش الفاطمي قلة من الصقالبة.

غضب الخليفة المعز لدين الله لتلكؤ جوهر عن مساعدة جعفر بن فلاح الزعيم الكتامي المغربي، وهو يعتمد على المغاربة لتوطيد حكمه، فنحى جوهر الصقلبي، الذي فتح له مصر، عن قيادة الجيوش الفاطمية.

سيطر الحسن الأعصم على دمشق ونواحيها، وولى عليها القائد «وشاح السلمي»، وسار الى الرملة، التي كانت عاصمة فلسطين، حيث احتلها بعد أن تخلى عنها واليها سعادة ابن حيان المغربي وفرّ الى يافا. فاستخلف على الرملة ظالم بن موهوب الذي أرسله بعد ذلك، مع القائد أبو الهيجاء عبدالله بن علي بن المنجا، لحصار يافا.

وصل الحسن الأعصم الى مصر واحتل القلزم في اوائل عام ٣٦١هـ. ثم سار الى عين شمس واستولى عليها وتابع سيره الى القاهرة مع جيش خليط من القرامطة ومقاتلين من قبائل مختلفة لا صلة تربطهم الاّ الغزو والنهب.

جمع جوهر الصقلبي قواته وراء خندق كبير كان حضّره للدفاع عن المدينة، كما فعل الرسول الكريم في معركة الخندق، وكان يعاون جوهر الأمير عبدالله، ابن الخليفة المعز لدين الله، الذي برز لاحقاً كقائد شجاع باسل عندما قاد المعركة الثانية ضد القرامطة على ابواب القاهرة عام ٣٦٣هـ.

بدأ القتال في ٦ ربيع الأول عام ٣٦١هـ حيث استمر ثلاثة أيام من دون نتائج حاسمة ولكنَّ الخسائر كانت كبيرة من الجانبين. استبسل الجنود الفاطميون بالدفاع عن القاهرة حتى اضطر الحسن الأعصم الىالانسحاب ورحل الى الاحساء ليلم شعث جيشه بعد الهزيمة، وان لم تكن المعركة حاسمة، ولكنها دفعت الهجوم القرمطي الى الفشل، خصوصاً بعد تخلي بعض القبائل العربية عن مساعدته بعد ان اغراها جوهر الصقلبي بالمال.

يقول المؤرخ أبو ظافر الازدي، ان الذي سبب الهزيمة، كان انشغال جيش

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحسن الأعصم بالمسلوبات التي كانت معهم حتى قيل: «كان معهم خمسة عشر ألف جمل وبغل تحمل صناديق الأموال والأواني الذهب والفضة والسلاح، سوى ما تحمل المضارب والخيم والبنود وغير ذلك من الأثقال»[٣٤].

لاحق جوهر الصقلبي الجيش القرمطي فأجلاه عن الرملة، ثم عن القسم الأكبر من فلسطين، فانسحب الحسن الاعصم الى الاحساء حيث جمع جيشاً كبيراً ورجع ثانية لمهاجمة مصر عام ٣٦٣هـ مع جموع غفيرة من البدو، وخصوصاً، بني الجرّاح، الذين كانوا على استعداد للقتال مع من يدفع لهم المال. كان قائدهم، في ذلك الوقت، زعيمهم حسّان بن الجرّاح الطائي.

عندما عرف القائد جوهر الصقلبي بقدوم الحسن الأعصم مع جيش كبير من القرامطة وبني الجرّاح وغيرهم من البدو، كتب الى الخليفة المعز لدين الله، الذي كان لا يزال في المهدية، ان يأتي الى مصر لدرس هذا الموضوع الخطير عن كثب والاتفاق على خطة اما لتفادي هذا الخطر سلمياً او مقاومته عسكرياً.

«قدم الخليفة المعز لدين الله من المهدية حيث وصل القاهرة يوم الثلثاء لخمس ليال خلون من رمضان سنة اثنين وستين وثلاثمائة[٣٥]».

ارسل الخليفة المعز لدين الله رسالته الشهيرة يطلب من الحسن الأعصم الدخول في طاعته ويوبخه ويذكره بأن اباءَه (الأئمة الاسماعيلية) هم اسياد وحكام ابائه واجداده ويقول فيها: «فاما انت الغادر الخائن الناكث البائن عن هدى ابائه واجداده، المنسلخ عن دين اسلافه وانداده، الموقد لنار الفتنة والخارج عن الجماعة والسنة». ثم يقول: «ان آباءك كانوا اتباع آبائي فما انت وقومك الاّ كمناخ نعم او كمراح غنم». ويقول: «اما كان لك بجدك ابي سعيد اسوة وبعمل ابي طاهر قدوة؟ اما نظرت في كتبهم واخبارهم ولا قرأت وصاياهم واشعارهم؟ الم تعلم انهم كانوا عباداً لنا أولي بأس شديد وعزم سديد وأمر رشيد وفعل حميد تفيض اليهم موادنا وتنشر عليهم

---

(٣٤) كتاب اخبار الدول المنقطعة، ابن ظاهر الازدي، ص ٤٨ .

(٣٥) كتاب اخبار القرامطة، الدكتور سهيل زكار، ص ٢٧٢ . عن كتاب الدول المنقطعة علي بن ظاهر الازدي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بركاتنا حتى ظهروا على الاعمال، ودان لهم كل أمير ووال ولقبوا بالسادة[٣٦] فسادوا منحة منا واسماً من اسمائنا فعلت اسماؤهم»[٣٧].

فكان جواب القائد القرمطي الحسن الأعصم «بسم الله الرحمن الرحيم، وصل كتابك الذي كثر تفصيله وقل تحصيله ونحن سائرون على اثره والسلام، وحسبنا الله ونعم الوكيل»[٣٨].

وصل الحسن الأعصم وجيشه للمرة الثانية عام ٣٦٣هـ الى الديار المصرية وكان قوام جيشه من القرامطة مع جموع من رجال القبائل العربية معظمهم من بني الجرّاح بقيادة زعيمهم حسّان بن الجرّاح الطائي وكانوا اقوى عناصر جيش الحسن الأعصم.

عمد الخليفة المعز لدين الله الى رشوة حسّان بن الجرّاح، وكان بنو الجرّاح يقاتلون لأجل المال وولاؤهم الى من يحمله. فوعد المعز لدين الله حسّان بن الجرّاح بمبلغ مائة ألف دينار على ان ينسحب من المعركة ويتظاهر بالهزيمة امام الجيش الفاطمي وهذا ما حصل، فأصبح جيش الحسن الأعصم في موقف حرج، ورغم ذلك، قاتل قتالاً شديداً ولكن الفرصة فاتته فانهزم تاركاً ألوف القتلى والأسرى ورحل الحسن الاعصم، وما بقي من جيشه، الى الاحساء وترك بلاد الشام لمساعده ابي المنجا.

---

(٣٦) يلقب المعز لدين الله أبو سعيد الجنابي وأبو طاهر سليمان «بالسادة» كلقب اجتماعي وراثي عائلي كلقب «شيخ» لبعض عائلات محدودة من الدروز، وليس كلقب ديني مقدس كما هو الحال عند الشيعة الاثني عشرية اذ يلقبون الرجال من سلالة علي بن ابي طالب «بالسادة» او السيّاد ومنهم العديد في جنوب لبنان يلبسون العمائم الخضراء دلالة على ذلك اللقب الديني العائلي. يقول قاضي القضاة عبد الجبار الهمذاني، كتاب تثبيت سيدنا محمد: «كان كل واحد من زعماء قرامطة الاحساء من آل الجنابي ينادى بلقب (سيد)». يؤكد ذلك الدكتور سهيل زكار في كتاب تاريخ القرامطة، ص ١٨٨ . الحاشية.

(٣٧) كتاب اخبار القرامطة، الدكتور سهيل زكار عن كتاب المقريزي: الحنفاء في اخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، توجد الرسالة كاملة من ص ٣٦٧ الى ص ٣٨٢,

(٣٨) كتاب اخبار القرامطة ص ٣٨٣ . عن كتاب المقريزي الحنفاء في اخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول المؤرخون، ومنهم تقي الدين المقريزي، عندما احضر المال الى المعز لدين الله استكثره فأمربسكّ دنانير من نحاس وطلائها بالذهب وجعلها في اكياس ووضع على رأس كل كيس منها دنانير يسيرة من الذهب ليغطي ما تحتها من دنانير النحاس.

عندما انسحب الحسن الاعصم، بعد هزيمته في مصر عام ٣٦٣هـ استولى الفاطميون على فلسطين وبلاد الشام. عيّن الخليفة المعز لدين الله ظالم موهوب العقيلي والياً على دمشق ومنحه الصلاحيات كافة. قبض ظالم على أبي المنجا، نائب الحسن الأعصم، وطهّر دمشق من بقايا اتباع القرامطة، فاعتبر الفاطميون ان هذا كان انتصاراً لهم وان بلاد الشام أصبحت تحت سلطتهم، لا سيّما بعد ان ضموا الى الوالي ظالم موهوب العقيلي فرقة من الجيش الفاطمي، معظم جنودها من المغاربة، بقيادة علي بن جعفر بن فلاح الكتامي.

وحسب عادة اهل الشام، لم يطل الأمر حتى ضاقوا ذرعاً بظالم بن موهوب العقيلي، كما اظهروا التذمر من علي بن جعفر بن فلاح وجيش المغاربة، فحصلت فتنة مدمّرة استمرت ستة أشهر فأحرقت ودمّرت، حتى المساجد، فعزل الوالي ظالم موهوب العقيلي، وعيّن مكانه جيش بن الصمصامة ابن شقيقة علي بن فلاح الذي أرسل الى الرملة.

وفي عام ٣٦٤هـ وصل القائد التركي العباسي افتكين الشرابي[٣٩] مع جيشه من الجنود الأتراك وبرفقته أبو المعالي بن حمدان أمير حلب.

بعد معركة قصيرة على مقربة من دمشق اشترك بها ظالم بن موهوب العقيلي، الذي كان واليا على بعلبك، وابراهيم بن جعفر والي دمشق وعلي بن فلاح قائد الرحلة، تمكن افتكين من هزيمتهم والدخول الى دمشق حيث قطع الخطبة في مساجدها للخليفة الفاطمي، المعز لدين الله، وخطب للخليفة العباسي الطائع لله عبد

(٣٩) كان افتكين (الباتكين) الشرابي غلاماً لمعز الدولة احمد بن بويه وكان قائد الفرقة التركية من الجيش العباسي. عند قتال الأتراك للديلم اشتهر بالشجاعة ولكن حصل منه مصاعب سياسية، البويهيون والديلم شيعة، والاتراك ومنهم افتكين سنّة ترك بغداد مع اربعمائة جندي تركي وسار الى بلاد الشام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكريم ابن المطيع (٣٦٣ - ٣٨١هـ). رحّب بافتكين اهالي دمشق ووجدوا فيه مخلصاً ومنقذاً من الحكم الفاطمي وفساد الجيش المغربي وتعديات جنده.

وجد افتكين ان من مصلحته، لاتقاء خطر الفاطميين، التحالف مع البيزنطيين. «فقام ابو بكر الزيات، عميل البيزنطيين وحليفهم، بدور الوساطة بين الفريقين، البيزنطي والدمشقي، واتفق الفريقان على ان يكف البيزنطيون يدهم عن البلد مقابل قسط من المال يدفع لهم وقدره ثلاثون الف دينار. وهكذا عدل الروم عن دخول دمشق»(٤٠).

سار افتكين الى الرملة ومنها توجه الى صيدا حيث اشتبك مع واليها «ابن الشيخ» وكان انضم اليه ظالم بن موهوب العقيلي، فالحق بهما هزيمة كبرى وقتل منهم خلقاً كثيراً، ثم توجه الى بعلبك ومنهار سار الى عكا ثم طبرية واستولى عليها، ثم عاد الى دمشق حيث جمع المؤن والمال من حوران من دون ان يثير غضب الأهالي عليه.

غضب الخليفة المعز لدين الله من أعمال افتكين وخسارته لبلاد الشام، فجهز جيشاً كبيراً لقتاله ولكنه مات قبل المسير الى بلاد الشام وخلفه ابنه العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) والد الخليفة الامام الحاكم بأمر الله.

كان الخليفة العزيز بالله يكره العنف فحاول التفاهم مع افتكين ليتجنب الحروب وسفك الدماء وفي هذا الصدد رأى أن يبدأ بمبادرة سياسية قبل اللجوء الى العمل العسكري. فكتب الى افتكين يعرض عليه الاجتماع لبحث امكانية انهاء الأزمة من دون قتال.

اجاب افتكين بلهجة استفزاز وتحد: «هذا بلد اخذته بالسيف وما ادين فيه لأحد بطاعة ولا أقبل منه امراً».

فشلت محاولة العزيز بالله في التفاهم مع افتكين فأرسل جيشاً بقيادة جوهر الصقلبي، بعد ان اعاده الى منصبه قائد الجيوش الفاطمية الذي عزله منه المعز لدين

---

(٤٠) كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (صلة تاريخ او تيخيا) يحيى بن سعيد الانطاكي مجلد ٢، ص ٣٦٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الله، فوصل الى ضواحي دمشق في ذي القعدة عام ٣٦٥هـ حيث حصلت معارك عنيفة، تراجع على اثرها افتكين الى دمشق وتحصن بها.

شعر افتكين بحراجة موقفه وان لا يمكنه الحصار مدة طويلة، فبعد مشاورة اعيان وزعماء دمشق كتب الى الزعيم القرمطي الحسن الأعصم يطلب منه النجدة والحضور بنفسه لقيادة المعركة.

وصل الحسن الأعصم الى دمشق فوجد ان جوهر الصقلبي فك الحصار وسار الى طبرية كي لا يكون بين نارين، اهالي دمشق وافتكين والجيش القرمطي، ثم كانت الامدادات من مصر لا تصل بسهولة لأن الوقت كان شتاء والطرقات صعبة السلوك.

ترك جوهر طبرية وسار الى عسقلان ليكون قريباً من مصر مصدر امدادته، ولكن افتكين والحسن الأعصم حاصراه حتى اضطر ان يتصل بافتكين عارضاً الصلح. قبل افتكين بالرغم من ان الحسن الأعصم لم يقبل بشرط الصلح، ولكن افتكين اصر واتفق مع جوهر على أن يكون من مدينة غزة الى مصر للفاطميين، وبلاد الشام، بما فيها فلسطين، لافتكين، على ان تكون الخطبة للخليفة الفاطميّ العزيز بالله.

رفض الخليفة العزيز بالله الاتفاق وجهّز جيشاً كبيراً وسار الى فلسطين حيث اشتبك في مدينة الرملة عام ٣٦٦هـ مع جيش افتكين والجيش القرمطي بقتال شديد كانت نتجته هزيمة جيش افتكين والجيش القرمطي وأسر افتكين، الذي احتمى بصديقه المفرج ابن دغفل الجرّاح زعيم بني جرّاح، فجاء به الى الخليفة العزيز بالله الذي عامله معاملة حسنة وخصص له قصراً في القاهرة مع جميع ما يحتاجه من المصروف والخدم والمؤن. اخذ المفرج بن دغفل بن الجرّاح مائة الف دينار من العزيز بالله.

انهزم الحسن الأعصم الى طبرية حيث مات في الثالث والعشرين من رجب عام ٣٦٦هـ واستلم قيادة الجيش القرمطي ابن عمه جعفر ابن سعيد الجنابي الذي اتفق مع الخليفة العزيز بالله على ان يدفع له مبلغاً سنوياً قدره عشرون الف دينار طيلة حياته على ان لا يعود الى بلاد الشام. وظل هذا المبلغ يدفع بانتظام حتى وفاة الخليفة العزيز بالله[٤١].

(٤١) كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين، الدكتورة امينة بيطار، ص ٧٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد معركة الرملة عام ٣٦٦هـ وهزيمة الجيش القرمطي تمّ الاتفاق مع جعفر ابن سعيد الجنابي على مبلغ عشرين الف دينار وانسحابه الى الاحساء، انتهت حروب القرامطة في بلاد الشام نهائياً ولم يعد يسمع لهم ذكر بعد ذلك[٤٢].

تقول قلة من الناس، ان القرامطة وجدوا في بلاد الشام خلال عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١هـ) وهذا القول لا تذكره الكتب التاريخية بل جلها تقول ان القرامطة انتهى وجودهم الفعلي السياسي بعد معركة الرملة عام ٣٦٦هـ اي قبل مولد الحاكم بأمر الله بتسع سنوات.

ولكن وجدت بعض العائلات القرمطية في وادي التيم وجبل السمّاق كان يطلق عليهم لقب غلاة الاسماعيلية[٤٣] حتى اعتنقوا المذهب التوحيدي، فعندئذ اطلق عليهم لقب الموحدين الدروز.

يقول ابن العديم في كتابه - بغية الطلب في تاريخ حلب ما يأتي:

صفحة ١٣٩ - سرمين مدينة بطرف جبل السمّاق لها مسجد جامع وأسواق اكثرها من الاسماعيلية.

صفحة ٢٧٠ - اما الباب فهي اكثر عمارة من «بزاغا» وكان فيها مغاور تعصمهم من الغارات وكان بها طائفة كثيرة من الاسماعيلية.

صفحة ٤٢٣ - جبل السمّاق، الغالب من اهل هذا الجبل اسديون من بني كاهل ومذهب عامتهم في زماننا هو الاسماعيلية.

صفحة ١٢٩ - قال ابن واضح الكاتب. ومعرة النعمان مدينة قديمة خراب وأهلها تنوخ. وفي صفحة ١٣٠ «وصلت معرة النعمان فوجدتها واسعة والأسواق كثيرة الارقاق، واهلها يميلون الى الخير والتعفف ويعيشون بالقناعة والتكلف وفيهم بعض الحمية وشيء من العصبية ولهم في ذلك معرفة بالشر والخصومة».

---

(٤٢) كتاب تاريخ دمشق، ابن القلانسي من صفحة ٢٨ الى صفحة ٣٧ دراسة مفصلة عن حروب جوهر الصقلبي مع افتكين، كتاب موقف امراء العرب من الفاطميين، الدكتورة امينه بيطار من صفحة ٧١ الى صفحة ٧٧ . مخطوطة ثابت بن سنان الصابئي، ص ٦٦ - ٦٩ ثم ٧٦ - ٨٠ .

(٤٣) قلنا سابقا ان القرامطة فرع من فروع الاسماعيلية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صفحة ١٢٨ – والصحيح ان النعمان بن بشير جدد بناءها وزاد فيه واختارها للمقام أيام ولايته فنسبت اليه، وقد كانت معروفة قبل ذلك، فتحها ابو عبيدة رضي الله عنه، اكثر اهلها من تنوخ.

يمكن ان نستخلص من هذه الأقوال أنه كان في جبل السمّاق، الذي أصبح معقلا للموحدين الدروز، قوم أطلق عليهم لقب الاسماعيلية في ذلك الوقت، ومن الجائز أنهم اعتنقوا المذهب التوحيدي بعد ذلك. كما نعلم أن التنوخيين هم من الموحدين الدروز وأن معظم الدروز اليوم من سلالتهم وأنهم وجدوا بكثرة في معرة النعمان التي قدموا اليها في وقت الفتوحات الاسلامية من الجزيرة العربية. وتقول كتب التاريخ أن التنوخيين انضموا الى جيش خالد بن الوليد وقاتلوا معه(*).

(*) بالرغم من قدوم التنوخيين الى لبنان في عهد الخليفة المنصور العباسي بقي منهم اعداد كبيرة في سورية. في كتاب «بغية الطلب من تاريخ حلب» لابن العديم وجدت اسماء عديدة لرجال فقه وعلم التنوخيين. يقول ابو الفرج العبري، كتاب، تاريخ الزمان ص ١٢ انه عندما قدم الخليفة المهدي الى حلب أتاه العديد من التنوخيين للسلام عليه ولما علم انهم على دين النصارى اضطرهم ان يؤسلموا فاسلم خمسة آلاف منهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعتقدات الدينية القرمطية

اما معتقداتهم الدينية فقد خرجوا عن الاسلام؛ نسخوا الفروض وتنكروا لعقيدتهم الاسماعيلية حتى اتهموا بالكفر والالحاد وبهدف تقويض الاسلام والقضاء عليه(٤٤).

ويقول المستشرق الهولندي «دي خويه»: «كانوا خارج الاسلام تماماً، ولئن لم يقوموا باداء فرائض هذا الدين وشعائره او علّموا ان الصلاة والصيام والحج نوافل لا حاجة لعباد الله الحقيقيين بها، فقد كسبوا بهذه الطريقة قلوب البدو واستمالوا انصاراً كثيرين»(٤٥).

وهذه رسالة كتبها الزعيم القرمطي - القيرواني - الى القرمطي، سلمان بن الحسن ونشرها المستشرق الانجليزي «نيكلسون». «اني اوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والانجيل ودعوتهم الى ابطال الشرائع والى ابطال المعاد والنشر في القبور وابطال الملائكة في السماء، وابطال الجن في الأرض، ومن هذا دعوتنا الباطنية. واوصيك بأن تدعوهم الى القول بأن قبل آدم بشر كثير فان ذلك عون بقدم العالم»(٤٦).

كان الدين عند القرامطة ضعيفا حتى قيل فيهم المثل: «ارق من ريق النحل ومن دين القرامطة»(٤٧). الدين هو الاسلام وقبول فرائضه والعمل بها. فالقرامطة نسخوا الصلاة والزكاة والحج وهجروا المساجد.

---

(٤٤) ينبغي ان لا ننسى ان القرمطي كان موضوع مقت المسلم وخصوصاً السنة. معظم المؤرخين الذين كتبوا عن القرامطة كانوا على مذهب السنة ومن الطبيعي ان نجد التحامل على القرامطة.

(٤٥) كتاب القرامطة، دي خويه، ص ١٣٢ .

(٤٦) P.A. Nicholson, Studies in Mysticism, Cambridge 1921

(٤٧) كتاب مجمع الامثال، الميداني.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول المستشرق الهولندي Van Berchen . «ان الشعائر الدينية مورست في جمهورية القرامطة، ولكن القرامطة لم يجعلوا من تلك الشعائر موانع وحواجز بينهم وبين الحياة المتقدمة». ثم يقول: «وهم يقولون بالعقل الاول ونظرية الفيض والظاهر والباطن، والتأويل كما جاء في القرآن الكريم، ويؤمنون بأن الامام هو المثل الأعلى لهم ولكنهم لم يجعلوه قوة رهيبة متسلطة تفرض اشياء لا تتفق ومصلحة الجماهير»(٤٨).

ويقول المستشرق R. Dozy : «ان عقيدة القرامطة هي عبارة عن عبادة تصدر عن تسلسل ومراتب العقل الكلي، فيؤمنون بأن الله هو الآمر، والكلمة الذي قال للشيء، «كن فيكون»، ويعتقدون بوحدة الأديان والعبادات، وتندرج نورانية الله التي تفيض على الكون فيقبلها كل حسب اعتقاده وايمانه من مرتبة النبوة الى مرتبة الامامة»(٤٩).

ويقول المفكر اللبناني الشيعي حسين مروه: «كل ما يمكن قوله بشأن عقيدة مؤسس جمهورية البحرين القرمطية، انه كانت لهم فلسفة ولم تكن عقيدة بالمعنى الديني. تتمثل هذه الفلسفة بفكرة تأليه العقل او عقلنة الله، فهم يقولون بالعقل الأعلى الذي هو الله، او الحكمة العليا. فقد الغوا الطقوس والشعائر الدينية الظاهرية كلياً»(٥٠).

ويقول المؤرخ علي بن ظافر الازدي: «وكانوا باطنيين يجتمعون سراً ولا يبوحون بمعتقداتهم، وهم طبقات من العلماء والشيوخ ثم الجهّال ثم الخدم». ثم يقول: «من معالمهم ان الجاهل عليه ان يدخل مدرسة لمدة ثلاث سنوات يخدمه بها غلمان ويدرسه العلماء، ولكن على تدريج بين الطبقات، ويلبسون ثياب الصوف الخشنة ويتقشفون ويعيشون حياة زهد واعتكاف» ثم يقول: «ان من تعاليمهم، ترك الدنيا والاعراض عن الشهوات والتعلق بالصدق والامانة والأمر بالمعروف والنهي عن

---

(٤٨) M. Van Berchen, Syrie du Sud.

(٤٩) R. Dozy, Histoire des Musulmans

(٥٠) كتاب النزعات المادية، مجلد ٢، ص ٢١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المنكر. ويقولون بالايمان على كل مالك وكل امرأة لك طالقة ثلاثاً ان اخبرت بذلك»[٥١].

ان بعض الاشارات الموجودة في العقائد القرمطية التي تقول بفلسفة الفيض الافلوطينية اليونانية قد تكون مقتبسة من رسائل اخوان الصفا، التي يقول المؤرخون الاسماعيلية، انها كتبت في سلمية في القرن الثاني الهجري، وهذه الرسائل كانت في متناول مفكري القرامطة، كما توجد في معتقدات القرامطة تلميحات بارزة مأخوذة عن العقيدة الاسماعيلية. فالقرمطية فرع من فروع الاسماعيلية، ولهذا نرى المستشرق R. Guyard يقول: «ان القرامطة يعتبرون ان الله هو الكائن المحجوب، المعدوم الصفات مذ ولد الالوهة – العقل الكلي – التي تظهر في الناطق الذي يحق للناس ويجب عليهم طاعتها، والناطق خلق معاونه – النفس الكلية – التي تظهر بالاساس، فالامام والحجة الذي يأتي بعد الامام مباشرة والمكلف باعطاء الأدلة على رسالة الناطق، واخيراً الداعي يوازن تجليات النفس الكلية في المادة الأولى والمكان والزمان»[٥٢].

وتبرز العقيدة الاسماعيلية بوضوح عند قولهم: «ان ثمة سبعة انبياء ناطقين هم: آدم، نوح، وابراهيم، وموسى، وعيسى ومحمد ومحمد بن اسماعيل، هو اكملهم وهو الذي نشر المذهب الذي سيملأ العالم بأسره وهو الذي يرتقب رجوعه المجيد.. ارى ان هؤلاء الناطقين السبعة يمثلون التجسدات الآلهية السبعة والمفروض ان تكون الانسانية مرّت في تطورها عبر سبعة ادوار، وفي نهاية الدور السابع الذي بدأ بتجسد الألوهة في محمد بن اسماعيل، سيشاهد ظهور أخير هو عودة محمد بن اسماعيل»[٥٣]. وتعتقد الاسماعيلية، والقرامطة فرع من فروع الاسماعيلية، ان محمد بن اسماعيل هو الامام السابع وهو صاحب الزمان وقائم الحق، وصاحب

---

(٥١) اخبار الدول المنقطعة ومخطوط في المتحف البريطاني، علي بن ظافر الازدي توفي عام ٦١٣هـ في القاهرة. كان موظفا في الدولة الايوبية.

(٥٢) S. Guyard, Fragments relatifs à la doctrine des Ismaelis, كتاب القرامطة، ميكال يان دي خويه، ص ١٣٧ .

(٥٣) كتاب دين الدروز، سلفستر دي ساسي، ص ١١٢ . ومجلد ١، ص ٢٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكشف في الدور السابع، وكما أسلفنا، هو الذي ينشر المذهب الذي سيملأ العالم بأسره، هو المهدي المنتظر.

ويقول ابو الحسن الاشعري. تقول القرامطة: «وخص جعفر على امامة ابن ابنه «محمد بن اسماعيل» وزعموا ان محمد بن اسماعيل هو الى اليوم لم يمت ولا يموت حتى يملك الأرض وانه هو المهدي الذي تقدمت به البشارة، واحتجوا في ذلك بأخبار رووها عن أسلافهم يخبرون فيها ان سابع الأئمة قائمهم»(*).

من الواضح الذي لا يقبل الشك ان القرامطة كانوا يؤمنون ايماناً قاطعاً بعقيدة «الامام المهدي المنتظر ولهذا الغوا دور الامامة ونسخوا الشريعة والفرائض ودور الأنبياء، وقالوا ان الامام السابع محمد بن اسماعيل هو المهدي المنتظر، قائم الحق الحق وصاحب الزمان وهو آخر الأنبياء وسيرجع بشريعة جديدة تلغي ما سبقها وتعم العالم.

ويقول سلفستر دي ساسي «الالوهة، او بالأحرى تجلياتها قد تكشفت للبشر مرات عديدة، فهي تنتقل من دور الى دور حتى دور الكشف وظهور صاحب الزمان وقائم الحق»(٥٤).

وننهي سرد هذه المجموعة من الأقوال المتناقضة، بل المتنافرة وغير المنسقة عن عقائد القرامطة بما قاله المؤرخ عبد الرحمن الجوزي عن عقائد الاسماعيلية التي تتطابق مع عقيدة القرامطة «وقد ثبت عنهم أنهم يقولون بألهين قديمين لا أول لوجودهما من حيث الزمان الاّ ان احدهما علة لوجود الثاني، واسم العلة السابق واسم المعلول التالي، وان السابق خلق العالم بواسطة التالي لا بنفسه وقد يسمون الأول عقلاً والثاني نفساً، الأول تاماً والثاني ناقصاً الأول لا يوصف بوجود ولا عدم ولا موصوف ولا غير موصوف، فهم يرمون الى النفي لأنهم لو قالوا معدوم ما قبل منهم وقد سموا هذا النفي تنزيها»(٥٥).

(*) كتاب مقالات الاسلاميين، ص ٢٦ .

(٥٤) كتاب دين الدروز، مجلد ١، ص ١ . سلفستر دي ساسي.

(٥٥) كتاب اخبار القرامطة، الدكتور سهيل زكار، ص ٢٦٣، (عن كتاب المنتظم من تاريخ الملوك والامم، الامام ابو الفرج عبد الرحمن بن محمد الجوزي).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول عبد الرحمن الجوزي «ويقولون عن النبي عبارة عن شخص فاضت عليه من السابق بقوة التالي قدسية صافية وان جبريل عبارة عن العقل الفائض عليه لا انه شخص وان القرآن هو تعبير محمد عن المعارف التي فاضت عليه من العقل، فسمي كلام الله مجازاً لأنه مركب من جهته، وهذه القوة الفائضة على النبي لا تفيض عليه من اول أمره انما تتربى لنطفة»(٥٦). ثم يقول عبد الرحمن الجوزي «انكروا القيامة وقالوا هذا النظام وتعاقب الليل والنهار وتولد الحيوانات لا ينقضي ابداً. وأوّلوا القيامة بأنها رمز الى خروج الامام ولم يثبتوا الحشر ولا النشر ولا الجنة ولا النار، ومعنى المعاد عندهم، عود كل شيء الى أصله»(٥٧).

ان جميع ما كتب في هذا الفصل هو فقط عن العقيدة القرمطية الاسماعيلية كما جاءت في كتب التاريخ الاسلامية ومن الصعب جداً ان يكوّن رأيٌ عن تأثير المعتقدات القرمطية على العقيدة التوحيدية لأن ذلك يتطلب الخوض في عقائد المذهب التوحيدي، وهذا، كما قلنا سابقاً ونكرر الآن، خارج عن موضوع هذه الدراسة ولا يحق لنا البحث فيه وكما هو معروف، عند الخاصة والعامة، ان المذهب التوحيدي محوط بسرية تامة وصارمة ولا يسمح الاّ للعقّال، اي مشايخ الاجاويد، الاطلاع عليه، فعندهم المعرفة التامة والخبر اليقين وهم القيمون على المذهب منذ نشوئه.

(٥٦) المصدر السابق، ص ٢٦٤ .

(٥٧) المصدر السابق كذلك، ص ٢٦٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدّولتان الطولونية والأخشيدية
في بلاد الشام

الدولة الطولونية (٢٥٤- ٢٩٢هـ)
الدولة الأخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨هـ)

لا علاقة او تأثير للدولتين الطولونية والأخشيدية على دعوة التوحيد الدرزية اذ ان الدولة الأخشيدية، وهي تمثل انتهاء دور هاتين الدولتين، اختفت من الوجود السياسي عام ٣٥٨هـ، اي قبل افتتاح الدعوة التوحيدية بخمسين سنة.

ولكن بما ان الأحوال السياسية في بلاد الشام، عند افتتاح وانتشار الدعوة التوحيدية الدرزية، ينبغي ان لا تتخللها فجوات تاريخية، فلهذا وجدنا من المناسب والصدق التاريخي، القاء نظرة، ولو قصيرة وسريعة، على الحوادث التي جرت في عهد هاتين الدولتين كي نحتفظ بمصداقية التسلسل التاريخي.

١ - الدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢هـ).

كان الخليفة المأمون، ابو جعفر عبدالله بن الرشيد (١٩٨ - ٢١٨هـ) يميل الى أخيه المعتصم بالله لشجاعته واقدامه، ولكن المعتصم بالله كان قليل العلم يعتمد القوة والبطش في حكمه بدلاً من المرونة والحنكة السياسية.

بالرغم من معارضة اعيان البلاد وقادة الجيش ولّى الخليفة المأمون اخاه المعتصم بدلاً من ابنه العباس الذي، حسماً للفتنة واحتراماً لوصية ابيه الخليفة المأمون، بايع عمه بالخلافة التي امتدت من عام ٢١٨هـ الى عام ٢٢٧هـ.

اهتم الخليفة المعتصم بالله بتجنيد الأتراك في الجيش وذلك لتحجيم النفوذ الفارسي في الجيش وادارة الدولة، وذلك يرجع الى أن أمه كانت تركية اسمها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«مارية» احاطت نفسها باتباع من الأتراك وكان تدخلها في الحكم سافراً، حتى من دون استشارة ولدها الخليفة المعتصم.

كانت والدة المعتصم تكره الفرس، خصوصاً ان ام المأمون كانت فارسية، وتخشى العصبية التي عرف بها العرب والتي برزت في تكتل العناصر العربية حول شخص الأمين، لان ام الأمين كانت عربية، فجذب التعصب العنصري ام المعتصم كي تحيط نفسها بأبناء جلدتها الأتراك.

جلب الخليفة المعتصم بالله الجنود الأتراك من اقاليم ما وراء النهر، مثل سمرقند، وفرغانة وخوارزم، وكان ذلك، اما عن طريق النخاسة او الشراء، او عن طريق الأسر في الحروب، او عن طريق الهدايا التي كان يؤديها ولاة هذه الأقاليم على شكل رقيق الى الخليفة او الوزير[1].

كان العنصر التركي متمرناً على الحرب واعمال الغزو والفروسية والقتال ولكنهم كانوا اميين عديمي الثقافة بالنسبة للثقافة والعلم عند الفرس والعرب.

وصل عدد الأتراك الى ارقام خيالية، قيل سبعين ألف فارس، واخذ اهل بغداد، وجلهم من العرب والفرس، يتذمرون من تصرف الأتراك الفظ المهين، اذ كانوا ينزلون بخيولهم الى الشوارع والأسواق فيصطدمون مع الأهالي فينتج عن ذلك خلل في الأمن وحتى حوادث دامية.

قرر الخليفة المعتصم بالله ان ينتقل مع أتباعه وجنده الاتراك الى مدينة ثانية غير بغداد، فيبعدهم عن الناس كافة، فبنى مدينة سامّراء، (سُر من رأى) وسّع الشوارع والأسواق وبنى القصور واعطاها لقواد جيشه من الأتراك فأصبحت المدينة لهم يحكمون كما يشاؤون حتى قال ابن سعد «ان الأتراك سيردون العرب في يوم من الأيام الى بواديهم».

بعد وفاة الخليفة المعتصم بالله عام ٢٢٧هـ، وحتى تولي الحكم الخليفة المهتدي بالله محمد بن الواثق (٢٥٥ - ٢٥٦هـ) عام ٢٥٥هـ، انغمس الخلفاء العباسيون في ملذاتهم وهيمن على مقاليد الحكم القواد الأتراك والغلمان وحتى الجواري، حتى قيل في الخليفة المستعين بالله (٢٤٨ - ٢٥٢هـ).

---

(١) كتاب في التاريخ العباسي والفاطمي، الدكتور احمد مختار العبادي، ص ١١٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

وقال الخليفة المعتمد على الله العباس بن احمد المتوكل (٢٥٦ - ٢٧٩هـ).

«اليس من العجائب ان مثلي يرى ما قل مجتمعاً لديه ويؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما في ذاك شيء في يديه».

بعد وفاة المعتصم بالله عام ٢٢٧هـ. قام بالأمر بعده ابنه الواثق بالله ابو جعفر بن المعتصم (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) الذي كان من اصحاب الاعتزال وانصرف للعلم حتى سميّ، المأمون الاصغر، والقى بمقاليد الحكم والسلطة لوزرائه وقواده الأتراك.

عندما توفي الخليفة الواثق بالله عام ٢٢٢هـ لم يكن للدولة العباسية ولي عهد فعيّن الأتراك المتوكل أخا الواثق (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) وجعلوه خليفة، وهكذا أصبحت تولية الخلفاء العباسيين بيد الأتراك.

اراد الخليفة المتوكل على الله تحجيم نفوذ وسلطة الأتراك فتقرب من اهالي بغداد، ومعظمهم عرب من أتباع الفقيه احمد بن حنبل، عدو المعتزلة وكان يؤمن بالنص المطلق، فاضطهد، حتى انه تمكن من القضاء على عقيدة الاعتزال، اكراماً لأهل بغداد حتى يعينوه على تحجيم التسلط التركي.

شعر الأتراك بالمؤامرة والخطر الذي يحدق بهم فتجمعوا واقبلوا على ابن المتوكل، المنتصر بالله ابو جعفر (٢٤٧ - ٢٤٨هـ) يحرضونه على والده وساروا الى المتوكل فوجدوه يشرب فقتلوه وهو على مائدة الشراب»[٢].

منذ ذلك الوقت سيطر الأتراك على الدولة تماماً حتى صارت في ايديهم يفعلون بها ما يشاؤون. يقول محمد بن علي طباطبا، يصف تلك الحالة في الدولة العباسية «واستولى الأتراك، منذ مقتل المتوكل على الخلافة، فكان الخليفة في ايديهم كالأسير. ان شاءوا ابقوه، وان شاءوا خلعوه، وان شاءوا قتلوه»[٣].

ويقول الدكتور احمد مختار العبادي: «نذكر احمد بن طولون. كان ابوه طولون من المماليك الأتراك الذين أرسلهم حاكم مدينة بخارى ضمن هدية الرقيق

(٢) كتاب تاريخ عصر الخلافة العباسية، ص ١٠٢ .
(٣) كتاب الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التركي الى الخليفة العباسي المأمون سنة ٢٠٠هـ. وتدرج طولون في حياة المماليك بالمجتمع العباسي حتى وصل الى مرتبة قائد الحرس الخلافي»[٤]. وتلقب بأمير السّتر اي حارس الخليفة الخاص.

ولد احمد بن طولون في مدينة سامراء عام ٢٢٠هـ[٥] في عهد الخليفة المعتصم بالله. بعد وفاة طولون، والد احمد، تزوجت ام احمد، واسمها هاشم، الأمير التركي «باكباك» الذي ولاّه الخليفة العباسي المتوكل على الله بن المعتصم ولاية مصر. آثر «باكباك» البقاء في بغداد مركز السلطة حيث الرفاه ورغدة العيش، فأرسل ابن زوجته احمد بن طولون ليتولى باسمه حكم مصر وذلك عام ٢٥٤هـ. بعد مقتل ربيبه «باكباك» حل محله في القيادة أمير تركي اسمه «يارجوخ» فتزوج احمد بن طولون ابنته «خاتون» كتأمين لمركزه فكانت نتيجة هذا الزواج اقرار ولاية احمد بن طولون على مصر. ولدت له خاتون ابنة يارجوخ، ابنه العباس وابنته فاطمة. اما ابنه خمارويه فهو من الجاريه «مياس» المصرية.

تمكن احمد بن طولون ان يقيم في مصر اول دولة مستقلة في العصر الاسلامي، ولكنها لم تكن عربية ولم يربطها بالخلافة العباسية في بغداد الاّ ارسال جزء من الخراج، الخطبة للخليفة في المساجد ونقش اسم الخليفة على النقود وفي عام ٢٦٣هـ ولّى الخليفة المعتمد احمد بن طولون على خراج مصر فأصبح سيد البلاد المصرية والمشرق على جميع اعمالها.

وفي عام ٢٥٩هـ مات «يارجوخ» صاحب اقطاع مصر، الذي كان احمد بن طولون يحكمها نيابة عنه، وبموته اصبح ابن طولون والياً على مصر من قبل الخليفة العباسي في بغداد.

يقول الدكتور محمد احمد زيّود: «وركزت على حقيقة كانت تراود السياسيين والباحثين منذ القديم والقائلة بأن الخطر المحدق بمصر وحكوماتها يأتي دوماً من الشام، ولذلك كان على كل سلطة تود البقاء والاستمرار في مصر ان تحمي

---

(٤) كتاب في التاريخ العباسي والفاطمي، ١٢٩ .

(٥) يقول ابن خلدون انه ولد في بغداد لأن سامراء بنيت عام ٢٢١ اي بعد ولادته بسنة. اما المؤرخ طه بدر، كتاب مصر الاسلامية ص ١١٤ فيقول انه ولد عام ٢١٤ في بغداد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفسها من الشرق وتضم اليها بلاد الشام، وتعتبر ذلك من ضرورات الأمن لها وسلامة وجودها»[٦].

ويقول الدكتور فيليب حتي عن بلاد الشام في العهد العباسي الذي كان سائداً في وقت احمد بن طولون. «لم يتمكن العباسيون من زرع روح الثقة عند عامة الشعب في بلاد الشام والسيطرة على سكان المدن، كما لم يتمكن هؤلاء من اقامة الوفاق بين القبائل العربية في الشام ايضاً، وهكذا بقيت هذه البلاد تحركها ثورات مختلفة وحركات تمرد كثيرة»[٧].

عندما عزم احمد بن طولون التوجه الى احتلال بلاد الشام أعلن أنه قائم على الجهاد وتحقيق النصر على البيزنطيين وحماية دولته المسلمة منهم. تعاون الناس معه للجهاد ضد البيزنطيين واعتبروها من واجباتهم الدينية، وبذلك البس حملته لباساً دينياً وانضم الكثير من رجال القبائل العربية لحملته، فأصبح جيشه يفوق عدده على المائة ألف جندي.

سار احمد بن طولون الى الشام في شوال عام ٢٦٤هـ فوصل الرملة في فلسطين حيث دخلها دون قتال وولّى محمد ابن ابي رافع عليها، ثم سار الى دمشق حيث استقبله الوالي علي بن اماجوز فاقاله لكره الناس له واستخلف على دمشق احمد بن دغباش، ثم توجه الى حمص، مع جمع من قادة دمشق، فاحتلها وعزل واليها عيسى الكرخي وعيّن عليها يمن التركي ومنها سار الى حماه وحلب حيث دخلهما من دون قتال، وفي طريقه الى انطاكية اشتبك في قنسرين مع «سيما الطويل»، والي انطاكية فانهزم سيما الطويل وجيشه، فتبعه حتى انطاكية حيث حاصرها واحتلها بعد ان قتل الأهالي الوالي «سيما الطويل»[٨].

وفي طريقه الى مصر احتل بلدته المحببة طرسوس، التي درس فيها العلوم العسكرية وعيّن عليها «طخشي بن يلبرد» ثم أرسل غلامه لؤلؤ فاحتل جميع الثغور،

---

(٦) كتاب العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والأخشيدي، ص ٧ .

(٧) كتاب تاريخ سورية، ص ١٢٤ .

(٨) كتاب مروج الذهب المسعودي، مجلد ٤، ص ١٢٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طرابلس، وعكا ويافا ثم احتل منطقة الرقة وضواحيها وجعل الرقة مقراً للحكومة الطولونية في شمال بلاد الشام.

هكذا انضمت مصر والشام لسلطة واحدة يحكمها احمد بن طولون بمساعدة غلامه لؤلؤ الذي عينه على رأس بلاد الشام.

رجع احمد بن طولون الى مصر سنة ٢٦٥هـ عندما انقلب عليه ابنه العباس وحاول الاستيلاء على حكم مصر.

تمكن ابن طولون من احتلال بلاد الشام وبسط سيطرته الكاملة عليها وذلك اولاً، لانشغال الجيش العباسي في اخماد ثورة الزنج، وثانياً كان يعمل برضى الخليفة العباسي لصبغ أعماله بالشرعية، وثالثاً اعتماده على معاونين ووكلاء يقومون بالاتصال بذوي النفوذ والعناصر المسيطرة على الخلافة لخدمة اهدافه، واشترى قادة الجيش والأعيان وحتى القضاة بأغداق الهدايا والعطاء المستمر لهم، وهكذا كان في مصر على علم تام بكل الأمور التي تجري في بغداد عاصمة الخلافة العباسية.

وفي عام ٢٥٨هـ كانت محاولة ابن طولون نقل الخلافة العباسية الى مصر، فأرسل رسالة الى الخليفة المعتمد على الله العباس بن احمد المتوكل (٢٥٦ - ٢٧٩هـ) الذي كان على اختلاف مع أخيه وولي عهده الأمير أحمد الموفق الذي كان استبد بالحكم واستولى على السلطة، يشجعه على القدوم الى مصر. وافق الخليفة المعتمد على ترك بغداد والهرب الى مصر للتخلص من سيطرة واستبداد أخيه الأمير احمد موفق.

عندما علم الأمير احمد بالأمر، اصدر أمره بالقبض على شقيقه الخليفة المعتمد مع جميع اتباعه والقاهم في السجن وهدد احمد بن طولون باحتلال مصر والقضاء على الدولة الطولونية.

بعد فشل المشروع واعتقال الخليفة المعتمد على الله عقد احمد بن طولون مؤتمراً في دمشق عام ٢٦٩هـ مع جمع من العلماء والفقهاء الأعيان وهاجم الأمير احمد موفق لاعتقاله الخليفة، ونادى بخلع الأمير احمد من ولاية العهد وأمر بسبّه في المساجد ولعنه. اثار هذا العمل غضب الأمير احمد موفق فأمر بسبّ ولعن ابن طولون في مساجد بغداد وجميع البلاد التي تخضع للعباسيين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بنى ابن طولون للجيش الطولوني مدينة القطائع عام ٢٥٦هـ قرب القاهرة، وجعل لكل فئة من جنوده قطعة خاصة بنى فيها ثكنات ومنازل. وكان عدد جيشه يبلغ فوق السبعين الف جندي مؤلفاً من الأتراك والسودان والروم، وبذلك تمكن من عدم تجمعهم كقوة موحدة تستعمل ضده، وكذلك تمكن من مراقبتهم وجعلهم تحت سلطته المباشرة.

ثم بنى جامع طولون الشهير في القاهرة على هندسة المساجد العراقية المأخوذة عن الهندسة الفارسية وبهذا ابتدأ عهد البناء الجديد في مصر اذ تخلص من التأثرات البيزنطية التي كانت سائدة في مصر وبلاد الشام.

سوف لن نتطرق الى الحوادث التي جرت في عهد احمد بن طولون، كمحاولة ابنه العباس الاستيلاء على الحكم، وانتفاضة احمد بن حمد بن طباطبا في برقة عام ٢٥٥هـ ثم الحركة الشيعية بقيادة ابراهيم بن علي الذي يرجع نسبه الى الحسن بن علي بن ابي طالب، وخروج غلامه لؤلؤ، الذي خلفه ابن طولون اميراً على بلاد الشام، عن طاعته ومحاولته الاستقلال عن مصر، وغيرها من الانتفاضات، لأن لا مجال لها في هذه الدراسة المقتضبة التي لا يمكن ان تشمل كامل تاريخ بلاد الشام في القرنين الرابع والخامس هجري، حين انبثقت ثم انتشرت دعوة التوحيد الدرزية.

كان احمد بن طولون عالماً في الدين والفقه، قيل عنه الرحمة والتقوى والاحسان ولكن مع القسوة والعنف مع اعدائه فقد كان حاد الخلق والمزاج ومات في سجنه الألوف من الناس.

ويقول حسن احمد محمود «اكرم اهل الشام، واغدق عليهم، حتى قيل انه لم يبق احد في الشام الاّ اصابه مال من ابن طولون. لم يترك الشام الا بعد ان احسن الى اهلها احساناً كبيراً بالغاً»(٩). ويقول محمد كرد علي «ان ابن طولون لعدله وحسن سياسته الى بلاد الشام فضّله الناس على بعض الخلفاء»(١٠).

ويقول حسن احمد محمود عن وصول ابن طولون الى طرسوس: «حيث انتقل

(٩) كتاب مصر في عهد الطولونيين والأخشيديين، ص ٣٣ .

(١٠) كتاب خطط الشام، مجلد ١، ص ١٧٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كناسك متعبد وكمحسن كريم، يجود بما عنده لهولاء المجاهدين. وجلس لقضاء حاجة كل محتاج، واسرف في العطاء، وكان يطوي اياماً ويحيي الليل بالصلاة الى الصباح»[١١].

وبعد زيارة طرسوس سار الى المصيصة حيث أقام اياماً ولكنه شعر بالمرض، فذهب الى انطاكية حيث زادت علته فتوجه الى مصر ومات في ذي القعدة عام ٢٧٠هـ. وعند وفاته وصلت الدولة الطولونية الى حدود العراق، وجبال طوروس وطرابلس الغرب وكانت في اوج عزها ومجدها.

خلف احمد بن طولون ابنه خمارويه (٢٧٠ - ٢٨٢هـ) على ولاية مصر وبلاد الشام، «وترك له ثروة طائلة وجيشاً مؤلفاً من الآلاف من الجنود المماليك والغلمان الترك والسودانيين، وأسطولاً، يقال كان يحوي على مائتين من المراكب الكبيرة»[١٢].

تميّز اول عهد خمارويه بفوضى سياسية وحروب قادها الأمير احمد موفق وابنه العباس، الذي تمكن من استمالة بعض القادة الطولونيين بالمال والوعود بتقليدهم مناصب كبيرة، وعلى رأسهم احمد بن دغباش والي منطقة حلب، وكذلك القائد الواسطي الذي كان نائب خمارويه على ولاية دمشق.

استولى الجيش العباسي على دمشق واتجه جنوباً حتى حدود مصر، فتصدى له الجيش الطولوني بقيادة خمارويه ولكنه انهزم واتجه مع قادته الى مصر ولكن القائد سعد الأيسر استطاع مواصلة القتال، بما كان معه من الجيش الطولوني، فانتصر على الجيش العباسي حتى وصل دمشق فدخلها ودعا فيها لخمارويه»[١٣].

انعم خمارويه على القائد سعد الايسر بقيادة الجيش وجعله نائبه على ولاية دمشق حيث استمال اليه اهالي دمشق بكرمه وعدله، ولكن سعداً ركبه الغرور وعاش في نشوة انتصاراته حتى فكر بالاستقلال عن مصر وحكم بلاد الشام.

---

(١١) كتاب حضارة مصر في العصر الطولوني، ص ٨٨ - ٨٩ .

(١٢) كتاب المغرب، ابن سعيد، ص ١٣٢ .

(١٣) كتاب العبر، ابن خلدون، مجلد ٣، ص ٣٣٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قرر خمارويه القدوم الى دمشق في ذي القعدة عام ٢٧٢هـ وعند وصوله الى الرملة في فلسطين استدعى القائد سعد الايسر وقتله، فحدثت فتنة في دمشق، لحب الناس لسعد الايسر، فلعنوا خمارويه واظهروا العصيان ولكن خمارويه، عند دخوله دمشق، عمل على تهدئة الفتنة فاستتب الأمر وهدأت الأحوال، وفي خلال وجوده، قام بتفريق الأموال الكثيرة على الفقراء والمساكين فاستمال اليه اهل دمشق. ومن دمشق واصل خمارويه فتوحاته الى الجزيرة والموصل واعاد حدود دولته الى العراق.

بعد وفاة الأمير احمد موفق وأخيه الخليفة المعتمد على الله عام ٢٧٨هـ تمكن خمارويه من التقرب من الخليفة الجديد المعتضد بالله ابن الموفق (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) وزوجه ابنته اسماء الي كانت تدعى «بقطر الندى» وذلك عام ٢٨١ هجري.

وفي عام ٢٨٢هـ توفي خمارويه قتيلاً على يد جارية، وخلفه ابنه ابو العساكر، وكان ارعن، قليل الحنكة السياسية، ماجناً يحب اللهو وشرب الخمر خاف من اعمامه ان يستولوا على الخلافة فقتلهم، وكانوا ثلاثة من ابناء خمارويه.

غضب عليه قادة الجيش وبرزت بوادر فتنة من الشعب فأقيل من الخلافة وسجن وتولى أخوه الأصغر هرون مكانه وعُيّن أبو جعفر محمد وصياً عليه وقد عُرف بالدهاء والمكر.

في اوائل عهد هرون بن خمارويه ظهر القرامطة في بلاد الشام وبان خطر الفاطميين الاسماعيليين في شمال افريقيا وفشلت الجيوش الطولونية في القضاء على القرامطة الذين انتشروا في بلاد الشام، فخافت السلطة في بغداد من ضعف الطولونيين، فصممت على استرداد مصر من ايديهم قبل أن تقع في أيدي القرامطة او الفاطميين.

أرسل في عام ٢٩٢هـ الخليفة المكتفي بالله ابن المعتضد (٢٨٩ - ٢٩٥هـ) جيشاً الى مصر بقيادة محمد بن سلمان المعروف بالكاتب، كما اصدر أوامره الى قائد الأسطول العباسي لاحتلال الثغور الشامية ثم التوجه الى مصر. تمكن الأسطول العباسي من القضاء على الأسطول الطولوني عند مدينة «تينس»، وفي الوقت نفسه تقدمت الجيوش العباسية واجتاحت بلاد الشام ومصر بقيادة محمد بن سلمان الذي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دمّر مدينة «القطائع»، وبذلك عادت مصر وبلاد الشام الى الحكم العباسي، بعد أن تمتعتا بالاستقلال لمدة تقارب أربعين سنة.

الفترة التي تلت هزيمة الطولونيين في مصر حتى قيام الدولة الأخشيدية، وتقدر بنحو ثلاثين سنة، من عام ٢٩٣ الى ٣٢٣هـ، كانت مصر ولاية عباسية تابعة للخلافة في بغداد ويحكمها ولاة من قبل الخلافة العباسية.

وفي هذه الحقبة بين الدولتين الطولونية والأخشيدية، اي من عام ٢٩٢هـ الى عام ٣٥٨هـ، لا بدّ من الاشارة الى تولية القائد التركي «تكين» اربع مرات على مصر وقسم من بلاد الشام وذلك بين سنتي ٢٩٨هـ و ٣٢١هـ حكمها في مجموعها اكثر من ستة عشر عاماً. كما سيطرت الأسرة الماذرائية على خراج مصر والادارة وشغلت دوراً هاماً في الأحداث السياسية والادارية ابان تلك الفترة واثناء نهاية الدولة الطولونية. ويقال ان الحسين بن احمد الماذرائي، المعروف بأبي زنبور، الذي كان وزيراً خلال الهجوم العباسي على مصر عام ٢٩٢، انضم الى القائد العباسي محمد بن سلمان وساهم بدور بارز في انهاء الدولة الطولونية[١٤]. وكان للأسرة الماذرائية دور بارز في الأحداث السياسية حتى عام ٣٢٣هـ حين استلم محمد بن طغج الأخشيدي، للمرة الثانية، ولاية مصر.

ويقول ابن سعيد «وكانوا مع الولاة بمثابة أمير الأمراء، حتى ندب الخليفة الراضي الفضل بن جعفر بن الفرات وزيراً مفوضاً على أعمال مصر والشام وأعطاه تفويضاً كاملاً بتدبير كافة الأمور، وكان ابن الفرات يكره الماذرائيين فأنهى سلطتهم في مصر والشام وصادر أملاكهم واموالهم»[١٥].

ونكرّر القول ان لا تأثير او علاقة بين الدولة الطولونية ودعوة التوحيد الدرزية. فالدولة الطولونية زالت عام ٢٩٣هـ، ودعوة التوحيد أعلنت في القاهرة عام ٤٠٨هـ،

---

(١٤) الماذرائيون أسرة فارسية تنسب الى قرية «ماذريا» من اعمال البصرة، نزح قسم من افرادها الى مصر في عهد احمد بن طولون حيث وجدوا الرخاء والنجاح وتمكن بعضهم من تولي الوظائف الهامة. يقول المؤرخ سيده كاشف، كتاب مصر في العهد الأخشيدي ص ٤٣ . «في سنة ٣٠٤هـ قلد محمد بن علي بن زنبور الماذرائي اعمال مصر والاشراف على اعمال الشام».

(١٥) كتاب المغرب، ص ١٥٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اي بعد اكثر من مائة سنة من انهيار الدولة الطولونية. ولهذا اختصرنا تاريخ هذه الدولة واكتفينا بالقليل من سرد الحوادث المهمة التي حصلت خلال قيامها، كي لا نترك ثغرات في تسلسل تاريخ بلاد الشام حيث انتشرت لاحقاً دعوة التوحيد.

الدولة الأخشيدية ٣٢٣ - ٣٥٨هـ ٩٣٥ - ٩٦٩م

مؤسس هذه الدولة، محمد بن طغج بن جف الملقب بالأخشيد. والأخشيد لقب تركي كان يتلقب به ملوك اقليم فرغانة في بلاد ما بين وراء النهر(١٦).

محمد الأخشيد كان تركياً من أصل فرغاني، وان جده «جف» كان ضابطاً في جيش الخليفة المعتصم بالله بسامراء. وخدم أبوه طغج في جيش «احمد بن طولون» الذي كان معجباً بشخصه، وكان كثيراً ما يتشبه به في بلاطه ومواكبه(١٧).

ويقول محمد احمد زيّود «فعندما كان أبوه والياً للطولونيين على دمشق وطبرية استخلف هذا ابنه محمداً، نيابة عنه، ليتولى أمر طبرية، وفيها اقدم على قتل ابي الطيب العلوي»(١٨).

استمر محمد بن طغج والياً على طبرية الى ان كانت نكبة الطولونيين، فانتقل مع والده الى بغداد حيث سجنه الوزير العباسي، العباس بن الحسن لكبرياء والده على هذا الوزير وبقي في السجن الى ان مات والده عام ٢٩٤هـ في سجنه، فأطلقه الوزير العباسي مع أخيه عبيدالله حيث عملا في خدمته(١٩).

بعد مقتل الوزير العباسي، العباس بن الحسن، ذهب محمد بن طغج الى بلاد الشام والتحق بخدمة واليها احمد بن بسطام على الخراج(٢٠).

التحق محمد بن طغج بخدمة القائد التركي «تكين» الذين كان اميراً على مصر، وعندما انتقل تكين الى دمشق رافقه محمد بن طغج، فولاّه تكين عمان،

---

(١٦) كتاب في التاريخ العباسي والفاطمي، الدكتور احمد مختار العبادي، ص ١٤٠ .

(١٧) المصدر السابق، ص ١٤١ .

(١٨) كتاب العلاقات بين مصر والشام، ص ٢٧٥ .

(١٩) كتاب العلاقات بين الشام ومصر، الدكتور محمد احمد زيّود، ص ٢٧٥ .

(٢٠) المصدر السابق، ص ٢٧٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حيث أظهر مقدرة سياسية وشجاعة عند قتاله لقبائل من لخم وجذام لصدها عن غزو قوافل الحجاج في طريقها الى مكة.

عندما عيّن القائد التركي، للمرة الثانية، اميراً على مصر عام ٣٠٧، صحبه محمد بن طغج فولاّه على الاسكندرية.

وفي عام ٣١٦هـ قلّده الخليفة المقتدر بالله ابن المعتضد (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) ولاية الرملة حيث بقي والياً عليها حتى سنة ٣٢٣هـ عندما قلّده الخليفة الراضي ولاية بلاد الشام.

وفي عام ٣٢١هـ توفي والي مصر، القائد التركي «تكين»، طلب محمد بن طغج الولاية لنفسه ولكن الخلافة في بغداد لم توافق على طلبه، ولكن في عام ٣٢٣هـ قلّده الخليفة الراضي بالله بن المقتدر (٣٢٢ - ٣٢٩هـ) ولاية بلاد الشام[٢١].

وفي شهر جمادى الاولى (عام ٣٢٤هـ) غزت مصر من المغرب القوات الفاطمية وعلى رأسها الخليفة القائم بالله فهزمها الجيش الأخشيدي بقيادة الحسن بن طغج، وشاركه في القيادة محمد بن طغج، الذي أظهر شجاعة وحنكة عسكرية ويقول الدكتور احمد مختار العبادي: «فكافاءه الخليفة الراضي بالله احمد بن المقتدر بأن ولاّه على مصر، وهكذا اسس الأخشيد ثاني دولة مستقلة عرفتها مصر الاسلامية[٢٢]. كما وان الخليفة الراضي بالله لقّبه بالأخشيد عام ٣٢٧هـ.

بعد استيلائه على مصر قرر ضم بلاد الشام، حين كان والياً، الى دولته الجديدة مصر، ولكنه لم يتمكن من ذلك بسبب تنازع السيادة على بلاد الشام من قوى متعددة كالحمدانيين والبيزنطيين والعباسيين وغيرهم.

كان في مقدمة هذه القوى القائد محمد بن رائق الخزري.

---

(٢١) كتاب مصر في عهد الأخشيديين، سيدة كاشف، ص ٧٦ .

(٢٢) كتاب في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ١٤١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«محمد بن رائق كان اقوى شخصية عسكرية في بغداد، وفي عام ٣٢٤هـ عيّنه الخليفة الراضي بالله أمير الجيوش وخطب له على المنابر في جميع انحاء العالم الاسلامي وأصبح الأمر كله بيده»[٢٣].

في عام ٣٢٦هـ خرج عليه القائد التركي «بجكم» وحل محله في أمرة الجيوش. طلب بن رائق من الخليفة الراضي بالله ان يوّليه على حرّان والرّها من ضواحي قنسرين. أُجابه الخليفة لذلك[٢٤].

في عام ٣٢٧هـ سار ابن رائق الى أن أتى حلب[٢٥] وبدأت سلسلة من الصدامات الدامية بينه وبين محمد بن طغج الأخشيدي.

طلب بن رائق من محمد طغج جزية على الممتلكات الأخشيدية في بلاد الشام، فأرسلها محمد بن طغج كي يضمن سلامة ولايته. ولكن غاية بن رائق كانت الاستيلاء على بلاد الشام. سار بن رائق بجيش كبير واستولى على حمص ثم توجه الى دمشق فهزم واليها بدر بن عبيدالله الأخشيدي وملكها وولى عليها محمد بن بزداد الشهرزوري، الذي بقي عليها حتى قتله ابن رائق عام ٣٣٠هـ. سار ابن رائق من دمشق الى الرملة عام ٣٢٧هـ وقصد عريش مصر حيث كانت القوات الأخشيدية بقيادة عمران بن فارس.

يقول ابو الحسن المسعودي: «انهزم ابن رائق في معركة بلدة العريش وانسحب مع جيشه الى الرملة، ثم جرى صلح بينهما على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمالي الرملة وعلى أن يدفع الأخشيد اليه جزية سنوية قدرها مائة وأربعون ألف دينار»[٢٦].

بعد المعاهدة بسنتين قتل محمد بن رائق وعادت بلاد الشام بحوزة الأخشيد من دون حرب[٢٧].

---

(٢٣) كتاب الكامل في التاريخ، ابن الاثير ، مجلد ٦، ص ٢٥٤ .

(٢٤) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب، مجلد ١، ص ٩٩ .

(٢٥) كتاب تحف الأنبياء من تاريخ حلب الشهباء، المستشرق بتشوف، ص ٢٨ .

(٢٦) كتاب Lane poole, The History of Egypt in the Middle Ages Vol. VI, page 93.

(٢٧) المصدر السابق، ص ٨٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول ابن العديم: «وفي عام ٣٣٣ استطاع محمد بن طغج الأخشيد ان يحصل على تقليد من الخليفة المتقي لولاية مصر وحق توريث امارتها لأبنائه من بعده»(٢٨).

وفي عام ٣٢٨هـ زوّج محمد طغج الأخشيد ابنته فاطمة الى مزاحم بن محمد بن رائق مما مكّن اواصر الصداقة بينهما، وكذلك تقرر أن يبقى عبيد الله بن طغج عند ابن رائق ومزاحم عند محمد بن طغج الأخشيد.

بعد وفاة الخليفة الراضي بالله عام ٣٢٩هـ وبيعة اخيه المتقي بالله (٣٢٩ - ٣٣٣هـ) ومقتل امير الجيوش القائد التركي «بجكم» انفجر الصراع بين الديلم والترك فاستدعى الخليفة المتقي بالله ابن رائق من بلاد الشام لانهاء الفتنة. بعد ان استتب الأمن عيّن محمد بن رائق امير الأمراء وقائد الجيوش.

استغل ابن رائق ضعف الخليفة المتقي بالله فاستبد في حكم الدولة وتسلط على الادارة والخراج، حتى ان اسمه كان يذكر مع اسم الخليفة في خطبة الجمعة في مساجد بغداد، واصبح الخليفة دمية في يده لا يملك الاّ المنصب من دون النفوذ او السلطة.

وفي عام ٣٣٠هـ. فرّ الخليفة المتقي بالله الى الموصل هرباً من خطر هجوم أمير خوزستان البريدي على العراق وكان برفقته القائد محمد بن رائق.

قتل الحسن بن حمدان أمير الأمراء محمد بن رائق عام ٣٣٠ وارجع السلطة للخليفة الذي كافأه، ويقال مكرهاً، على تعيينه امير امراء الجيش وخلع عليه لقب ناصر الدولة وعلى شقيقه علي لقب سيف الدولة.

كانت مطامع سيف الدولة الاستيلاء على جميع بلاد الشام، فسار الى حمص يريد دمشق، فلما علم الأخشيد ذلك، ارسل الى الشام جيشاً حيث نشبت معركة عند بلدة «الرستن» - بين مدينتي حماه وحمص - وكان النصر لسيف الدولة وانهزم الأخشيد وعاد الى مصر، اما سيف الدولة فقدم دمشق واحتلها.

استخلف محمد بن طغج ابنه انوجور على مصر وسار على رأس جيش كبير

(٢٨) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب، مجلد ١، ص ٤٣٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى دمشق لاحتلالها. فحصلت المعركة في قنسرين في شوال عام ٣٣٣هـ حيث انهزم سيف الدولة واحتل الأخشيد حلب واسترد دمشق، ثم عقد صلحاً مع سيف الدولة على ان يكون للحمدانيين حلب وما يليها من بلاد الشام شمالاً، ويكون للأخشيد دمشق واعمالها على ان يدفع الأخشيد لسيف الدولة جزية سنوية.

وافق محمد بن طغج الأخشيدي على هذا الصلح، على الرغم من انتصاره، خوفاً من البيزنطيين، فاراد ان يبقى الدولة الحمدانية حصناً ضدهم. في عام ٣٣٢هـ اجتمع محمد بن طغج الأخشيدي مع الخليفة المكتفي بالله في «الرقة» وعرض عليه ان يسير معه الى مصر والشام فتنتقل الخلافة العباسية الى مصر، كما حاول قبله احمد بن طولون. ابى الخليفة الدعوة وامتنع عن الذهاب الى مصر، وعند عودته الى بغداد قبض عليه امير الجيوش «توزون» والقاه في السجن وبايع ابنه ابا القاسم عبدالله بالخلافة.

توفي محمد بن طغج الأخشيدي في دمشق في ذي الحجة عام ٣٣٤هـ وعاد جيشه الى مصر، فاتجه سيف الدولة بجيشه الى دمشق واحتلها، ولكن أهالي دمشق طلبوا نجدة من كافور، الذي كان في ذلك الوقت وصياً على اولاد محمد بن طغج الأخشيدي، اناجور واخيه علي.

قدم كافور الى الشام عام ٣٣٥هـ فجرت معركة «بأكسال» في شهر جمادى الأولى، فانهزم الجيش الحمداني الذي تقهقر الى حمص حيث انضم اليه جيش من بني نمير، وعقيل، وكلاب، وغيرهم فسار نحو دمشق حيث اشتبك بالجيش الأخشيدي في مكان يقال له «عذرا» فانهزم سيف الدولة وتقهقر الى حلب وتبعه كافور وجيشه فاتجه الى الرقة حيث عسكر فيها[٢٩].

احتل كافور حلب وعيّن عليها «يانس المؤنس» الذي كان تمرد على سيف الدولة والتجأ الى انطاكية، ولكن سيف الدولة هاجم حلب في ربيع الآخر عام ٣٣٦هـ واحتلها. بعد هذه المحاولة عقدت معاهدة بين كافور وسيف الدولة بالشروط نفسها لمعاهدة عام ٣٣٤هـ ما عدا الجزية التي رفضها كافور.

(٢٩) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب، ابن العديم، ص ١١٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استقرت بعد ذلك احوال بلاد الشام حتى كان الاجتياح البيزنطي عام ٣٥١هـ، فأرسل الأخشيديون جيشاً لمساعدة سيف الدولة على رأسه المهلّل بن سلال العقيلي، فكان هذا التعاون من الأسباب التي جعلت البيزنطيين يتخلّون عن مهاجمة بلاد الشام.

عندما مات محمد بن طغج ترك أولاده تحت وصاية كافور الذي حكم مصر وبلاد الشام كوصي على الولدين مدة عشرين سنة، ثم أصبح والياً على مصر لمدة سنتين حتى مات عام ٣٥٧هـ.

اما أولاد محمد بن طغج الأخشيدي فكان انوجور ولياً على مصر بعد وفاة ابيه، حيث ولاّه الخليفة المطيع لله بن المقتدر (٣٣٤ - ٣٦٣هـ) على مصر وبلاد الشام واستمر على ولاية مصر ومات عام ٣٤٩هـ، قيل دس له السم كافور، ودفن في القدس[٣٠].

اما علي، فبعد ان مات أخوه انوجور، اقامه كافور على مكانه، فكان له الاسم من الامارة فقط[٣١] اذ كان كافور مستولياً على مقاليد الحكم. اختلف علي مع كافور فعزله ومات عام ٣٥٥هـ وكذلك دفن في القدس.

وبعد موت علي بن محمد طغج، ولّى الخليفة المطيع لله كافور على إمارة مصر عام ٣٥٥هـ. فحكم سنتين وتوفي عام ٣٥٧هـ.

عمل كافور على توطيد الحكم الأخشيدي وأخّر الفتح الفاطمي حيث احتفظ مع الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بعلاقات غير عدائية.

عند وفاة كافور اجتمع الرأي على تولية احمد بن علي الأخشيد وكان يبلغ من العمر احدى عشرة سنة. ولكن في ذلك الوقت ساءت الأحوال في مصر بسبب القحط وهلك الكثير، فأقدم جماعة من اعيان وعلماء مصر على مراسلة الخليفة الفاطمي المعز لدين الله يستدعونه ليتسلم حكم البلاد.

---

(٣٠) كتاب الكامل في التاريخ، ابن الاثير، مجلد ٨، ص ٥٣٣ .

(٣١) كتاب الولاء والقضاء، ابو عمر الكندي، ص ٢٩٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول الدكتور محمد احمد زيّود: «بعد موت محمد بن طغج وفي عهد كافور، حدثت فتن وانتفاضات كثيرة منها:

١ - حركة بنو كلاب عام ٣٢٥هـ. في المعرة.

٢ - فتنة دمشق عام ٣٣٤هـ.

٣ - حركة المهلل العقيلي عام ٣٣٤ .

٤ - حركة شبيب بن جرير في عمان عام ٣٤٨هـ.

٥ - خروج محمد بن السلمي من الثراة عام ٣٥٢هـ.

٦ - ثورة اهل عمان عام ٣٥٤هـ.

٧ - خروج بني سليم على طريق الحج عام ٣٥٥ .

٨ - تمرد اهل طرابلس على الوالي الأخشيدي ابو الحسن احمد بن تحرير الأرغلي.

٩ - تمرد والي بيت المقدس محمد بن اسماعيل الصناجي ونهب كنيسة القيامة[٣٢].

زيادة على الحروب مع الفاطميين والحمدانيين والبيزنطيين تعرض الأخشيد في بلاد الشام للخطر القرمطي حيث لعب سيف الدولة الحمداني دوراً كبيراً اذ كان يصانع القرامطة في اكثر الأحيان ويقدم لهم الامدادات الكثيرة ويشجعهم على غزو بلاد الشام ضد الأخشيديين[٣٣]. ولهذا لم يتعرض القرامطة عند غزوهم بلاد الشام لأملاك الحمدانيين.

في عام ٣٥٧هـ هاجم القرامطة بلاد الشام واحتلوا دمشق ثم ساروا الى الرملة في فلسطين، وكان واليها الحسن بن عبيدالله ابن طغج، الذي لم يتمكن من صدهم فاتفق معهم على اتاوة سنوية، قدرها ثلاثمائة ألف دينار، بقيت تدفع لهم حتى قطعها الخليفة المعز لدين الله. في ذلك الوقت اي، قبل الفتح الفاطمي عام ٣٥٨هـ اصبح النفوذ الأخشيدي في بلاد الشام في حكم الزائل.

---

(٣٢) كتاب العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والأخشيدي، ص ٣٢٢ - ٣٢٦ مع تفاصيل وشروحات مستفيضة.

(٣٣) كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب، ابن العديم، مجلد ١، ص ١٣٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مما يجب ذكره، المعارك التي جرت بين الجيش الفاطمي، بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي والجيش الأخشيدي عند احتلال الفاطميين لبلاد الشام.

خاض الجيش الفاطمي ثلاث معارك رئيسية انتصر بها جميعاً على الأخشيد.

كانت المعركة الأولى في مدينة الرملة في ذي الحجة عام ٣٥٨هـ اي بعد المعركة الأخيرة عام ٣٥٧هـ بين القرامطة والأخشيد، وكان الجيش الأخشيدي منهوك القوى بعد حروبه مع القرامطة. انهزم الأخشيد وأسر قائده الحسن بن عبيدالله بن طغج وأرسل الى المغرب وظل فيها حتى مات.

وكانت المعركة الثانية في طبرية حيث استسلم القائد فاتك غلام الوالي «ملهم» من دون مقاومة، واقيمت الخطبة للخليفة الفاطمي المعز لدين الله.

ثم كانت المعركة الثالثة في دمشق، فقد كان وصل الى أهالي دمشق خبر انتصارات الفاطميين في الرملة وطبرية، فأرسلوا وفداً من كبار رجالهم يطلبون الأمان على أن يسلموا دمشق من دون قتال. وكان مع الوفد عقيل بن الحسين العلوي وابن ابي يعلى العباسي. رجع الوفد الى دمشق بعد ان لاقى معاملة سيئة من القادة الفاطميين.

فر القائد الأخشيدي «شمول» وانضم الى جعفر بن فلاح وترك دمشق من دون امير او قائد يدافع عنها. ولكن الأهالي، مع بعض من بقي من الأخشيد وبعض البدو من القبائل العربية، قاوموا بضراوة وشجاعة والحقوا بالفاطميين خسائر فادحة بالأرواح والمعدات.

يقول تغري بردي: «استطاع جعفر بن فلاح دخول دمشق في محرم عام ٣٥٩هـ واقام الخطبة للمعز لدين الله، وقطع خطبة الخليفة العباسي المطيع لله»(٣٤).

سوف لن نتطرق الى الحروب الصليبية، وامارة بني منقذ في «شزر» وامارة بني عمّار في طرابلس الشام لأن هذه الحوادث والحروب التي جرت في زمن هذه الامارات خارجة عن موضوع هذه الدراسة.

في ١٨ رجب عام ٣٥٨هـ استولى جوهر الصقلبي على مصر وانتهت دولة الأخشيد.

---

(٣٤) كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مجلد ٤، ص ٣٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الامامة

لا يمكن لأي دراسة عن دعوة التوحيد الدرزية ان تكتمل من دون العودة الى تاريخ نشوء الامامة وتطورها في الاسلام، اذ قال الله تعالى في كتابه الكريم «يوم ندعو كل أناس بامامهم...»[١]. ثم قال سبحانه وتعالى: «وجعلناهم أيمةً يهدون بأمرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلوة وايتاء الزكوة وكانوا لنا عابدين»[٢] ثم قال، عز وجل، «يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم...»[٣] وقال: «واذ ابتلى ابرهيم ربُّه بكلمات فأتمّهن قال اني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظلمين»[٤].

وابو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني يقول: «وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الامامة، اذ ما سّل سيف في الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سّل على الامامة في كل زمان»[٥].

ويقول عبد القاهر طاهر بن محمد البغدادي عن اختلاف الأمة «ثم اختلفوا بعد ذلك في الامامة واذعنت الانصار الى البيعة لسعد بن عبادة الخزرجي[*] وقالت قريش: ان الامامة لا تكون الاّ في قريش، ثم اذعنت الأنصار لقريش لما روي لهم قول النبي، عليه السلام «الأئمة من قريش» وهذا الخلاف باق الى اليوم»[٦].

---

(١) سورة الاسراء، آية ٧١

(٢) سورة الانبياء، آية ٧٣

(٣) سورة النساء، آية ٥٩

(٤) سورة البقرة، آية ١٢٤

(٥) كتاب الملل والنحل، ص ٢٤

(*) هو سعد بن عبادة بن دليم، الخزرجي الانصاري، كان سيد الخزرج وكانت معه راية الانصار في معركة بدر، رفض مبايعة ابي بكر الصديق ومات بحوران في بلاد الشام عام ١٥هـ.

(٦) كتاب الفرق بين الفرق، ص ١٥ البغدادي، ص ١٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اختلف المؤرخون المسلمون في مقولة ابي بكر في اجتماع السقيفة، ان الرسول الكريم قال: «الأئمة من قريش» فبعضهم اكد ذلك[٧] اما المؤرخ المعروف محمد حسين هيكل، فيقول ان ابا بكر قال: «اما العرب فلن تعرف هذا الأمر الاّ لهذا الحي في قريش»[٨]. ولم يذكر ان هذه المقولة للرسول (صلعم) ابو محمد عبدالله بن قتيبة الدينوري يورد خطبة ابي بكر يوم سقيفة بني ساعدة كما يلي. «نحن المهاجرون اول الناس اسلاماً واوسطهم داراً، واكرمهم حسابا واحسنهم وجوها، واكثر الناس ولادة في العرب، وامسهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم، اسلمنا قبلكم وقُدّمنا في القرآن عليكم، فانتم اخواننا في الدين وشركاؤنا في الفيء، وانصارنا على العدو، آويتم واسلمتم فجزاكم الله خيراً. نحن الامراء وانتم الوزراء، لا تدين العرب الاّ لهذا الحي من قريش، وانتم محقوقون الا تنفسوا على اخوانكم من المهاجرين ما ساق الله عليهم..[*]

ولذلك اختلف المؤرخون في من أتى السقيفة، فمعظمهم قال، كانوا ثلاثة، أبو بكر الصديق، عمر بن الخطّاب وابو عبيدة عامر بن الجرّاح، ولكن البعض الآخر، وهم قلة، قال ان عاصم بن عدي وعويم بن ساعدة، انضما اليهم فأصبحوا خمسة ولكن هذه المقولة لا تؤكدها المراجع التاريخية الاسلامية.

والقول بان من اتى الى السقيفة كانوا خمسة من المهاجرين يثبته الفقيه الشافعي، علي بن محمد ابو الحسن الماوردي في كتابه «كتاب الاحكام السلطانية»، قال: «قل من تنعقد منهم الامامة خمسة يجتمعون على عقدها، او يعقدها احدهم برضى الأربعة استدلالا بأمرين احدهما، ان بيعة ابي بكر رضي الله عنه، انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها، ثم تابعهم الناس فيهم وهم عمر بن الخطّاب، وابو عبيدة بن الجرّاح واسيد بن حضير وبشر بن سعد وسالم مولى حذيفة رضي الله عنهم»[٩].

---

(٧) كتاب الملل والنحل، الشهرستاني، ص ٢٤ . كتاب الاحكام السلطانية، ابو الحسن الماوردي ص ٣ .

(٨) كتاب الصديق ابو بكر، محمد حسين هيكل، ص ٥٨ .

(*) كتاب عيون الاخبار، الطبعة الاولى ١٩٢٨، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٩) كتاب الخلافة وشروط الزعامة عند اهل السنة والجماعة، الدكتور يوسف إيبش ، ص ٢٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول بعض مؤرخي الشيعة، ان الامامة انبثقت بعد ان بويع أبو بكر الصديق بالخلافة، الاّ ان بعض الصحابة رفضوا ذلك، ومعظمهم من بني هاشم مع بعض الانصار، كسعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج وبعض مريدي علي بن ابي طالب منهم العباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس والزبير بن العوام بن العاص، ابن صفية بنت عبد المطلب عمّة الرسول، وخالد بن سعيد وسلمان الفارسي[١٠] والمقداد بن الاسود الكندي وابو ذر الغفاري وعمّار بن ياسر والبراء بن عازب وابي بن ابي كعب[١١].

كان هؤلاء الصحابة يؤمنون بأن الخلافة من حق علي بن ابي طالب، فهو ثاني من اعتنق الاسلام، بعد خديجة زوجة الرسول، وجاهد كل حياته لأجله، وقاتل له، وعرض حياته للموت في سبيل نصرته وهو ابن عم النبي، وصفّيه وكاتم اسراره وزوج فاطمة ابنته المفضلة، وعرف بعلمه وزهده، وورعه وشجاعته ووارث علم النبوة.

وقالوا، بالرغم من التضحيات الكبيرة التي قدمها ابو بكر الصديق، الذي صحب الرسول من وقت اسلامه حتى وفاته، وكان رفيقه في الغار وفي خروجه الى يثرب، (المدينة) وكان خامس من اعتنق الاسلام، محترماً بين الناس، ذا مكانة مرموقة بين المسلمين وهو الذي أمره الرسول، عند مرضه، ان يصلي بالناس، والصلاة بالناس اول مظهر للقيام مقام الرسول، ولكن قالوا ان علي احق منه بالخلافة.

ولاعطاء علي بن ابي طالب الحق بالامامة التي يعتبرون مركزاً يستحقه لانجازاته وتضحياته في الاسلام، اعتمد شيعته على نصوص من القرآن منها: «وقال الذين اوتوا العلم والايمان» ثم «اني مخلف فيكم الثقلين» وغيرها، كما اعتمدوا حديث الرسول، خصوصاً في اجتماع «غدير خم». ثم قول الرسول قبل وفاته: «آتوني بدواة وصحيفة اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ابداً»، ان الرسول أراد ان ينص على خلافة علي ولكن عمر بن الخطّاب اراد منعه من ذلك فقال: «ان رسول الله قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن وحسبنا كتاب الله». واعلنوا امامة علي بن ابي طالب، وقالوا ان

---

(١٠) اسمه روزبه بن مرزبان الفارسي اطلق عليه النبي اسم سلمان.

(١١) كتاب الصديق ابو بكر، محمد حسين هيكل، ص ٦٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الامامة لا تكون الاّ في آل البيت من نسل فاطمة بنت الرسول، وان الامام هو ممثل الله على الأرض له العصمة وحق التأويل وهو ثاني النبي لا يفرقه عنه الا الوحي، اما الخليفة فهو خليفة النبي وقائد الأمة[١٢].

كانت ردة فعل مؤيدي ابي بكر الصديق ان قالوا ان الصحابة من مهاجرين وأنصار الذين بايعوا ابا بكر بايعوه بالامامة باقرارهم ان الأئمة من قريش، وبما ان المبايعة كانت من الجماعة، اذاً تكون شورى.

يرفض المفكرون الشيعة، على جميع مذاهبهم الشورى ويقولون: «ولو افترضنا جدلاً ان الأمة توجهت منزهة عن كل غرض وهوى النفس لاختيار الامام، فان الخطأ، اذ كان جائزاً على كل فرد، فقد جاز الخطأ على المجموع، وبذلك تخطئ الأمة المستحق وتختار غيره ولا يتضح لهم الأمر الاّ بعد ان يتعذر خلعه باثارة الفتن واراقة الدماء»[١٣]. اذاً الامامة تكون بالنص، وقد نصّ عليها الله في القرآن والرسول في الحديث لعلي بن أبي طالب.

ويقول المستشرق كارل بروكلمن: «وتفصيل الأمر انه كان على المسلمين ان يختاروا زعيماً يؤم الناس في الصلاة الجامعة ويشرف على مقدرات النظام الجديد. لم يكن ثمة حقوق وراثية، بل لم يكن ثمة طريقة معروفة للانتخاب، والقرآن نفسه، الذي كان دستوراً يسير النبي على ضوئه في الحكم، لم يشتمل على أيما توصية يستعين بها المسلمون على حل مشاكلهم ويهديهم سواء السبيل الى معرفة الرجل الذي يجب ان يدعى لخلافة الرسول»[١٤].

اختلف المسلمون على اختيار الرجل الذي يجب ان يولّى عليهم. فقالت السنة، انه يجب ان تختاره الجماعة، فيكون شورى. ويجب ان يكون من قريش. اما الشيعة، على جميع مذاهبهم، فقالوا: «ان الامامة احدى دعائم الدين وسموها

---

(١٢) بعض العلماء والمؤرخين يرفضون هذا التحليل للامامة ونشوئها اذ يقولون ان الامامة كانت قبل الاسلام وان الله تعالى اشار اليها في كتابه الكريم، سورة الاسراء، آية ٧١، سورة الانبياء، آية ٧٣ وسورة البقرة، آية ١٢٤ .

(١٣) كتاب الامام والامامة عند الشيعة، الدكتور يوسف ايبش، ص ٨ .

(١٤) كتاب تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ١٠٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الولاية وان الدين لا يتقدم الاّ بها ويجب ان تكون بالنص وقد نص الله والرسول على علي بن ابي طالب». وقالت المعتزلة. لم يقدم رسول الله احداً بعينه ولا اشار اليه ولكنه أمر الناس ان يختاروا بعده رجلاً يولونه على أنفسهم فاختاروا ابا بكر.

اما الخوارج، خصوصاً الازارقة والضرارية، فقالوا: «لم ندر ولم يبلغنا النبي امرا في ذلك بشيء ولا انه لم يأمر ولا اشار ولا لم يشر ولكن لا بد من امام يقيم الحدود وينفذ الاحكام وانها تصلح في القرشي وفي غير القرشي اذا كان فاضلاً تقيا مستجمعاً لشروط الاسلام». وقالت الزيدية بالنص وعلى ان تكون في ولد علي وفاطمة بنت النبي.

هدأت العاصفة بعد ان بايع علي بن ابي طالب ابا بكر في بيت بني هاشم وبحضور جمع منهم وذلك بعد وفاة فاطمة بستة اشهر فقط من وفاة ابيها النبي. عمل علي مستشاراً لأبي بكر وساعده كثيراً في تسيير امور المسلمين، حتى قال بعض المؤرخين، «لولا علي لفشل ابو بكر في حكمه». وقيل، كان ذلك عن عمر بن الخطّاب وليس عن ابي بكر.

ويقول ابو الحسن الأشعري، «ان المسلمين بايعوه وتابعوه وانقادوا لامامته وقالوا له يا خليفة رسول الله، ورأينا علياً والعباس، رضي الله عنهما، بايعاه، رضي الله عنه، واقرّا له بالامامة»(١٥).

ويقول الدكتور يوسف ايبش: «لم يكن النبي محمد في حياته مجرد رسول تنحصر مهمته في تبليغ الرسالة وتعليم الاسلام فقط، انما كان الى جانب مؤسس الأمة، وجامع شملها ومدير شؤونها الدنيوية وكان القاضي المطبّق للتشريع والمنفذ لاحكامه، وكان الحكم بما يريده الله من عباده ولهم، وكانت الأمة تخضع لسلطته الروحية – الزمانية ومنها قيادة الجيوش والمجاهدة في سبيل الله»(١٦).

عندما توفي النبي، كان لا بد من ايجاد شخص يقوم بهذه المهمات، التي هي أساس الدين، وعليه ان يجمع شمل الأمة ويحافظ عليها ويطبق العدالة الكاملة ويكون عارفاً بالشريعة وسديد الرأي.

---

(١٥) كتاب الخلافة وشروط الزعامة عند اهل السنّة والجماعة، الدكتور يوسف ايبش، ص ١٨ .

(١٦) المرجع نفسه، ص ٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول القاضي ابو بكر الباقلاني[١٧] في وصف الامام « يجب ان يكون على اوصاف، منها ان يكون قرشياً في الصميم، ومنها ان يكون في العلم بمنزلة من يصلح ان يكون قاضياً من قضاة المسلمين، ومنها ان يكون ذا بصيرة بأمر الحرب وتدبير الجيوش، وسد الثغور، وحماية البيضة، وحفظ الأمة، والانتقام من ظالمها والأخذ لمظلومها وما يتعلق به من مصالحها، ومنها ان يكون ممن لا تلحقه رقة ولا هوادة في اقامة الحدود، ولا جزع لضرب الرقاب والابشار، ومنها ان يكون من امثلهم في العلم وسائر هذه الأبواب التي يمكن التفاضل فيها، الاّ ان يمنع عارض في الأفضل فيسوغ نصب المفضول، وليس من صفاته ان يكون معصوماً، ولا عالماً بالغيب، ولا أفرس الأمة واشجعهم، ولا ان يكون من بني هاشم فقط دون غيرهم من قبائل قريش[١٨].

يقول المستشرق: «هنري كوربان»[١٩]. «فنظراً لأن الامامة هي المظهر الالهي الأصيل ووحي الحضرة الالهية والهادي الى هذا الوحي، فان الامام هو «الحجة» العظمى والكفيل الذي ينوب عن الالوهية اللامعلومة»[٢٠].

ثم يقول: «هنري كوربان». «من جهة لا يمكن للأرض ان تكون خالية من امام، حتى وان كان مستوراً، لانها تكون عندئذ بلا اتصال مع السماء، اذ ان الأمام هو القطب الروحاني، فلو انه كف عن الوجود، لما زالت الانسانية في وسعها البقاء في الوجود ولئن كان الجمهور العريض من البشر غير واع بوجود هذا القطب، فهذا لا يغير في الأمر شيئاً، فيجب اذن الاّ يكف الامام ابداً من ان يكون حاضراً»[٢١].

---

(١٧) ابو بكر الباقلاني من الجيل الثاني من متكلمي الاشاعرة، كان يلقب «بشيخ السنة لسان الأمّة» وله كتاب «التمهيد في الرد على الملحدة والرافضة والخوارج والمعتزلة واعجاز القرآن»، توفي عام ٤٠٣هـ.

(١٨) كتاب الخلافة وشروط الزعامة عند اهل السنة والجماعة، الدكتور يوسف ايبش، ص ٦٢ .

(١٩) المستشرق الفرنسي هنري كوربان كان استاذاً في جامعة طهران ثم جامعة باريس - السوربون ويتكلم الفارسية والعربية، من اشهر الباحثين في الفلسفة الاسلامية وخصوصاً المذهب الشيعي.

(٢٠) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ١٦٣ .

(٢١) كتاب الشيعة الاثني عشرية، ص ٧٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الامام الثالث علي زين العابدين، وهو ابن الامام حسين بن علي بن ابي طالب، يقول: «لم تخل الأرض منذ خلق الله آدم من حجة الله فيها ظاهر مشهور او غائب مستور، ولا تخلو الى ان تقوم الساعة من حجة الله فيها، ولولا ذلك لم يعبد الله»(٢٢).

وتؤمن الشيعة، بان النبي محمداً كان خاتم النبيين وبه تنتهي النبوة، بيد ان التاريخ الديني للبشرية لم يقفل، بل بموت الرسول بدأ عهد الولاية، اي الامامة، وعليه فان دورة الولاية بدأت عندما اقفلت دورة النبوة، التي تجلت في شخص الامام علي بن ابي طالب، وستنتهي، اي ستقفل، عند ظهور الامام الغائب، اي الثاني عشر، محمد بن حسن العسكري وهو القائم المهدي، القائم بالقيامة او القائم المنتظر الذي اختفى في اليوم الرابع من شوال عام ٢٦٠ هجري. وتقول الشيعة: «عندما يظهر خاتم الولاية المحمدية، اي الامام الثاني عشر، محمد القائم المهدي، سوف تنجلي جميع الأسرار وستكون سيطرة الدين النقي بالروح وبالحقيقة، وهذا الخاتم سيكون الامام الأخير الثاني عشر يظهر من جديد في الحاضر كامام ينبئ بالبعث، (قائم القيامة)(٢٣). ويعتقد الشيعة ان اتباع الامام لا يمكن ان يكونوا اسرى ماضٍ مقفل ومختوم.

اما علاقة الامام بالله تعالى، فيصفها الامام جعفر الصادق، الامام السادس (توفي عام ١٤٨هـ)، بقوله: «بنا يُعبد الله، وبنا يطاع الله، وبنا يعصى الله، فمن اطاعنا فقد اطاع الله، ومن عصانا فقد عصى الله، سبقت طاعتنا عزيمة من الله الى خلقه، انه لا يقبل عملاً من احد الاّ بنا، ولا يرحم احداً الاّ بنا، ولا يعذب احداً الاّ بنا، فنحن باب الله وحجته، واولياؤه على خلقه، وحفظة سره ومستودع علمه، ليس لمن منعنا حقنا في ماله نصيب»(٢٤).

---

(٢٢) كتاب الامام والامامة عند الشيعة، الدكتور يوسف ايبش، ص ٧ .

(٢٣) كتاب الشيعة الاثني عشرية، هنري كوربان، ص ٥٨ .

(٢٤) كتاب دعائم الاسلام وذكر الحلال والقضايا والاحكام، القاضي ابو حنيفه النعمان بن محمد التميمي، مجلد ١، ص ٧٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول الامام علي بن ابي طالب في كتاب: «نهج البلاغة» «نحن باب الله وحجته، امناؤه على خلقه وحفظة سره، ومستودع علمه، والعترة هم اهل البيت ومنهم كرائم».

وفي اجتماع «غديرخم» الذي يعتبره الشيعة حدثاً مقدساً واثباتاً لا يقبل الشك او الجدل او الظن، يؤمنون ان النبي نص بالامامة على علي بن ابي طالب. يوم «غديرخم» يوم عيد عند الشيعة، يحتفلون به كل عام في مساجدهم، فيشكرون الله على اتمام دينهم بامامة علي بن ابي طالب، ويتمسكون بقول النبي، بعد ان اخذ بيد علي «فمن كنت مولاه فهذا مولاه، اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه وان عترتي اهل بيتي»

اما قاضي القضاة، عبد الجبّار بن احمد الهمذاني المعتزلي فيقول عن اجتماع «غديرخم». «ان قول رسول الله الموالاة، لا تعتبر، لأن الموالاة ليست امامة وان كلمة امام لم يذكرها النبي في حديثه»(٢٥).

وفي نظرة سريعة على امامة الخلفاء الراشدين يتبين ان الامامة عند السنة هي اتفاق الجماعة والتأييد ورضوخ الاكثرية في المجموع. فالجماعة باكثريتها ايّدت ابا بكر الصديق لأنه كان افضلهم، زاهداً تقيا، ذا رأي سديد ويتمتع بالخصال التي تتطلبها الامامة. وقال قاضي القضاة عبد الجبّار بن احمد الهمذاني: «ان اجماع الصحابة على امامة ابي بكر دليل على صلاحه للامامة. فلو لم يكن يصلح لها، لم يجتمعوا عليه، لأن الأمة لا تجتمع على خطأ». انتقده بعض الناس لعدم اعطائه فاطمة، بنت الرسول مزرعة النبي «فدك» وقوله انه سمع النبي يقول: «نحن معاشر الانبياء لا نورث، ما تركناه صدقة». ثم ان بعضهم طعن في امامته بقول عمر بن الخطّاب: «كانت بيعة ابو بكر فلتة وقّى الله شرها». ولكن النبي قال عنه وعن عمر بن الخطّاب: «انه وعمر سيدا كهول الجنة، هما منّي بمنزلة يميني وشمالي».

ونص ابو بكر الصديق، على امامة عمر بن الخطّاب، وكان له الحق في ذلك، لأن الامامة عند السنة تكون، امّا باجماع اصحاب الرأي، او بنصّ الامام السابق على من يريد خلافته.

---

(٢٥) كتاب المغني في ابواب التوحيد والعدل، جزء ٢٠ في الامامة، ص ١٢٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قيل عن عمر بن الخطّاب انه كان فظاً غليظاً. وقال عنه عثمان بن عفّان، «سريرته خير من علانيته وان ليس فينا مثله». انتقده البعض على قلة علمه وسرعة غضبه وقسوته مع الناس. ولكن يكفي عُمَرأنه كان قمة العدل والزهد.

امّا امامة عثمان بن عفان فلم يكن بها رية، فهو من قريش وفضائله مشهورة، ويكفي ان الرسول زوّجه مرتين، ولذلك لقب بذي النورين. ثم انفق اموالاً طائلة لنصرة الاسلام. كانت امامة عثمان بعد مشاورة اهل الشورى، ولم يحصل خلاف معه، الاّ بعد محاباته اقاربه من بني امية وتبذيرهم اموال المسلمين وتسلطهم على الحكم.

امّا امامة علي بن ابي طالب فلا خلاف عليها. وقال عنه النبي: «ان وليتم فاتخذوه هادياً مهدياً، ولأعطينّ الراية غداً، رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»(٢٦).

وكما قلنا سابقاً، ان الشيعة تعتقد ان الامامة تسلسل النبوة، لأن تاريخ الانسانية الديني يجب ان يستمر بعد الرسول الذي قال الله عنه: «انما انت منذر ولكل قوم هاد»(٢٧).

والامام هو ممثل الله على الأرض، مفسر القرآن، باسط الحق والمعرفة وهو المثال الصالح لكشف الحقيقة الآلهية، وارساء العدل وانهاء الجور، هو الهادي يقود الأمة ويهدي البشر.

والدكتور يوسف ايبش يقول: «لا يطيل الشيعة من عرض ادلتهم على وجوب الامامة، لأن معظم الفرق الاسلامية قد سلمت بذلك، ولكنهم يركزون استدلالاتهم على وجهة نظرتهم القائلة بالوجوب على الله، لأن العدالة الالهية تقضي الاّ يحرم الناس من التشريع السماوي والتوجيه الرباني بنصب الامام من الله، وان عناية الله تقضي الاّ يترك العالم خالياً من رئيس يدبر وامام يجمع الناس ويعرفهم مصالحهم

---

(٢٦) كتاب المغني في ابواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار الهمذاني، مجلد ٢٠، ص ٦ .

(٢٧) سورة الرعد، آية ٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدينية والدنيوية»[٢٨]. وكذلك يقول الدكتور يوسف ايبش: «من اهم ما نسب الى ائمة الشيعة من النص على الامام، فقد سئل الامام الباقر، عليه السلام، ما الحاجة الى الامام؟ فقال: «ليرفع الله العذاب عن أهل الأرض، قال تعالى: «ما كان ليعذبهم وانت فيهم». وهكذا استشهد بآية تشير الى النبي بوجه خاص في معرض الامامة، لأن الامامة عندهم خلافة عن النبوة قائمة مقامها الاّ في تنزيل الوحي»[٢٩].

ان ائمة الشيعة الاثني عشرية هم:

١ - علي بن ابي طالب. امير المؤمنين. زوج فاطمة بنت الرسول، وابن عمه. ولد في مكة عام ٦٠٥ ميلادية وقتله في الكوفة الخارجي عبد الرحمن بن ملجم عام ٤٠ هجري.

٢ - الحسن بن علي بن ابي طالب. يُكنّى «المختار» ولد في المدينة عام ٣هـ وتوفي عام ٤٩هـ.

٣ - الحسين بن علي بن ابي طالب. سيد الشهداء. ولد في المدينة عام ٤هـ. واستشهد في كربلاء عام ٦١ هجري.

٤ - علي زين العابدين بن الحسين. زين المتقين. ولد في المدينة عام ٣٦هـ وتوفي فيها عام ٩٥ هجري. مؤلف كتاب «مزامير» «واناجيل عائلة الرسول».

٥ - محمد الباقر ابن علي زين العابدين. ولد في المدينة عام ٥٧هـ وتوفي فيها عام ١١٥ هجري. كان عالماً في اصول الدين والفقه.

٦ - جعفر الصادق ابن محمد الباقر. ولد في المدينة عام ٨٠هـ وتوفي فيها عام ١٤٨ هجري. ينسب اليه الفقه الشيعي الجعفري. والد الامام اسماعيل الذي نسبت اليه الشيعة الاسماعيلية، اي السبعية.

---

(٢٨) كتاب الامام والامامة عند الشيعة، للدكتور يوسف إيبش، ص ٥ .

(٢٩) كتاب الامام والامامة عند الشيعة، ص ٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٧ - موسى الكاظم ابن جعفر الصادق. ولد في المدينة عام ١٢٨هـ وتوفي في بغداد عام ١٨٣ هجري. ان الانقسام في الاسرة الشيعية بين الاثني عشرية والاسماعيلية حدث بسبب توليه الامامة بدلاً من ابن أخيه محمد بن اسماعيل المنصوص عليه من الامام السابق.

٨ - علي الرضا ابن موسى الكاظم. ولد في المدينة عام ١٥٣هـ وتوفي في مدينة «طوس» بخراسان عام ٢٠٣ هجري. مقامه في مدينة مشهد من فارس.

٩ - محمد الجواد ابن علي الرضا، الملقب بالتقي. ولد في المدينة عام ١٩٥هـ وتوفي في بغداد عام ٢٢٠ هجري.

١٠ - علي الهادي ابن محمد الجواد. ولد في بغداد عام ٢١٢هـ وتوفي عام ٢٥٤هـ في سجن سامّراء سجنه الخليفة العباسي الواثق بالله ابن المعتصم.

١١ - الحسن بن علي العسكري. ولد في المدينة عام ٢٣١هـ وتوفي في سامّراء عام ٢٦٠ هجري، وقبره في سامّراء احد مزارات الشيعة المقدّسة.

١٢ - محمد بن الحسن العسكري. ولد في سامّراء (سُر من رأى) عام ٢٥٥هـ واختفى في الرابع من شوال عام ٢٦٠هـ. ويقول مؤرخو الشيعة كان اختفاؤه في يوم وفاة والده الامام حسن العسكري، والامام محمد بن الحسن هو المهدي المنتظر عند الشيعة الاثني عشرية.

قال انس بن مالك: «خرج علينا رسول الله ذات يوم فرأى علياً، فوضع يده على كتفيه ثم قال: «يا علي لو لم يبق في الدنيا الاّ يوم واحد، لطول الله ذلك اليوم حتى يملك رجل من عترتي، يقال له المهدي، يهدي الى الله، عز وجل، ويهدي به العرب»(*).

ويقول المستشرق هنري كوربان: «قال النبي محمد، الأئمة من بعدي اثنا عشر. الاول علي بن ابي طالب والثاني عشر هو القائم المهدي، هو الهادي الذي يأخذ الله بيده ليعمل على فتح مشارق الأرض ومغاربها»(**).

(*) كتاب دلائل الامامة. محمد جرير الطبري، ص ٢٤٧ (الصحابي انس بن مالك هو غير الفقيه الكبير مالك بن أنس).

(**) كتاب الشيعة الاثني عشرية، ص ٧٣ . هنري كوربان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن أقوال سلمان الفارسي: «قال النبي، صلى الله عليه واله، «الأئمة بعدي بعدد نقباء اسرائيل، كانوا اثني عشر». ثم وضع يده على صلب الحسين وقال: «من صلبه تسعة ائمة ابرار، والتاسع مهديهم يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، فالويل لمبغضهم»(***).

وتقول الشيعة الاثني عشرية، الامام علي هو خاتم «الحقبة النبوية» والامام المهدي، حجّة الله، والامام المستور، والرب غير المنظور بهذا الزمن، المحجوب عن الناس يقيم في عالم لا تراه البشر حتى ظهوره المقبل ورجعته النهائية ليتمم الرحلة الحاضرة في عالمنا.

اما بعض المؤرخين فيقولون، عند وفاة الامام حسن العسكري لم يكن عنده عقب الاّ محمد، الذي توفي بعده بزمن قليل، فخاف العلماء واصحاب الرأي، أن تنتهي الامامة بموته، فقالوا بغيبته وانه سيرجع وانه كان موجوداً بالماضي وهو موجود في المستقبل وهو غير منظور ولكن دائم الحضور مستوراً منذ احتجابه، وبهذه الغيبة، أمّنوا استمرارية الامامة.

اما الاسماعيلية فيقولون، ان النبوة بدأت مع آدم، وكل نبي جاء بكتابه ودينه، والنبي محمد كتابه هو ما انزل عليه وباطنه الولاية وهي أفضل دعائم الدين بعد الوصاية. النبي هو الناطق والوصي هو الامام، وهو حجة الله وممثله على الأرض له العصمة والتأويل.

ويعتقد الاسماعيليون، ان كل زمن يبدأ بنبي (الناطق) ومعه وصي وذلك حتى يوم القيامة. فآدم وصيه شيث، ونوح وصيه سام، وابراهيم وصيه اسماعيل، وموسى وصيه هارون، وعيسى وصيه شمعون ومحمد وصيه علي. والامام محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق هو المهدي، خاتم الولاية المحمدية، وهو ولي الزمان والامام المنتظر وقائم الحق وصاحب الكشف.

ويقول العالم الاسماعيلي الداعي احمد حميد الدين الكرماني في وجوب الامامة. «ولا كان من المقدور ان يكون من يجيء الى الكون من البشر الى يوم

(***) كتاب الامام والأمامة، الدكتور يوسف ايبش، ص ٩٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القيامة، موجوداً جملة، ولا كان مقّدراً ان يبقى الرسول في العالم سرمدياً الى ان تنصرم الأمم ويؤدي اليهم امانة لديه، وجب ان ينصب من يقوم مقامه في اداء الامانة والنص على غيره ابداً اذا حان انتقاله، ومن ينصب لذلك هو الامام. اذاً الامامة واجبة»[٣٠].

وعن وجوب النص على الامامة، يقول الداعي الاسماعيلي احمد حميد الدين الكرماني: «ولما كانت نبوة الانبياء، التي هي الخلافة عن الله في أرضه من امضاء الأحكام بين عبيده، لا تصح الاّ بالنص من الله تعالى واختياره اياهم للقيام مقامه في الحكم والأمر والنهي. وكانت النبوة أصلاً للامامة، وكانت الامامة، التي هي فرع على النبوة، وهي الخلافة عن الرسول والقيام مقامه، اولى ان لا يصح الاّ باختيار الله تعالى واختيار رسوله والنص عليه. اذاً الامامة لا تصح الاّ بالنص والتوفيق»[٣١].

اما الأئمة الاسماعيلية فهم:

١ – علي بن ابي طالب توفي عام ٤٠هـ

٢ – الحسين بن علي بن ابي طالب توفي عام ٦٠هـ

٣ – علي زين العابدين بن الحسين توفي عام ٩٢هـ

٤ – محمد الباقر بن علي زين العابدين توفي عام ١١٥هـ

٥ – جعفر الصادق بن محمد الباقر توفي عام ١٤٨هـ

هولاء هم ائمة الشيعة قبل ان تفترق الى اثني عشرية والى اسماعيلية. اما الائمة الاسماعيلية الذين لا تعترف بهم الشيعة الاثني عشرية فهم:

١ – اسماعيل بن جعفر الصادق

ولد في المدينة عام ١١٠هـ، وهو صاحب النص الشرعي بالامامة. قيل انه مات عام ١٣٨هـ في المدينة، واثبت ذلك بموجب محضر رسميّ وقّعه بعض الفقهاء

(٣٠) كتاب المصابيح في اثبات الامامة، ص ٨١ .

(٣١) كتاب المصابيح في اثبات الامامة، ص ١٠٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والعلماء وارسل الى الخليفة العباسي المنصور في بغداد كي يكف عن ملاحقة الامام اسماعيل. كما قيل انه توفي في عام ١٥٨هـ في البصرة حيث كان متخفياً عن عيون السلطة العباسية. كانت له ميول اعتزالية وكان صديق عمرو بن عبيد وابو الهذيل العلاّف المعتزليين.

٢ - محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق. ولد عام ١٣٢هـ في المدينة. ذهب مستتراً الى الكوفة، خوفاً من الخليفة العباسي المنصور أبو جعفر عبدالله (١٣٦ - ١٥٨هـ) الذي تشدد في ملاحقة واضطهاد آل البيت. ومن الكوفة ذهب الى «الري» ثم سار الى خراسان ومنها الى قلعة النهوند بفرغانة، وانتهى في نيسابور حيث تزوج ابنة الأمير علي الهمذاني، ثم أتى تدمر من بلاد الشام حيث بقي حتى مات عام ١٩٣ هجري.

الامام محمد بن اسماعيل، هو الامام السابع، وبه سميت الاسماعيلية «بالسبعة»، هو عند الاسماعيلية المهدي المنتظر، قائم الحق، صاحب الكشف، ويقولون انه دخل كهف الستر وانه عند عودته من غيبته الى الظهور سيستقيم العدل في العالم ويمنع الظلم والجور ويستتب السلام والأمن، فيشرب الثور والأسد من وعاء واحد، والذئب يرعى الغنم، كما بظهوره ينتهي دور الامامة، وينشئ شريعة تعم العالم، وتنسخ ما قبلها من شرائع ويكون ظهوره في مكة حيث يقتل المشركين ومن ظلم آل البيت، وبذلك يبدأ الدور السابع والأخير من تاريخ البشرية.

٣ - الامام عبدالله بن محمد بن اسماعيل (وفي احمد). نقل مركز الدعوة الى سلمية في بلاد الشام واقام بها مستتراً. وعندما اختلف كبار الدعاة، ذهب الى «دير عصفورين» ثم رجع الى «سلمية» تلبية لطلبهم. يقال انه هو الذي اشرف على كتابة «رسائل اخوان الصفا». توفي في بلدة مصياف في بلاد الشام عام ٢١٢ هجري.

٤ - الامام احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل (تقي محمد). ولد في «سلمية» عام ١٧٩هـ. نقل الدعوة الاسماعيلية من طور التأسيس الى طور الانتشار. درّب الدعاة في «سلمية» وأرسلهم الى البلاد الاسلامية، وفي عهده بلغت الدعوة اوجها. جمع «رسائل اخوان الصفا» وكتب «الرسالة الجامعة». توفي عام ٢٢٥ هجري ودفن في مصياف.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥ - الامام الحسين بن عبدالله الملقب بالاهوازي او رضي الدين. ولد في مصياف ولكن نشاطه واقامته كانا في «سلمية».

الامام حسين بن عبدالله أرسل قاسم بن حوشب الى اليمن حيث نشر الدعوة الاسماعيلية. وكذلك التقى بحمدان بن الأشعث المعروف بالقرمطي وادخله في الدعوة الاسماعيلية. في عهده بلغت الدعوة الاسماعيلية اعلى مستوى من الانتشار في البلاد الاسلامية. توفي في «سلمية» عام ٢٨٩ هجري(*).

اما ابنه عبيدالله المهدي، فقد هرب من «سلمية» الى شمال افريقيا خوفاً من القرامطة، الذين ارادوا قتله، وتلبية لطلب الداعي عبدالله الشيعي الذي اكد له ان بلاد شمال افريقيا اصبحت تحت السيطرة الاسماعيلية.

اتى عبيدالله المهدي شمال افريقيا، وبمساعدة الداعي عبدالله الشيعي، أسس الدولة الفاطمية، فانتهى دور الاسماعيلية السياسي وبقيت عقيدة دينية فكرية حتى انتهاء الدولة الفاطمية.

وفي العقيدة الشيعية لا يجوز النص بالامامة الاّ على آل البيت وجعلها وراثة فيهم. وهي تسلسل من الأب الى الابن. وآل البيت هم من نسل علي بن ابي طالب وفاطمة بنت الرسول الكريم.

والمؤرخ المصري المعاصر محمد عبدالله عنان يقول: «كانت الامامة شعار الدولة الفاطمية ودعامة رياستها الدينية والزمنية تؤكد اهميتها وقدسها في كل مناسبة، وتحرص أشد الحرص على رسومها ومظاهرها[٣٢] ثم يقول: «ان نظرية الاسماعيلية من الناحية العملية، لم تكن تراث أمة هداها الله الى الاسلام، انما كانت تراثاً شخصياً لأسرة النبي، وان النبي أوصى بهذا الميراث الى ابن عمه علي بن ابي طالب زوج ابنته فاطمة، ومن بعده الى ابناء ولديه الحسن والحسين، وهكذا تغدو رئاسة الأمة الاسلامية، وفقاً لتأويلاتهم، ميراثاً خاصاً لا يليها حتى يوم القيامة احد

(*) يختلف المؤرخون في الامام حسين بن عبدالله، الاهوازي. منهم من قال انه كان اماماً مستتراً والبعض قال، انه كان داعياً لعبدالله بن ميمون القداح.

(٣٢) كتاب الحاكم بامر الله، ص ٣٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سوى آل البيت» ثم يقول: «إنّا لنشعر شعوراً قوياً، بان صاحب الرسالة النبوية، كان برسالته أعظم وأجل واسمى من ان يعتبر الامة الاسلامية العظيمة، التي انشأتها عبقريته، يجب ان تغدو، بعد وفاته، ضيعة يختص برياستها ورعايتها آل البيت من ابناء علي دون سواهم الى الأبد»(٣٣).

اما انتقال الامامة الى العباسيين فيقول المؤرخون، ان بعد هزيمة «التوابين»(٣٤) في معركة «عين الورد» بالقرب من الكوفة عام ٦٥هـ، ثار المختار بن ابي عبيدة الثقفي وطالباً، باسم الامام محمد ابن الحنفية، وهو ابن الامام علي بن ابي طالب من زوجته خولة بنت قيس من بني حنيفة(٣٥)، بدم الامام حسين، كما نادى بالامام محمد ابن الحنفية، بالامام المهدي المنتظر الذي لم يمت بل يسكن جبل رضوى وسيرجع ليملأ الأرض عدلاً. فكان محمد ابن الحنفية اول امام مهدي منتظر.

انتهت ثورة المختار الثقفي عام ٦٧هـ عندما هزمه مصعب بن الزبير بمساعدة اشراف الكوفة ومعظمهم من اليمنيين. انتهى المختار ولكن الفرقة الكيسانية التي انشأها بقيت، ولكنها انقسمت الى ثلاث فرق أهمها الفرقة الهاشمية نسبة الى الامام عبدالله الملقب بأبي هاشم الابن الأكبر للامام محمد ابن الحنفية والذي مات عام ١١٨هـ في بيت محمد بن علي بن عباس في بلدة «الحميمة» وادعى العباسيون ان ابا هاشم، قبل وفاته، نص بالامامة على محمد بن علي بن عبدالله بن عباس، وبهذا النص انتقلت الامامة الى بني العباس. وعند وفاة محمد بن علي عام ١٢٥هـ لقّب ابنه ابراهيم بالامام. بالاضافة، انضمت الفرقة الهاشمية العلوية الى العباسيين فأضفت على الدعوة العباسية الصيغة العلوية التي ساعدت العباسيين في ثورتهم على الأمويين، خصوصاً في خراسان حيث انضم اليمنيون العرب، وهم من اتباع العلويين، الى جيش ابو مسلم الخراساني العباسي.

---

(٣٣) كتاب الحاكم بامر الله، ص ٤٣ .

(٣٤) التوابون هم جماعة من كبار اهل الكوفة اعلنوا الثورة على الأمويين مطالبين بدم الامام حسين.

(٣٥) قالت الكيسانية ان الامام حسين نص بالامامة على اخيه محمد ابن الحنفية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والجدير بالذكر، ان منذ وفاة الامام علي بن ابي طالب عام ٤٠هـ حتى امامة جعفر الصادق (٨٠ - ١٣٨هـ) وهو الامام الخامس عند الاسماعيلية، استشرت الفوضى في تنصيب الامامة عند الشيعة وذلك بسبب ادعاء الهاشميين ان «اهل البيت» هم سلالة عبد المطلب جد النبي ويحق لاحفاده تبوّء مركز الامامة، والامامة تصح في نص الامام السابق على من كان من سلالة عبد المطلب، وهكذا برزت امامة محمد ابن الحنفية وابنه ابي هاشم، وامامة الزيديين والعباسيين، حتى قال بعضهم، بامامة محمد بن عبدالله - النفس الزكية - واخيه ابراهيم.

بالرغم من رفض بعض فرق الخوارج، تمكن الامام جعفر الصادق من القضاء على هذه الفوضى وحصر الامامة في آل البيت، اي ابناء واحفاد الامام علي بن ابي طالب وزوجته فاطمة ابنة الرسول الكريم، وجعل الامامة لا تصح الاّ في نص الأب على الابن.

اما الامامة عند النصيرية (العلويين) وهم يفضلون لقب العلويين، نسبة الى الامام علي بن ابي طالب، الذي يقدسونه، فهي الامامة الشيعية الاثني عشرية مع تقديس، وحتى تأليه الامام علي.. النصيرية يقدسون الثالوث المقدس عندهم «عمس» وهي الاحرف الاولى من اسماء علي ومحمد وسلمان الفارسي.

يعيش النصيريون اليوم في جبال النصيرية في سورية وساحل جنوب تركية وهم شيعة ملّوا انتظار الامام الغائب، محمد بن الحسن العسكري، المهدي المنتظر، وصعب عليهم ان يبقوا دون امام يهديهم ويرجعون اليه في الصعاب ويشرح لهم معتقداتهم ويفسر لهم القرآن، فاستعاضوا عن الأمامة، التي جمدت بانتظار المهدي الامام الغائب، بوكلاء للامام اسموهم ابواب. يرجع النصيريون الى القرآن لتفسير الباب ويعتمدون الآيات التالية. «...وادخلوا الباب سجّداً وقولوا حِطّةٌ نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين»(٣٦). «ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين»(٣٧). ثم قول النبي الكريم «انا مدينة العلم وعلي بابها».

---

(٣٦) سورة البقرة، آية ٥٨ .

(٣٧) سورة المائدة، آية ٢٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب، هو سلمان الفارسي، وكيل الامام ونائبه يتمتع بالعصمة وبالعلم الالهي، يحق له تأويل الآيات وتفسير الباطن، وهو طرف من الثالوث المقدس «عمس» اي علي، محمد، وسلمان. كما يعتبرون ابو شعيب محمد بن نصير النميري باب الامام الحسن العسكري.

ويقدم النصيريون الامام علي بن ابي طالب على النبي محمد، وهذا واضح من ثالوثهم المقدس «عمس» ويقولون في كتابهم ،المجموع «سيرة الفتح» «ان مولاي، أمير النحل علي، اخترع السيد محمد من نور ذاته، وان السيد محمد خلق سلمان من نور نوره وجعله بابه وحامل كتابه وسلسل وسلسبيل وهو بالحقيقة رب العالمين»(٣٨).

ويقول النصيريون: «ان الأئمة خلقوا قبل الخلق اجمعين يعلمون أسرار الكون وما بعد الكون، وهم معصومون عن الخطأ وموجودون الى الأبد. لهم يكون القضاء واليهم المرجع في معرفة الله وهم يمثلونه على الأرض ولهم تفسير القرآن»(٣٩).

اما اسماعيلية «قلعة الموت» في فارس(٤٠) وهم من الاسماعيلية النزارية، نسبة الى الامام نزار ابن الخليفة المستنصر بالله، وكان زعيمهم الداعي الاسماعيلي المشهور حسن الصبّاح الملقب بشيخ الجبل، وكان سفراً من أسفار البطولة الشيعية، فيقدسون الثالوث «عسم» اي علي، سلمان ومحمد.

ويفسر المستشرق الفرنسي هنري كوربان عقيدة الامامية عند اسماعيلية «قلعة الموت» بقوله: «انهم يقولون ان الامام هو رجل الله وانه الانسان المفضل، ليس الاّ اقراراً بكونه اداة سامية للباطنية وهذه الأخيرة مرهونة بتحقيق المعنى الحقيقي لكل الظاهر. ويعتقدون ان الامام قد وجد وموجود وسيوجد وانه قال: «يمر الأنبياء ويتغيرون، واما نحن فإنّا الباقون، وقد عرفت الله من قبل ان يخلق السموات والأرض»(٤١).

---

(٣٨) مخطوطة من المكتبة الوطنية في باريس، رقم ١٤٥٠ .

(٣٩) كتاب «التهفت» والاظلة. المفصل بن عمر الجعفي.

(٤٠) «قلعه الموت» تعنى بالفارسية « عش العقاب» وهي واقعة في جبال قرب مدينة قزوين، بنيت عام ٢٥٧ وكانت عاصمة الامامة النزارية، دمرها المغول عام ٦٥٤هـ.

(٤١) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنري كوربان ص ١٦٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول عن سلمان الفارسي، انه الحجة في حالة نموذجها الأصلي. وقال الامام علي لأحد السائلين: «كن مؤمنا بي اجعلك شبيهاً بي مثل سلمان». اذن الحجة (سلمان) هو شبيه الامام والامام هو نائب الله على الأرض.

وتقول اسماعيلية «قلعة الموت»، ان الناطق (النبي) بلّغ رسالة انزلت عليه وهي شريعة الظاهر، امّا الامام (علي) وحجته (سلمان) فلهما التأويل الذي يمثل عالم الدين وباطن الشريعة، ونتيجة ذلك تراجع في مرتبة المعطاة للناطق (النبي) المبلّغ للشريعة، وارتفاع مرتبة الامام (علي) والحجة (سلمان) ثم تحل مرتبة الامام وحجته محل منزلة النبي»[٤٢].

اذن يعتبر اسماعيلية «قلعة الموت»، النبي مبلغاً للشريعة، فيكون الداعي الذي يدعو الناس نحو الامام وحجته اللذين يمثلان المعنى المستور الباطني لهذه الشريعة، ولهذا اعتمدوا «عسم» ثالوثهم المقدس، وقدموا الامام (علي) والحجة (سلمان) على الناطق (النبي). كي لا نترك فجوة في دراستنا عن الامامة، لا بد من الاشارة الى الامامة الزيدية، التي كانت انتفاضة علوية بدأت في عهد الخليفة العباسي المنصور ابو جعفر عبدالله (١٣٦ - ١٥٨هـ) وما زالت اثارها في اليمن حتى يومنا هذا[*].

الزيدية فرقة شيعية اثني عشرية من أتباع زيد بن علي (زين العابدين) احد حفدة الامام علي بن ابي طالب، قالوا، كغيرهم من الشيعة، بالنص على الامام، على ان يكون من نسل فاطمة ابنة النبّي. وان الامامة تكون في اولاد الحسن، او من اولاد

---

(٤٢) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنري كوربان، ص ١٦٢ - ١٦٥ .

(*) قال الفقيه الكبير ابو حنيفه النعمان، وكان تلميذاً للأمام زيد بن علي «شاهدت زيد بن علي كما شاهدت أهله، فما رأيت في زمانه افقه منه ولا اعلم ولا اسرع جواباً ولا ابين قولاً. كتاب الأئمة الاربعة، مصطفى الشكعه، ص ٥٣ .

اما الرافضة، التي برزت في ذلك الزمن، فهم فريق من غلاة الشيعة اتوا الامام زيد بن علي، الذي كان يقول بصحة خلافة ابى بكر وعمر بن الخطّاب وطلبوا منه ان يتبرأ منهما حتى يقاتلوا معه ويؤيدوه. فقال الامام زيد «بل اتولاهما واقر لهما بالخلافة، لا انا لنبيّ الله شفاعة جَدّي ان لم اوالهما». فقالوا: اذن نرفضك، فسميت الرافضة وهم فِرَق عديدة منها الكيسانية اصحاب «المختار» الذين قالوا بالوهية محمد ابن الحنفية ابن علي بن ابي طالب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحسين. كما اعترفوا بأبي بكر الصديق وعمر بن الخطّاب وعثمان بن عفان وحقهم بالخلافة، ولهذا لم يكن بينهم وبين السنة خلاف.

مؤسس هذه الحركة هو زيد بن علي (زين العابدين)، الذي اعتنق الاعتزال على يد واصل بن عطاء، زعيم المعتزلة فأثار غضب ونفور الأمويين، بالاضافة، طالب بحق العلويين بالخلافة وكان ذلك في أيام هشام بن عبد الملك. أرسل أمير العراق، يوسف بن عمر الثقفي جيشاً الى الكوفة فقضى على ثورة زيد بن علي وقتله. وقيل صلبه في شارع في الكوفة عبرة وانذاراً للعلويين.

من ائمة الزيدية البارزين كان محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب المعروف «بالنفس الزكية» الذي كان يرى انه احق بالخلافة من العباسيين، بصفته حفيد الحسن بن علي بن ابي طالب. وفي شهر رجب عام ١٤٥هـ اعلن «النفس الزكية» عن ثورته وطلب من اخيه ابراهيم ان يثور في البصرة حتى يقع المنصور بين نارين. ولكن ابراهيم تأخر بسبب مرضه عن الانضمام الى ثورة «النفس الزكية» مما اتاح الفرصة لجيش المنصور، الذي كان بقيادة الأمير الهاشمي عيسى بن موسى بن علي ان يقضي على الثورتين، واحدة بعد الأخرى، فقتل «النفس الزكية» في المدينة في رمضان سنة ١٤٥هـ وقتل ابراهيم قرب الكوفة في ذي القعدة في العام نفسه. ويقال، ان الامام جعفر الصادق نصحهم بالاخلاد الىالسكينة وتجنب العنف.

قام بالامامة بعد زيد بن علي ابنه يحيى وذلك في أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذين اعتقله والي خراسان نصر بن سيّام ولم يخلِ سبيله حتى مات في السجن. ويقال قتله صاحب الشرطة سلّم ابن احوز المازني.

وفي عام ٢٥٠هـ استولى الحسن بن زيد على طرستان وجرجان وأقام دولة زيدية في بلاد الديلم من فارس بقيت حتى ازالها الساميون عام ٢٨٧هـ، ولكن اعادها الى سابق ازدهارها حسن بن علي الأطروش فبقيت حتى عام ٣١٤هـ عندما احتلها امراء «الزيارية» وبذلك انهوا الحكم الزيدي في فارس.

وفي اليمن أسس يحيى بن الحسين، حفيد العالم الزيدي القاسم الراسي، امارة، جعل عاصمتها مدينة «صعدة» وذلك عام ٢٤٦هـ فكانت الدولة الزيدية الأولى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبقيت حتى عام ٧٠٠هـ عندما ازالها الأيوبيون.

اما في المغرب فكانت دولة الادارسة، التي أسسها ادريس اخو الامام يحيى بن زيد، فبقيت حتى قضى عليها الفاطميون(*).

اما الموحدون الدروز فهم موضوع هذه الدراسة من الناحية الفكرية التاريخية وليس المذهبية. ولهذا سنحصر بحثنا في الأمور المتداولة بين الموحدين دون التعرض للأمور العقائدية التي يجب ان تترك لأصحاب المعرفة القيمين على مذهب التوحيد وحافظي سره. ان المعروف والمتداول هو قولهم عن الامامة «ان الامام لا يؤمّه احد ولا يشهد عليه، فهو الشاهد على جميع الخلائق، هو أمر الله النافذ في خلقه».

ويقول المفكر الفرنسي سلفستر دي ساسي، ان الدروز الغوا مرتبة الامامة فيقولون: «اذا قام بالتوحيد آخر قائم من الأئمة الطاهرين المهديين(**) وعرفنا ان صاحب الكشف هو صاحب القيامة واليه انتهت ادوار الامامة الذي ظهر فيها للعالم بالالهية والتوحيد وانه قد فرغ الدور الذي تسمى فيه بالامام(٤٣).

لا امامة عند الموحدين الدروز ومشيخة العقل تعتبر المرجع الديني والسيادة الروحية عندهم وينظرون اليها بكل احترام وتقدير ولكن لا عصمة لشيخ العقل ولا يحق له التأويل.

(*) اخر قائم من الأئمة الطاهرين، يقصدون الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق وهو الامام السابع عند الاسماعيلية، وصاحب الكشف وقائم الحق وامام الزمان.

(**) الأئمة المهديون هم: القائم بامر الله، المنصور بالله، المعزّ لدين الله، والعزيز بالله والد الحاكم بامر الله وهم من أصل الخليفة الفاطمي الاول عبيدالله المهدي الذي توفي عام ٣٢٢هـ. وقد استثنى من الأئمة المهديين الحاكم بأمر الله الذي، يعتبر الموحدون، انه تخلّى عن الأمامة عام ٤٠٨هـ الى حمزة بن علي بن أحمد الذي يعتبرونه خاتم الأئمة وبه انتهت أدوار الامامة بصفته قائم الحق وأمام الزمان وصاحب الكشف والقيامة.

(٤٣) كتاب دين الدروز، سلفستر دي ساسي، طبع في باريس عام ١٨٣٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموحدون الدروز والامامة

في هذه الحقبة من تاريخ الاسلام، اي القرن الثالث والقرن الرابع للهجرة، شكلت الامامة الخلفية الفكرية والسياسية لانقسام الاسلام الى شيَع وأحزاب وفرق متعددة.

وفي هذا السياق، كان التنافس على السيطرة على الامامة، احد الأسباب التاريخية لانطلاقة العقيدة التوحيدية الدرزية. وهذا التنافس بلغ ذروته بين الامام حمزة بن علي بن احمد الزوزني، والداعي محمد بن اسماعيل الدرزي (نشتكين) على اعتبار ان الامامة، في ذلك الزمن، مرتكز النفوذ والحكم الفعلي، الذي كان ممكناً ان يساعد على نشر الدعوة التوحيدية الدرزية.

قبل الخوض في متاهات هذا النزاع بين الموحدين على الامامة، لا بد من التوضيح بان للعقيدة التوحيدية بعض التلاقي مع المعتقدات الاسماعيلية التي كانت المرتكز الديني للحكم الفاطمي، او ما يمكن تسميته بالتوافق العقائدي الفلسفي بين العقيدتين، وذلك باعتمادهما فلسفة الفيلسوف اليوناني الاسكندراني افلوطين، المعروف بلقب الشيخ «الاسكندراني»، وكذلك مفهومهما للعقل والنفس والهيولى. كما وانهما يتلاقيان في عقيدة التوحيد، وذلك بنفي الصفات عن الله تعالى، ثم يقولون ان العقل هو الابداع الأول عن الله تعالى، مدبر الكون والارادة الالهية على الأرض، ثم عقيدة الامام المهدي المنتظر.

ويبدو من سيرة حمزة بن علي بن احمد، انه قد يكون اطلع على فلسفة الفيض اليونانية ابان دراسته في جامعة «جنديا سبور» في فارس، ولكن في الوقت نفسه، لا يمكن نفي احتمال اخذه هذه المعتقدات الفلسفية عن العقيدة الاسماعيلية[1] او من

---

(١) رسالة «تحفة المستجيبين» لأبي يعقوب السجستاني، توفي عام ٣٣١هـ. فيها بحث مستفيض عن فلسفة الفيض اليونانية كما يقول بها الموحدون الدروز.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«رسائل اخوان الصفا «المشبعة بها والتي كانت منتشرة في ذلك الوقت. ولكن من الصعوبة بمكان، وخلافاً لما يقوله بعض المؤرخين، الجزم بوجود جذور مشتركة للعقيدة التوحيدية الدرزية مع المعتقدات الاسماعيلية لاختلافهما في بعض العقائد الاساسية كنسخ الفروض وغيرها، او القطع بان العقيدة التوحيدية منبثقة عن العقيدة الاسماعيلية او انها وليدتها.

ان عقيدة التوحيد الدرزية، من واقع ما لدينا من وثائق، وليدة نفسها، وهي انتفاضة فكرية محدودة، تشمل ايحاءات وتمنيات اجتماعية مرتكزة على طروحات فلسفية يونانية مقتصرة على فلسفة الفيض وتأثير من الفكر الصوفي والحكمة الهندية التي تسربت لاحقاً الى الفكر الاسلامي بواسطة بعض الفلاسفة كأبي الريحان محمد بن احمد البيروني.

الاسماعيلية، وهي فرقة من الشيعة، تضع الامامة في قمة المعتقدات الدينية ولكنها تقول، عدا عن اسماعيلية «قلعة الموت» في فارس، ان الانبياء أفضل من الأئمة ودرجة «النبوة» ارفع واجل من الامامة. اما اسماعيلية «قلعة الموت» في فارس فيضعون مرتبة الامام الأول علي بن ابي طالب فوق مرتبة النبي محمد.

اما الموحدون الدروز فيذهبون ابعد، فيعتبرون ان الامام لا يؤمّ عليه احد ولا يشهد عليه، وهو الشاهد على جميع الخلائق كلها مضافة اليه. هو مرسل النطقاء (الانبياء) بامانة التوحيد، هو أمر الله النافذ في العوالم. والنطقاء، ومن يجري مجراهم، فانما هم حجج الايمان ودعاة اليه. وكذلك يعتبرون ان للامام المرتبة الأولى بعد الحاكم، حاكم الكون والوجود، فهو ممثل الله على الأرض وحجته على خلقه[٢].

اذا ما رجعنا في التاريخ الى الشرق الأوسط، والى ما قبل الاسلام، نجد انه كان خاضعاً لسيطرة الفرس من جهة والروم من جهة اخرى، في حين كان القسم الأكبر من العرب يعيش في حالة بداوة في الصحراء، وعلى أطراف هاتين الدولتين. ولكن الاسلام بث في هذه القبائل روح المبادرة، فانطلقت جحافل المسلمين مزودة بسلاح

(٢) كتاب دين الدروز، سلفستر دي ساسي، ان هذه المعلومات هي معلومات تاريخية قريبة من العقيدة الاسماعيلية ولا علاقة مباشرة لها بالمذهب التوحيدي الدرزي او المعتقدات الدرزية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الايمان بدين الله، لتفتح بلداناً غريبة عنها فكان الدين والايمان بالله حافزين لنصر مبين اذهل الجميع. بنظرة بسيطة، فقد استطاع البدائي ان يسيطر على الحضاري، والمعرفة الفطرية على التقدم العلمي، واذا بالفاتح الغازي يعلن ان كتاب الله انزل بلغة عربية، وان نبي الله عربي، والامامة والخلافة عربيتان، بالنسبة للسنة، من قريش وللشيعة من آل البيت. فاصبحت الشعوب غير العربية المسلمة، رغم حضارتها وتقدمها العلمي، في مرتبة دون العرب في عصر الاسلام، خصوصاً ان الاسلام لم يمنحها اي حق في الامامة او في الخلافة. باختصار، كانت شعوب المنطقة سيدة نفسها، فأصبحت شقيقة للعرب في الدين ولكنها لا تقاسمها الحق في الحكم.

اعتبرت هذه الشعوب المسلمة، ولكن غير العربية، ان الامامة هي الطوق الذي يحاصرها ويشل طموحها في استعادة مجدها الغابر واسترجاع نفوذها السابق، فلا غرابة اذاً ان تثار عصبيتها العنصرية التي عرفت ايضاً «بالشعوبية» وان يذكّر الشاعر الفارسي مهيار الديلمي العرب بأمجاد ابائه في قصيدته الشهيرة التي يقول فيها:

لا تخالي نسباً يخفضني ... انا من يرضيك عند النسب
قومي استولوا على الدهر فتى ... ومشوا فوق رؤوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم ... وبنو ابياتهم بالشهب
وابي كسرى على ايوانه ... اين في الناس اب مثل ابي
قد قبست الدين عن خير نبي ... وورثت المجد عن خير أب
فضممتُ المجد من اطرافه ... سؤود الفرس ودين العرب

يقضي اولاً باخراج الامامة من قريش وآل البيت وجعلها متاحة لجميع المسلمين مما يمنح الفرس وغيرهم من الشعوب المسلمة، فرصاً اوفر في تبوء مواقع القيادة السياسية في الاسلام(*).

(*) عند وصول الجيوش المسلمة الى «المدائن» لم يسمح للصحابي الكبير سلمان الفارسي ان يؤم الصلاة لأنه من اصل غير عربي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهنا يجوز الافتراض بأن الانتفاضة التوحيدية الدرزية لم تكن بعيدة عن المؤثرات الفكرية والعوامل السياسية الفارسية، خصوصاً ان القسم الأكبر من دعاة الاسماعيلية الاوائل، ومعظم الفلاسفة والمفكرين الاسلاميين، كانوا من الفرس.

مما يلفت النظر، ان الفرس الذين قدموا الى مصر في العهد الفاطمي، وكانوا يأتون باعداد كبيرة، لم يلتحقوا بجهاز الحكم، اي بالدولة او بالجيش، كالصقالبة والمغاربة والترك، بل عملوا دعاة يبثون الدعوة الاسماعيلية، منهم على سبيل المثل، داعي الدعاة ختكين الضيف، الفيلسوف احمد حميد الدين الكرماني، حسن حيدرة الفرغاني (الاخرم) وغيرهم، مما جعل علاقتهم المباشرة مع اصحاب الفكر من جهة، وعامة الشعب من جهة اخرى، حيث تمكنوا من بث افكارهم السياسية، التي كانت في بعض الأوقات لا تتفق مع سياسة السلطة العربية.

كما قلنا سابقاً، انحصرت الامامة عند الشيعة تسلسلاً في اعقاب الامام الأول علي بن ابي طالب من زوجته فاطمة ابنة الرسول الكريم، وهذا التقليد كان مقدساً عندهم. فالامام الأب ينص على امامة احد اولاده، وهكذا بالتتالي، كما لا يجوز ان تنتقل الامامة من أخ الى أخيه، ولذلك لا تعترف الاسماعيلية بامامة الحسن بن علي بن ابي طالب، بل تعتبره إماماً مستودعاً، اي نائباً لأخيه الامام الحسين عند غيبته.

عبر التاريخ الشيعي الاسلامي جرت ثلاث محاولات للخروج على هذا التقليد، فكانت النتيجة، قسمة الشيعة الى احزاب وفرق وصدامات سياسية، بل ودموية، كادت احداها تقضي على الخلافة الفاطمية.

المرة الاولى كانت في خروج الامام جعفر الصادق عن هذا التقليد، عندما نص بالامامة على ابنه موسى الكاظم بدلاً من اعطائها الى حفيده محمد بن اسماعيل المنصوص عليها من والده اسماعيل بن جعفر، وهو العقب الأول. وعلى الأثر انشقت الشيعة الى فئتين، الشيعة الاسماعيلية (السبعية) وهم اتباع الامام اسماعيل، والشيعة الاثني عشرية وهم اتباع الامام موسى الكاظم، وهؤلاء يشكلون اليوم معظم شيعة ايران، والعراق، ولبنان وشيعة شرق الجزيرة العربية. اما الاسماعيليون فينتشرون في سلمية (سوريا) والهند وباكستان، وتوجد نسبة قليلة في ايران واليمن.

اما الخروج الثاني على تقليد الامامة، والذي كان له تأثير اساسي ومباشر على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حركة التوحيد الدرزية، وفي الوقت نفسه، كاد ينهي الخلافة الفاطمية، وذلك عندما عيّن الخليفة الحاكم بأمر الله عام ٤٠٤هـ ابن عمه عبد الرحيم بن الياس[٣]، وهو حفيد الخليفة عبيد الله المهدي مؤسس الخلافة الفاطمية، خليفة له وولي عهده، فثار عليه غلاة الاسماعيلية، بتحريض من ست الملك أخت الحاكم بامر الله وداعي الدعاة افتكين الضيف، فاضطر الخليفة الحاكم لاحقاً الى ابعاد ابن عمه عبد الرحيم بن الياس من القاهرة وعيّنه والياً على دمشق لتفادي الصدام مع غلاة الاسماعيلية(*) وبعض قادة الجيش من الكتاميين المغاربة المقربين من ست الملك، مما كان قد يؤدي الى زعزعة الخلافة الفاطمية. وقيل ان ست الملك قالت للحاكم، امام جمع من العلماء وقادة الجيش، «يا أخي لا تجعل خراب هذا البيت عن يدك».

اللافت في هذا السياق، انه عندما اختفى الحاكم عام ٤١١هـ وتسلمت اخته ست الملك الحكم لمدة قصيرة، استدعت عبد الرحيم بن الياس من دمشق وامرت بقتله للقضاء على بدعة الانحراف عن تقليد نص الامامة من الأب الى الابن.

اما في ما يختص بحركة التوحيد الدرزية، حفزت هذه المحاولة، من قبل الخليفة الحاكم بامر الله، سعي كل من محمد بن اسماعيل[٤] الدرزي (نشتكين) وحمزة بن علي بن احمد للاستيلاء على الامامة لاقتناعهما بأن الحاكم بأمر الله لا يلتزم التقليد الشيعي بحصر الامامة في العقب وفي آل البيت وحجبها عن عامة المسلمين، ولكن

---

(٣) عبد الرحيم بن الياس ملعون عند الموحدين الدروز لقتله، مع حلفائه بني مرداس، خلال وجوده والياً في دمشق آلافا منهم وأرسل الى وادي التيم جيشاً لقتالهم وإبادتهم.

(*) عيّن الحاكم بامر الله عبد الرحيم بن الياس عام ٤٠٤هـ خليفته وولي عهده بالرغم من استنكار ومعارضةغلاة الاسماعيلية. بقي عبد الرحيم بن الياس في منصبه حتى شهر جمادى الثانية عام ٤٠٩هـ عندما أرسله الحاكم والياً على دمشق نتيجة ضغط كبار القادة المغاربة لاقالته وذلك بسبب اصرار ست الملك شقيقة الحاكم وقد كانت على علاقة متينة مع كبار قادة المغاربة التي كانت تفضلهم على الأتراك المشارقة الذين كانت تخاف من سيطرتهم على الحكم كما فعلوا في بغداد.

(٤) ان اسم محمد بن اسماعيل انتحله نشتكين الدرزي زوراً كي يوهم الاسماعيلية انه من شيعة الامام الاسماعيلي المستتر، محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق صاحب الكشف وقايم الحق وامام الزمان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه المحاولة باءت بالفشل وأدت الى انقسام الموحدين الى فئتين، فئة مع حمزة بن علي والأخرى مع نشتكين الدرزي.

ويقال ان الحاكم بأمر الله نص على امامة حمزة بن علي عام ٤٠٨هـ وان نشتكين الدرزي أقر بامامة حمزة ولكنه انقلب فيما بعد وادعاها لنفسه وتلقب بسيف الايمان وسيد الهادين. ارسل اليه حمزة بن علي رسالة يؤنبه على انكاره امامته ويطلب منه الكف عن هذا الانحراف الذي قد يسبب المتاعب للدعوة التوحيدية.

ان اللافت للانتباه ان الذين سعوا للاستيلاء على الامامة كانوا من أصول فارسية، اي حمزة بن علي بن احمد، ومحمد بن اسماعيل الدرزي (نشتكين)، كما وان معظم اتباعهم كانوا من الفرس والمغاربة، فيما خلا «الحدود»، الذين انتقاهم حمزة بن علي، فكانوا عرباً، حتى محمد وهب القرشي يرجع نسبه الى قريش عائلة النبي محمد.

اما محمد بن اسماعيل الدرزي (نشتكين) فقد كان داعياً اسماعيلياً فارسياً من مدينة بخارى، قدم الى القاهرة عام ٣٩٦هـ، كالآلاف غيره من دعاة الاسماعيلية الفرس، على اعتبار ان القاهرة كانت حاضرة العلم وعاصمة الفاطميين وملتقى اصحاب الفكر الشيعي وفيها «دار الحكمة» مركز لتعليم وتدريب الدعاة الاسماعيلية.

استقر محمد بن اسماعيل الدرزي في القاهرة وتقرب من الخليفة الحاكم بأمر الله الذي عيّنه مديراً على بيت المال، فأصبح له نفوذ كبير حتى قيل ان كبار الناس وبعض قادة الجيش كانوا يقفون ببابه يطلبون المساعدة والتوسط لهم مع الحاكم.

ألّف محمد اسماعيل الدرزي كتاباً عن عقيدة التوحيد سمّاه «الدستور» ولكنه اتلف ولم يبق من اثاره الاّ بعض المقولات، التي لا تؤكدها المراجع التاريخية الاسماعيلية، ولكن يشير اليها بعض المؤرخين في كتبهم عن تاريخ الفاطميين.

عندما قدم حمزة بن علي بن احمد الزوزني[٥] الخراساني الى القاهرة عام ٤٠٥هـ سكن في جامع ريدان وخلال وجوده في القاهرة زوّج شقيقته الى الداعي

---

(٥) الزوزني نسبة الى مولده في بلدة «زوزن» في خراسان من فارس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاسماعيلي القائد الفاطمي العربي اسماعيل بن محمد التميمي، المعروف عند الموحدين الدروز بلقب «ابو ابراهيم» والذي اشتهر باقدامه وشجاعته خلال معارك خاضها عندما كان قائداً في الجيش الفاطمي.

عرّف الداعي الاسماعيلي، علي بن احمد الحبّال، حمزة بن علي على محمد بن اسماعيل الدرزي «نشتكين» فأصبح نشتكين تلميذاً لحمزة يرافقه الى «دار الحكمة» حيث يشارك حمزة في الجدل الفلسفي والعقائدي مع الدعاة والعلماء الاسماعيلية.

كان حمزة بن علي من اكبر علماء عصره، متضلعاً ومرجعاً كبيراً في العلوم الدينية والفلسفية وهو من خريجي جامعة «جنديابسور» الفارسية التي انشأها كسرى انوشروان وكانت تدرّس فيها علوم الدين والفقه، وخصوصاً، الفلسفة اليونانية التي شجع على انتشارها الخليفة العباسي المأمون عبدالله بن الرشيد (١٩٨ - ٢١٨هـ).

في عام ٤٠٧هـ وقع خلاف في جبل السمّاق[٦] قرب مدينة حلب، بين اصحاب الأراضي والفلاحين، ومعظم هولاء كانوا من القرامطة الذين استوطنوا مدينة حلب وجوارها بعد النزوح النهائي لجيش القرامطة أثر هزيمته وحليفه افتكين التركي العباسي في معركة الرملة عام ٣٦٨هـ على يد القائد الفاطمي جوهر الصقلبي والجيش الفاطمي، في عهد الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦هـ). ثم كان اتفاق قادتهم، بزعامة جعفر الجنابي ابن عم القائد القرمطي المشهور «الحسن الأعصم»، الذي كان توفي في الرملة قبل المعركة بشهرين، فخلفه جعفر في قيادة الجيش القرمطي واتفق مع الخليفة العزيز بالله على مبلغ سبعين ألف دينار يدفع لهم سنوياً على أن لا يعود القرامطة الى بلاد الشام، وبذلك انتهت حروب القرامطة، ولكن بقي منهم فلول في جبل السمّاق وضواحي دمشق وحلب ووادي التيم[٧].

وقيل ان الخليفة الحاكم بامر الله أرسل محمد بن اسماعيل الدرزي (نشتكين) لتسوية هذا الخلاف، الاّ ان الدكتورة نجلا ابو عز الدين، تنفي هذه المقولة وتقول:

---

(٦) يطلق الموحدون اسم «جبل الأنوار» على جبل السمّاق الذي يتألف من قرى قرب حلب.

(٧) كتاب تكملة تاريخ الطبري، محمد عبد الملك الهمذاني ص ٢٢٧ . ويقول ابن الأثير في كتاب «الكامل في التاريخ» مجلد ٨ ص ٤٨٧ ان المبلغ كان ثلاثين الف دينار.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«فالدرزي لم يغادر مصر وقد قتل والدعوة لم تزل في بدايتها، والدروز يتبرأون منه»[٨].

ويقول بعض المؤرخين، ان نشتكين الدرزي، بعد انتهاء مهمته في جبل السمّاق، توجه الى وادي التيم[٩] الذي كان مأهولاً انذاك بجماعات من القرامطة، فنشر فيهم دعوة التوحيد، ولذلك أطلق لقب الدروز على الموحدين، اي اتباع نشتكين الدرزي.

اننا لا نعرف عن محمد بن اسماعيل الدرزي (نشتكين) الاّ انه كان داعياً اسماعيليا ومديراً لبيت المال ومن المقربين الى الحاكم بأمر الله. التحق نشتكين بحمزة بن علي عند قدومه الى القاهرة عام ٤٠٥ هـ ثم انفصل عنه وحاول اغتصاب الامامة، ثم كانت محاولته لنشر الدعوة التوحيدية بالعنف، بالرغم من تحذير حمزة بن علي، فكانت ان باءت بالفشل.

اما عن تفكير نشتكين الدرزي العقائدي فيُعطينا بعض المعلومات المستشرق «مارشال هودجسون»[١٠] فيقول: «ان يحيى بن سعيد الانطاكي، يقول ان نشتكين الدرزي في كتابه «الدستور» قال: ان الحاكم هو الله، هو خالق الكون وجميع الموجودات»[١١]. ثم يستطرد «مارشال هودجسون» قائلاً: «ان جمال الدين ابو المحاسن ابن تغري بردي قال: «ان الداعي الدرزي كان من غلاة الباطنية وانه في كتابه «الدستور» قال: «ان روح آدم تحولت الى علي بن ابي طالب، وروح علي الى والد الحاكم ثم تحولت الى الحاكم، ويعطي الحاكم روح الالهية ليس اكثر – ثم يقول: «ان الامام علي وليس الناطق (النبي) هو العقل الكلي، ويرفع مرتبة الامام فوق مرتبة النبي».

---

(٨) كتاب الدروز في التاريخ، ص ١٣٢ .

(٩) تيم الله بن ثعلبة بطن من قبيلة ربيعة عاشوا في سواد الكوفة، اعتنقوا القرمطية وقدموا الى بلاد الشام حيث سكنوا الوادي المعروف اليوم باسم وادي التيم.

(١٠) المستشرق «مارشال هودجسون» استاذ في جامعة شيكاغو في الولايات المتحدة، كتب كتاب «الدرزي وحمزة في تاريخ الدين الدرزي، ص ٧ .

(١١) كتاب تاريخ الانطاكي، ص ٢٢٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا جل ما وصل الينا عن نشتكين الدرزي، فهو كان فارسي الأصل من غلاة الباطنية (الاسماعيلية) يعتقد ان مرتبة الامام أعلى من مرتبة النبي وانه حاول الاستيلاء على الامامة مما اثار غضب حمزة بن علي والموحدين الدروز الذين يتبرأون منه ويلعنونه.

اما بالنسبة الى حمزة بن علي، الرائد الفعلي للدعوة التوحيدية، فانه اعتمد على مساعدة الخليفة الحاكم بأمر الله، فلم يحاول استقطاب أصحاب النفوذ في السلطة، فلهذا عندما غاب الحاكم، لم يكن للدعوة سند قويّ يدافع عنها او عن الموحدين، فكانت عرضة للاضطهاد والتنكيل والتشريد.

ويقول «مارشال هودجسون»: «لم تكن الحركة على مستوى رفيع ذي أهمية اذ لم يكن لها متنفذون في السلطة الحاكمة، ويظهر انها كانت تضم بعض الغرباء وبعض صغار التجار والجنود المغاربة»(١٢).

اما المحاولة الثالثة للخروج عن تقاليد النص الشيعي للامامة، اي النص من الأب الى الابن، فحدثت بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله ابن الخليفة الامام الظاهر لاعزاز دين الله وحفيد الخليفة الحاكم بأمر الله(١٣) عام ٤٨٧هـ وادت الى انقسام الاسماعيلية الى نزارية ومستعلية.

هناك شرح مستفيض عن هذا الحدث في فصل «الاسماعيلية» ولكن باختصار يمكن القول ان الخليفة المستنصر بالله تزوج ابنة امير الجيوش الارمني بدر الجمالي وولدت له ابناً سمّاه «أحمد» (المستعلي) وكان أصغر أولاد المستنصر.

عند وفاة الخليفة المستنصر بالله أبرز امير الجيوش «الأفضل» سجلاً بان الخليفة

---

(١٢) كتاب الدرزي وحمزة في تاريخ الدين الدرزي، ص ٩ . وكتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي، ص ٦٩ .

(١٣) يتهم الموحدون الدروز الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله بقيادة الحملة للتنكيل بهم واضطهادهم ولكن المراجع التاريخية تثبت ان الذي قاد الحملة الشرسة كان ست الملك شقيقة الحاكم وداعي الدعاة ختكين الضيف واما الظاهر لاعزاز دين الله، الذي كان تقياً ورعاً فقد حاول مساعدتهم ولكنه فشل امام معارضة ستّ الملك وختكين الضيف وغلاة الاسماعيلية. الظاهر لاعزاز دين الله سمح للموحدين بمغادرة مصر والهجرة الى بلاد الشام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نصّ قبل وفاته بالامامة الى ابنه أحمد (المستعلي) وليس الى نزار ابنه الاول. ثار الامام نزار واتهم الأفضل بالتزوير ثم سار الى «الاسكندرية» مع أتباعه حيث تبعه الافضل فحصلت معارك ضارية أسر على أثرها الامام نزار وارسل مع جميع عائلته الى القاهرة حيث قتلوا إلا ابنه محمد الهادي، الذي أخذه الداعي المشهور «حسن الصباح» الى «قلعة الموت» في فارس ونادى به اماماً. وبذلك خلقت الفرقة النزارية المعروفة اليوم باسم الفرقة «الأغاخانية» وانقسمت الاسماعيلة الى فرقتين: النزارية والمستعلية.

منذ قدوم حمزة بن علي عام ٤٠٥ هـ الى القاهرة بدأ الموحدون يتحلقون حوله، ولكن نشتكين الدرزي، بعد ان كان تلميذاً لحمزة ومقراً لقيادته وامامته، حاول نقل رئاسة الدعوة اليه والاستيلاء على الامامة. فكتب اليه حمزة «فان كنت تدعي الايمان فاقرّ لي بالامامة كما اقررت بالاول، من غير ان تلعن احداً، لأن اللعنة لا تزيد في الدين ولا تنقص منه، وخاطب الناس بالتي هي احسن، فان مولانا يحب المحسنين، فان فعلت مالت قلوب العالم الينا وارتفعت السنتهم عنا»(١٤).

تحذير حمزة بن علي لم يثن نشتكين عن مبتغاه، بل زاد في غلوه ورعونته، فأطلق على نفسه لقب، «سيف الايمان وسيد الهادين» واستعجل اعلان الدعوة عام ٤٠٨ هـ، رغم تحذير حمزة له، فكان ان ثارت نقمة أهل القاهرة على نشتكين واتباعه بتحريض داعي الدعاة، ختكين الضيف، الذي كان يكره الموحدين، خصوصاً نشتكين الدرزي وحمزة بن علي ويدعوهم بأصحاب البدع ويتهمهم بالكفر. يجب ان لا ننسى، ان داعي الدعاة، ختكين الضيف، بطلب من ست الملك شقيقة الحاكم، استدعى المفكر الاسماعيلي الكبير احمد حميد الدين الكرماني لمساعدته في القضاء على اصحاب البدع والأفكار الغريبة في مصر.

تصدت لنشتكين الدرزي واتباعه من المغاربة، مجموعة من عامة الشعب، مع بعض الجنود الأتراك، فقتلوا نحو أربعين منهم، فأمر الحاكم بأمر الله باغلاق أبواب القاهرة لمدة ثلاثة أيام حتى استتب الأمن. قيل ان نشتكين طلب نجدة من حمزة بن

(١٤) كتاب مذهب الدروز، عبدالله نجار، ص ١١٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علي الذي رفض نجدته قائلاً: «لقد حذرته من اعمال العنف والطيش فلم يقبل نصيحتي».

وعقب ذلك، سعى نشتكين بطرق مشبوهة وغير شريفة، منها استعمال المال، الى اقناع بعض أهل الشغب من العامة، ومنهم بعض جنود الأتراك، بالهجوم على جامع ريدان حيث كان حمزة معتكفاً مع قلة من أتباعه الموحّدين لا يزيد عددهم عن اثني عشر موحداً، منهم خمسة شيوخ وأولاد.

صمدت هذه القلة من الموحدين ودافعت بضراوة وشجاعة فائقة، حتى أطلّ الحاكم بأمر الله على شرفة قصره فارتد المهاجمون عن الجامع، ويقال ان نشتكين الدرزي قتل في تلك المعركة، والأرجح بعدها بقليل، ولكن بعض المؤرخين قال انه تمكن من الهرب بمساعدة بعض اعوانه من أصحاب النفوذ وذهب الى بلاد الشام فنشر الدعوة هناك.

وعام ٤٠٩ هـ أمر الحاكم الموحدين ان يوقفوا نشاطهم ويلتزموا الهدوء، فعرفت تلك السنة، «بالغيبة الصغرى». ولكن في عام ٤١٠ هـ رجعوا الى نشاطهم، وفي تلك السنة كتبت معظم رسائل الحكمة.

وفي شهر شوال عام ٤١١ هـ أرسل الامام[١٥] حمزة بن علي وفداً مؤلفاً من عشرين شخصاً الى قاضي القضاة احمد بن العوّام[١٦] يطلب منه نشر الدعوة التوحيدية واعلان تأليه الحاكم بأمر الله، والكف عن محاكمة الموحدين. الاّ ان

(١٥) قيل ان الحاكم بأمر الله نص على امامة حمزة بن علي عام ٤٠٨ هـ.

(١٦) هو ابو العباس احمد بن محمد بن عبدالله بن احمد علي بن يحيى بن الحارث بن ابي العوّام الفقيه الحنفي. ولد في مصر عام ٣٤٩ هـ من بيت أهل علم وكان سنّياً على مذهب الحنفية، ولاّه الحاكم بأمر الله قضاء مصر عام ٤٠٥ هـ بعد مقتل القاضي مالك بن سعيد الفارقي واعترض على ذلك جماعة من غلاة الاسماعيلية وقالوا للحاكم «انه ليس على مذهبك ولا على مذهب من سلف من آبائك». قال: «هو من أهل مصر، ثقة مأمون عارف بالقضاء». ثم اضاف اليه احكام برقة والشام وجعل له ايضاً النظر في المعيار ودار الضرب والمساجد والمواريث. كتاب مصر في سنتي ٤١٤ و ٤١٥ . محمد بن عبيدالله المسبحي، ص ٢٣٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القاضي ابن العوّام رفض دعوة الامام حمزة وحدثت مشادة عنيفة، ثار على أثرها الموجودون وقتلوا أعضاء الوفد. الاّ ان مصادر الموحدين تقول – قتل ثلاثة منهم فقط.

ثارت الجموع في القاهرة، تساندها مجموعة من الجنود الأتراك وأخذت تطارد الموحدين وتنكل بهم، فاختفى الامام حمزة مع جميع «الحدود» ويقال ان معظمهم ذهب الى الاسكندرية.

كما قلنا سابقاً، ان هذه الدراسة هي تفسير تاريخي لما حدث والعوامل الفكرية التي اثرت على هذه الأحداث المهمة، ولا علاقة مباشرة لهذه الدراسة بمعتقدات المذهب التوحيدي الدرزي ولكن التاريخ بمفهومه العلمي يعتمد على ثلاث حقائق. اولاها، اسباب الحدث، وثانيها حقيقة ما حدث، ثم النتائج التي نجمت عن الحدث. وما يهمنا في هذه الدراسة هو حقيقة ما حدث. اما الأسباب والنتائج فنتركها لأصحاب المعرفة المطلعين على حقيقة الأمور ولهم وحدهم تفسيرها.

ان القول بحقيقة ما حدث في اجتماع الموحدين مع قاضي القضاة احمد بن العوّام هو ما سجلته كتب التاريخ. اما اسبابه ونتائجه فهي، كما قلنا سابقاً، مسؤولية أصحاب المعرفة والقيمين على المذهب فعندهم المعرفة التامة بذلك.

بعد غيبة الحاكم بامر الله، الذي كان سنداً وحامياً للدعوة وللموحدين، زال نفوذ الذين ساندوا الدعاة من مواقع الحكم. فكان من الطبيعي ان يتعرض الموحدون للاضطهاد والتنكيل في غياب اي سلطة تحميهم او مسؤول يدافع عنهم، خصوصاً بعد أن انضمت ست الملك وبعض حاشية ربيبها الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله الى المنادين بالقضاء على الدعوة وقتل دعاتها. وهكذا انتقلت الدعوة الى بلاد الشام حيث كانت يد الاضطهاد بعيدة عنهم ونفوذ الدولة الفاطمية وغلاة الاسماعيلية ضعيفين.

واللافت للانتباه هنا، ان الكتب التاريخية الاسلامية، وخصوصاً الاسماعيلية، لا تأتي على ذكر الدعوة التوحيدية الدرزية في تلك الحقبة، وقد يعود ذلك لكون غلاة الاسماعيلين، ومن بعدهم رجال الدولة الأيوبية، اتلفوا كتب الموحدين الدروز، او ان مدة انتشار الدعوة في مصر كان قصيراً لم يتعد بضع سنوات، فلم يكتب عنها الاّ القليل. بالاضافة، ان العقائد الفلسفية التي قامت عليها الدعوة التوحيدية،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كالفيض، والتوحيد والعقل وبعض العقائد الاسماعيلية المحدودة هي فلسفات قديمة معروفة تداولها الكثير من الفلاسفة والمفكرين في دراساتهم عن الفلسفة اليونانية والفكر الاسلامي، ولهذا لم تشكل عقائد جديدة تكون حافزاً لبحثها او تثير فضولاً ورغبة عند المفكرين لدرسها وتدوينها. ولهذا يمكن القول ان هذه العوامل كانت من اسباب الغموض المحيط بحقيقة الدعوة التوحيدية وتاريخها.

ويقول احد المؤرخين المعاصرين الدروز، ان كتاب «اخبار مصر وفضائلها وطرائقها وغرائبها وما بها من البقاع والأثار» للموحّد محمد بن عبيدالله المسبّحي، الذي عاش في ذلك الوقت في مصر، يحتوي على دراسة مستفيضة عن عقيدة التوحيد، وبما ان المسبّحي كان من الموحدين يكون لديه العلم الكافي والصادق عن نشأة المذهب، عقائده وتاريخه».

ان كتاب المسبّحي المهمّ (١٣٠٠٠ صفحة)، اتلف لسوء الحظ، ولم يبق منه إلاّ الجزء الأربعون[١٧] وهو بعنوان «تاريخ مصر في سنتي ٤١٤ و ٤١٥هـ. وبما ان عامي ٤١٤ و ٤١٥هـ هما من سني المحنة التوحيدية في مصر، فمن الطبيعي ان يحفل باخبار الموحدين وما نالهم من التنكيل والكوارث على يد غلاة الاسماعيلية[١٨]. ولكن للأسف، لم يأت على ذكر الموحدين واخبارهم الاّ اشارة عابرة، لا قيمة تاريخية لها، اذ يقول «سأل القائد: «معضاد» الحسين بن مفلح بن ابي صالح القلعي. «أنت من المنتظرة؟ - يعني موافاة الامام الحاكم يأمر الله - فقال: «معاذ الله»[١٩]. المنتظرة كان لقب الموحدين بعد محنة مصر أي انهم ينتظرون عودة الحاكم بأمر الله. هذا جل ما كتب عن الموحدين في هذا الجزء من كتاب تاريخ مصر بدلاً من ان يكون حافلاً باخبارهم.

---

(١٧) يحوي هذا الكتاب على ٢٩٢ صفحة من القياس الكبير وقد حققه وليم ج. ميلورد.

(١٨) المحنة الدرزية في مصر كانت من عام ٤١١ الى ٤١٧هـ. اي ست سنين وخمسة اشهر.

(١٩) كتاب تاريخ مصر سنة ٤١٤ و ٤١٥هـ، محمد عبيدالله المسبحي ص ٢٢٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من المعقول ان يكون المسبّحي[٢٠] تطرق الى عقيدة التوحيد في كتابه – «درك البغية في وصف الأديان والعبادات وذكر الملل والانبياء والمتنبئين، وذكر الفروض والآداب» – لأن هذا الكتاب هو عن الاديان، والفرق والملل التي كانت موجودة في ذلك التاريخ، ومنها ملة الموحدين.

وكما اشرنا سابقاً يقول المفكر الفرنسي سلفستر دي ساسي: «انهى الدروز دور الامامة عند ظهور صاحب «الكشف» اذ يقولون – اذا قام بالتوحيد آخر قائم من الائمة الطاهرين المهديين، وعرفنا ان صاحب «الكشف» هو صاحب القيامة، واليه انتهت ادوار الامامة»[٢١].

ويعتبر الموحدون الدروز ان «المهدي» يجب ان يكون علوياً من آل البيت وذلك حسب قول النبي «لو لم يبق في الدنيا الاّ يوم واحد، لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث الله رجلاً مني، او من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي، واسم ابيه اسم ابي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً»[٢٢].

والمهدي يجب ان يظهر بعد اربعمائة سنة من ظهور النبي محمد، ولهذا يطابق هذا الوقت مع وقت ظهور الحاكم بأمر الله بدعوة التوحيد اي عام ٤٠٨ هـ، والحاكم بامر الله علوي من آل البيت، وامام اسماعيلي، ملأ الدنيا عدلاً واماناً. أمّا حمزة بن علي فهو المهدي المنتظر وصاحب الكشف وقائم الحق وله الولاية.

اما الاسماعيلية فيقولون، ان المهدي المنتظر، هو صاحب الكشف، قائم الحق وامام الزمان، هو الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق. ويقولون كذلك، انه

---

(٢٠) المسبّحي هو عز الملك ابو عبيدالله محمد بن عبيدالله بن احمد بن عبد العزيز المسبحي. ولد في مصر عام ٣٦٦ واصله من حرّان في سوريا. شغل منصب رئاسة ديوان الترتيب في عهد الحاكم بأمر الله وكان يحضر مجالس الحاكم واجتماعاته بصفة دائمة. وكذلك تمتع بمكانة كبيرة عند الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ابن الحاكم. امضى حياته في خدمة الدولة والتأليف فكتب ٣١ كتاباً في علوم الدين والتاريخ أتلف معظمها.

(٢١) كتاب دين الدروز. Exposé de la Religion des Druzes. Paris 1838

(٢٢) كتاب كشف الغمة في معرفة الأئمة. ابو الحسن فخر الدين ابو الفتح الاربلي، ص ٣١٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يظهر دين الله، ويؤيد بنصر الله وملائكته فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً فهو المهدي المنتظر(*).

وفي كتاب «الشواهد والبيان» للمؤرخ الاسماعيلي جعفر بن منصور، ابن الداعي اليمني الكبير، ابن حوشب المعروف باسم منصور اليمن، وكتاب «افتتاح الدعوة» للقاضي النعمان بن محمد بن حيّون، توجد دراسة مستفيضة عن اهمية عقيدة الامام المهدي المنتظر، محمد بن اسماعيل بالنسبة للعقيدة الاسماعيلية.

ويطلق القاضي النعمان على الامام المهدي لقب «القائم بالحق والناطق بالصدق». ويقول ان الخلفاء الفاطميين، من أتى منهم سابقاً ومن سيأتي لاحقاً حتى يوم القيامة، هم خلفاء الامام الهادي محمد بن اسماعيل.

والشيعة الاثني عشرية تعتبر الامام الثاني عشر، محمد بن حسن العسكري، وهو الامام المحجوب يقيم في عالم فوق الوجود، لا يرى البشر حتى رجعته النهائية، فيختم المرحلة الحاضرة من عالمنا. لن يجيء بكتاب موحى جديد او شريعة جديدة، ولكنه سيكشف المعنى المستور لكل الايحاءات، فهو الباطن للحقيقة النبوية»(٢٣).

تقول الاسماعيلية، ان المهدي المنتظر ينهي دور الامامة، ينسخ الشرائع ويأتي بشريعة جديدة تعم العالم. اما الشيعة الاثني عشرية فيقولون ان المهدي المنتظر لن يجيء بكتاب جديد وشريعة جديدة ولكنهم قالوا بانهاء دور الامامة.

بعد انهاء دور الامامة، استعاض الموحدون الدروز «بمشيخة العقل» التي تشكل امتداداً تاريخيا دينياً للامامة، وهي المرجع الروحاني لمشايخ الأجاويد.

ويقول المفكر كمال جنبلاط عن مشيخة العقل: «هي اشتقاق معنوي وامتداد تاريخي لفكرة الامامة، اي الرشاد والحكمة، وسلطة التوجيه والتقويم لمن تكون له. وهي نوعان؛ ولاية تنظيم ورعاية للمصالح الشرعية والروحية الظاهرة للجماعة،

(*) الامام الثاني عشر عند الشيعة الاثني عشرية هو محمد ابن الامام حسن العسكري وامه الأميرة البيزنطية «نرجس». توفي الامام حسن العسكري عام ٢٦٠هـ وفي اليوم بالذات دخل ابنه محمد وكان عمره خمس سنوات، سرداباً في سامراء واختفى. وهو يعتبر عند الشيعة الاثني عشرية المهدي المنتظر.

(٢٣) كتاب الشيعة الاثني عشرية. هنري كوربان، ص ٧٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وولاية القسط فيما بينهم بالعدل، وولاية استرشاد بالمثل الأفضل والاهتداء بالولاء الأرفع واستئناس بالعرفان الأعلى وبالتوجيه الأصفى والأفضل»[٢٤].

الاّ ان السؤال الرئيسي الذي تتوقف عليه هذه الدراسة يبقى:

هل كانت دوافع محاولات السيطرة والاستئثار بالامامة من قبل حمزة بن علي دوافع محض شخصية، وتحديداً، السعي الى النفوذ والسيطرة والحكم، وبالتالي التفرد بالسلطة على مقدرات الأمة؟ ام كان الهدف كسب النفوذ لتسهيل انتشار الدعوة التوحيدية وحمايتها ودعمها من مركز قوة واستعمال السلطة المطلقة لنشرها وحمايتها؟

ويجوز التساؤل في هذا السياق ايضاً. هل كانت محاولة السيطرة والاستئثار بالأمامة موجهة لكسر الاحتكار العربي لها وللخلافة؟ وبالتالي محاولة فارسية للسيطرة على الحكم والتخلص من الهيمنة العربية واعادة مجد الفرس الغابر، وخصوصاً ان الذين قاموا بهذه المحاولة جلهم من الفرس والشعوب المسلمة غير العربية؟

من المعروف والمسلم به تاريخياً، ان الامام حمزة بن علي لم يتعاط او ينغمس في النزاعات السياسية فهو عالم كبير على اطلاع واسع في علوم الدين والفلسفة وكان جلّ همه وهدفه الوحيد نشر عقيدة التوحيد وهي عقيدة روحانية عقلانية لا علاقة لها بالسياسة او الممارسات الدنيوية وأسلوب الحكم.

من الصعب جداً الاجابة على هذه التساؤلات بالامانة التي تفرضها الموضوعية التاريخية وربما تكون خلاصة اي دراسة موضوعية في هذا السياق الابقاء على الغموض والاكتفاء بالواقع الذي نريده ان يبقى لدينا لأن الانسان قد ينغلق على نفسه احياناً ويرفض بعض الحقائق التاريخية اذا كانت مغايرة للمعتقدات الروحانية التي يعتنقها ولا تتفق مع الايمان الراسخ فيه، مع العلم ان التاريخ لا يبنى على التكهنات والافتراضات التي تفرضها عوامل نفسية غير مقيدة بالعقل.

---

(٢٤) مقدّمة كتاب «اضواء على مسلك التوحيد»، الدكتور سامي مكارم، ص ١٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاسماعيلية

- الاسماعيلية
- الفرق السبئية والخطابية واسرة القدّاح
- عودة الاسماعيلية للعمل السياسي
- الفرق الاسماعيلية
- العقائد الاسماعيلية والعقيدة الدرزية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاسماعيلية

يقول المؤرخون ان الدعوة الاسماعيلية انطلقت في عهد جعفر الصادق وهو الامام الخامس[1] ووالد الامام اسماعيل التي عرفت الدعوة باسمه.

وكانت الدعوة سرية يعمل على نشرها الدعاة باشراف الامام اسماعيل وكانوا: ميمون القدّاح مولى الامام جعفر الصادق، المفضل بن عمر، وحمدان بن احمد. الاّ ان بعض غلاة الاسماعيلية يقول ان هذه الدعوة العقلانية التوحيدية التي انبثقت من داخل الانتماء الاسلامي الشيعي، ترجع جذورها الى عهد اسماعيل ابن النبي ابراهيم الخليل.

لما كان اصل الاسماعيلية من الشيعة، فان العودة الى تاريخ التشيع الاسلامي الذي بدأ بعد وفاة النبي الكريم وبعد اجتماع السقيفة حين بويع ابو بكر الصديق[2] خليفة لرسول الله، من شأنها توضيح ظروف نشأة الدعوة الاسماعيلية ومبايعة ابي بكر الصديق في السقيفة، التي قال عنها عمر بن الخطاب[3] «بانها كانت فلتة يجب قتل من يعيدها»، اثارت نفوراً واستياء عند بعض المسلمين، خصوصاً بني هاشم عائلة رسول الله وعلي بن ابي طالب. والجدير بالذكر في هذا السياق ان سادات الموحدين الأربعة هم: سلمان الفارسي، ابو ذر الغفاري، عمّار بن ياسر، المقداد بن الأسود

---

(١) جعفر الصادق هو الامام السادس عند الشيعة الاثني عشرية والامام الخامس عند الاسماعيلية اذ انهم لا يعترفون بالحسن بن علي بن ابي طالب اماما مستقراً بل اماما مستودعاً اي نائباً لأخيه الامام الحسين. الامام المستقر هو الثابت والمستودع هو المتجول.

(٢) اسمه عبدالله بن ابي قحافه واسم ابيه عثمان بن عامر وامه سلمى بنت صخر بن عامر. كان اول خليفة في الاسلام. تزوج النبي ابنته عائشة ام المؤمنين، هو من بطن تيم من قريش.

(٣) هو ابن الخطاب بن نفيل بن عبد العزّي بن عدي بن كعب وامه بنت هاشم بن المغيرة بن مخزوم. هو من بطن عدي من قريش.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومعهم حذيفة بن اليمان المعروف بصاحب رسول الله(*) ومحمد بن ابي بكر. رفضوا مبايعة ابي بكر وشايعوا، من كانوا يؤمنون بأن الحق الشرعي بالخلافة لعلي بن ابي طالب فكانوا من اوائل الشيعة(٤).

اذن كان هذا التشيع حركة سياسية وحركة عربية تفصح عن مطامح شرعية، فعلي والعلويون لم يختلفوا عن سائر الأمة من حيث المعتقدات الدينية، بل بالعكس، كان علي بن ابي طالب مستشاراً لأبي بكر ولعمر بن الخطاب، وقد قيل «لولا علي بن ابي طالب لفشل عمر بن الخطاب في ادارة امور الخلافة». كذلك قيل ان الخليفة الفاطمي، الحاكم بأمر الله، عندما منع سبّ السلف قال: «كيف نسبّ أبا بكر وعمر بن الخطاب وقد كان جدي علي بن ابي طالب والعباس مستشارين لهما».

بعد عشرات السنين من استيطان المسلمين منطقة الشرق الأدنى، اخفق الشيعة، مع كل محاولاتهم التي نتج عنها اصطدامات دموية، من ان يحققوا ما يتطلعون اليه من الاستيلاء على الحكم، بسبب اضطهاد السنة لهم وتشبثهم في الحفاظ على السلطة، بالرغم من ان العلويين(٥) كانوا في ذلك الوقت، فرقة عربية اسلامية ولاؤهم الى آل البيت اقرب الناس الى الرسول الكريم وكان علي بن ابي طالب، الذي ينتمي اليه العلويون، اكثر من جاهد في سبيل الاسلام وابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة احب الناس الى الرسول.

في تلك الحقبة التاريخية التي شهدت التوسع الاسلامي الى خارج الجزيرة العربية، كان جمع غفير من شعوب العالم الاسلامي لم يصحّ اسلامهم بعد ولم يدخل الايمان الصحيح الى قلوبهم وجلهم كانوا من الفرس والأتراك والأرمن والسوريين، مما ساهم في زعزعة المعتقدات الاسلامية اذ اخذت موجة عارمة من

(*) حذيفة بن اليمان والده حسيل بن جابر العبسي وأمه رباب بنت عبد الأشهل الأنصاري. قتل ابوه في غزوة أحد، قتله احد المسلمين وهو يظنه من المشركين. ولاّه عمر بن الخطاب على المدائن ثم استدعاه الى المدينة وولى مكانه صديقه سلمان الفارسي. توفي عام ٣٦هـ وكان زاهداً متقشفاً من اتباع علي بن ابي طالب.

(٤) عند خلافته عيّن علي بن ابي طالب محمد بن ابي بكر الصديق والياً على مصر.

(٥) نقصد بالعلويين سلالة الامام علي بن ابي طالب وليس النصيرية الموجودين في جبال العلويين في سوريا الذين لقبوا كذلك بالعلويين لانتمائهم لعلي بن ابي طالب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعتقدات الغريبة طريقها الى المذهب الشيعي تغذيها الأفكار المسيحية واليهودية والفارسية الى أن اصبحت الحركة الشيعية في يد الموالي والطبقات المضطهدة، ذريعة وحافزاً لثوراتهم الاجتماعية والدينية على السلطة الحاكمة.

ويقول المستشرق الانجليزي «برنارد لويس» «حينما اخذ التمايز العنصري بين العرب والموالي يزول شيئاً فشيئاً ويحل محله التمايز الاقتصادي بين اصحاب الامتيازات والمحرومين منها، اصبح الشيعة الثوريون لا يمثلون الموالي وحدهم بل اصبحوا لسان حال الطبقات المظلومة كلها. فصار «زرادشتيو» الطبقات الراقية من الفرس سنّة وبقوا على امتيازاتهم، واخذ فقراء عرب العراق وسورية والبحرين بالاراء الشيعية المتطرفة(٦)».

من المعروف أن الامامة، والأصح الزعامة، كانت في قريش قبل الاسلام، ولكنها انطلقت بقوة بعد اجتماع السقيفة ومبايعة ابي بكر الصديق، انذاك، كما قلنا، رفض بنو هاشم وبعض الصحابة هذه المبايعة، لايمانهم بأن الصاحب الشرعي للامامة ومستحقها بأعماله وجهاده وانجازاته في الاسلام هو علي بن ابي طالب، ولكي يثبتوا حقه في الامامة أوّلوا آيات من القرآن وبعض حديث النبي، ونادوا بعلي اماماً، وقالوا ان الامام أعظم من الخليفة لأن الخليفة ممثل الرسول والامام ممثل الله على الأرض(٧).

وقيل ان ردة فعل جماعة ابي بكر الصديق على ذلك ان نادوا بأبي بكر اماماً، وقالوا ان الخمسة من الصحابة الذين كانوا معه في اجتماع السقيفة، بايعوه بالامامة بقولهم «ان الرسول قال، ان الامامة تكون في قريش» وان الخليفة هو الذي يؤم الناس عند الصلاة. وقالت السنة، بما ان الذين بايعوا ابا بكر كانوا خمسة. اذن يجب ان تكون الامامة شورى بين الجماعة.

---

(٦) كتاب اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرامطة، ص ٦٠ .

(٧) الامام عند الشيعة هو الملهم الهياً والمالك لعلم خاص وللتفسير التأويلي السري لفرائض الدين وهو القائد الشرعي الوحيد للبشرية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نكرر ما قلناه في فصل الامامة عن الأئمة الشيعة وقد يبدو ذلك مملاً للقارئ ولكنه على قدر من الأهمية في تاريخ الاسماعيلية.

١ – ولد علي بن ابي طالب عام ٦٠٤ ميلادية الموافق لسنة ٣٠ من عام الفيل. والدته فاطمة بنت اسد بن هاشم بن عبد مناف. توفي ابوه وكان عمره ست سنوات فعاش في بيت ابن عمه النبي محمد بن عبدالله.

تزوج علي فاطمة ابنة رسول الله عام ٦٢٣ ميلادية وانجب منها الحسن والحسين ومحسن وابنتين، زينب وام كلثوم. وقيل انه عندما تزوج لم يكن يملك الاّ درعه وسيفه، فباع درعه بستين درهما ليدفع نفقات زواجه.

في ١٨ رمضان عام ٤٠ هجري قتل الامام علي بن ابي طالب في مسجد الكوفة على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم.

كان الامام علي الخليفة الوحيد بين الخلفاء الراشدين الذي ترك اثاراً فكرية وأدبية وفقهية ما زال يتداولها الناس حتى يومنا هذا، فله كتاب «نهج البلاغة» الذي قام بجمعه الشريف الرضي العلوي[٨].

٢ – الامام الحسن بن علي بن ابي طالب. ولد في المدينة في رمضان عام ٢ هجري. والدته فاطمة الزهراء ابنة الرسول. وقد اعتبرته الشيعة الأثنا عشرية والزيدية اماماً مستقراً، اما الاسماعيلية فاعتبرته اماماً مستودعاً[٩] اي وكيلا عن أخيه الامام المستقر الحسين.

تزوج الامام الحسن جعدة بنت قيس الكندي التي دست له السم في الطعام حسب طلب معاوية بن ابي سفيان، بعد ان وعدها بتزويجها من ابنه يزيد. توفي الامام الحسن في الخامس من ربيع اول عام ٥٠ هجري وكان عمره ٤٧ سنة.

٣ – الامام الحسين بن علي. ولد في الخامس من شهر شعبان عام ٤ هجري، والدته فاطمة الزهراء ابنة رسول الله، كنيته ابو عبدالله. استشهد الامام الحسين في كربلاء في العاشر من محرم عام ٦١ هجري وقتل من ابنائه في كربلاء علي الاكبر،

---

(٨) كتاب تاريخ الدعوة الاسماعيلية، ص ٧٨ .

(٩) الامام المستودع هو الامام الذي ينوب عن الامام الأصيل، اي، المستقر، في ظروف استثنائية ولا يستطيع توريث الامامة الى احد من اولاده.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومحمد وعبدالله ولم يسلم منهم الاّ علي الاصغر المعروف باسم زين العابدين، الذي كان صغير السن ومريضاً. وكذلك قتل في كربلاء أربعة من اولاد الامام الحسن. اشتهر الامام الحسين بالشجاعة والاقدام والتقوى.

كان الامام الحسين يرمي الى استرجاع الخلافة من الأمويين وشجعته على ذلك الدعوات التي وصلته من اهل العراق، وبالرغم من نصح الناس للحسين بعدم المسير الى العراق وقولهم له. «ان قلوب اهل العراق معك ولكن سيوفهم مع بني أمية» لم يأبه وسار الى الكوفة وكانت معركة كربلاء ويذكره التاريخ بسيد الشهداء.

٤ - الامام علي «زين العابدين» بن الحسين. ولد في المدينة يوم الجمعة ٢٦ جمادى الآخرة عام ٣٨هـ. امه «جيهان شاه» بنت كسرى «يزردجرد» آخر ملوك الفرس.

توفي الامام زين العابدين عام ٩٥ هجري مسموماً بايعاز من الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ودفن في البقيع. وفيه قال الشاعر الشيعي الفرزدق قصيدته الشهيرة، عندما أنكره هشام بن عبد الملك خلال حجه الى مكة.

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله ... بجده انبياء الله قد ختموا

ما قال لا قط الاّ في تشهده ... لولا التشهد كانت لاؤه نعم

وليس قولك مَن هذا بضائره ... العرب تعرف من انكرتَ والعجمُ

ويقول ابن سعد في كتابه «الطبقات الكبرى» ان الامام علي زين العابدين كان ثقة، عالماً رفيعاً، ورعاً. وكان افقه الفقهاء صالحاً عابداً.

تزوج الامام علي زين العابدين فاطمة بنت الحسن بن علي فولدت له ابا جعفر الباقر وحسناً وحسيناً وعبدالله، ورزق من أم ولد تسعة اولاد آخرين.

٥ - الامام ابو جعفر محمد الباقر. ولد يوم الثلثاء من صفر عام ٥٧هـ. في المدينة وامه فاطمة بنت الحسن بن علي بن ابي طالب. كان عالماً وحجة وعرف بمدرسته العلمية حيث كان يدرس الدين والفقه، والتي درس فيها عدد من العلماء، واشتهر بكرمه الذي بلغ حدا الأسراف. تزوج ام فروة بنت القاسم بن محمد محمد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بن ابي بكر الصديق فولدت له جعفر الصادق وعبدالله وابراهيم وعبيدالله. مات في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك عام ١١٧هـ.

٦ – الامام ابو عبدالله جعفر المعروف بالصادق. ولد في المدينة في السابع عشر من ربيع الأول عام ٨٣ هجري وامه كانت ام فروة بنت القاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق. لقب بالصادق لصدقه في مقالته واعماله وهو صاحب مذهب الفقه الجعفري.

كان الامام جعفر الصادق بعيداً عن السياسة ومتاعبها مما جعله بعيداً عن اضطهادات الأمويين والعباسيين. وكان عالماً بالدين والفقه ومن تلامذته جابر بن حيان التوحيدي(١٠).

كان الامام جعفر الصادق من اعظم الشخصيات الاسلامية في عصره له مؤلفات عدّة منها: الجفر الأحمر، مصباح الشريعة، مفتاح الحقيقة وبحار الأنوار. تزوج الامام جعفر الصادق فاطمة ابنة الحسن بن علي بن أبي طالب فولدت له اسماعيل وعبدالله، ورزق من زوجته الثانية محمد واسحق وموسى وعلي والعباس.

ويقال ان جعفر الصادق مات مسموماً ستة ١٤٨هـ. عن عمر ٦٨ عاماً.

سبق وقلنا بعد موت الامام جعفر الصادق انقسم الشيعة بين الاثني عشرية التي قالت بأمامة موسى الكاظم، والاسماعيلية التي نادت بأمامة الابن الأكبر اسماعيل على أن الأمامة تصير بالنص من الأب الى الابن وليس من الأخ الى أخيه، وكان هذا الخلاف الذي سبب الانشقاق. الامام جعفر الصادق نص، بعد اختفاء ابنه اسماعيل، على ولده موسى الكاظم مع ان الامامة في المعتقد الشيعي تنحصر بالاعقاب ولا تنتقل من أخ الى أخيه ولا على رجوع النص القهقرى، وذلك تأويلاً للآية «وجعلها كلمة باقية في عقبة» اذن لا بد ان تكون في الأعقاب من دون غيرهم.

---

(١٠) من مشاهير المفكرين في القرن الثاني هجري، وخصوصاً في الكيمياء، وكان تلميذاً للامام جعفر الصادق وللعالم ابو سليمان السجستاني الذي تميز بالتضلع في علوم الفلسفة اليونانية وله كتاب «صوان الحكمة» في تاريخ فلسفة اليونان. لجابر بن حيان مؤلفات كثيرة يقال بلغت ثلاثة آلاف رسالة في الفلسفة والعلوم الطبيعية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اما الأئمة الذين اسسوا العقيدة الاسماعيلية، التي هي محور هذه الدراسة فهم:[11]

١ – الامام اسماعيل بن جعفر الصادق هو الابن الأكبر للامام جعفر الصادق، ولد في المدينة عام ١١٠هـ واليه ينتسب الاسماعيليون. والدته ووالدة شقيقه عبدالله كانت، كما اسلفنا، فاطمة ابنة الحسن بن علي بن ابي طالب. اما والدة اخوته موسى واسحق ومحمد وعلي والعباس فكانت جارية تدعى حميدة.

يقول مؤرخو السنة والشيعة الاثني عشرية ان سبب تحويل الامامة الى الابن الأصغر موسى الكاظم بدلاً من اسماعيل، يعود الى ان اسماعيل لم يكن يصلح للامامة لتناوله الخمر ولأنه كان من اصدقاء ابي الخطاب[12] الملحد الذي تبرأ منه الامام جعفر الصادق وكان رفيقاً لبسّام بن عبدالله الصيرفي، وهو من غلاة الخطابية وقد قتله الخليفة المنصور بحضور اسماعيل، تحذيراً وانذاراً.

بالاضافة الى علاقة اسماعيل بابن الخطاب، كان على علاقة قوية مع المعتزلة القائلين بعقيدة القدرية والذين يكرههم العباسيون وكانوا يعتبرون اقوالهم خطراً على الخلافة.

ويقول بعض المؤرخين ان سبب اختفاء اسماعيل يعود الى ان الامام جعفر الصادق، في احدى زياراته لبغداد، كان جالساً عند الخليفة جعفر المنصور (١٣٦ – ١٥٨هـ) عندما دخل اسماعيل ومعه شيخ المعتزلة، ابو الهذيل العلاّف العبيدي وكان الخليفة المنصور يخشى تعاليم المعتزلة ومن اشد المضطهدين لها، فصاح الامام جعفر الصادق بأبي الهذيل العلاّف: «قتلك الله، اتريد قتل ولدي!.» فانتبه جعفر المنصور لذلك وأمر عماله بقتل اسماعيل الذي فر الى البصرة التي كانت معقل المعتزلة. وكان هذا طبيعياً لأنه يقال ان اسماعيل كان منهم.

---

(١١) ان تاريخ هذه الحقبة من الزمن مبهم لأن كتب التاريخ الاسلامي عن الاسماعيلية كانت تهتم بالأمور الدينية ككتاب «الرشد والهداية» لابي حوشب منصور اليمن، كتب عام ٣٠٢هـ. اول كتاب ضم قليلا من التاريخ كان كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان عام ٣٤٦ .

(١٢) هو محمد بن ابي زينب الاسدي الذي كان يقول بالباطنية، وان الامامة في اولاد علي بن ابي طالب ثم قال بالوهية علي وثم قال ان الاله هو الامام جعفر الصادق وانه هو، ابو الخطاب، نبيّ مرسل. تبرأ منه الامام جعفر ولعنه. قتله عيسى بن موسى والي الكوفة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد يتساءل القارئ، اذا كان الخليفة المنصور يخشى ويكره المعتزلة، فلماذا لم يلاحقهم ويقضي على نفوذهم؟.. الواقع كان هدف العباسيين تحجيم نفوذ العلويين لان كان لهم اتباع ومريدون بين عامة الشعب ويطالبون بالخلافة وبذلك يشكلون خطراً مباشراً على حكمهم. اما الاعتزال فكان مدرسة فكرية ينحصر نشاطها على بعض العلماء والمفكرين من الشعب. ولكن عندما شعر الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) بخطر المعتزلة اضطهدهم وقتل الكثير منهم.

وفي رواية أخرى عن سبب اختفاء الامام اسماعيل، ان الذي كان معه عند دخوله على الخليفة المنصور هو الفضل بن عمر الجعفي وان الامام جعفر الصادق صاح به. «يا كافر، يا مشرك ما تريد من ابني؟ تريد ان تقتله؟.»[١٣]

ويبدو ان اسماعيل شوهد في البصرة، بعد ان كان الامام جعفر الصادق أبلغ الخليفة المنصور بموته. لما سمع الخليفة المنصور خبر وجود اسماعيل في البصرة، أبلغ الامام جعفر ان اسماعيل لا يزال على قيد الحياة وانه يطلبه. فانفذ الامام جعفر سجل وفاة اسماعيل بعد ان أقام له مأتماً كبيراً في المدينة.

يعود المنحى العقلاني للدعوة الاسماعيلية الى تأثير المعتزلة عليها، فالامام اسماعيل كان يؤمن بتعاليم المعتزلة وكان له بينهم اصدقاء بارزون، كعمرو بن عبيد وابو الهذيل العلاّف العبيدي، كما انه عندما اراد الاختباء لجأ الى المعتزلة في البصرة حيث بقي سبع سنين عندهم حتى توفي.

٢ - الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق. ولد عام ١٣٢هـ في المدينة وكان له من العمر ستّ وعشرون سنة عندما تسلم شؤون الامامة واقبلت وفود الشيعة لمبايعته، مما لفت نظر العباسيين اليه. وكان في ذلك الوقت الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) يلاحق الشيعة، وخصوصاً «العلويين»، فأصدر امراً بالقبض على الامام محمد بن اسماعيل الذي فرّ الى الكوفة عام ١٥٩هـ ومنها سار الى الري حيث استقر عند احد انصاره، اسحق بن موسى، الذي كان حاكماً على الري من قبل العباسيين والذي قبض عمّالهم عليه فيما بعد وعذبوه ثم قتلوه.

---

(١٣) كان الفضل بن عمر الجعفي صرافاً في الكوفة ومعتزلياً وكان من اتباع الامام جعفر الصادق وكان يدعو الى امامة اسماعيل ثم عاد الى الشيعة الاثني عشرية وخدم موسى الكاظم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سار الامام محمد الى نهاوند ومنها الى نيسابور ثم الى فرغانة حيث تزوج من ابنة الامير علي الهمذاني فولدت له عبدالله الرضى ومحمد واحمد والحسين واسماعيل وجعفر وعلي الليث. ومن فرغانة سار الى تدمر في بلاد الشام حيث توفي عام ١٩٣ هجري ودفن فيها ولا يزال ضريحه يعرف بضريح مولاي بن علي.

يعتبر الامام محمد بن اسماعيل اول الأئمة المستورين عند الاسماعيلية، وهو الناطق السابع ومتمم الدور، فامامته كانت دوراً جديداً في تاريخ الدعوة الاسماعيلية وقد رفع التكاليف الظاهرة للشريعة ونادى بالتأويل واهتم بالباطن، ويدعوه الاسماعيلية بالامام القائم بالحق وامام الزمان وصاحب الكشف.

ويقال انه عندما كان في تدمر اتخذ لنفسه اسم ميمون القدّاح الفارسي وانه من اتباع الامام محمد بن اسماعيل المستور، وان ابنه عبدالله (وفيّ احمد) هو عبدالله بن ميمون القدّاح.

٣ - الامام عبدالله بن الامام محمد بن اسماعيل (وفي احمد).

ولد الامام عبدالله بن محمد بن اسماعيل عام ١٥٩هـ في مدينة «محمود اباد» في فارس وتولى الامامة عام ١٩٣هـ بعد وفاة ابيه الامام محمد بن اسماعيل. ترك تدمر وذهب الى سلمية ثم الى نيسابور حيث اقام فترة قصيرة خرج بعدها الى الاهواز حيث تزوج فتاة علوية فولدت له احمد الذي أصبح ولياً للعهد وعرف (بتقي محمد).

في عهد الامام عبدالله بن محمد وقع خلاف بين الدعاة مما حمله على اغلاق الدعوة والاختفاء في دير «عصفورين» في ضواحي بلدة معرة النعمان حيث انقطع للعبادة والتأليف.

تناسى الدعاة خلافاتهم واوفدوا سبعة منهم للتفتيش عن الامام عبدالله، وعندما وجدوه في دير «عصفورين» طلبوا منه العفو والغفران فرجع معهم الى «سلمية» حيث نظم الدعوة وأرسل الدعاة الى جميع الأقطار الاسلامية.

في عهد الامام عبدالله بن محمد رتبت الدعوة ترتيباً منظماً دقيقاً واصبحت «سلمية» مركزاً رئيسياً للدعوة الاسماعيلية حيث انتشرت في بلاد الشام والعراق والبحرين واليمن.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

توفي الامام عبدالله بن محمد بن اسماعيل (وفي احمد) في «سلمية» عام ٢١٢ هجري ودفن في مدينة مصياف.

يقول المؤرخون الاسماعيليون ان الامام عبدالله بن محمد أشرف على تأليف كتاب «رسائل اخوان الصفا» ولخص الرسائل برسالة واحدة سمّاها «الرسالة الجامعة»، وان الرسائل كتبت في مدينة «سلمية» في سوريا في بلاد الشام.

واما الدكتور فرهاد دفتري فيقول: «غير ان بعض المرجعيات المعاصرة الموثوقة في القرن الرابع ترى غير ذلك، ولا سيما الفيلسوف أبو حيان التوحيدي، اذ يسمي رجالاً بعينهم من أرباب القلم والادارة من عراق البويهيين المرتبطين بالحركة الاسماعيلية والمقيمين في البصرة على أنهم ينتمون الى المجموعة التي قامت بتصنيف الرسائل والتي لولاها لبقيت الرسائل مجهولة المؤلف». ثم يقول: «يسمي ابا سليمان محمد بن معشر البسطي، والمعروف ايضاً بالمقدسي، وابا الحسن علي بن هارون الزنجاني وابا احمد النهرجوزي والعوفي من بين اولئك المؤلفين. يضاف الى ذلك ان هؤلاء الأربعة كانوا مرتبطين بشكل ما بالحركة الاسماعيلية، ويبدو ان الزنجاني، وهو قاض واحد معارف ابي حيان كان زعيم المجموعة»(١٤).

وقد تأيدت عبارات ابي الحيان المهمّة بشكل اساسي من قاضي القضاة عبد الجبّار احمد الهمذاني الذي أضاف على القائمة اسم ابن ابي بغل وزيد بن رفاعة، ولهذا يمكن القول ان الرسائل ربما الفت في البصرة في القرن الرابع هجري وليس في «سلمية» في القرن الثاني.

ثم يناقض الدكتور «فرهاد دفتري» نفسه فيقول: «لقد صاغ اخوان الصفا تعاليمهم، بالفعل، تحت رعاية الامام المستور السابع للاسماعيلية، اي محمد بن اسماعيل نفسه الذين كان ظهوره متوقعاً في تلك الآونة عند قرامطة البحرين وعند جميع الاسماعيلين المنشقين الآخرين(١٥).

---

(١٤) كتاب الاسماعيليون تاريخهم وعقائدهم، فرهاد دفتري، ترجمة سيف الدين القصير، ص ١٣١ .

(١٥) كتاب الاسماعيليون تاريخهم وعقائدهم، ص ١٣٢ يشير الدكتور دفتري الى رسائل بومباي مجلد ١، ص ١٥ ومجلد ٢، ص ١٨٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ – الامام احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل (تقي محمد).

ولد الامام احمد بن عبدالله في مدينة سلمية عام ١٧٩ هجري التي اصبحت مركزاً لنشر الدعوة الاسماعيلية في الأقطار الاسلامية، وكان من الدعاة الذين عملوا معه أبو القاسم رستم بن فرج بن حوشب الذي عرف باسم «منصور اليمن»(١٦) لتحقيقه انتصاراً كبيراً للدعوة في اليمن، كما علّم ودرّب الداعي ابا عبدالله الشيعي وأرسله الى شمال افريقيا حيث مهّد لانشاء الدولة الفاطمية.

ترك الامام احمد بن عبدالله مؤلفات عديدة منها كتاب «تأويل الزكاة» وكتاب «الشواهد والبيان لمباحثة الاخوان» كما قيل انه كتب «الرسالة الجامعة» وليس الامام عبدالله بن محمد.

توفي الامام احمد بن عبدالله في مدينة مصياف ودفن على قبة الجبل المعروف بجبل مشهد ويقع الى الجنوب الغربي من المدينة.

٥ – الامام الحسين بن احمد بن عبدالله الملقب بالاهوازي، او عبدالله الرضي (التقي).

عرف باسم حسين الاهوازي وكان غنياً يملك تجارة واسعة وقرى عديدة، وفي عهده تقدمت الدعوة الاسماعيلية تقدماً عظيماً. وكان كثير السفر، ويؤكد بعض المؤرخين(*) انه هو، وليس والده الامام احمد بن عبدالله، التقى قاسم بن حوشب الملقب بمنصور اليمن وعلي بن الفضل فأرسلهما الى اليمن، بعد ان احضرهما الى «سلمية» حيث درسا النظام الفكري الاسماعيلي، وذلك عام ٢٦٦هـ، كما وانه أرسل الداعي الكبير أبا عبدالله الحسين بن زكريا الشيعي، الذي كان في البصرة، الى اليمن، ليدرس على ابن حوشب. ومن اليمن خرج ابو عبدالله الشيعي الى مكة ومنها سار الى المغرب مع رجالات من قبيلة كتامة البربرية حيث نشر المذهب الاسماعيلي ومهّد الطريق الى اقامة الدولة الفاطمية.

---

(١٦) كتاب «السلوك». بهاء الدين الجنادي عن محمد مالك اليماني. كتاب القرامطة للمؤرخ الوالي، ص ٢٥٠ .

(*) منهم المؤرخ الاسماعيلي عارف تامر، كتاب تاريخ الاسماعيلية، مجلد ١، ص ١٣٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واثناء تجول الامام حسين الاهوازي في سواد الكوفة التقى حمدان بن الأشعث، الملقب بقرمط، وكذلك التقى مهروية بن زكرويه السليماني فادخلهما بالدعوة الاسماعيلية واصبحا، فيما بعد، قادة القرامطة الذين لعبوا دوراً مهماً في تاريخ الاسماعيلية، وذلك في نشر الدعوة ثم محاربتها، خصوصاً بعد ان تحالفوا مع العباسيين.

توفي الامام حسين الاهوازي في «سلمية» عام٢٨٩هـ ودفن في قبر جده الامام عبدالله بن محمد.

٦ – الامام عبيدالله (عبدالله)[١٧] المهدي بن الحسين بن احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل، المعروف بالمهدي.

ولد عبيدالله المهدي في مدينة «سلمية» من بلاد الشام عام ٢٥٩ هجري، ومات ودفن في مدينة المهدية في تونس عام ٣٢٢ هجري ثم نقل الخليفة المعز لدين الله رفاته الى القاهرة عام ٣٦١ هجري، ودامت خلافته خمساً وعشرين سنة من ٢٩٧ الى سنة ٣٢٢هـ.

ولد عبيدالله المهدي في بيت علم وفلسفة وكان يمتلك قدرة كبيرة على الجدل والاقناع ومغرماً بالتزود بالعلم واقتناء الكتب النادرة. ويقال انه عندما سرق اللصوص متاعه في مكان يقال له الطاحونة كان فيها كتبه ومؤلفات لأبائه فحزن على ضياعها حزناً كبيراً.

ترك عبيدالله المهدي سلمية الى شمال افريقيا هرباً من هجوم قرمطي عليها بعد ان بلغه ان القائد القرمطي ابو الخال، وهو ابن مهرويه بن زكرويه في طريقه لقتله[١٨].

---

(١٧) يقول المؤرخون الاسماعيلية ان اسمه الصحيح هو عبدالله ولكن العباسيين اطلقوا عليه اسم عبيدالله تصغيراً لمقامه. التاريخ عرفه باسم عبيدالله وليس عبدالله.

(١٨) كتاب الاسماعيليون بالانجليزية ص ١٢٧ للدكتور فرهاد دفتري يقول: ان حمدان بن الأشعث، قرمط، وقف ولاء القرامطة لعبيدالله المهدي بعد أن أخبره «عبدان» بعد زيارته سلمية ان عبيدالله الغى حجة الامام محمد بن اسماعيل وادعاها لنفسه وبذلك تبدأ الامامة به فهو قائم الحق وامام الزمان وليس الامام محمد بن اسماعيل، فاعتبر حمدان بن الأشعث قرمط، الذي كان زعيم القرامطة، ان هذا العمل من عبيدالله الحاد ما أباح دمه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ان وصف رحلة عبيدالله المهدي من سلمية الى شمال افريقيا هي بالتفصيل في فصل آخر من هذه الدراسة فلا لزوم لتكرارها هنا.

وصل عبيدالله المهدي الى مدينة القيروان وهناك بايعه الزعماء ورؤساء القبائل ورجال الدين بالخلافة وأعلنوا له الطاعة والولاء وكان ذلك عام ٢٩٦هـ.

وهكذا انتهى دور الستر والتخفي وبرز دور الكشف وأصبح الامام عبيدالله المهدي اول خليفة فاطمي وبه انتهى العهد الاسماعيلي وبدأ العهد الفاطمي تاريخياً، اما العقيدة الاسماعيلية فبقيت أساس الدولة الفاطمية الدينية والفكرية وهي باقية حتى اليوم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفرقة الخطابية وعلاقة بيت القداح في نسب الأئمة الاسماعيلية المستترين

بين القضايا التي احدثت جدلاً كبيراً في الحركة الاسماعيلية وتناولها مفكرون ومؤرخون مسلمون وبعض المستشرقين، كانت قضية الخطابيين وعلاقة بيت القداح في نسب الأئمة الاسماعيلية المستترين.

كما قلنا في مقدمة هذه الدراسة اني لست مؤرخاً او باحثاً في العلوم الفكرية التاريخية، فليس امامي الاّ ان أبسط امام القارئ ما قاله المؤرخون المسلمون والمستشرقون الضالعون في الفكر والتاريخ الاسماعيلي، من دون تفسير او تحليل، لأن ذلك يتطلب علماً ومعرفة فوق قدرتي وخبرتي. جلّ ما يمكن ان اعمل أن اضع امام القراء ما توصلت اليه من حقائق خلال مطالعاتي عن هذه الانحرافات العقائدية التي انتشرت في بدء الحركة الاسماعيلية. واشير الى ما قلته سابقاً، ان التاريخ هو تسجيل، بدقة وامانة، وقائع حدثت، تفسير اسبابها، وتحليل النتائج التي حصلت في وقوعها. الامانة والصدق في تسجيل الحادث والالتزام الجازم بما سجله أصحاب الخبرة والمعرفة، من دون زيادة او نقصان، هو واجبي، فلهم المعرفة وعلي ابرازها كما سجلوها.

كانت السبئية اول انتفاضة عقائدية سياسية اكتست نهجاً شيعياً قام بها اصحاب عبدالله بن سبأ ابن السوداء[1] وكان يهودياً من أهل صنعاء من اليمن. وقيل كان من الحيرة.

أسلم عبدالله بن سبأ في عهد خلافة عثمان بن عفان وتنقل في بلدان المسلمين يثير الفتن ويعمل جاهداً ليفسد على المسلمين دينهم. وقال سيف بن عمر التميمي في

(١) يقول بعض المؤرخين، منهم البغدادي في كتاب «الفرق بين الفرق» ص ٢٣٥ انه كان هناك صحابي جليل باسم عبدالله ابن السوداء. ولكن يقول البعض الآخر انهما كانا شخصاً واحداً وهو عبدالله بن سبأ ابن السوداء لقب بالسوداء لأن امه كانت سوداء حبشية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبري «كان لابن سبأ دور حاسم ومدمر في الفتنة التي قامت ضد عثمان». ولكن المستشرق «ليوني كاتاني» ينفي ذلك ويقول: «ان المصادر الأقدم والموثوق بها عن خلافة عثمان تجهل عبدالله بن سبأ، كما تجهل هذا الاضطراب القائم على أساس ديني، لأن فتنة عثمان قامت على أساس سياسي واقتصادي». ثم يقول: «كاتاني» ان البغدادي (الفرق بين الفرق) والشهرستاني (الملل والنحل) لم يذكرا علاقة ابن سبأ في مقتل عثمان او حتى وجوده»(٢).

يقول الدكتور طه حسين: «ويخيل ان الذين يكبرون من أمر ابن سبأ يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ اسرافاً شديداً. وأول ما نلاحظه انا لا نجد لابن سبأ ذكراً في المصادر المهمة التي قصّت أمر الخلاف على عثمان، فلم يذكره ابن سعد حين قص ابن سعد ما كان من خلافة عثمان وانتفاض الناس عليه، ولم يذكره البلاذري في انساب الاشراف، وهو مما أرى أهم المصادر لهذه القصة واكثرها تفصيلاً»(٣).

ثم يقول الدكتور طه حسين: «لو قد اخذ عبدالله ابن عامر او معاوية هذا الطارئ، الذي كان يهودياً فلم يسلم الاّ كائداً للمسلمين، لكتب احدهما او كلاهما فيه الى عثمان، ولبطش به احدهما او كلاهما. ولو قد أخذه عبدالله بن سعد بن ابي سرح لما اعفاه من العقوبة التي كاد ينزلها بالمحمدين لولا خوفه من عثمان. والذي يكتب الى عثمان يستأذنه في البطش بابن ابي بكر وابن ابي حذيفة وعمّار بن ياسر(٤) خليق الاّ يعفي من عقوبته رجلاً من اهل الكتاب قد اتخذ الاسلام وسيلة لاثارة الفرقة بين المسلمين»(٥).

---

(٢) كتاب Annali deli Islam, Vol. 8, page 42. Leone Catani.

(٣) كتاب الفتنة الكبرى – عثمان، ص ١٣٢ .

(٤) محمد بن ابي حذيفة ابن عتبة بن ربيعة ابو هند زوجة ابي سفيان وام الخليفة معاوية وهي التي حرّضت «الوحشي» على قتل حمزة بن عبد المطلب عم النبي في معركة احد. ومحمد ابن ابي بكر الصديق أخو عائشة ام المؤمنين زوجة النبي المفضلة وابنة ابي بكر الصديق. قدما مصر واخذا بالنقد والتشهير بعثمان الذي أرسل الصحابي الجليل عمّار بن ياسر ينصح المحمدين ويردهما الى الهدوء ولكن عمّار انضم الى المحمدين بالتنديد والتشهير بأعمال عثمان. فكتب عبدالله بن سرح الى عثمان يستأذن بقتلهم.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٣٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الواقع أنّ عبدالله بن سبأ استغل الفتنة لنشر دسائسه وفساده بين المسلمين ولكن لم يثرها ولم يكن ذا شأن، وجل ما فعله نشر الأكاذيب واذاعة الكيد بين المسلمين.

ويقول الطبري: «ان عبدالله ابن سبأ ورد الشام ولقي ابا ذر الغفاري فحرضه على الامويين وبث فكرة ان المال مال المسلمين والفقراء احق الناس بهذا المال».

ان هذه المقولة بعيدة عن الواقع ولا يقبلها العقل، فان ابا ذر لم يكن بحاجة لابن سبأ، اليهودي الذي يشك في اسلامه، ليعلمه ان المال مال المسلمين وان الفقراء اصحابه، فأبو ذر عاش حياته يندد بالامويين ويتهمهم بسلب وتبذير اموال المسلمين.

حين جاء ابن سبأ من اليمن الى الحجاز نادى بفكرة المهدي المنتظر وقال ان موت النبي محمد كان مجرد وهم من الناس وان غيبته موقتة وانه سيرجع الى الأرض ليملأها عدلاً بعد ان ملئت جوراً، وان النبي أحق من المسيح بالرجوع. ثم قال لكل نبي وصي وان علي بن ابي طالب وصي محمد وهو خاتم الأوصياء كما محمد خاتم الانبياء. ولكن بعد مقتل الامام علي، غيّر عبدالله بن سبأ مذهبه في العودة، وقال بان المهدي المنتظر هو الامام علي.

تمادى ابن سبأ في غلوه في الامام علي فأشاع ان الامام علي هو اله المسلمين. غضب الامام علي من هذا القول وأمر بقتل ابن سبأ، فأثناه ابن العباس بقوله: «ان قتلته اختلف عليك اصحابك، وانت عازم على قتال أهل الشام وتحتاج الى مداراة اصحابك». أمر الامام علي بنفي ابن سبأ الى المدائن.

لما قتل علي بن ابي طالب، زعم ابن سبأ ان المقتول لم يكن علياً بل شخصاً آخر وان علياً صعد الى السماء، كما صعد اليها المسيح، وانه في السحاب وان الرعد صوته والبرق سوطه.

وقال شرحبيل الشعبي (توفي عام ١٠٤هـ) ان عندما قيل لابن سبأ، ان علياً مات قال: «لو جئتمونا بدماغه في صرة لم نصدق بموته، لا يموت حتى ينزل من السماء ويملك الأرض بحذافيرها».

ويقول سعد بن خلف الأشعري القمي: «ان السبئية تقول – انا فنعلم انه لم يمت ولم يقتل ولا يموت، حتى يسوق العرب بسيفه وسوطه، كما قادهم بحجته وبرهانه،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وانه يلمع في الظلام كما يلمع السيف الصقيل الحسام»[٦].

قالت السبئية بأن علياً وابناءه آلهة وان روح القدس، وهي قديمة منذ الازل، كانت في النبي ومنه انتقلت، عند موته الى علي، فأصبح علي إلهاً، ثم اسرفوا في التأويل الباطني للقرآن. وقالوا ان علي هو ظاهر من باطن وهو الظاهر الباطن فروح القدس باطنة، وتجلى للناس لأن لا نطق معقول الاّ بظاهر معروف.

بعد مقتل امير المؤمنين الامام الأول علي بن أبي طالب عام ٤٠هـ، وتسلط الأمويين، الطلقاء، على الخلافة ونقلها الى دمشق، اضمحلت الفرقة السبئية، وقيل ان عبدالله بن سبأ رحل الى مصر حيث توفي وانقطعت اخباره.

قال المستشرق برنارد لويس: «ابتدأت الحركة الاسماعيلية بجماعة اسماعيل بن جعفر الصادق بمؤازرة فاعلة من اسماعيل وابنه محمد، وكان بين جماعة اسماعيل ومحمد، ومنظمي الفرقة الاوائل، ابو الخطاب وميمون القدّاح وعبدالله بن ميمون»[٧].

وبرزت الفرقة الخطابية، اصحاب محمد بن ابي زينب الاجدع الاسدي، وكنيته ابو اسماعيل ويلقب بمقلاص بن ابي الخطاب وهو من موالي بني اسد، وكان من المقربين للامامين محمد الباقر وجعفر الصادق، وظل احد أتباع جعفر الصادق حتى تبرأ منه لقوله بالوهته.

سنضع امام القراء اعمال وأفكار هذه الفرقة، وسنعتمد على اقوال المؤرخين المسلمين وبعض المستشرقين، فنكون بذلك اعتمدنا اقوال اصحاب المعرفة وعندهم الخبر اليقين، دون ان ننغمس في متاهات النزاع العقائدي السني والعلوي والمكر الفارسي الشعوبي، فما نطلبه هو معرفة الحقيقة كما حصلت وليس كما نريدها ان تكون، لأن لا قدرة او معرفة او خبرة او حق لنا في ذلك.

ويقول المؤرخ الحسن بن موسى النوبختي، وهو على مذهب الشيعة الاثني عشرية: «بدأ الخطّاب داعية لمحمد الباقر وجعفر الصادق، وغلا غلواً عظيماً، فزعم ان

---

(٦) كتاب المقالات والفرق، ص ٢١ .

(٧) كتاب اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرامطة، ص ٥٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جعفر الصادق قيّمه ووصيه من بعده. ثم ترقى الى ان ادعى النبوة واحتل المحارم، واباح الشهوات وقال بالتقية وهي تجوّز الكذب والشهادة الباطلة في صالح الدين»[٨].

ويقول المؤرخ عبد القاهر البغدادي «والخطابية كلها حلولية لدعواها حلول روح الله في جعفر الصادق، وبعده في الخطّاب الأسدي. فهذه الطائفة كافرة من هذه الجهة، ومن جهة دعواها ان الحسن والحسين واولادهما ابناء الله واحباؤه، ومن ادعى منهم في نفسه انه من ابناء الله، فهو اكفر من سائر الخطابية»[٩].

ويقول المؤرخ الانجليزي: «برنارد لويس» وهذا يلقي بعض الشك في علاقة ابي الخطّاب بالاسماعيلية. ويحسن بنا في هذا المقام ان نتساءل عما يمكن ان نجده من الاشارات في كتابات الاسماعيلية الى ابي الخطّاب والخطابية، ولكن في تساؤلنا هذا غير موفقين، اذ ان جميع الوثائق الاسماعيلية المنتشرة لدينا تقريباً ترجع الى عصر نجاح الدعوة وتأسيس دولتها عندما كان المدافعون عن هذه الفرقة معنيون بافكار العلاقة بين رجال ساءت سمعتهم، كابي الخطّاب، لا نعثر على اشارات صريحة بيّنة الاّ قليلاً مبعثرة هنا وهناك[١٠].

واما الفتح الشهرستاني فيقول: «ابو الخطّاب محمد بن زينب الأسدي الأجدع مولى بني اسد، هو الذي عزا نفسه الى ابي عبدالله جعفر بن محمد الصادق، رضي الله عنه، فلما وقف الصادق على غلوه الباطل في حقه، تبرأ منه ولعنه وأمر اصحابه بالبراءة منه، وشدد القول في ذلك وبالغ في التبري منه واللعن عليه». ثم يقول: «ان الأئمة انبياء ثم آلهة، وقال بالهية جعفر بن محمد الصادق والهية ابائه، رضي الله عنهم، وهم ابناء الله واحباؤه. والالهية نور في النبوة، والنبوة نور في الامامة ولا يخلو العالم من هذه الآثار والانوار. وزعم ان جعفر هو الإله في زمانه وليس هو المحسوس الذي يرونه، ولكن الى هذا العالم لبس تلك الصورة فرآه الناس فيها»[١١].

---

(٨) كتاب فرق الشيعة، ص ٥٧ . طبع في اسطنبول عام ١٩٣١ ميلادي.

(٩) كتاب الفرق بين الفرق، ص ٢٥٥ .

(١٠) كتاب اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية، ص ٧٤ .

(١١) كتاب الملل والنحل، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول عبد القادر بن طاهر البغدادي: «الخطابية، اتباع ابي الخطّاب، يقولون ان الامامة كانت في اولاد علي الى ان انتهت الى جعفر الصادق ويزعمون ان الأئمة كانوا آلهة. وكان ابو الخطّاب يزعم اولاً ان الأئمة انبياء، ثم زعم أنهم آلهة، وان أولاد الحسن والحسين كانوا ابناء الله واحبّاءه: وكان يقول ان جعفر إله. فلما بلغ ذلك جعفر لعنه وطرده. وكان ابو الخطّاب يدعي بعد ذلك الالهية لنفسه. وزعم أتباعه ان جعفراً اله، غير ان ابا الخطاب افضل منه وافضل من علي»[١٢].

ويقول المستشرق «برنارد لويس» وتعتبر هذه المقولة دفاعاً عن ابي الخطّاب. «فان لدينا مجموعتين من التصانيف حفظت لنا اسم ابي الخطّاب وعقائده وفيها اشارة وافية الى الدور الحاسم الذي اضطلع به. اولاهما «ام الكتاب» الشهير وهي عبارة عن كتاب سري مقدس عند الاسماعيليين في آسيا الوسطى يمثل، كما يشير العلاّمة الذي اشرف على طبعه، مرحلة قديمة جداً لتطور أفكار الشيعة الثورية. هذا الكتاب يجعل لابي الخطّاب مقاماً خطيراً في هذه الحركة ويقرنه بسلمان[١٣] في عظيم اهميته وعبارته في ذلك صريحة اذ يقول: «ان المذهب الاسماعيلي هو ما اوجدته ذرية ابي الخطّاب الذين نشروا انفسهم بحب احفاد جعفر الصادق واسماعيل. وثانيهما، كتابات النصيرية التي درسها «ماسنيون»[١٤] ومنها فقرات وعقائد شبيهة بتلك، وهي ايضاً تعتبر ابا الخطّاب مؤسس الفرقة وميمون القداح تابعاً له، وتعزو اليه اكثر العقائد التي يختص بها المذهب الاسماعيلي»[١٥].

ويتفق مؤرخو الشيعة الاثني عشرية وغالبية المصادر السنية في رواية تبرؤ الامام جعفر الصادق من ابي الخطّاب ويعتبرونه كافراً في تأليهه الامام جعفر الصادق وان خلافات خطيرة وقعت بينهما من حيث العقيدة وكانت من اسباب هذه التبرؤ.

ويقول المؤرخ ابو عامر محمد الكشي: «اجتمع بعض الخطّابين في الكوفة عام

---

(١٢) كتاب الفرق بين الفرق، ص ٢٤٧ .

(١٣) الصحابي سلمان الفارسي.

(١٤) ماسنيون، سلمان. مقالة عن النصيرية في دائرة المعارف الاسلامية.

(١٥) كتاب اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية، ص ٧٥ - ٧٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٣٨هـ بزعامة ابي الخطّاب، فبعث اليهم الخليفة المنصور[١٦] والي الكوفة عيسى بن موسى بجيش كثيف، فحاربهم وقتل منهم سبعين رجلاً في المسجد وقبض على ابي الخطاب وقتله وصلبه. ولما مات ابو الخطاب تحول أتباعه الى محمد بن اسماعيل، حفيد الامام جعفر الصادق، واعلنوا ولاءهم له، وكانت الفرقة الاسماعيلية هي الخطابية نفسها[١٧].

ويقول سعد بن عبدالله القمي ان من اقوال الخطابية: «ان المؤمن العارف منهم أُلبس سبعة ابدان، بمنزلة سبعة اقمصة تكون للانسان. فمتى تعرّى من قميص فيقمّص آخر. وزعموا ان الايمان سبع درجات: فيكشف الغطاء حتى تراه بالنورانية. وان المؤمن يلبس في كل دور قميصاً، وهو قالب غير القالب الأول. والدور عشرة آلاف سنة. وهي سبعة ادوار. والسبعة اذا دارهو كور. والكور سبعون الف سنة. ففي سبعين الف يصير عارفاً، فيكشف له الغطاء، ويرفع عنه التلبيس، فيدرك الله الذي هو محمد بذاته، بالنورانية لا بالبشرية اللحمّانية»[١٨].

هذا المعتقد اوردته الاسماعيلية في كتبهم، كما تشير اليه المندائية (الصابئة) في كتبها، والصابئة تعتمد الفكر الهرمسي في فلسفتها.

اما البزيغية، وهي فرع من الخطابية، نسبة الى بزيغ بن موسى قالوا: «ان جعفر بن محمد هو الله، وانه ليس بالذي يرون، وانه تشبه للناس بهذه الصورة، وزعموا ان كل ما يحدث في قلوبهم وحي، وان كل مؤمن يوحى اليه، وتأوّلوا في ذلك قول الله تعالى: «وما كان لنفسٍ ان تموت الاّ بأذن الله»[١٩].

وتقول الخطابية، «ان الله يتراءى لمن شاء، فيما شاء وكيف شاء ولا يتراءى لهم الاّ مثل ما يعرفونه، فيريهم في مرأى العين نفسه إنساناً وليس هو بانسان على ما ما اراه نفسه به».

---

(١٦) الخليفة العباسي المنصور ابو جعفر عبدالله بن محمد بن السفاح ابو العباس عبدالله بن محمد، خلافة المنصور من ١٣٦ الى ١٥٨هـ.

(١٧) كتاب الفرق بين الفرق، ص ٥٧ .

(١٨) كتاب المقالات والفرق، ص ٥٦ .

(١٩) سورة آل عمران، آية ١٤٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقالت الخطابية بالتناسخ وزعموا ان أرواح من يرفض امرهم تجري في الانسان وغير الانسان من دواب وجماد وفي كل رطب ويابس. اما المؤمن فتنتقل روحه في ادوار حتى تصل الى النورانية، اي معرفة الحق.

هذه هي اسطورة ابي الخطّاب محمد بن ابي زينب من موالي بني اسد، الذي نادى بالوهية الامام جعفر الصادق ودفع حياته ثمناً لها. تتهمه الشيعة الأثنا عشرية ومؤرخو السنّة بالالحاد والكفر، وتقول عنه الاسماعيلية في كتابهم، السري والمقدس، انه كان من اركان الحركة الاسماعيلية وأحد مؤسسيها(٢٠).

اما اسطورة ميمون القداح وولده عبدالله والنسب الفاطمي، فقد اخذت جدلاً كبيراً وجاداً بين المؤرخين المسلمين وحتى المستشرقين، لان الادعاء ان النسب الفاطمي يعود الى ميمون القداح يشكل خللاً اساسياً وطعنة قاضية في امامة الفاطميين اذ يلغيها ويبطل قدسيتها لأن اسرة القدّاح ليست من آل البيت والامامة لا تصح الاّ في اولاد واحفاد الامام علي بن ابي طالب وزوجته فاطمة الزهراء ابنة الرسول الكريم، وهم آل البيت.

ويقول المؤرخ الاسماعيلي، الدكتور عارف تامر: «انها قضية يتمثل فيها الظلم والتجني والاستهتار، اعتمدها بعض المؤرخين واتخذوا منها منطلقاً للطعن بأئمة الاسماعيلية والقول انهم من الفرس واحياناً من اليهود»(٢١).

اما اهمية نسب الفاطميين فتقرره الامامة الشيعية، اذ لا بد ان يكون الامام من آل البيت وينص عليه من الأب الى الابن، وهذا حق مقدس لهم وبدون هذه الصفة يغدو الامام غاصباً وغير شرعي.

ولذلك انقسم المؤرخون الى فئتين، فئة تؤيد الفاطميين في دعواهم ان نسبهم يرجع الى الامام علي بن ابي طالب وزوجته فاطمة بنت الرسول، وفئة ترى انهم

---

(٢٠) كتاب فرق الشيعة، ص ٥٧ .

(٢١) كتاب تاريخ الاسماعيلية، مجلد ١، ص ٢٦٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ادعياء لا يمتون بصلة الى الامام علي وعقبه، بل يرجع نسبهم الى ميمون القدّاح وولده عبدالله وهم من الكفرة الديصانين[٢٢].

واقدم رواية عن نسب الفاطميين الى عبدالله بن ميمون القداح، وردت في كتاب عبدالله محمد بن علي بن رزّام التي نقلها ابن النديم في كتاب «الفهرست» ويقول: «ان عبدالله بن ميمون القداح ولد في «قوزح عباس» بالقرب من مدينة الاهواز وابوه ميمون، الذي تنسب اليه الفرقة الميمونية التي اظهرت اتباع ابي الخطاب الذي دعا الى ألهيّة علي بن ابي طالب. وكان ميمون وابنه ديصانيين.

ثم يقول علي بن رزّام: «ان عبدالله بن ميمون نزل عسكر مكرم ثم هرب منها الى البصرة، فنزل على قوم من اولاد عقيل بن ابي طالب ثم سار الى سلمية بقرب حمص واشترى ضياعاً وبث الدعاة الى سواد الكوفة[٢٣]، فاجابه في هذا الموضع، رجل يعرف بحمدان بن الأشعث ويلقب بقرمط الذي نصب لدعوته عبدان صاحب الكتب المصنفة، وفرّق عبدان الدعاة في سواد الكوفة، وذلك عام احدى وستين ومائتين».

ويتابع علي بن رزّام روايته: «ولما مات عبدالله خلفه ابنه محمد بن عبدالله، ثم مات محمد فخلفه ابنه الملقب بأبي الشلعلع، ويقال ان الذي خلفه أخوه احمد بن عبدالله. ثم قام بالدعوة بعد ذلك سعيد بن الحسين بن عبدالله بن ميمون، ولم يزل عبدالله ووالده يدعيان انهما من ولد عقيل، وكانا قد احكما النسب بالبصرة. فمن ولد عبدالله انتشرت الدعوة في الأرض، وقدم الدعاة الى الري وطبرستان وخراسان واليمن والاحساء والقطيف والقدس. ثم خرج سعيد الى مصر فادعى انه علوي

---

(٢٢) الديصانية مذهب فارسي مثنوي مشتق من الزرادشتيه يقولون ان العالم مصنوع من اصلين، النور والظلام وانهما اصل قديم، النور يفعل الخير والظلام يفعل الشر.

(٢٣) كان في سواد الكوفة بطن من ربيعة يقال لهم بنو تيم الله بن ثعلبة بن عكابة، اعتنقوا القرمطية ثم قدموا بلاد الشام فنزلوا في وادٍ سمّي على اثرهم «وادي التيم».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فاطمي ثم سار الى المغرب واظهر غلاماً حدثاً وزعم انه من ولد محمد بن اسماعيل وهو القائم بالامر بعد عبيدالله»[٢٤].

ويؤيد هذه الرواية، الشريف ابو حسين محمد بن علي العلوي، المعروف باسم «اخو محسن»، الذي توفي عام ٣٧٥هـ، في كتاب لم يصلنا ولكن كتب منه فقرات المؤرخ المصري النويري (توفي عام ٧٣٢هـ) والمقريزي ايضاً، الذي قال: «ان ما كتبه «اخو محسن» ومحمد بن علي بن رزّام بعيد عن الواقع ومناف للحقيقة التاريخية ولا يعتمد على صدقها، وخصوصاً ان ولاء «اخو محسن» كان للعباسيين رغم انه علوي.

ويقول المؤرخ احمد بن علي المقريزي: «كان ميمون القدّاح ابن رجل مثنوي يدعى «ديصان» وكان يعتقد بمبادئ غالية وقد سميت الفرقة «الميمونية» باسمه، وكان من اتباع ابي الخطّاب، وكان هو وابنه ديصانيين، وكان ابنه عبدالله شراً منه، واسع الاطلاع في جميع الأديان والمذاهب قوي المكر والاحتيال»[٢٥].

ويقول المؤرخ ابو منصور عبد القاهر البغدادي: «ان عبدالله بن ميمون ديصان، المعروف بالقدّاح، كان مولى لجعفر بن محمد الصادق وكان من الاهواز ومن أصحابه دندان[٢٦] لقيه في سجن العراق فأسسا مذهب الباطنية ونشراه بعد خلاصهما من السجن. رحل عبدالله الى المغرب وانتسب الى عقيل بن ابي طالب، ثم ادعى انه من سلالة محمد بن اسماعيل، وكان سعيد[٢٧] وهو اول الخلفاء الفاطميين من ذريته»[٢٨].

ويقول عبد الكريم بن محمد السمعاني: «ان عبد الله كان في معية محمد

---

(٢٤) كتاب الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطمية. محمد عبدالله عنان ص ٤٨ و ٤٩ مع بعض الاختصار وحذف بعض الفقرات غير المهمّة.

(٢٥) كتاب المقفى، ص ١١٧ .

(٢٦) دندان رجل فارسي ثري وعالم في امور الدين اسمه محمد بن الحسين، يقال انه كان فارسياً يكره العرب. ساعد كثيرا بماله وعلمه حمدان بن الأشعث القرمطي.

(٢٧) سعيد هو الامام عبيدالله المهدي، اول خليفة فاطمي.

(٢٨) كتاب مختصر الفرق بين الفرق، ص ١٧٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وخدم اباه اسماعيل. ولما توفي اسماعيل ادعى انه ابنه، بيد انه كان في الحقيقة ابن ميمون القدّاح[٢٩].

ويصف الشاعر ابو العلاء المعري، عبدالله بن ميمون القدّاح بأنه باهلي وانه كان من علية اصحاب جعفر الصادق ثم ارتد عنه فيما بعد، والشيعة، رغم ذلك، يحترمونه محدثاً ويروون عنه الحديث قبل ارتداده»[٣٠].

ثم كان محضر بغداد الذي صدر عام ٤٠٢ هـ في عهد الخليفة الفاطمي ابو منصور الحاكم بأمر الله، ووقعه من اشراف العلويين الشريف الرضي وأخيه الشريف مرتضى، ومن علماء وفقهاء الشيعة، القاضي ابي بكر الباقلاني، وابي حامد الاسفراييني، وابي الحسين القدوري، والابيوردي وغيرهم، يتضمن الطعن في نسب الفاطميين وشهادة بأنهم من سلالة ديصان بن سعيد القداح وانهم ليسوا من آل البيت وانهم كفّار، زنادقة وفسّاق ملاحدة. ثم في عام ٤٤٤ هـ صدر محضر ثانٍ يتضمن الاتهام والذم نفسهما، وزيد فيه ان الفاطميين يرجعون الى اصل يهودي.

هذه مقطفات مختصرة وقليلة ممّا روته كتب المؤرخين السنة، ومعظمهم من العراق يدينون بالولاء للعباسيين ويكرهون الشيعة، وخصوصاً الفاطمية الاسماعيلية، ويبدو واضحاً من اقوالهم التجني السافر على الفاطميين، وذلك من حسدهم واستيائهم من نجاح الفاطميين في تشييد دولة شيعية مزدهرة في مصر.

ولكن مصادر الكتب التاريخية الشيعية، وخصوصاً الاسماعيلية، تجمع على ان عبدالله بن ميمون القدّاح كان محدثاً وعالماً في علوم الدين وكان معاصراً ومستشاراً للامام جعفر الصادق ومن اصحابه.

ويقول المؤرخ الاسماعيلي احمد بن مرتضى في كتاب «فلك الدوار»: «كان ميمون وابنه شيعيين محترمين من اصحاب جعفر الصادق، واتصل ميمون، في زمن ما، بالشيعة الغلاة، اتباع ابي الخطّاب واسماعيل بن جعفر ولعب دوراً هاماً في

---

(٢٩) كتاب الانسان، ص ٤٤٢ .

(٣٠) رسالة الغفران، ص ١٥٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تكوين عقائد الفرقة وتنظيم دعايتها. ولمّا مات ابو الخطاب وتزعم الأمر وأصبح قيماً على محمد بن اسماعيل ومؤدبه، فلقنه مذهب الباطن. وقد نشأ ابنه عبدالله كما نشأ محمد فخلف اباه في الدعوة الى الامام»[٣١].

ومن الغريب في قضية نسبة الأئمة الاسماعيلية ما قاله المفكر الفرنسي سلفستر دي ساسي[٣٢] في كتابه «دين الدروز» ان الموحدين الدروز يعتبرون ائمة الستر الاسماعيليين من نسل ميمون القداح. ائمة الستر الاسماعيليين هم:

الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق - توفي عام ١٩٣هـ.

الامام عبدالله بن محمد بن اسماعيل (وفيّ احمد) - توفي عام ٢١٢هـ.

الامام احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل (تقي محمد) - توفي عام ٢٢٥هـ.

الامام الحسين بن احمد بن عبدالله الملقب بالاهوازي - توفي عام ٢٨٩هـ.

الامام محمد عبيدالله المهدي، الخليفة الفاطمي الاول مؤسس الدولة الفاطمية. توفي في مدينة المهدية عام ٣٢٢هـ.

ثم يقول سلفستر دي ساسي: «في كتب الدروز كان محمد بن اسماعيل

---

(٣١) كتاب اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية، ص ١١٦ .

(٣٢) المفكر الفرنسي سلفستر دي ساسي كان عميد كلية الدراسات الشرقية في جامعة «السوربون» في باريس ورئيس الجمعية Société Asiatique عام ١٨٢٢ . كتب كتاب Exposé de la Religion des Druzes وهو كتاب ضخم مؤلف من مجلدين الذي نشر في باريس عام ١٨٣٨ وترجم الى اللغة الالمانية في Leipzig عام ١٨٤٠ ويعتبر هذا الكتاب مرجعاً عن المذهب الدرزي. لم يترجم هذا الكتاب الى اللغة العربية او الانجليزية فكان انتشاره في البلاد محدوداً، الآن اصبح نادر الوجود. المخطوطة الأصلية لهذا الكتاب موجودة في مكتبة Leiden . ثمّ المستشرق الالماني Dr. Christian Seybold الذي كان استاذ اللغات الشرقية في جامعة «توبنغن» كتب كتاب Drusenschrift عن المذهب الدرزي ثم ترجم كتاب الشيخ زين الدين عبد الغفّار تقي الدين «النقط والدوائر» الى اللغة الالمانية. ثم المستشرق الافرنسي «هنري غيز» ترجم في عام ١٨٦٢ كتاب «مختصر البيان في مجرى الزمان» للشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين وكان يباع في المكتبات في باريس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الناطق السابع، وكان ميمون القدّاح (ويدعى تأويلي) اساسه، وقد ذكر فيه، ان عبدالله هو ابن ميمون القدّاح وان ميمون هو جد سعيد، عبيدالله المهدي[٣٣].

بالاضافة للمفكر الفرنسي سلفستر دي ساسي يؤكد خبر نسب الأئمة الاسماعيلية في كتب الموحدين الدروز، المستشرق الانجليزي المعاصر «برنارد لويس» اذ يقول: «وتذكر الكتابات الدرزية سبعة أئمة من اسماعيل الى عبيدالله المهدي، وتصف بعضهم بأنهم من ولد ميمون القدّاح(*). ومن هذا يبدو ان القائمة قد شملت الأئمة المستقرين - وهم الأئمة العلويون الدائمون - والأئمة القداحين او الحفاظين - وتبين الكتابات الدرزية بجلاء ان المهدي نفسه من الجماعة الثانية»[٣٤].

ان ارجاع نسب الأئمة المستترين الاسماعيلين الى ميمون القداح يثير التعجب والتساؤلات لأن الموحدين الدروز كانوا يعتبرون الخليفة الحاكم بأمر الله حاميهم وملاذهم الوحيد من تعدي واضطهاد غلاة الاسماعيلية، خصوصاً، ست الملك شقيقة الحاكم بأمر الله،[٣٥] وداعي الدعاة ختكين الضيف[٣٦] واحمد حميد الدين الكرماني[٣٧] الذين كانوا يكرهون الامام حمزة بن علي وكانوا المحرضين على اضطهاد وقتل الموحدين الدروز خلال محنة عام ٤١١هـ.

لا شك ان الموحدين الدروز كانوا يعلمون ان ارجاع نسب الأئمة الاسماعيلية المستورين الى نسل ميمون القدّاح يشكل تحقيراً واهانة للحاكم بأمر الله وتلغي امامته التي تصبح غير شرعية ومغتصبة. ثم كانوا على علم، كغيرهم من الناس، ان الحاكم غضب غضباً شديداً عند صدور السجل العباسي عام ٤٠٢هـ اذ اراد العباسيون

---

(٣٣) كتاب دين الدروز، ص ٤٨ مجلد ١ .

(*) الشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين يؤكد في كتابه «مختصر البيان في مجرى الزمان» ان الأئمة الاسماعيلية بما فيهم ائمة الستر هم من سلالة الامام علي بن ابي طالب.

(٣٤) كتاب اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية، ص ٩٧ .

(٣٥) كانت من غلاة الاسماعيلية وقيل انها تآمرت لقتل الحاكم بأمر الله.

(٣٦) هو الذي جلب، حسب طلب ستّ الملك، احمد محمد الدين الكرماني ليساعده على محاربة اصحاب البدع.

(٣٧) هو صاحب الرسالة الواعظة الذي يؤنّب ويهدد بها حسن الفرغاني (الاخرم) لقوله بتأليه الحاكم بأمر الله.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحقيره وابطال امامته بارجاع نسبه الى ميمون القداح الديصاني ونفي صلته بآل البيت.

المعروف ان الامام حمزة بن علي كان عالماً كبيراً يزن الأمور بذكاء وحكمة، خبير بالتاريخ الاسماعيلي، حذراً في اقواله وافعاله(*) ويعرف من دون شك، ان اثارة غضب الحاكم يعني القضاء على دعوة التوحيد وعلى الموحدين، فالحاكم بأمر الله، عُرف بقسوته في طلب الحق والذود عن كرامته وحكمه.

الواضح ان هذه المقولة عن نسب الأئمة المستورين الى ميمون القداح كانت من دسائس نشتكين الدرزي او احد اتباعه لاثارة غضب الحاكم بامر الله على الامام حمزة والموحدين للقضاء على الدعوة التوحيدية.

ومما يلفت النظر، ان قضية نسب الأئمة المستورين الاسماعيليين الى ميمون القدّاح اثارها الحقد العباسي، بعد مضي ثلاثمائة سنة على علاقة ميمون القدّاح وابنه عبدالله بالاسماعيلية التي حدثت في زمن الامام جعفر الصادق في القرن الثاني من الهجرة(٣٨)، كما ان المؤرخين المسلمين، الاّ قلة من أهل السنة، لم تشر الى هذا الموضوع المهم في تاريخ الاسلام، حتى اثاره العباسيون عام ٤٠٢هـ. ثم إنّ سكوت الحاكم بأمر الله عن هذا التجني في عقر داره يعني عدم حدوثه بل دسّ على الكتب الدرزية في وقت لاحق.

ويقول المستشرق الروسي فلاديمير ايفانوف(٣٩) الذي يعتبر أكثر المؤرخين خبرة في التاريخ والعقائد اذ قضى معظم حياته مع الاسماعيلية البهرة في الهند واطلع على

(*) في مقدمة كتاب اضواء على مسلك التوحيد، سامي مكارم، صفحة ٥٠ يقول المفكّر كمال جنبلاط عن الامام حمزه بن علي: «بدون ريب سيد من اسياد المسلك الحكمي التالد والطريف ومن اغزر واخطر الشخصيات الفكرية والتنظيمية القيادية والروحية».

(٣٨) ولد الامام جعفر الصادق في المدينة عام ٨٠هـ وتوفي فيها عام ١٤٨هـ.

(٣٩) المؤرخ الروسي فلاديمير اللسيفيتش ايفانوف (١٨٨٦ - ١٩٧٠) كان ملماً باللغة العربية والفارسية. درس التاريخ في جامعة سان بيترسبورغ وقضى معظم حياته في الهند يدرس المخطوطات والكتب الاسماعيلية السرية، له العديد من المؤلفات تعتبر مراجع اساسية في المذهب الاسماعيلي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتبهم السرية التي كانت ممنوعة عن غير علماء الاسماعيلية. «ان ميمون القدّاح وولده عبدالله لم يكونا من اصل الفاطميين، ولم تجمع بينهما أية صلة او قربى، لا من بعيد ولا من قريب. وانهما لم يكونا ديصانيين او زنديقيين، بل بالعكس، فقيهين، ورعين، وان الدعوة السرية التي نسبت اليهما لم تكن الا من نسج الخيال»(٤٠).

ويقول المؤرخ الاسماعيلي مصطفى غالب عن ميمون القدّاح: «ان الامام جعفر الصادق جعله حجاباً وسرّاً على حفيده محمد بن اسماعيل اول الأئمة المستورين. وتذكر المصادر الاسماعيلية انه يرجع في نسبه الى سلمان الفارسي ويعرف لديهم بميمون بن غيلان بن بيدر بن مهران بن سلمان الفارسي»(٤١).

والمؤرخ المصري المعاصر محمد عبدالله عنان ينهي هذا الجدل التاريخي بقوله: «فإنّا لا نود ان نذهب في تقدير نسب الخلفاء الفاطميين الى هذا الحد في الاغراق، فان النسب مسألة تشريف ليس غير، وليس له كبير دخل في نشأة الدول العظيمة، وسواء كان الخلفاء الفاطميون حقاً من نسل اسماعيل بن جعفر الصادق، ومن ثم من نسل علي بن ابي طالب، او كانت نسبتهم ترجع الى عبدالله بن ميمون القدّاح، فان ذلك لا ينتقص ذرة من عظمتهم ومجد دولتهم، فقد انشأ الفاطميون بمصر دولة من اعظم الدول الاسلامية، وحضارة من أزهى الحضارات، وانشأوا القاهرة أعظم مدائن الاسلام في المشرق والمغرب، وجامعها الأزهر أعظم الجامعات الاسلامية واينعها غرساً، ولا يمكن ان ينتقص من هذه الحقائق التاريخية العظيمة، ان تكون نسبتهم موضعاً للجدل والريب»(٤٢).

---

(٤٠) كتاب نشوء الدعوة الفاطمية، ص ١٢٨ .

(٤١) كتاب تاريخ الدعوة الاسماعيلية، ص ١٣٩ .

(٤٢) كتاب الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطمية، ص ٧٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العودة الاسماعيلية الى العمل السياسي

كما قلنا سابقاً، انتهى الدور السياسي الاسماعيلي ابتداء من خلافة الخليفة الفاطمي الأول، عبيد الله المهدي عام ٢٩٦هـ، وانحصر نشاطها كدعوة دينية ومدرسة فكرية اجتماعية. وبقيت خارج المسرح السياسي حتى وفاة الخليفة الفاطمي الثامن ابو تميم المستنصر بالله عام ٤٨٧هـ، حين اصبح الحكم بيد الوزراء الذين اصبحوا الأسياد الحقيقيين وصار الخليفة دمية بيدهم، له الامامة والقرار الديني، والوزراء، الذين لقّبوا، بوزراء التفويض، من وزراء التمثيل، لهم السلطات الكاملة والقرار السياسي.

خلال عهد الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧هـ) اصاب مصر القحط، لانحباس الأمطار وانخفاض ماء نهر النيل، لمدة سبع سنوات اي من سنة ٤٥٧هـ الى سنة ٤٦٤هـ، حدثت مجاعة واصبحت الناس في حالة كبيرة من البؤس. ثم انفجرت حرب علنية، اطلق عليها اسم الفتنة الكبرى، بين جنود الأتراك، يعاونهم المغاربة، والقوات السودانية عام ٤٥٤هـ، وتمت هزيمة السودانيين على يد الجنود الأتراك بقيادة نصير الدولة، الذي ترك المجال لجنوده بالنهب والتعدي على الناس، فانهار القانون وعمت الفوضى.

وفي عام ٤٦٦هـ. استنجد الخليفة المستنصر بالله بالقائد الأرمني بدر الجمالي[1] الذي كان مع جيشه في دمشق. وصل بدر الجمالي القاهرة في شهر جمادى الأولى عام ٤٦٦هـ. مع قواته الأرمنية، فأعاد النظام والهدوء في البلاد ونحّى جميع القواد الأتراك عن مناصبهم حتى انه قتل بعضهم.

---

(١) بدر الجمالي ارمني الاصل كان مولى للأمير جمال الدولة بن عمّار. عيّن اميراً على دمشق مرتين عام ٤٥٥هـ وعام ٤٥٨هـ. ثم لما ثار عليه اهل دمشق نقل الى عكا. اعتنق الاسلام في سبيل النفوذ والمناصب. توفي في القاهرة عام ٤٨٧هـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلم الخليفة المستنصر بالله الى بدر الجمالي جميع السلطات من أمير الجيوش الى قاضي القضاة، كما استلم جميع المناصب الادارية والعسكرية حتى صار المرجع الأول بعد الخليفة بيده السلطة الكاملة.

تزوج الخليفة المستنصر بالله ابنة القائد الأرمني بدر الجمالي التي ولدت له غلاماً دعي احمد، وتولى الاشراف على تربيته خاله أبو القاسم الجمالي الذي تلقب «بالافضل» والذي، بعد وفاة ابيه القائد بدر الجمالي، اصبح قائد الجيوش ووزير الدولة وسيطر على جميع الأعمال الادارية والسياسية.

يعتبر الاسماعليون ان عهد الخليفة المستنصر بالله كان بداية النهاية للحكم الفاطمي الشرعي، لأن بعد وفاته استلم الخلافة ابنه احمد المستعلي غصباً بدون نص شرعي بل بطريقة التزوير والاغتصاب.

تقول الاسماعيلية ان المستنصر بالله، قبل وفاته، نص بالخلافة على ابنه المصطفى بالله نزار، وهو ابنه الأكبر من زوجته الاولى، اما المستعلي احمد فكان ابن ابنة القائد بدر الجمالي التي تزوجها المستنصر بالله بعد ان تقدم بالسن، والمستعلي يصغر أخاه نزار بسنين كثيرة، وكذلك يكبره سناً اخوته محمد وعبدالله وجعفر وداود.

عند وفاة الخليفة المستنصر بالله ابرز «الأفضل»، خال المستعلي، وكان رئيس الوزراء وقائد الجيوش، سجلاً ينص على الخلافة «للمستعلي». رفض الامام نزار هذا الادعاء وأذاع سجلاً على الناس اتهم فيه «الافضل» بالتزوير والاعتداء على التقاليد المقدسة الاسماعيلية الشيعية.

خوفاً على حياته من «الافضل» ترك الامام نزار القاهرة وذهب الى الاسكندرية، مع اخوته وعدد من اتباعه، حيث بايعه حاكمها نصير الدولة افتكين والقاضي الاسماعيلي جلال الدين بن عمّار الكتامي، واعلن لقبه الخليفة نزار المصطفى لدين الله.

هاجم «الافضل» مع جيش كبير الاسكندرية للقبض على الامام نزار وأتباعه، ولكن الامام نزار تمكن من هزيمته وتبعه حتى ضواحي القاهرة ولكن في نهاية عام ٤٨٨هـ تمكن «الافضل» من حصار الاسكندرية واعتقال الامام نزار واخوته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واقتيادهم الى القاهرة حيث سجنهم ثم قتلهم.

ترك هذا الصراع اثراً حاسماً في تاريخ الاسماعيلية اذ عادت الى الظهور، بعد غيبة ١٨١ سنة عن الحقل السياسي، كحركة سياسية حين انشقت الى فريقين متنافسين، بل الى عدوين لدودين؛ اذ اعترف معظم اسماعيلية مصر وبلاد الشام واليمن بامامة ابن المستنصر بالله ابي القاسم احمد الملقب بالمستعلي واعلنوا انه الامام التاسع عشر، اما اسماعيلية فارس فقد رفضوا امامة المستعلي وايدوا في دفاعهم عن النص الأصلي للخليفة المستنصر بالله، حق نزار بالامامة والخلافة.

لا بد من الاشارة الى ان الأحداث السياسية التي جرت في عهد الخليفة الظاهر لاعزاز الله وبعده (٤١١ - ٤٢٧هـ) لا علاقة لها او تأثير على دعوة التوحيد الدرزية التي كانت انتقلت في ذلك الوقت الى بلاد الشام، ولكن هذا الفصل في الدراسة، هو تكملة لتاريخ الاسماعيلية وسرد للحوادث التي وقعت حتى نهاية الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين الايوبي.

١ - الخليفة المستعلي بالله (٤٨٧ - ٤٩٥هـ)

يقول ابن القلانسي[٢]: «وفيها وردت، اي سنة ٤٩٥هـ، الاخبار من ناحية مصر بوفاة المستعلي بالله امير المؤمنين صاحب مصر، في صفر منها، وعمره سبع وعشرون سنة، ومولده سنة ثمان وستين واربعماية وكانت مدة ايامه سبع سنين وشهرين ونقش خاتمه «الامام المستعلي بالله امير المؤمنين». وكان حسن الطريقة، جميل السيرة في كافة الاجناد والعسكرية وسائر الرعية، لازماً قصره، كعادة المستنصر بالله، منكفياً بالله «بالافضل» سيف الاسلام ابن امير الجيوش، فيما يريده بأصالة رأيه وصواب تقديره وامضائه»[٣].

كان اسم الخليفة المستعلي، ابو القاسم احمد بن المستنصر، وكان دمية في

---

(٢) يقول عنه ابو القاسم علي بن الحق بن عبدالله الشافعي، الملقب بابن عساكر، هو حمزة بن اسد ابن علي ابو يعلى التميمي المعروف بابن القلانسي. كان اديبا له خط حسن ونثر ونظم وصنف تاريخاً للحوادث بعد سنة اربعين واربعماية الى حين وفاته، تولى رئاسة ديوان دمشق مرتين.

(٣) كتاب تاريخ دمشق، ص ٢٢٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يد خاله امير الجيوش ورئيس الوزارة «الافضل» خلال فترة حكمه القصيرة. وكان الخليفة المستعلي على علاقة جيدة مع اروى الصيليحي الملقبة بحجة اليمن. وكانت القائمة بأمر اليمن التي بايعته بالامامة. وكان الداعي في اليمن انذاك يحيى بن لمك.

توفي الخليفة أبو القاسم المستعلي في عام ٤٩٥هـ ودفن في القاهرة.

٢ – الخليفة الآمر بامر الله ابو علي المنصور ابن المستعلي بالله (٤٩٥ – ٥٢٥هـ)

كان الخليفة الآمر بالله كريماً، كثير العطاء، حتى الاسراف، وعالماً يروي تاريخ العرب واديباً وشاعراً.

اخذ، للآمر بامر الله البيعة، امير الجيوش القائد أبو القاسم «الافضل» واجلسه في منصب ابيه، ابن اخت «الافضل»، فكان كأبيه الخليفة المستعلي دمية في يد «الافضل» مات اغتيالاً في الثاني من شهر ذي القعدة عام ٥٢٤هـ وعمره أربع وثلاثون سنة وقيل ان الذين اغتالوه كانوا من الفدائيين النزاريين المعروفين بلقب الحشاشين.

وكانت زوجته عند وفاته حاملاً، فولدت طفلاً سمّوه «الطيب»، ويقال ان الوصي عليه، الامير عبد المجيد الحافظ، ابن عم الخليفة الآمر بامر الله، تمكن من تدبير أمر اخفاء وجود الطفل «الطيب» ولم يعرف عن مصيره بعد ذلك شيئاً. ولكن الفرقة المستعلية التي انشقت منها الفرقة الطيبية، تقول، ان الطيب دخل كهف السّتر على ان يعود للظهور عندما يحين الوقت.

ولا بد من الاشارة الى حادثة جرت في عهد الآمر باحكام الله اي عام ٥١٦هـ اذ اجتمع في القاهرة علماء واعيان من الاسماعيلين لتثبيت حقوق الخليفة المستعلي بالله بالامامة. وكان موجوداً في الاجتماع ولي الدولة ابن بركات بن عبد الحقيق داعي الدعاة، وأبو محمد بن آدم رئيس دار الحكمة، وأبو الثريا مختار احد كبار الفقهاء وأبو عقيل قاضي القضاة. جرى في هذا الاجتماع عرض الظروف التي بموجبها نص الخليفة المستنصر بالامامة على المستعلي وعبّر عن تفضيله المستعلي على ابنه نزار. عندها شهدت شقيقة نزار بأن والدها المستنصر نص، وهو على فراش الموت، على المستعلي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتب سجلاً بذلك وقرىء على منابر المساجد والجوامع في مصر وسمي هذا السجل «الهداية الآمرية»[٤].

٣ – الخليفة عبد المجيد الحافظ لدين الله، الامير العسقلاني وكنيته ابو الميمون (٢٢٥ – ٥٤٤هـ)

يقول ابن القلانسي: «وقام بعده (اي الآمر بأحكام الله) ابن عمه ابو الميمون عبد المجيد ابن الامير ابي القاسم بن الامام المستنصر بالله امير المؤمنين، واخذت له البيعة ونُعت بالحافظ لدين الله، أمير المؤمنين، فاستقام له الأمر واستتب برأيه التدبير وقلّد الأمر أبا علي، احمد بن الأفضل أمير الجيوش، وزارة الدولة وتدبير المملكة، فساس الكافة اعدل سياسة، ودبر الأعمال اجمل تدبير وجرى على منهاج ابيه «الافضل»[٥].

حكم عبد المجيد الحافظ في بداية الأمر ولياً للعهد، ولكن في ربيع الثاني عام ٥٢٦هـ، بعد خروجه من السجن حيث سجنه أمير الجيوش الأفضل ابن بدر الجمالي، بايع لنفسه بالامامة والخلافة. تسببت بيعته لنفسه بالخلافة انشقاقاً هاماً في المستعلية لأنه لم ينحدر من أمام سابق مباشرة ولم ينص عليه حسب التقاليد الشيعية التي تعتبر مقدسة.

بايع عبد المجيد الحافظ المستعلية الموجودون في مصر وديار الشام، فأصبحوا يعرفون بالفرقة الحافظية. اما مستعلية اليمن والهند فقد رفضت امامته ونادوا بأمامة «الطيب» الطفل المفقود الذي يعتبرونه اماماً مستتراً، فعرفوا «بالطيبية» فانقسمت المستعلية الى فرقتين، حافظية وطيبية.

مات الخليفة عبد المجيد الحافظ في شهر جمادى الآخرة عام ٥٤٤ هجري ودفن في القاهرة.

٤ – الخليفة الظافر بأمر الله واسمه ابو منصور اسماعيل (٥٤٤ – ٥٤٩هـ) ابن الخليفة عبد المجيد الحافظ، ولد في شهر ربيع الأول عام ٥٢٧هـ وقتله الوزير ابن

(٤) كتاب المرشد، فلاديمير اليانوف ص ٥٠، والرسالة الهداية الآمرية، مقدمة فيضي ص ١٦ .
(٥) كتاب تاريخ دمشق، ص ٣٦٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السلار في آخر شهر محرم عام ٥٤٠هـ. ووضع على العرش ابن الخليفة عيسى وكان له من العمر خمس سنوات.

٥ – الخليفة الفائز بنصر الله ولقبه ابو القاسم (٥٤٥ – ٥٥٥هـ) وهو عيسى ابن الخليفة الظافر بأمر الله وبويع بعد مقتل والده على يد الوزير ابن السلار.

توفي الخليفة الفايز في شهر رجب عام ٥٥٥هـ من مرض الصرع وكان عمره احدى عشرة سنة.

٦ – الخليفة العاضد لدين الله (٥٥٥ – ٥٦٧هـ) هو ابن محمد عبدالله بن يوسف حفيد الخليفة عبد المجيد الحافظ وابن عم الخليفة الفايز لنصر الله.

بويع الخليفة العاضد لدين الله وعمره تسع سنوات وكان آخر الخلفاء الفاطميين اذ بعده استولى صلاح بن يوسف الأيوبي على مصر وأعاد الخطبة الى الخليفة العباسي المستضيء، فانتهت بذلك الخلافة الفاطمية التي لعبت دوراً هاما وقدمت الكثير الى الأمة الاسلامية.

استلم الوزارة السلطان صلاح الدين بن يوسف الأيوبي عام ٥٦٤هـ، بعد وفاة عمه «اسد الدين شاركوه» ووضع حداً نهائيا وبشكل رسمي في شهر محرم عام ٥٦٧هـ حين، كما قلنا سابقاً، جعل الخطبة تقرأ باسم الخليفة العباسي.

وفي العام نفسه أي ٥٦٧هـ توفي الخليفة العاضد لدين الله وكان في الحادية والعشرين من العمر فانتهت بذلك الخلافة الفاطمية التي تأسست عام ٢٩٧هـ وأعطت أعظم نجاح ديني، سياسياً وثقافياً للمذهب الشيعي. عاشت هذه الخلافة ٢٦٢ سنة.

بالنسبة للأحداث الخطيرة التي جرت وما خلفته من تطورات جذرية على الدعوة الاسماعيلية التي قدمت الكثير الى التاريخ الاسلامي، لا بد من القاء نظرة، ولو مقتضبة، على هذه الأحداث التاريخية المهمة التي قضت على الحكم الفاطمي الاسماعيلي الشيعي وانشأت الحكم الأيوبي السني.

بعد مقتل الخليفة ابي منصور اسماعيل، الذي تلقب بلقب الظافر لأمر الله أعلن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أمير الاسكندرية العادل ابن السلار الثورة على الدولة وسار الى القاهرة عام ٥٤٤ هجري واحتلها واجبر الخليفة الظافر على تعيينه وزيراً بلقب الملك العادل[٦].

وقتل الخليفة الظافر بأمر الله عام ٥٤٩هـ على يد عباس ابن زوجة ابن السلار، وكان العباس قائداً لحامية عسقلان، واحتل القاهرة عام ٥٤٨هـ، وكما قلنا سابقاً، وضع عيسى ابن الظافر بأمر الله ويبلغ من العمر خمس سنوات، على العرش الفاطمي وأطلق عليه لقب الفايز بنصر الله.

افزعت هذه الأحداث اعيان مصر وأفراد الأسرة الفاطمية، فاستنجدوا بالحاكم الأرمني في أسيوط طلائع بن رزيك، الذي قدم بجيشه الى القاهرة، ففر عباس الى دمشق حيث قتل في ربيع أول عام ٥٤٩هـ. فأصبح طلائع بن رزيك سيداً مطلقاً لمصر بدون منازع.

توفي الخليفة الفايز بنصر الله في شهر رجب عام ٥٥٥هـ. فقام طلائع بن زريك بوضع أبي محمود حفيد الخليفة عبد المجيد الحافظ على العرش الفاطمي بلقب العاضد لدين الله وكان آخر خليفة فاطمي.

اغتيل طلائع بن رزيك في شهر رمضان عام ٥٥٦هـ فعيّن الخليفة العاضد لدين الله خلفاً له ابنه رزيك بن طلائع الذي امر بعزل حاكم الصعيد شاور بن مجير السعدي.

رفض شاور السعدي هذا العزل وحشد جيشاً وسار به الى القاهرة حيث احتلها في شهر محرم عام ٥٥٨هـ. وقبض على الوزير رزيك بن طلائع وقتله واستولى على الوزارة.

لم يستقر شاور السعدي طويلاً في الوزارة، اذ اقاله «ضرغام» قائد الجيش ففر الى دمشق والتجأ الى اميرها نور الدين زنكي طالباً مساعدته لاحتلال مصر.

في ذلك الوقت كان الصليبيون ينظرون الى سيطرة الأمير نور الدين زنكي على حلب، ودمشق وحماه، وحمص التي تشكل سداً في وجههم وعائقاً لمواصلاتهم

---

(٦) كتاب «الاسماعيليون تاريخهم وعقائدهم»، الدكتور فرهاد الدفتري، ترجمة سيف الدين القصير، ص ١٦١ - ١٦٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التي كانت تمر في آسيا الصغرى، وكذلك تحول دون توسعهم في شمال بلاد الشام، فأصبح الطريق الطبيعي الذي بقي مفتوحاً امامهم، هو طريق مصر.

حاول الصليبيون قبل ذلك الوقت، الاستيلاء على مصر، فكان خروج الملك «بودوين» الأول عام ٥١٠هـ حيث تمكن من احتلال بلدة «ايلة» على شاطئ البحر الاحمر ثم استولى على «تنيس» حيث مات عام ٥١٢هـ[٧].

ثم قام ملك بيت المقدس «عموري الأول»، الذي عرف بالشجاعة والدهاء، فوصل الى «بلبيس» عام ٥٥٨هـ. حيث اشتبك مع الجيش الفاطمي بقيادة «ضرغام» فاضطر الى الانسحاب بعد ان تكبد جيشه خسارة كبيرة بالأرواح والعتاد. هذه المحاولة من «عموري» أفزعت الأمير نور الدين زنكي ولهذا قرر ارسال جيشه الى مصر ليس لمساعدة «شاور» بل لحماية مصر من السقوط بيد الصليبيين.

ساءت سيرة «شاور» وكثر فساده وأخذ في سلب الأموال وسفك الدماء وتنكر للقائد «شاركوه» وطلب منه مغادرة مصر، ولما رفض «شاركوه» ذلك استنجد «شاور» بالصليبيين فقدم «عموري» على رأس جيش كبير فاضطر شاركوه لمغادرة مصر وذلك عام ٥٥٩هـ.

ضاق صدر الخليفة الفاطمي من اعمال «شاور» وفساده واستبداده فاستنجد بالأمير نور الدين زنكي. الذي لم يكن في حاجة الى التحريض ضد «شاور» لغدره بشيركوه وعلاقاته بالصليبيين فأرسل حملة شيركوه الثانية عام ٥٦٢هـ وكان صلاح الدين يرافقها. طلب شاور المساعدة من «عموري» الذي قدم مصر في أواخر عام ٥٦٢هـ، ولكن هذه المرة طلب جزية أربعمائة ألف دينار واتفاقية تجعل من الصليبيين حماة الخلافة الفاطمية وبهذا صار للصليبيين مندوب في قصر الخليفة العاضد لدين الله (٥٥٥ - ٥٦٧هـ).

تنكر شاور لتعهداته والتزاماته مع الصليبيين فهاجم عام ٥٦٤هـ عموري مصر واحتل منطقة دلتا النيل، فهرع شاور يطلب مساعدة الأمير نور الدين زنكي. ولكن أعيان مصر مع الخليفة العاضد، طلبوا من شيركوه، وذلك بعد انسحاب الجيش

(٧) كتاب «الايوبيون والمماليك في مصر والشام»، الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، ص ١٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصليبي عام ٥٦٤هـ، ان يقتل شاور، لأنه سبب فساد العباد وحليف الصليبيين، فقتل مع ولده الكامل في شهر كانون الثاني عام ١١٦٩م. أي ٥٦٤هـ.

عندما توفي القائد اسد الدين شيركوه عام ٥٦٤هـ خلفه في الوزارة وقيادة الجيش ابن اخيه صلاح الدين بن يوسف الأيوبي وأطلق عليه لقب الملك الناصر ولكن غلب عليه لقب «السلطان».

قضى صلاح الدين على الجيش الفاطمي، خصوصاً قوة الجند السودان الذين كان يعتمد عليهم الخليفة، ثم أخذ بتعيين السوريين والمصريين السنّة في المناصب المهمة، كالقضاء وقيادة الجيش والمراكز الادارية الحساسة وبذلك قضى على عناصر المعارضة وما بقي من نفوذ الخليفة.

وفي أول جمعة من عام ٥٦٧هـ اعلنت الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، وابطل الأذان الشيعي وأمر صلاح الدين بنزع اسماء الخلفاء الفاطميين والأئمة الاسماعيلية عن جدران ومحارب المساجد في القاهرة ثم امر بانشاء مدرسة للشافعية وعيّن قاضي القضاة الفقيه الشافعي صدر الدين الهذباني، فاندرس مذهب الاسماعيلية في القاهرة وحل مكانه المذهب الشافعي. ولكن الاسماعيلية انتشرت فرق منها في سوريا وفارس واليمن والهند، تجمع على العقيدة الاسماعيلية وتفترق عن الممارسات في تطبيق التقاليد وتفسير العقائد التي هي واحدة.

اضطر الاسماعيليون للاختفاء هرباً من اضطهاد الأيوبيين فالتجأ العديد منهم الى صعيد مصر ونادوا بداؤد ابن الخليفة عبد المجيد اماماً فقبض عليه ومات في السجن عام ٦٠٤هـ .

دمّر صلاح الدين المكتبات الفاطمية في مصر بما فيها «دار لحكمة» وأتلف مجموعات هائلة من الكتب العلمية والدينية الاسماعيلية. ويقول المقريزي: «ان عدد المجلدات التي أتلفت في «دار الحكمة» يفوق السبعمائة ألف مجلد في علوم الدين والفلسفة، وخصوصاً، كتب علوم الاسماعيلية». ثم يقول: «ان النساء في القاهرة لم يلبسن، ولمدة طويلة، الاّ احذية مصنوعة من جلد كتب دار الحكمة».

ويقول احد المؤرخين: «حمل قسم كبير من المجلدات والقي في نهر النيل، وقيل ان مياهه اصطبغت باللون الأسود. كما ان مجموعات منها حملت الى مكان قرب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأهرام حيث احرقت، وهذا المكان يطلق عليه، حتى اليوم، تل الكتب.

ويقول ابو الفرج ابن العبري: «انتابت صلاح الدين حمّى شديدة ومات في دمشق ليلة الاربعاء ٢٧ صفر عام ٥٨٩هـ وخلّف سبعة عشر ابناً وابنة صغيرة. ولم يكن في خزانته حين موته الاّ دينار واحد وستة وثلاثون فلساً لأنه كان كريما جواداً»(*).

(*) كتاب تاريخ الزمان، ص ٢٢٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفرق الاسماعيلية التي ظهرت بعد عهد الخليفة المستنصر بالله ٤٨٧هـ - ١٣٩٦هـ

حكام دولة قلعة الموت

بالاضافة الى الأئمة الاسماعيلية – النزارية – كان «لقلعة الموت» دولة يديرها حكام أطلق عليهم لقب «مقدمين».

اول هؤلاء الحكام كان، مؤسس دولة «قلعة الموت» النزارية الاسماعيلية، الحسن بن علي بن محمد ابن الصباح الحميري. كان أبوه من الكوفة من العراق، ويقال ان نسبه يرجع الى ملوك حمير. قدم الحسن الصباح الى «قلعة الموت» في شهر رجب عام ٤٨٣هـ. وتوفي في ربيع الثاني عام ٥١٨هـ.

بعد موت الحسن الصباح، تولى رئاسة الدولة في «قلعة الموت» «ركيا بزركت اميد» الذي تميّز عهده بالحروب مع السلاجقة.

بعد وفاة «بزركت اميد» في جمادى الأولى عام ٥٣٢هـ خلفه ابنه «محمد بن بزركث اميد» الذي تابع حروبه مع السلاجقة بالاضافة، الى صراع داخلي بين الاسماعيلية سببه اصراره على تأويل الاسماعيلية على قاعدة الفقه السني وادعاؤه انه المهدي المنتظر، امام الزمان وصاحب الكشف، ولقّب «بشيخ الجبل».

بعد موت «محمد بن بزركت» في ربيع الأول عام ٥٥٧هـ تولى زعامة الدولة ابنه الحسن الثاني الذي رفع عن الاسماعيلية تكاليف الشريعة ونسخ الفروض وادعى أنه خليفة الله على الأرض، ولم يعد مجرد داعٍ كأسلافه، وانه امام روحي وقائم القيامة، مما سبب نفوراً عند كثير من اتباعه وتركهم له ونزوحهم عن قلعة الموت الى بلاد الشام.

بعد مقتل الحسن الثاني خلفه ابنه محمد الثاني عام ٥٦١هـ الذي أرغم أتباعه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الاعتراف به اماماً بالرغم من وجود أمام من أحفاد الامام نزار. حكم أربعة وأربعين عاماً.

بعد موت محمد الثاني تولى السلطة الحسن الثالث الذي أعاد الشريعة الاسلامية السنة واتخذ المذهب الشافعي وأحرق الكتب الدينية الاسماعيلية الذي خلفه عند موته علاء الدين بن جلال الدين وهو محمد الثالث الذي قتله غلامه حسن المازنداني وذلك بتدبير ابنه خورشاه ثم قتل خورشاه حسن المازنداني انتقاماً لأبيه.

في عصر ركن الدين خورشاه هاجم هولاكو المغولي قلعة الموت ودمّرها وذلك بعد ان سلّمها اليه خورشاه. قرّب هولاكو خورشاه وزوّجه فتاة مغولية ثم قتله وبذلك انتهت الدولة السياسية الاسماعيلية في قلعة الموت.

اكرر ما قلناه سابقاً ان هدف هذه الدراسة المقتضبة تعريف القارئ على التيارات الفكرية التي سادت في البلاد الاسلامية خلال نشوء وانتشار العقيدة التوحيدية الدرزية، وثم مدى تأثير هذه التيارات على مفاهيم الدعوة العقائدية اذا تطرقنا الى بعض الحوادث التاريخية التي جرت خلال ذلك الوقت، يكون ذلك لابراز الأسباب التي أثرت على خلق هذه التيارات الفكرية فقط والنتائج التي حصلت عنها وليس درساً في التاريخ، لأني لست مؤرخاً والمامي في معرفة التاريخ محدود لا يسمح لي الخوض في هذا الموضوع الدقيق والواسع، وهذه معرفة لا املكها واختصاصٌ أجهله، ومن يعرف حدود قدراته ويلتزم بها، يكون الله، عز وجل، منّ عليه بنعمة اطمئنان النفس لأن الادعاء مرض نفساني لتغطية جهل المدعي بالمعرفة التي يدّعيها.

هذا الفصل عن الفرق الاسماعيلية المقتضب تكملة لما آلت اليه هذه الدعوة في آخر عهدها من الشتات والتفرقة والضياع.

بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله عام ٤٨٧هـ. ابرز قائد الجيوش، وفي الوقت نفسه كان وزير الدولة، «الأفضل» ابن القائد بدر الجمالي، سجلاً ادعى ان الخليفة المستنصر بالله أصدره قبل وفاته ينص بالخلافة على ابنه احمد، الذي لقّب بالمستعلي، وهو ابن أخت القائد «الأفضل».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثار نزار، الابن الأكبر للمستنصر بالله، وهو صاحب النص الشرعي وأصدر سجلاً اذاعه على الناس اتهم «الأفضل» بالكذب والتزوير وانتهاك حرمة التقليد الشيعي المقدس في التزام النص على الامامة.

وفي عام ٤٨٨هـ جرت معركة الاسكندرية الثانية، حيث كان الامام وأخوته وبعض أتباعه لاجئين خوفاً من غدر وبطش «الأفضل»، فأسر الامام نزار وأخوته وسيقوا الى سجن القاهرة حيث قتلهم «الأفضل» عام ٤٩٠هـ، ولم يبق حيّاً الاّ ابن الامام نزار الصغير علي الهادي الذي انتقل الى «قلعة الموت» في بلاد فارس، بمساعدة الداعي الكبير حسن الصّباح، الذي نادى به اماماً، فكان علي الهادي مؤسس الدولة النزارية الاسماعيلية.

بايع اسماعيلية مصر وسوريا واليمن المستعلي بالله، وبايعت اسماعيلية فارس علي الهادي ابن الامام نزار فانشقت الاسماعيلية الى فرقتين:

١ – الفرقة المستعلية، يؤيدها اسماعيلية مصر وسوريا واليمن

٢ – الفرقة النزارية، يؤيدها اسماعيلية، فارس ثم انضم اليها اسماعيلية سورية

بعد وفاة الخليفة المستعلي في شهر صفر عام ٤٩٥هـ واغتيال الخليفة الآمر بأحكام الله عام ٥٢٤هـ الذي ولد له طفل قبل مماته بأشهر قليلة سمي «الطيب». تولى السلطة كوصي على العرش ووليا لعهد المسلمين، ابن عم الخليفة الآمر بأحكام الله، ابو الميمون الأمير مجيد الحافظ لدين الله بن محمد بن الخليفة المستنصر بالله وكان أكبر أفراد أسرة الفاطميين سناً. اما الطفل «الطيب»، ابن الآمر بأحكام الله، فقد اختفى ولم يعرف عن وجوده بعد ذلك شيء وقد اتهم الوصي حافظ بقتله.

وفي عام ٥٢٥هـ عندما تسلم الوزارة القائد احمد ابن الفضل الجمالي وهو ابن «الأفضل»، الملقب «كتفيات» قبض على ولي العهد الأمير عبد المجيد الحافظ، الذي كان يدعى «ابن عم مولانا»، واودعه السجن. ثم دعا الوزير احمد ابن الفضل الى التخلي عن الاسماعيلية واعتناق العقيدة الشيعية الاثني عشرية ديناً للدولة ودعا نفسه نائباً للامام «القائم المنتظر» وخليفته.

اثار هذا الحدث استياءً عارماً بين أوساط الاسماعيلية ومؤيدي الأسرة الفاطمية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لأن ادعاء احمد ابن الفضل بالخلافة ينهي الأمامة الشيعية فأحمد ليس من نسل آل البيت فهو من أصل أرمني.

تآمر الاسماعيلية مع بعض قادة المغاربة من الجيش فأطاحوا بالوزير احمد بن الفضل الذي لاقى حتفه في ١٦ من شهر محرّم عام ٥٢٦هـ.

وفي عام ٥٢٦هـ خرج من السجن ولي العهد والوصي على العرش الأمير عبد المجيد بن الحافظ لدين الله وأخذ البيعة لنفسه على أنه الامام والخليفة الشرعي ولكنه لاقى رفضاً من بعض الاسماعيلية المبايعة له لأنه ليس من نسل الأئمة الخلفاء ولا ينحدر من أمام سابق ولم ينص عليه كما تفرض التقاليد الشيعية.

عندما ادعى عبد المجيد الحافظ الامامة لنفسه نجم صراع في البلاط الصليحي في اليمن، فالملكة السيدة اروى بنت احمد الصليحي، القيمة على الدعوة الاسماعيلية والتي دعمت حقوق المستعلية لمدة ستّ وثلاثين سنة، نادت بأمامة «الطيب» ابن الخليفة الآمر بالله، الذي اختفى بعد ولادته[1] واتهم الوصي عبد المجيد الحافظ باخفاء «الطيب» او قتله. يعتبر الاسماعيليون «الطيب» الامام المستور وامام الزمان وقائم الحق.

ايدت الملكة اروى الصليحي حقوق «الطيب» ونادت بأمامته وأصبحت الزعيم الرسمي للفرقة الطيبية في اليمن.

اما الأمراء الزريعيون[2] حكّام عدن وضواحيها والأمراء الهمذانيون حكّام صنعاء، اعتمدوا عبد المجيد الحافظ اماماً لهم وتولوا قيادة الدعوة الحافظية، فنتج عن ذلك أزمة بينهم وبين الصليحيين ولكنها انتهت مع حكم الزريعيين والهمذانيين بالاحتلال الأيوبي الذي انهى الحافظية في اليمن.

---

(١) يقول ابن ميسر ان الخليفة الآمر بالله بعث الى الملكة السيدة الصليحية سجلاً يعلن ميلاد ابي القاسم الطيب في ربيع الثاني من عام ٥٢٤هـ.

(٢) ينتسبون الى الأمير زريع ابن العباس الذي حكم عدن في عهد الصليحيين. انتهى حكمهم بنتيجة الفتح الأيوبي لجنوبي الجزيرة العربية عام ٥٦٣هـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انشقت الاسماعيلية الى فرقتين:

١ - الحافظية، يؤيدها اسماعيلية مصر وسوريا وقلة من اليمنيين.

٢ - الطيبية، يؤيدها اسماعيلية اليمن والهند.

ويقول الدكتور فرهاد دفتري «ويبدو ان الاسماعيليين المستعلين الهنود، وهم الذين كانت لهم وشائج قربى وثيقة بالدولة الصليحية، قد وقفوا بشكل كامل الى جانب الدعوة الطيبية التي اعتنقها الصليحيون»[٣].

وفي عام ٩٩٩هـ انقسمت الفرقة الطيبية الى فرقتين:

١ - داؤدية، يؤيدها اسماعيلية الهند.

٢ - سليمانية، يؤيدها اسماعيلية اليمن.

كان سبب هذا الانقسام انه بعد وفاة الداعي المطلق «داؤد بن عجب» انتخبت طيبية «كجرات» في الهند الداعي داؤد بن قطب شاه خلفاً له، فرفض طيبية اليمن ذلك وانتخبوا داعياً آخر يدعى سليمان الحسن فلقبوا بالسليمانية.

والآن نقدم عن هذه الفرق الاسماعيلية شرحاً مقتضباً عن اعمالها وبعض اللمحات الموجزة عن تغيرات حصلت في عقائدها ومسراها التاريخي.

١ - الفرقة النزارية.

هي الأقوى والأكثر انتشاراً وعدداً بين الفرق الاسماعيلية وما زالت باقية معنا حتى اليوم. كان الذي انشأها، ويمكن القول خلقها، الداعي المشهور حسن الصّباح[٤].

بعد هزيمة الامام نزار ابن الخليفة المستنصر بالله في الاسكندرية وقتله وأخوته عام ٤٩٠هـ في القاهرة، على يد أمير الجيوش «الأفضل» ابن بدر الجمالي، أرسل الداعي حسن الصّباح اثنين من أتباعه الداعي «زاد أسد» والداعي حسن بن سعيد[٥]

---

(٣) كتاب الاسماعيلية ترجمة سيف الدين القصير، ص ١٧٥ .

(٤) في كتاب تاريخ الاسماعيلية، الدكتور عارف تامر، دراسة مستفيضة عن الداعي الكبير حسن الصباح، من صفحة ٧٧ الى صفحة ٩١ .

(٥) كتاب تاريخ الاسماعيلية، عارف تامر، ص ٨٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى مصر فتمكنا من جلب علي الهادي، ابن الامام نزار الى قلعة الموت[٦] في فارس حيث بايعه الداعي حسن الصّباح بالامامة، فكان الامام العشرون الاسماعيلي، وبذلك أعلنت الدولة الاسماعيلية النزارية في بلاد فارس وكان ذلك عام ٤٨٣ هجري.

١ - الامام علي الهادي ابن نزار.

كان اول امام من النزارية الاسماعيلية بويع في قلعة الموت عام ٤٩٠هـ. ولما كان الامام علي المهدي صغير السن، اي عشرين سنة، تولى حسن الصبّاح الولاية عنه يعاونه الداعي «كيا بزرك اميد»[٧] في تعليمه واعداده للخلافة. قضى الامام علي الهادي حياته في قلعة «لمسر»، وبقي أربعين سنة على عرش الامامة الاسماعيلية النزارية[٨] توفي عام ٥٣٠هـ ودفن في قلعة «لمسر».

في ذلك الوقت نظّم الداعي حسن الصبّاح الفرق الفدائية، التي عرفت باسم الحشاشين والتي قامت باعمال مدهشة في الشجاعة والاقدام، حتى قيل عنها انها كانت أخطر فرقة سرية فدائية شهدها العالم الاسلامي.

٢ - الامام محمد ابن الامام علي الهادي «المهتدي».

هو الابن الأكبر للامام علي الهادي. ولد عام ٥٠٣هـ وبويع بالامامة عام ٥٣٠هـ. كان الامام المهتدي زاهداً ورعاً وجه عناية خاصة لتنظيم الدعاة ونشر الدعوة في فارس. نقل مقر الدعوة من قلعة «لمسر» الى قلعة الموت. توفي عام ٥٥٢هـ. ودفن في قلعة «لمسر».

٣ - الامام القاهر.

ولد الامام القاهر عام ٥٣٢هـ وبويع بالامامة عام ٥٥٢هـ. يقول الدكتور

---

(٦) قلعة الموت واقعة في جبال «البُرز» شمال غرب قزوين في بلاد فارس.

(٧) عيّن حسن الصباح الداعي «كيا بزرك اميد» خلفاً له عام ٥١٧هـ الذي استمر في حكم القلاع الاسماعيلية بعد وفاة حسن الصبّاح عام ٥١٨هـ حتى عام ٥٣٢هـ. وفي عهده بلغت قلعة الموت الاسماعيلية اوجها في الاستقرار السياسي والاقتصادي.

(٨) كتاب تاريخ الاسماعيلية، عارف تامر، ص ٩٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عارف تامر: «وفي عهده عمّ الاضطراب جميع النواحي، وسمي ذلك العهد «عهد الطوائف للملوك، بحيث قامت امارات عديدة في كل جهة من الجهات، كالسلجوقيين، والخوارزميين، والغوريين والأيوبيين في الشام وغيرهم»[٩].

توفي الامام القاهر عام ٥٥٧هـ، ودفن في قلعة الموت.

ونختصر دراستنا عن الأئمة النزارية عند هذا الحد. اذ يبلغ عددهم خمسة وأربعين اماماً ولم يقوموا بأعمال تهمنا، فكرية كانت او تاريخية[١٠].

قد يسأل القارئ عن أسباب وتاريخ انتقال الاسماعيلية من فارس الى الهند. هذا الانتقال حصل في عهد الامام شاه حسن علي «الذي ولد عام ١٢١٩هـ. في بلدة «محلاّت» وتسلم شؤون الامامة عام ١٢٣٢هـ بعد وفاة والده وكان لا يعرف الاّ باسم «آغا خان» وهذا اللقب الفارسي طغى على اسمه»[١١]. وكان الآغا خان الأول.

في عهد الامام شاه حسن علي حصلت بعض الاشتباكات بين الجنود الفرس، جنود السلطان فتح علي شاه القاجاري، وأفراد من الاسماعيلية من اتباع الامام شاه حسن علي، مما سبب جواً من التوتر والنفور في علاقات السلطان الفارسي والامام الاسماعيلي، فغادر الامام شاه حسن علي مع أسرته واعداد كبيرة من اتباعه الى الهند حيث استقبلته السلطات البريطانية بحفاوة واغدقوا عليه لقب «صاحب السمو»[*] وخصّصوه براتب ضخم لتقديمه مساعدات مهمة في حل الخلاف بينهم وبين زعماء الهنود بشأن مدينة «كراتشي» التي كان البريطانيون يريدون تحويلها الى قاعدة بحرية لاسطولهم. زعماء الهنود رفضوا ذلك على انه توطيد للحكم العسكري البريطاني. توفي عام ١٨٨١م ودفن في مدينة بومباي في الهند.

---

(٩) كتاب تاريخ الاسماعيلية، ص ٩٤ .

(١٠) الأئمة الاسماعيليون، النزارية خمسة وأربعون، المستعلية ستة وعشرون، السليمانية واحد وعشرون، الداؤدية البهرة أربعة وعشرون.

(١١) كتاب تاريخ الاسماعيلية، عارف تامر، ص ١١٣، مجلد ٤ .

(*) آغا خان – لقب اطلقه السلطان الايراني فتح علي شاه القاجاري على الامام شاه خليل الله الذي توفي عام ١٢٣٣هـ ومن بعده أطلق على الأئمة النزارية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اما سورية، مهد الاسماعيلية ومركز انطلاقها الى البلاد الاسلامية، فقد التجأ اليها الامام محمد بن اسماعيل، المهدي المنتظر وأول الأئمة المستورين، حيث توفي ودفن في تدمر عام ١٩٢هـ.. وكذلك الامام الثاني المستور عبدالله بن محمد بن اسماعيل، الذي عاش في سلمية وتوفي عام ٢١٢هـ ودفن في مدينة «مصياف». والامام الثالث الحسين بن احمد الملقب بالاهوازي الذي ولد في «مصياف» وسكن سلمية حيث توفي عام ٢٨٩هـ. واخيراً الامام عبيدالله المهدي الذي ولد في سلمية عام ٢٥٩هـ وغادرها عام ٢٩٠هـ الى شمال افريقيا هرباً من القرامطة الذين ارادوا قتله لادعائه أنه الامام المهدي المنتظر وليس محمد بن اسماعيل. هؤلاء الأئمة المستورون، وهم أصل الاسماعيلية، ولد وتوفي معظمهم في سورية، اذن سورية هي مهد الاسماعيلية. ما يهمنا في هذه الدراسة هو تسرب الاسماعيلية النزارية من فارس الى سورية، حيث لعبت دوراً مهماً خلال العهد الأيوبي والعهد المملوكي وتمكنت من ارساء قواعد ما يمكن وصفه، بالدولة الاسماعيلية النزارية السورية، فقاتلت الأيوبيين ثم تحالفت معهم لقتال الصليبيين.

تقسم هذه الحقبة من تاريخ الاسماعيلية في سورية الى ثلاث مراحل:

١ - قدوم الدعاة النزارية الى سوريا قبل قدوم الداعي الكبير راشد الدين بن سنان عام ٥٥٧هـ.

٢ - عهد راشد الدين بن سنان (٥٥٧ - ٥٨٨هـ) وهو العهد الذهبي للاسماعيلية النزارية في سورية.

٣ - الحقبة بعد وفاة راشد الدين بن سنان حتى عام ٦٧١هـ عندما استولى السلطان «بيبرس» المملوكي على القلاع الاسماعيلية.

في اوائل القرن السادس هجري قدم الى حلب بعض الدعاة النزارية من قلعة الموت في فارس بقيادة الداعي «الحاكم المنجم» فتمكنوا، بمساعدة اسماعيلية سورية، من احتلال بعض القلاع في جبل بهره وجبل السمّاق. وكان بعض اسماعيلية سورية في ذلك الوقت من اتباع الامام المستعلي.

عند وفاة الداعي «الحاكم المنجم» استلم الدعوة ابو طاهر الصايغ الذي تمكن من ضم بلدتي «سرمين» «وافاميا» الى دعوته، ولكن القائد السلجوقي «بلك الغازي»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمكن، بعد مذبحة قتل فيها العديد من الاسماعيلية، من طردهم من حلب وجوارها، فنزحوا الى دمشق وضواحيها.

في عام ٥٢٣هـ ، قتل احد الفدائيين الاسماعيليين في دمشق، الزعيم السني «المزدقاني»، فثار الأهالي على الاسماعيلية وقتلوا ما يزيد عن سبعة آلاف اسماعيلي ونهبوا بيوتهم وممتلكاتهم.. بعد نكبة دمشق، تمكن الاسماعيليون من جمع قواهم واتجهوا الى جبل البهرة حيث اشتروا قلعة «قدموس» من صاحبها سيف الملك بن عمرو الدمشقي، ثم استولوا على حصون «الكهف» «والخوابي» «ومصياف»، وقيل كان عددهم في ذلك الوقت سبعين ألف نسمة، كما انهم تمكنوا من القضاء على الدعوة المستعلية. اتخذ الداعي الاسماعيلي قلعة «مصياف» قاعدة لنشاطه ولشن بعض الغارات على جيرانه السنة والنصيرية.

وابتدأ عهد راشد الدين بن سنان (٥٥٧ - ٥٨٨هـ) منذ قدومه الى سورية، ففي ذلك الوقت، توفي الداعي ابو محمد، الذي نشب خلاف على خليفته، فعينت دولة الموت الداعي علي بن مسعود الذي بعد اغتياله، استلم الدعوة راشد الدين بن سنان(١٢).

كان راشد الدين قائداً شجاعاً على جانب كبير من الذكاء ومثلاً أعلى في التقوى. جمع راشد الدين الاسماعيلية تحت قيادته ورمّم القلاع وانشأ فرقة من الفدائيين، كما تقرّب من السلطان نور الدين زنكي وحسّن علاقته مع الصليبيين كي يأمن شرهم.

في ذلك الوقت، كانت علاقة السلطان نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي يسودها العداء والتناحر على السلطة في سورية. وراشد الدين الشيعي الاسماعيلي كان يخشى تعصب صلاح الدين ضد الشيعة، فتحالف مع نور الدين زنكي للحد

---

(١٢) راشد الدين بن سنان بن سلمان بن محمد ابو الحسن البصري ولد في قرية قرب البصرة حيث تلقى علومه في البصرة ثم قدم الى قلعة الموت حيث اعتنق العقيدة الاسماعيلية وتقرب من الحسن الثاني ابن حاكم قلعة الموت «بزركت اميد». وعندما استلم الحسن الثاني القيادة أرسل راشد الدين في عام ٥٥٧هـ الى سورية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من خطر صلاح الدين.. يقول بعض المؤرخين، ان نور الدين زنكي طلب من راشد الدين اغتيال صلاح الدين. أرسل راشد الدين فدائيين في شهر جمادى الثانية عام ٥٧٠هـ لاغتيال صلاح الدين ولكن المحاولة فشلت. ثم كانت المحاولة الثانية في شهر ذي العقدة عام ٥٧١هـ، عندما كان صلاح الدين يحاصر بلدة «اعزاز»، فتمكن احد الفدائيين من الهجوم عليه ولكن لم يصب صلاح الدين الاّ بخدش في خده، ولهذا قرر صلاح الدين القضاء على الاسماعيلية فحاصر معقلهم بلدة «مصياف» وقتل الكثير منهم ولم يتركهم الاّ بعد ان شفع فيهم شهاب الدين محمود الحارمي، خال صلاح الدين، بالاضافة اعجب صلاح الدين بشجاعة الاسماعيليين فأراد ضمهم الى جيشه لمساعدته في حربه مع الصليبين، فتحالف معهم فاشتركوا معه في معركة «حطين»، واحتلال القدس وحصار عكا(١٣).

توفي راشد الدين بن سنان في قلعة «الكهف» عام ٥٨٨هـ بعد ان انشأ دولة نزارية في سورية مستقلة عن حكومة الموت في فارس.

بعد وفاة راشد الدين بن سنان تعاقب ثلاثة دعاة اسماعيلية على نزارية سورية الذين تمكنوا من الحفاظ على علاقة تعاون وصداقة مع الأيوبيين دامت حتى الحكم المملوكي، اذ فرض السلطان «بيبرس» ضرائب باهظة عليهم ثم استولى على قلاعهم في عام ٦٧١هـ وبذلك انتهت الدولة النزارية في سوريا وتحجم الوجود الاسماعيلي.

وحدث انقسام للاسماعيلية النزارية بعد وفاة الامام شمس الدين محمد عام ٧١١هـ عندما تسلم الامامة ابنه قاسم شاه، الذي تعود اليه أسرة الأئمة الحاليين النزاريين، ولكن بعض النزاريين رفضوا ذلك وقالوا ان الامامة يجب ان تكون للابن الأكبر مؤمن شاه، فانقسمت الأسرة النزارية الى اسرتين.

١ – القاسم شاهية، ولد القاسم شاه عام ٧٠١هـ وتولى الامامة عام ٧١٠هـ.

٢ – المؤمن شاهية، ولد مؤمن شاه عام ٦٧٩هـ واتخذ مدينة تبريز مقراً للامامة.

---

(١٣) كان الداعي راشد الدين بن سنان قائداً شجاعاً على جانب كبير من الذكاء ومثلاً اعلى للفضيلة. درس علوم الدين في مدرسة «الموت». في عام ٥٥٨هـ اتى بلاد الشام حيث تسلم الدعوة ونظمها وجعل منها قوة كبيرة. حكم مدة ثلاثين سنة فكان مثال العدل والتقوى. في عهده انتقلت قيادة الدعوة الى مصياف، توفي عام ٥٨٨هـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول الدكتور عارف تامر المؤرخ الاسماعيلي المعروف: «فأن الأكثرية الساحقة من الاسماعيليين في سورية، يؤمنون بالقاسم شاه ويدينون بالولاء الى الآغا خان الحالي، كريم آغا خان ويعتبرونه الوريث الرسمي لأمامة جده سلطان محمد شاه الذي توفي في ١١ تموز عام ١٩٥٧»[١٤].

٢ - الفرقة المستعلية.

كما قلنا سابقاً، تمكن قائد الجيوش، وفي الوقت نفسه وزير الدولة[١٥]، ابو القاسم شاهنشاه، المعروف «بالأفضل» وهو ابن القائد بدر الجمالي وشقيق زوجة الخليفة المستنصر بالله، من القضاء على الامام نزار، الابن الأكبر للخليفة وعلى جميع اشقائه، وأخذ البيعة الى ابن شقيقته احمد المستعلي بالله الذي كان اصغر اولاد المستنصر بالله.

يقول ابو العباس شمس الدين احمد بن خلكان: «وكانت ولادة المستعلي لعشر ليال بقين من محرم سنة تسع وستين واربعمائة بالقاهرة، وبويع في تاريخ يوم «غدير خم» وهو الثامن عشر من ذي الحجة سنة سبع وثمانين واربعماية، وتوفي بمصر يوم الثلثاء لثلاث عشرة ليلة بقين من صفر سنة خمس وتسعين واربعماية، رحمه الله، وله من العمر ثمان وعشرون سنة وايام، فكانت مدة ولايته سبع سنين وكسراً، وتولى بعده ولده ابو علي المنصور الملقب بالآمر وله من العمر خمس سنين وشهر وأربعة أيام»[١٦].

---

(١٤) كتاب تاريخ الاسماعيلية، مجلد ٤، ص ١١٦ .

- ان كتاب تاريخ الاسماعيلية، للدكتور عارف تامر، مجلد ٤ . هو من الكتب القيمة عن الاسماعيلية النزارية ويعطي فكرة واضحة مستفضية عن الامامة النزارية والأئمة النزاريين.

(١٥) قبل قدوم بدر الجمالي الى مصر، كان الخلفاء الفاطميون رؤوساء مطلقي الصلاحيات وقواداً للقوات المسلحة يديرون شخصياً أمور الدولة ويتخذون القرارات الرئيسية وكان الوزراء يعتبرون وسطاء لتنفيذ اوامر الخليفة بدون أية سلطة فعلية أي يتمتعون بسلطات تنفيذية ولكن عند قدوم بدر الجمالي الى مصر عام ٤٦٦هـ أصبح الوزير المطلق الصلاحيات فتقلصت سلطة الخليفة بشكل خطر وأصبح الخلفاء رؤساء صوريين ودمى في ايدي وزرائهم الذين اصبحوا الأسياد الحقيقيين للدولة الفاطمية.

(١٦) كتاب وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان، ص ١٧٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول معظم المؤرخين المسلمين ان المستعلي بالله كان تقيا ورعاً ولكن دمية في يدي خاله وزير الدولة «الأفضل»، خلال مدة حكمه (٤٨٧ - ٤٩٥هـ).

يقول المؤرخ الاسماعيلي الدكتور عارف تامر: «قتل الامام نزار وصار اخوه المستعلي خليفة، خاض الى دست الخلافة في دم اخوته وأهله، وكان زاهداً بالحكم، برماً بالناس، ميّالاً للعزلة بادي الأسى والوجوم، فلقد كان ينظر الى «الأفضل» بن بدر وهو يصرّف أمور الدين والدنيا بدونه»[١٧].

انتقلت الدعوة المستعلية الى اليمن خلال حكم الملكة السيدة اروى الصليحي[١٨] التي نشرتها في جميع بلاد اليمن وبقيت تدعمها خلال ثلاثين سنة في عهد المستعلي بالله، وخلافة ابنه ابو علي المنصور الملقب الآمر بأحكام الله الذي اغتيل في شهر ذي القعيدة عام ٥٢٤هـ وادعى بعده الامامة والخلافة الوصي الأمير عبد المجيد الحافظ مما أثار غضب الملكة السيدة فنادت بأمامة الطفل «الطيب»،

---

(١٧) كتاب تاريخ الاسماعيلية، مجلد ٣، ص ٢٢٥ .

(١٨) اسس الأسرة الصليحية في اليمن الداعي علي بن محمد الصليحي عام ٤٢٩هـ. كان ابوه محمد قاضياً سني المذهب أخذ العلم عن الداعي عامر بن عبدالله الزواجي الذي اقنعه باعتناق المذهب الاسماعيلي. كان محمد الصليحي من زعماء قبيلة همذان. تحالف محمد الصليحي مع قبائل حمير واحتل جميع انحاء اليمن حتى حضرموت وجنوب الجزيرة وذلك عام ٤٥٥هـ. انعم بالامارة على عدن وصنعاء على شقيقين همذانيين هما العباس والمسعود ابن مكرم وهما اسسا الأسرة الزريعية عام ٤٧٦هـ. وفي عام ٤٧٣ ذهب الى الحج وفي الطريق تصدى له أولاد نجاح لثأر لهم لقتله احد زعمائهم في تهامة فقتلوه. خلفه في الحكم ابنه المكرم احمد عام ٤٧٧هـ ولكن السلطة كانت لزوجته اروى بنت احمد الصليحي وعرفت باسم الملكة السيدة وكانت شخصية قديرة ذكية ذات حزم وشجاعة. دانت أروى بالولاء للمستنصر ثم ابنه المستعلي وحفيده الآمر بالله وبوفاتها عام ٥٣٢هـ انتهت سلطة الأسرة الصليحية. بعد انتهاء سلطة الصليحي أصبح الملك لأسر الهمذانيين في صنعاء والزريعيين في عدن حتى اطاحها الايوبيون عام ٥٦٩هـ. كتاب «الاسماعيليون تاريخهم وعقائدهم» فرهاد دفتري، ص ٨٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن الآمر بأحكام الله، واعتبرته اماماً مستوراً، وساعدها في ذلك رئيس الدعاة يحيى بن لمك[١٩].

ويقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان: «ان الاسماعيلية الشرقيين المستعلية يتبعون نهج السنة الفاطمية القديمة». ثم يقول ان الاسماعيلية المستعلية اليمنية تعتقد ان العقل الأول هو أول من انجز التوحيد ودعا الى الصور المنيرة الأخرى، ومن هنا أعطي له اسم السابق[٢٠]» ويقول: «ان العقل لا ينسب الالوهية لنفسه، وهنا يكمن السر كله للآله كما يظهر في التجلي. ان الاثبات «الاّ الله» تستدعي للوجود العقل الثاني، النفس الكلية المنبعث الأول المسمى «بالتالي» لأن العقل يتأمله من ذاته، ووجود العقل الثاني، النفس الكلية، يكون بعداً ايجابياً في وجود العقل الأول»[٢١].

ويقول الشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين التنوخي: «لأن الباري سبحانه أبدع من نوره الشعشعاني الكامل العقل الكلي وأبدع من نور العقل النفس الحقيقي وأبدع من نور النفس الكلمة السابق وأبدع من نور السابق التالي وأبدع من نور التالي الأرض وما عليها والافلاك الدايرات والبروج الاثني عشر والطبايع الأربعة والهيولى الذي هو الطابع الخامس»[٢٢].

ان هذا التحليل الفلسفي مأخوذ عن كتب المفكرين الاسماعيليين الأوائل، كرسائل اخوان الصفا، ورسالة «تحفة المستجيبين» لأبي يعقوب اسحق السجستاني،

---

(١٩) الداعي يحيى بن لمك بن مالك ينتمي الى فرع بني حماد من همذان، خلف والده لمك في رئاسة الدعوة اليمنية عام ٤٩١هـ. توفي يحيى بن لملك عام ٥٢٠هـ، وقبل وفاته قام بتعيين مساعده الذؤيب بن موسى الوادعي الهمذاني خليفة له. الذؤيب اعترف بحق «الطيب» فأصبح أول داعي دعاة يمني نشر الدعوة الطيبية.

(٢٠) كتاب الفلسفة الاسلامية، ص ١٤٣ وص ١٤٥ .

(٢١) كتاب النقط والدوائر، ص ١٣ . كما قلنا سابقاً ان هذا الكتاب ترجمه الى اللغة الالمانية المفكر الالماني «خرستيان فريدرخ سيبلد» عام ١٩٠٢م ويباع في المكاتب وأصبح في متناول الجميع فانتفت عنه السرية الدينية.

(٢٢) المرجع نفسه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكتاب «راحة العقل» للداعي احمد حميد الدين الكرماني، وهي مستقاة من فلسفة الفيض للفيلسوف اليوناني افلوطين المعروف عند المفكرين المسلمين باسم الشيخ الاسكندراني.

اعترف بأمامة المستعلي بالله معظم اسماعيلية مصر وبعض اسماعيلية سورية وكامل الجماعة في اليمن وغربي الهند. ولكن، معظم اسماعيلية بلاد الشام، التي كانت في ذلك الوقت خارج نطاق السيطرة الفاطمية، انفصلوا عن المستعلية وانضموا الى نزارية فارس.

لا توجد مؤلفات كثيرة عن الدعوة المستعلية الاّ كتاب «عيون الأخبار» للمؤرخ ادريس عماد الدين، وهو نادر جداً من الصعب الحصول عليه. وكذلك يوجد كتاب «هماري اسماعيلي» للمؤرخ زاهد علي وهو موجود في مكتبة «سورات» في الهند ولكن لا يسمح الاّ للعلماء الاسماعيليين الاطلاع عليه.

كما قلنا سابقاً، بعد اغتيال ابن المستعلي بالله احمد، ابو علي المنصور المعروف بلقب الآمر بأحكام الله في ١٤ ذي القعدة عام ٥٢٤هـ، وادعاء الوصي الأمير عبد المجيد الحافظ بالامامة والخلافة، انشقت جماعة المستعلية الى الحافظية والطيبية.

١ - الفرقة الحافظية:

ادعى الأمير عبد المجيد الحافظ، وكان الوصي على العرش وابن عم الخليفة الآمر لدين الله، الأمامة والخلافة لنفسه وأيدت السلطة الفاطمية في القاهرة دعوته ونادى بتأييدها اسماعيلية مصر وسورية والزرعيون في عدن والهمذانيون في صنعاء، ولكن هذه الدعوة لم تعش طويلاً بعد سقوط الأسرة الفاطمية عام ٥٦٧هـ على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي.

٢ - الفرقة الطيبية:

عرفت باسم الآمرية. رفضت مزاعم الخليفة الحافظ ونادت بأمامة الطفل «الطيب» ابن الخليفة الآمر بأحكام الله ولقبته الامام المستور. تلقت الفرقة الطيبية، في بداية نشأتها دعماً من اسماعيلية اليمن اذ رعتها الملكة السيدة اروى الصليحي فأصبحت اليمن مقرها الدائم، ثم امتدت الى غرب الهند حيث كان يوجد اسماعيلية مستعلية قدموا من اليمن ولقبوا بالبهرة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ازدهرت وانتشرت فرقة البهرة الهندية الطيبية، واسم البهرة مشتق من كلمة هندوسية «Vohoru» اي تاجر وكان مركزهم الاساسي مدينة «كجرات». حافظ البهرة على روابط وثيقة مع طيبية اليمن وكانوا يرسلون طلاباً الى اليمن لدرس العقائد الاسماعيلية كما ان اليمن زودتهم بمجموعات كبيرة ونادرة من كتب الأدب والفلسفة الاسماعيلية ما زالت في مكتباتهم في سورات وبومباي حتى يومنا هذا.

يرأس البهرة داع مطلق[٢٣] ويعتمد الشريعة الشيعية النص بالامامة من الأب الى الابن، وهو الرئيس الأعلى للدعوة له الحكم المطلق ويعتبر معصوماً عن الخطأ. وكان للداعي المطلق مساعدون يطلق عليهم لقب المأذونون او المكاسرون.

بقيت الدعوة الطيبية الهندية تحت سلطة القيادة المركزية والدعاة الطيبين في اليمن حتى منتصف القرن العاشر هجري عندما تحول مقر القيادة الى مدينة كجرات في الهند. قبل ذلك التاريخ، كان رئيس الدعوة البهارية الهندية يعيّن من قبل الداعي المطلق المقيم في اليمن. بقي هذا التنظيم حتى انشقاق الطيبيين اليمنيين والبهرة الهنود الى فرقتين، داؤدية وسليمانية حيث أصبح لكل واحد منهما دعاته وتنظيماته ومقر قيادته.

لم يتعرض طيبو «كجرات» للاضطهاد من حكام الهندوس المحلّيين، فنمت الجماعة الطيبية وتطورت من دون اي عائق حتى الغزو الاسلامي السني عام ٦٩٧هـ حيث اضطهدهم الحكام المسلمون السنة الذين كانوا تحت سلطة الحكم المركزي في «دلهي». في عام ٨١٤هـ، في عهد السلطان احمد الأول ابن ظفر خان، بدأ الاسماعيليون يتعرضون لاقسى انواع الاضطهاد مما اضطر العديد منهم الى التحول الى الاسلام السني.

في عام ٩٧٤هـ تحول مقر القيادة المركزي للدعوة الطيبية من اليمن الى مدينة كجرات على يد الداعي جلال بن حسن. وكان جماعة الطيبية في ذلك الوقت قد ازدادوا عدداً، بالرغم من التحول السني السابق، الى حد فاقوا طيبية اليمن الذين كانوا يعانون صعوبات كثيرة في أعقاب الاحتلال العثماني لليمن عام ٩٢٣هـ.

---

(٢٣) الداعي المطلق يعتبر نائب الامام الغائب المستور «الطيب».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان تحويل مقر القيادة الطيبية الى الهند مؤشراً على النهاية الفعلية القطعية للطور اليمني للاسماعيلية الطيبية[٢٤].

ويقول الدكتور «فرهاد دفتري»: «وقدم الاسماعيليون الهنود خدمة فريدة الى الاسماعيلية ايضاً عن طريق حفظهم لقسم جيد من التراث الأدبي الاسماعيلي، بما في ذلك الأعمال الكلاسيكية للفترة الفاطمية والرسائل التي كتبها الطيبون اليمنيون، وكانت هذه المخطوطات الاسماعيلية، وهي التي يطلق عليها مجتمعة اسم «الخزانة المكنونة» قد تحولت، ولا سيما بعد القرن العاشر - السادس عشر، من اليمن الى الهند حيث استمر نسخها هناك من قبل مثقفين اسماعيليين بهرة افضل في «كجرات» وفي أمكنة اخرى وتوجد في الوقت الحاضر مكتبات رئيسية لمثل هذه المخطوطات في سورات، وبومباي وبارودا». ثم يستطرد بالقول: «وكان الداعي المطلق للبهرة الداؤديين قد أسس قواعد صارمة في ما يتعلق باستخدام مكتبة سورات الضخمة من الكتب والمخطوطات»[٢٥].

وفي عام ٩٩٩هـ انقسمت الفرقة الطيبية الى فرقتين:

١ - داؤدية، تؤيدها اسماعيلية الهند

٢ - سليمانية، تؤيدها اسماعيلية اليمن

سبب هذا الانقسام وفاة الداعي المطلق «داؤد بن عجب شاه» فانتخبت جماعة طيبية كجرات في الهند «داؤد بن قطب شاه» خلفاً له. رفض طيبية اليمن ذلك وانتخبوا داعياً آخر يدعى سليمان الحسن فلقبوا بالسليمانية وهم من أصول عربية جلهم من قبيلة «يام» وهي فرع من قبيلة همذان في اليمن. السليمانيون يميلون الى العزلة ولا يختلطون بغيرهم من المذاهب الأخرى ويحتفظون بكتبهم في سرية تامة وينتشرون في نجران بالمملكة السعودية واليمن والباكستان والداعي المطلق في يومنا هذا هو علي بن الحسين ومقره في مدينة نجران.

اما الداؤدية فيسكنون الهند ويرأسهم داع مطلق يعتمد النص في الامامة من الأب الى الابن وله الحكم المطلق وتأويل القرآن وهو معصوم عن الخطأ.

---

(٢٤) كتاب «الاسماعيليون تاريخهم وعقائدهم»، فرهاد دفتري، ص ١٩٩ .

(٢٥) المرجع نفسه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الداؤديون يعتمدون الاصول الاسماعيلية في مراتب الدعوة، فعندهم الداعي والحجة والمكاسر والمأذون، وعندهم مشايخ يعرفون بالحدود.

يؤمن الداؤديون بفلسفة الفيض الالهي، وهو ابداع الله للعقل والنفس والهيولى، ولديهم مدرسة كبيرة اسمها «دارسيفي» لتعليم الفقه الجعفري والفلسفة الاسماعيلية.

يؤدي كل داؤدي، يبلغ الخامسة عشرة من عمره، قسم الولاية المعروف عندهم «بالميثاق» يتعهد فيه الولاية للأئمة الاسماعيلية والطاعة العمياء للداعي المطلق.

ان عقيدة البهرة الداؤدية كعقيدة التوحيد الدرزية فهي تحرّم بصورة صارمة التبغ والمشروبات الروحية، ما يجعل بعض الموحدين يعتقد، خلافاً للواقع، وجود دروز في الهند.

يكتب الداؤديون بالخط العربي ولغتهم مزيج من اللغة الكجراتية واللغة العربية. يميل الداؤديون الى الاعتزال والزهد، وكالموحّدين الدروز يحتفظون بكتبهم بسرية تامة ولا يتزوجون من غيرهم كالهندوس أو من فرق اسلامية اخرى.

الداعي المطلق للداؤديين في يومنا الحاضر هو «برهان الدين بن طاهر سيف الدين» ويقيم في مدينة بومباي في الهند.

اما الفرقة السليمانية في اليمن فيقدر عددها بستين الف نسمة يعيشون في المقاطعات الشمالية وفي المنطقة الحدودية بين اليمن والمملكة العربية السعودية ويعيشون بمعزل عن الزيديين وبقايا الداوديين كما يوجد منهم في بومباي والباكستان واحمد آباد.

يختلف السليمانيون عن الداوديين أنهم من أصل عربي والداؤديون بهرة من أصل هندي ولغة السليمانيين الأوردية وهي خليط عربي - سنسكريتي ولكنهم يستعملون العربية في المراسلات كما أنهم، كالداؤديين يحافظون على كتبهم بسرية تامة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العقائد الاسماعيلية وتأثيرها على العقيدة التوحيدية الدرزية

ذكرنا سابقاً ان هذه الدراسة المقتضبة لا تتعدى البحث التاريخي على مدى الحركة الفكرية الفلسفية والعوامل السياسية والاجتماعية التي تسببت في نشوء ثم انتشار الدعوة التوحيدية الدرزية، كما اوضحنا بأن لا علاقة لهذه الدراسة بالمعتقدات المذهبية الدرزية.

ان المذهب التوحيدي أساسه الطاعة والخضوع لمشيئة الله تعالى والايمان المطلق بتوحيد المولى، عز وجل، وان ملاك المعرفة التوحيدية الالهية هو العقل، علة العلل وأقرب الحدود الروحانية الى الخالق وأسبقها الى توحيده ومعرفته. واما النفس، ثاني الحدود، فهي ملاك الوحي الالهي، واطمئنانها، هو الرضى والتسليم لمشيئته تعالى، والسعادة الكاملة التي سبغها على المؤمنين من عباده.

قبل الخوض في دراسة العقائد الاسماعيلية وتأثيرها على عقيدة التوحيد الدرزية، لا بد من الاشارة إلى ان قسماً كبيراً من الكتب الاسماعيلية أتلف، ومكتبات مصر، التي كانت تحتوي على مئات الألوف من المؤلفات العلمية والفلسفية دمرت عند انتقال سلطة الحكم من الفاطميين الى الأيوبيين عام ٥٧٥هـ عندما انهى السلطان صلاح الدين يوسف الأيوبي الخلافة الفاطمية وجعل الخطبة تقرأ في مساجد مصر باسم الخليفة العباسي المستضيء بالله[1].

---

(١) صلاح الدين اصدر اوامره الى الجند والى عامة الناس بأن يتصرفوا كما يشاؤون بالمكتبات الفاطمية. وهكذا امتدت الأيدي الأثيمة الى هذه الخزائن وأخذت تعبث بتلك النفائس فحمل قسم كبير منها والقي في نهر النيل حتى ان مياهه اصطبغت باللون الأسود.
قد يكون انه كان بين الكتب التي اتلفت مؤلفات عن عقيدة التوحيد الدرزية اذ بالاضافة الى مؤلفات الامام حمزة بن علي بن احمد، كان يوجد كتاب «الدستور» لمحمد بن اسماعيل الدرزي (نشتكين) وكتاب لأبي منصور البرذعي اشار اليه داعي الدعاة احمد عبد الحميد الكرماني في احد كتبه. قصر المدة التي انطلقت خلالها دعوة التوحيد لم يسمح بكتابة مؤلفات كثيرة ومهمة عنها =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمعروف تاريخياً ان العديد من المصادر السنية والشيعة الاثني عشرية كان متحيزاً ضد الاسماعيلية الى حد تشويه الحقائق التاريخية وحتى طمس معالمها، هذا مع العلم ان الحركة السرية الاسماعيلية، من طبيعتها اخفاء عقائدها، لا على اعدائها فقط، بل حتى على قسم كبير من اتباعها الذين يحرمون فرصة الاطلاع على اسرارها العقائدية ومكنوناتها الروحانية.

وتعتبر الكتب التوحيدية الدرزية، التي منها يمكن الاطلاع على بعض التوافق بينها وبين العقائد الاسماعيلية، خصوصا فلسفة الفيض الأفلوطنية اليونانية المحدثة اشد تحفظاً من الكتب التي تركها لنا الفاطميون الاسماعيليون على اعتبارها كتابات فرقة باطنية تعتمد السرية التامة للحفاظ على معتقداتها الدينية لأنها وضعت لنخبة من المؤمنين، فهي تنطوي على معلومات حرّمت على من لا يكون أهلاً لها من الجماهير.

الجدير بالاشارة اليه ان معظم المفكرين الاسماعيليين كانوا من اصول فارسية، عدا القاضي النعمان بن محمد بن حيون (توفي عام ٣٦٣هـ) فقد كان مغربياً[٢] صحب الخليفة الامام المعز لدين الله من المغرب الى مصر.

من ابرز المفكرين الفرس الذين تركوا اثاراً كثيرة على المعتقدات الاسماعيلية هم: محمد بن زكريا الرازي، ابو يعقوب اسحق السجستاني، ابو رشيد احمد

= اذا استثنينا رسائل الحكمة والمصحف المنفرد بذاته نجد ان جل ما كتب عن عقيدة التوحيد كان في زمن لاحق بعد انتقال الدعوة الى لبنان. وبعد زمن الأمير السيد عبدالله التنوخي.

(٢) هو النعمان بن ابي عبدالله بن محمد بن منصور بن احمد بن حيون التميمي. أعظم فقيه اسماعيلي من بيت علم وفقه. ولد سنياً على مذهب مالك بن أنس ثم اعتنق الاسماعيلية عام ٣١١هـ ولد عام ٢٩٠هـ وتوفي في القاهرة عام ٣٦٣هـ. دخل في خدمة الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي عام ٣١٣هـ وندم الخلفاء الفاطمين الأربعة الاوائل ثم رافق الخليفة المعز لدين الله الى القاهرة. اسس اسرة متميزة من القضاة وكان ابنه ابو الحسين علي اول شخص حمل لقب قاضي القضاة. صرف القسم الأعظم من حياته من تأليف الكتب في الشريعة والفقه والتاريخ والتأويل. من أهم مؤلفاته، «دعائم الاسلام» «الأيضاح» وغيرهما.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن ابراهيم النيسابوري، احمد حميد الدين الكرماني صاحب الكتاب المشهور «راحة العقل» المؤيد في الدين وهبة الله بن موسى الشيرازي، ناصر خسرو ومحمد بن سعد بن داؤد الرفتة.

وهولاء المفكرون الفرس كانوا نواة الرفض الفارسي لاحتكار العرب للأمامة والخلافة، اذ ان الأمامة عند السنة تنحصر في قريش، وعند الشيعة في آل البيت، والقرآن انزل بلغة عربية والنبي عربي، وهذه المعطيات جعلت الفرس يشعرون ان عهدهم انقضى في المنطقة، فهم اخوان في الدين ولكن الدين عربي.

واضافة الى التأثير الفكري الفارسي على العقائد الاسلامية، نرى الفكر اليوناني، وهو من الينابيع الأولى والاساسية للفلسفة في التاريخ، ينتشر في منطقة البحر المتوسط ويمتد حتى بلاد الهند.

تسللت الفلسفة اليونانية الى بلاد فارس من مدرسة «الرها» في بلاد الشام، والتي تأسست في اوائل القرن الخامس ميلادي. وفي عام ٤٨٩م اقفلها الامبراطور البيزنطي «زينون» بسبب نزعتها النسطورية، فالتجأ بعض الاساتذة والعلماء الى مدينة «نصيبين» حيث أسسوا مدرسة أصبحت مركزاً مهماً لدرس الفلسفة اليونانية واللاهوت المسيحي. وفي مدرسة نصيبين ظهر «بروبيس» الذي كان أول مترجم للفلسفة اليونانية الى اللغة السريانية.

وفي عام ٥٢١م أسس الملك الفارسي الشهير، كسرى انوشروان، معهد جنديسابور[٣] في فارس، الذي اشتهر كمؤسسة كبرى للعلوم اليونانية القديمة وكان أساتذة هذا المعهد جلّهم من السريان والفرس.

وفي عام ٥٢٩م، عندما أقفل الامبراطور جوستنيان معهد «اثينا» لجأ الى فارس، خصوصاً معهد جنديسابور، سبعة من الفلاسفة الافلوطنيين المتأخرين.

وفي بلاد الشام تأسست، في القرن السابع ميلادي، مدرسة في دير قنسرين، أسسها الراهب «يوحنا بارافتويا» وفيها نبغ «سويروس سيبوخت» (توفي عام ٦٦٧م)

(٣) تخرج من معهد جنديا سبور الامام حمزة بن علي بن احمد الزوزني.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والذي ترجم العديد من الكتب اليونانية الى اللغة السريانية كما وضع شروطاً لكتابين من كتب الفيلسوف اليوناني ارسطو طاليس، هما كتاب «العبادة» وكتاب «الشعر» كما ألّف كتابا تفسيراً لكتاب «التحليلات الأولى» وهو عن الفلسفة اليونانية.

وكان من تلاميذ مدرسة دير قنسرين يعقوب الرهاوي الذي كتب في اللاهوت والفلسفة، وكذلك كان «جاورجيوس» الملقب بأسقف العرب، الذي ترجم كتاب «الاياغوجي» للفيلسوف اليوناني «فرفوريوس»(٤).

ومن المترجمين السريان في مدرسة نصيبين كان الراهب «سرجيوس الرأس عيني» (توفي عام ٥٣٦م) والذي ترجم كتب أرسطو طاليس وجالينوس الى السريانية.

وفي القرن السابع ميلادي تأسس معهد حرّان للعلوم اليونانية الذي ساعد كثيراً على انتشارها كما نشر فلسفة الفيلسوف البابلي هرمس(٥).

لم اشر الى المترجمين العرب الذين عملوا عند الخليفة المأمون ابو جعفر الرشيد (١٩٨ - ٢١٨هـ) في بيت الحكمة. في بغداد الحنين ابن اسحق وابنه اسحق، لأن مايهمنا في هذه الدراسة هو الانتشار الفلسفي قبل الاسلام، اي قبل الهجرة عام ٦٢٢م وليس خلال العهود الاسلامية.

وهذا البحث المقتضب عن انتشار الفلسفة اليونانية في بلاد المشرق، قبل انتشار الدعوة الاسلامية، هو لتعريف القارئ على مدى تأثير هذه الفلسفة في العقائد الاسماعيلية وعلى عقيدة التوحيد الدرزية بصورة خاصة.

ولا بد من الاشارة الى ان بعض المفكرين المسلمين، وخصوصاً الاسماعيليين، يقول بأن العقائد الاسماعيلية تأثرت كثيراً بالفلسفة اليونانية التي اقتبسوها من رسائل

---

(٤) اذا اراد القارئ معلومات مفصلة عن انتشار الفلسفة اليونانية في بلاد المشرق وعن الترجمة، عليه بكتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية لهنري كوربان، ص ٥٥ - ٦٥ وكتاب الدكتور ماجد فخري، تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ٢٧ - ٤١ .

(٥) في كتاب الصحف الموسومة بالشريعة الروحانية في علوم اللطيف والبسيط والكثيف توجد رسالة «هرمس»، «ذي امحت به» الى ابنه. هذه الرسالة الصوفية تبلغ مائة وسبع عشرة صفحة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اخوان الصفا. ولكن هذا القول ينفيه الدكتور «فرهاد دفتري» اذ يقول ان المفكر محمد احمد النسفي هو الذي ادخل الفلسفة اليونانية الى العقائد الاسماعيلية وان كتابه «المحصول» خصص لعرض صنف من نظام «متافزيقي» افلاطوني يحتوي على «كوزمولوجية» اسماعيلية جديدة ويمثل اقدم شاهد على التوفيق والملائمة بين الاسماعيلية والافلاطونية الحديثة»(٦).

ويقول المستشرق الالماني: «ساموبل شترن» حيث انه، اي النسفي، اقدم مفكر اسماعيلي يدخل الفلسفة الافلاطونية المحدثة، وبدقة اكثر، في الفلسفة الاسلامية الوليدة في الفكر الاسماعيلي»(٧).

اما عن رسائل اخوان الصفا، فيقول الدكتور: «فرهارد دفتري». «ولم يكن للرسائل اي تأثير على الاسماعيلية المعاصرة لها بما فيها العقائد التي دعا اليها الاسماعيليون الفاطميون، كما لم يشر اليها مؤلفو الفترة الكلاسكية (٢٩٧ - ٤٨٧هـ)(٨).

ويقول المفكر الشيعي اللبناني حسين مروه: «ويتبلور استنتاجنا هنا بأن الوجه الاسماعيلي الذي يظهر على «اخوان الصفا» لا يعطي العلاقة بينهم وبين الاسماعيلية اكثر من هذه الصفة للأفكار الموضوعية، فان لدينا اقتناعاً بأنه كان لاخوان الصفا وجود مستقل عن التنظيم الاسماعيلي، رغم ما نراه من نقاط الالتقاء الكثيرة بينهما. ولكن وجودها المستقل لا ينفي ان يكون لها نوع من الارتباط المبدئي او المذهبي بأصول الاسماعيلية. ومنشأ اقتناعنا بهذا الرأي هو انه ليس في المصادر التاريخية المعاصرة «لاخوان الصفا» ولا في المصادر القريبة العهد بعصرهم، وثائق تتحدث عن نشاطهم كجماعة منظمة ولا عن استخدام الاسماعيلية رسائل اخوان الصفا في نشاط الدعاة الاسماعيلين المنتشرين في كثير من بلدان العالم الاسلامي حينذاك»(٩).

---

(٦) كتاب «الاسماعيليون تاريخهم وعقائدهم»، ص ١٢٢ .

(٧) Samuel Stern Miklos, Studies in early Ismailism .

(٨) كتاب «الاسماعيليون تاريخهم وعقائدهم»، ص ١٢٣ .

(٩) كتاب النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، المجلد ٢، ص ٣٦٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول حسين مروه: «والاّ لماذا لم تظهر أثار لنشاطهم يتحدث عنها المؤرخون في عصرهم او العصور القريبة منه لو كان هذا النشاط موجوداً بالفعل، لماذا لم يتحدث عنهم الشهرستاني او ابن خلدون مثلاً؟»(١٠).

بعد هذه المقدمة المقتضبة عن الفلسفة اليونانية التي كان لها تأثير ملحوظ على الفكر الاسماعيلي، خصوصاً فلسفة الفيض، يمكننا الآن ان نبحث في العقائد الاسماعيلية ونرى هل ان العقيدة التوحيدية الدرزية، التي كذلك تأثرت بالفكر اليوناني، انطلقت من العقائد الاسماعيلية، كما يظن بعض الباحثين الدروز، او على الأقل، تأثرت بها، واذا كان ذلك صحيحاً فما مداه في تكوين العقيدة التوحيدية الدرزية.؟..

الدعوة الاسماعيلية هي المظهر الالهي في الامامة التي تشكل المحور الاساسي في التشيع الاسلامي وتنطلق من ان لكل ظاهر حقيقة باطنه يظهره التأويل المخول به الامام، وهو نائب الله على الأرض، وهذا المظهر الالهي الشيعي هو المنطلق العرفاني الأول في الاسلام(*).

الاسماعيليون، مثل كل المسلمين، قبلوا بالقرآن الكريم وسنة الرسول مصدراً رئيسياً لعقائدهم. غير انهم، وعلى وفاق مع الشيعة الاثني عشرية، تحولوا عن قواعد السنة باعترافهم وتقيدهم بالأحاديث التي رواها ائمتهم من آل البيت.

تقول الاسماعيلية عن أهمية أعمال الامام وصفاته. «يتمركز الاختلاف الاساسي بين انظمة الفقه الاسماعيلي وبين تلك الانظمة السنية، حول عقيدة الامام.

---

(١٠) كتاب النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، المجلد ٢، ص ٣٦٥ .

(*) يتردد كثيراً اسم الفيلسوف افلوطين، صاحب فلسفة الفيض في هذه الدراسة وهو المعروف عند العرب باسم الشيخ الاسكندراني او الشيخ اليوناني. كان مواطناً معرباً ولد في اسيوط عام ٢٠٥ ميلادي وتوفي ٢٧٠م. في عام ٢٤٢م التحق بالجيش الروماني بقيادة الامبراطور «غورديانوس» لمحاربة الفرس وتعلم حكمة الشرق من منابعها ثم رجع الى انطاكية ومنها الى روما حيث استقر بها وعكف على تعلم الفلسفة. كان زاهداً متقشفاً عاش حياة القديسين وسط ترف روما وتهتكها. جمع كتاباته تلميذه «فرفوريو» وجعلها في ستة كتب كل كتاب تسعة فصول فعرفت بالتاسوعات. فلسفته تمتاز بالعمق الصوفي ووحدة الوجود ويقول ان الوجود الحقيقي هو وجود الاول ويليه وجود العقل ثم وجود النفس ووجود العقل مقدم على وجود النفس ووجود الاول مقدم على وجود العقل اما المادة فلا ذكر لها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالامام بالنسبة للاسماعيلية، كذلك للشيعة الاثني عشرية، هو المرجع النهائي في تفسير كلام الله المنزل، والمستودع الوحيد بعد النبي للعبادات والسلوك الانساني. والامام له الحق المطلق في تفسير المعاني الباطنية ذات الأهمية الشاملة للقرآن وبذلك كانت له العصمة. والأئمة رفضوا القياس والاجماع، في حين انهم ساهموا فيما بعد بايجاد نوع من الاجماع والعقل، او العمل العقلي المنظم. ويقولون ان الأئمة هم المؤهلون لاصدار الأحكام الشرعية فهم فسروا الشريعة المعترف بها، وهولاء يعرفون باسم المجتهدين ويمارسون الاجتهاد في احكامهم على العقلية الشرعية».

ويختلف الموحدون الدروز عن الاسماعيلية، اذ لا امامة عندهم فقد انتهى دورها عند ظهور صاحب الكشف، وسبق وقلنا، يقولون بذلك: «اذ قام بالتوحيد آخر قائم من الأئمة الطاهرين المهديين وعرفنا ان صاحب الكشف وهو صاحب القيامة واليه انتهت ادوار الامامة». واستعاض الموحدون عن الامامة بمشيخة العقل ويعتبرون امتداداً تاريخياً فقط لفكرة الامامة. الموحدون الدروز لا يعتبرون شيخ العقل نائب الله على الأرض وان له العصمة وحق التأويل كما تعتبر الاسماعيلية الامام. ان هذا الاختلاف بين العقيدتين جذري واساسي فالموحدون الدروز كذلك يعتبرون ان الوقت انهى التمييز بين الباطن والظاهر وأصبح على الموحدين تحقيق ذواتهم عن طريق الاعتراف المطلق بوحدانية الله تعالى فهو حاكم الكون وخالقه.

ان تفسير كلمة التأويل التي تعتمدها الاسماعيلية والشيعة الاثني عشرية من دون سائر المذاهب، فيقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان «وتشكل كلمة «التأويل» مع كلمة «التنزيل» زوجاً من المصطلحات والمعاني المتضادة المتكاملة «فالتنزيل» يعني الدين الوضعي او الكلام الذي أملاه الملاك على النبي، انه انزال هذا الوحي من الملاء الاعلى، اما التأويل فهو على العكس، انه عودة ورجوع الى الأصل، وبالتالي الى المعنى الحقيقي الاصلي للكتاب، انه اعادة الشيء الى أصله، فالذي يمارس التأويل اذن هو شخص يحيد بالمقالة عن ظاهرها الخارجي ويعيدها الى حقيقتها»(١١).

(١١) كتاب «تاريخ الفلسفة الاسلامية»، ص ٥٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا بد من الاشارة الى الباطنية، وليدة التأويل، فهي تأويل النص الظاهر بالمعنى الباطن تأويلاً قد يصل التباين في الباطن والظاهر الى حد التناقض الخالص. الباطن يعني ان النصوص الدينية هي رموز واشارات الى حقائق خفية، والطقوس والشعائر هي رموز كذلك رموز واسرار، وان عامة الناس يقنعون بالظواهر ولا يفقهون المعاني الخفية التي هي من شأن علم الحق، اي، علم الباطن. ان لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً، والتأويل هو مزيد المعرفة ابتغاء مزيد من العمق من الآراء التي يحتويها التنزيل.

ان ترتيب مرتب الدعوة الاسماعيلية الهرمي هو كالآتي:

١ – الناطق – النبي، ينزل عليه الوحي من الله عز وجل، وهو النذير والبشير.

٢ – الاساس – او الوصي. هو الامام الاول علي بن ابي طالب.

٣ – الامام – له الامر والعصمة، يؤم الناس ويدلهم على عبادة الله. هو نائب الله على الأرض ومستودع سر رسول الله.

٤ – الباب – ان مصطلح الباب (احياناً باب الأبواب) يطلق على الرأس الاداري في الدعوة وهو الشخصية التي تلي الامام مباشرة وهو الناطق باسم الامام، عند النصيرية يعتبر نائب الامام، وهي مرتبة سلمان الفارسي.

٥ – الحجة – له رتبة الحكم في الحق والباطل. هونائب الامام عند غيابه فهو الظل الذي لا يفارقه.

٦ – داعي الدعاة – هو رئيس الدعاة والمسؤول امام الحجة عن توزيعهم في الجزر والاقاليم وعن اختيارهم وله رتبة تعريف الحدود.

٧ – داعي البلاغ – له مسؤولية تبليغ الأوامر والارشادات الى الدعاة في الجزر والاقاليم وهو المشرف على المراسلات والمسؤول عنها.

٨ – النقيب – له صلاحية نشر تعاليم الدعوة ويحق له السفر في كل مكان بدون الاستئذان من احد ويرتبط بداعي الدعاة مباشرة. يطلق عليه لقب «ذو مصة» لأنه يمتص العلم والمعرفة من داعي الدعاة الذي يمتصهما من الحجة والحجة من الامام.

٩ – الداعي المأذون – له رتبة اخذ العهد والميثاق ولكن لا يحق له السفر الى بلد ما الاّ باذن من داعي الدعاة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٠ - الداعي المحدود - لا يحق له ان يتكلم او يسافر الاّ في منطقة يحددها له داعي الدعاة.

١١ - الجناح الايمن - ملحق بالداعي النقيب يقوم بخدمته يزور البلد الذي يريد الداعي زيارته فيدرس اوضاعه السياسية والاجتماعية ويقدم بها تقريراً الى الداعي النقيب.

١٢ - الجناح الايسر - ملحق بالداعي النقيب وعليه الواجبات نفسها ويقوم بأعمال الجناح الايمن نفسها.

١٣ - المكاسر - له الحق مجادلة ومناقشة رؤساء المذاهب والعمل على نشر الدعوة في البلد الذي يزوره. يتلقى الأوامر من داعي الدعاة.

١٤ - المكالب - صلاحياته تنحصر في تحري الأخبار وكل ما يتحدث به الناس عن الدعوة.

١٥ - المستجيب - اول رتبة يصل اليها المنتسب للدعوة. وهذه تمثل القاب وصلاحيات الاشخاص الذين ينتسبون الى جهاز الدعوة الاسماعيلية.

الموحدون الدروز يشيرون الى هذه المراتب العقائدية الاسماعيلية، خصوصاً الناطق، الاساس، الامام، الحجة والداعي من دون توضيح عن اعمال او مسؤوليات الدعاة او اعمالهم ولا يعتمدونها في اعمالهم العقائدية الاساسية او ينظرون اليها كترتيب او قاعدة لمراتب الدعوة.

وتقول الاسماعيلية عن صفات ومسؤليات واعمال اصحاب المراتب العقائدية الروحانية ما يلي: ان الامام سمي الامام لأنه يؤم بهم ويدلهم على عبادة الله، وسمي السابق لأنه اول من سبق الى معرفة المولى سبحانه تعالى، وسمي الناطق لأنه ينطق في كل زمان بالحق، وسمي خليفته أساس لأن المؤمنين يستجيبون الى كلامه في الدين. وسمي التالي لأنه يتلو علوم الامام. وسمي بالجد، لأنه جدّ في طلب العلم من الامام. وسمي المأذون فتحاً لأنه يفتح باب العهد والميثاق. وسمي المكاسر الخيال لأنه يلوح بكلمة ومكاسرته مثل الخيال.

والاسماعيلية تقول: «ان النبي كان خاتم النبيين وبموته تنتهي النبوة ولكن يبدأ عهد الولاية، اي الامامة، (الامامة انتهى دورها عند الموحدين) ثم يقولون ان دعائم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاسلام هي الصلاة، والزكاة، والطهارة، والصوم، والحج والجهاد والولاية، وهي أفضل الدعائم، فهي باطن النبوة، والولي يعقب النبي، لأن النبوة ليست غير ظاهر الولاية، اي دور الباطن يعقب الظاهر والحقيقة تتلو الشريعة، والاولياء هم اصدقاء الله تعالى».

ويقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان: «الشيعية الاثني عشرية، تجهد للحفاظ على توازن الظاهر والباطن، بينما الاسماعيلية، ترى ان كل ظهور ظاهري له معنى داخلي مستور وحقيقة باطنية، وهي اسمى من الحقيقة الظاهرة، اذ هي معرفة المؤمن للتقدم الروحي. والولي هو أساس التجلي الأول، اذاً، الظاهر صدفة لا بد من كسرها نهائياً، اذاً يتقدم الولي، وهو باطن النبوة، على النبي[١٢] والرسالة النبوية لانها وقتية[١٣]. نرى بكل وضوح، مما تقدم، ان الولاية، اي الامامة، مستمرة بعد النبوة التي انتهى دورها عند وفاة النبي وبعد ان سلّم الرسالة التي نزلت عليه الى المؤمنين، وهو خاتم النبيين ولا نبي بعده.

لا يمكن الخوض في شرح الفروض الدينية التوحيدية الدرزية فهي من أسس عقيدة التوحيد، والسرية الصارمة المفروضة على الكتب المذهبية الدرزية تمنع البحث في موضوع الفروض، ولكن يكفي ان نشير، فقط، للعلم وليس للتحليل او كشف اسرار المذهب التوحيدي، ان اول فرض عند الموحدين الدروز هو، صدق اللسان الذي يعتبر عندهم مرادفاً للتوحيد، وهو يعني التصديق باللسان والفؤاد، فمن يكذب فقد خرج من دين التوحيد. ويقول الأديب الكبير مارون عبود في قصيدته عن الدروز:

والصدق شرعتهم فان عاهدتهم
بـرّوا وان نطقوا بأمـر يصدقـوا

من الواضح، ان عدم وجود الامامة عند الموحدين الدروز واعتبارها عند

---

(١٢) ان تقدم الولي، اي الامام، على النبي هو من عقيدة النصيرية (العلويين) «عمس» وهو كذلك من معتقدات اسماعيلية «قلعة الموت» في فارس «عسم».

(١٣) مقتطفات من كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ١٦٠ و ١٦١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاسماعيليين من صلب عقيدتهم، كما وجود الاختلاف الجذري بين الفروض الاسماعيلية والفروض التوحيدية الدرزية يجعل فجوة كبيرة اساسية بين العقيدتين.

يتفق الاسماعيليون والموحدون الدروز على عقيدة التوحيد وفلسفة الفيض الأفلوطينية اليونانية المحدثة. بالنسبة للتوحيد، بالرغم من اطلاق تسمية الموحدين بالدروز، وهم كارهون لها، فان التسمية المحببة لديهم ويتفاخرون بها فهي «اهل التوحيد»، اي الموحدون. وفي مآتمهم يردد مشايخ الأجاويد باستمرار: «قل هو الله احد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً احد»(١٤).

والموحدون الدروز، وكذلك الاسماعيلية يشيرون باستمرار الى توحيد الله تعالى والى تقديم الاجلال والتعظيم له. فالموحدون يقولون: «ان توحيد الله، عز وجل، أعظم المطلوبات، فبالتوحيد تصل انفس المؤمنين الى معرفة المولى». كما ان الفريقين يؤكدان التوحيد بنفي الصفات عن الله، وقد يكون اخذا ذلك عن المعتزلة.

يقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان في جدلية التوحيد عند الاسماعيلية: «لقد ذهب العرفانيون القدماء الى اشارات وتلميحات محض سلبية، وذلك لتنزيهه تعالى عن التشبيه بكل ما هو صادر او ناشيء عنه. فهو لا يعرف، ولا يوصف، ولا يسمى وان هو الاّ هوة بلا قرار. فالله هو المبدع، وغيب الغيوب، ولا تدركه الأبصار، ولا يمكن ان ينسب اليه، لا اسم ولا صفة ولا نعت ولا وجود ولا عدم وجود. فالمبدع هو فوق الكائنات، وليس بكائن ولا يكون، انه يمنح الكينونة وهو فعل الكينونة ذاته»(١٥).

ويقول المفكر الاسماعيلي الكبير، احمد حميد الدين الكرماني: «ان الله تعالى متنزه عن الصفات لا شريك له وانه ليس «ايساً وليس ليساً»(١٦) وليس من جنس

---

(١٤) سورة الاخلاص.

(١٥) كتاب «تاريخ الفلسفة الاسلامية»، ص ١٤٠ .

(١٦) «الأيس والليس» من المصطلحات الأسماعيلية، «الايس» يعني الموجود والوجود «والليس» دلالة على العدم والمعدوم اي لا موجود.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العقول حتى تدركه العقول، وليس حتى بجسم حتى تدركه الحواس، ولا يحل بجسد، ولا يعرّف عنه بقول ولا بعقد ضمير»[١٧].

ويقول المفكر الفرنسي، سلفستر دي ساسي[*]: «ان الدروز ينفون صفات الله فيقولون، ان المولى سبحانه لا يدخل تحت الاسماء والصفات وليس شخصاً ولا جسماً، ولا صورة، ولا جوهر ولا عرضاً، ولا هو قائم ولا جالس، وليس له شبه ولا ذاهب، ولا مار ولا لطيف ولا كثيف ولا قوي ولا ضعيف، فهو سبحانه منزه عن جميع الأسماء والصفات والأجناس والأشياء كلها»[١٨].

ويقول محمد عبد الكريم الشهرستاني: «اعتمد المعتزلة نفي الصفات القديمة اصلاً، فقالوا، هو عالم بذاته، حي بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة. هي صفات قديمة، ومعان قائمة به، لأنه لو شاركته الصفات من القدم، الذي هو اخص الوصف شاركته في الالهية»[١٩].

وجعل الموحدون الدروز التوحيد اساساً لعقيدتهم وسبيلاً الى معرفة الله، فالتوحيد حقيقة الديانات، فان أول الديانة معرفة الموحد بالله، وكمال معرفته نظام توحيده، ونظام توحيده نفي صفات المخلوقين عنه تعالى.

حضور الامام حمزة بن علي[٢٠]، الذي كان داعياً اسماعيلياً، في صفوف الدعاة الاسماعيليين، ومناقشة ارائهم والاشتراك في جدلهم في الندوات التي كانت تقام في «دار الحكمة» جعل بعض الفكر الاسماعيلي يتسرب الى عقيدة التوحيد الدرزية. ومما يسترعي الانتباه، ان العقيدة الاسماعيلية، التي استلهمت الكثير من أصولها من الفلسفة اليونانية المحدثة، اعتمدت، خلافاً عن العقيدة التوحيدية، فكرة

---

(١٧) كتاب راحة العقل. كان الكرماني مدير بيت الحكمة في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله. توفي عام ٤١١ .

(*) ملحق رقم ١ من آخر الكتاب عن سلفستر دي ساسي.

(١٨) كتاب «دين الدروز» طبع في باريس عام ١٩٣٨ .

(١٩) كتاب الملل والنحل، مجلد ١، ص ٤٤ .

(٢٠) يقال ان الامام الحاكم بأمر الله تخلّى عن الامامة لحمزة بن علي في عام ٤٠٨هـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الابداع وطرحت جانباً النظريات القائلة بالفيض، وتعتبر ان وجود الموجدات عند الله، لم يحصل عن طريق الفيض بل عن طريق الابداع والخلق.

اسهب المفكر الاسماعيلي، احمد الكرماني في رفض نظرية الفيض فقال: «نقول ان اعتقدنا ان وجود الموجودات هي عن المتعالي عن الصفات، سبحانه، على سبيل الفيض لا على سبيل الابداع، كنّا قد صورناه أنفسنا من وجوده بما لا يطابق ما عليه وحقه لما يلزم ويجب به في وجود ما يعلل المتعالي عن الصفات، سبحانه وتعالى، ما وجوده محال. وذلك من شأن الفيض ان يكون عن جنس ما فيه يفيض ومشاركاً له ومناسباً، ويكون الفيض، من جهة ما هو فيض، كعين ما يفيض منه من طبيعة الفيض، مثلما في الفيض من طبيعته ولا فرق بينهما من هذه الجهة». ثم يقول: «فبعد نفي الصفات، يؤدي الفيض الى تناقض، اذ يفيض الشيء من لا شيء، اذ من شأن الفيض ان يكون من ما فيه يفيض»(٢١).

اما عن فلسفة الفيض، فتلتقي العقيدة التوحيدية مع العقيدة الاسماعيلية. تقول الاسماعيلية، وهذا القول معروف حتى لدى عامة الدروز: «ان الله، جل ذكره، ابدع من نوره الشعشعاني الكامل، العقل الكلي، وابدع من نور العقل الكلي النفس الكلية، السابق التالي وابدع من نور التالي الهيولى وهي الأرض وما عليها والافلاك والطبايع الأربعة»(٢٢).

وثم يزيد «الكلمة» على الحدود الأربعة، لعدم وجودها في فلسفة افلوطين، فيقول: «ومعنى اسم «الكلمة» الواقع على أمره.. لأن الكلمة ممّا تحمل على الاسم ليكون به قولاً مؤلفاً من اسم وكلمة... فلما وضعت الكلمة بمعنى أمر المبدع، جل جلاله، ان تلحق بأمره كلمته»(٢٣).

والفيلسوف اليوناني افلوطين لا يشير الى «الكلمة» في تعريف فلسفة الفيض اذ يقول: «هو الله يبدع العقل، والعقل يفيض على النفس والنفس تفيض على الهيولى».

---

(٢١) كتاب راحة العقل، ص ١٧١ .

(٢٢) رسالة تحفة المستجبين، ابو يعقوب السجستاني، ص ١٢ .

(٢٣) رسالة تحفة المستجبين، ابو يعقوب السجستاني، ص ١١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن العقائد الاسماعيلية، التي تتوافق مع عقيدة التوحيد وهي مستمدة من العقائد الاسلامية قولهم: «انه قبل الكائن كان هناك خضوع الكائن لفعل الأمر «كن» وهو تحويل العدم الى موجود، والموجود هو الذي يوجد جميع الوجدات، فالتوحيد يكون عندئذ علم الجوهر الفرد. والظهور الالهي أساس دين التوحيد لأن ما لا يظهر لا يوجد، ومن لا يوجد هو بحكم العدم اي «ليس» وليس «ايس»[٢٤].

وتحدث اخوان الصفا، وهم اسماعيليون، عن بدء الخليقة وعن حدوث الأمور الروحانية دفعة واحدة، وهذا ما يعتقده الموحدون اذ يستندون الى قوله تعالى: «اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون». قالت الاسماعيلية. «اما الأمور الالهية الروحانية، فحدوثها دفعة واحدة مرتبة منظمة، بلا زمان ولا مكان ولا هيولى ذات كيان، بل بقوله تعالى كن فيكون».

وتقول الاسماعيلية: «ان قائم الزمان كان حداً ابدعه الله «بالكلمة» القدسية «كن». الكاف منها دليلاً على السابق، والنون اشارة الى تاليه».

الكلمة مقدسة عند الموحدين الدروز فهي الحد الثالث ويقول احد الموحدين: «الكلمة صلة الله تعالى بالانسان وصلة الانسان بالانسان، هي أساس الكون، بها التاريخ ومنها التراث، وعليها التقدم ولها الفصل بين الحق والباطل. القلم والحبر والورق محدثون والكلمة أزلية. قالها الله تعالى في خلقه الكون وبها كلم موسى ربه وبها انزل كتابه الشريف. لها العقل يهديها للخير والحق ومنها يستمد الشر قوته. هي صلة الحاضر بالماضي ولحمة الحاضر بالحاضر وبناء المستقبل من الحاضر، فيها بلسم للجروح ومفتاح الشر كلمة. وفي انجيل النصارى. «في البدء كانت الكلمة والكلمة هي الله».

ويختلف الاسماعيليون والموحدون في تحديد سلطة «العقل». فالعقل عند الاسماعيلية هو ابداع الله واول قوة اوجدها تعالى لتدبير الكون. اما عند الموحدين الدروز فهو دين يقدسونه ويبنون جل عقائدهم عليه، فهو المخلوق الأول للقدرة

---

(٢٤) يستندون بذلك الى الآية ١١٧ سورة البقرة «واذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون». والآية ٨٢ سورة يس «انما أمره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الالهية، علة العلل والمرجع الأول والوحيد في أعمالهم وتصرفهم الديني والدنيوي. وكما قلنا مراراً، ان الامام حمزة بن علي بن احمد، مطلق ومنشىء العقيدة التوحيدية الدرزية، يدعوه الموحدون «مولاي العقل» والمرجع الروحاني الأعلى لمشايخ الاجاويد الاتقياء والقيمين على دعوة التوحيد وحماة وكاتمي اسرارها هو «مشيخة العقل»، ورئيسهم الروحي يلقب «بشيخ العقل» ولقبهم العقّال[٢٥] اذن العقل هو المحور الاساسي في صلب مذهب التوحيد.

الخضوع الكامل والمطلق للموحدين الدروز للعقل يبرز، بكل وضوح وتأكيد، تأثير مذهب الاعتزال في العقائد التوحيدية. فالمعتزلة رفضوا الايمان اذا لم يقبله العقل، والايمان عند المسلمين هو التسليم الكامل لكلام الله كما انزل في القرآن الكريم وسيرة الرسول. كان تشدد المعتزلة على رفض الايمان اذا لم يقبل به العقل، احد اسباب صدامهم المرير مع اصحاب النص والحديث الممثّلين بالحنابلة والأشعرية وبعض الخوارج.

اذن «العقل» هو محور العقيدة الدرزية وبذلك يختلفون اختلافاً جذرياً عن الاسماعيلية الذين يرجعون في تفسير وتأويل عقائدهم الى الامام الذي يعتبرونه الأمين والقيم على ما نص الله بكتابه الكريم وهو نائبه على الأرض وحجته على خلقه، يعرف الحلال من الحرام، ويدعو الناس الى عبادة المولى، عز وجل. والموحدون الدروز، لا امام عندهم، بل يعتمدون العقل الصلة المباشرة مع الله تعالى، فالتوافق بين العقيدتين في هذا المجال، معدوم كلياً.

من العقائد التي لا توافق فيها بين عقيدة التوحيد الدرزية والعقيدة الاسماعيلية بل اختلافاً ملحوظاً، هي الباطنية. الاسماعيلية يعتبرون الباطنية من صلب عقائدهم ويقولون ان فلسفة الباطن هي اعتناق الحقيقة فيما وراء الظاهر والنصوص التي تمثل الظهور الاسلامي العلني. اما الموحدون الدروز، بالرغم من اعتقاد معظمهم بأن

(٢٥) هولاء العقال قال فيهم الأديب مارون عبود في قصيدته عن الدروز «فاذا مشت بيض العمائم للوغى، حُمّ القضاء فكل شيخ بيرق» وكذلك اولئك الاتقياء الورعون في معارك اللجاة عام ١٨٣٦ ضد جيش ابراهيم باشا المصري الذين سدوا افواه المدافع بعمائمهم البيضاء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عقيدة التوحيد هي عقيدة باطنية، فيعتبرون، كما اشرنا سابقاً، «ان الوقت انتهى بين الباطن والظاهر، واصبح على الموحدين تحقيق ذواتهم عن طريق الاعتراف المطلق بوحدانية الله». ولهذا نجد في كتب الدروز الرفض الواضح للظاهر والباطن.

ثم الاختلاف الظاهر بين الأصول العرقية والأسباب التي أدت الى نشأة الاسماعيلية وانطلاقة الجماعات الدرزية. الاسماعيلية كانت حركة ثورية شيعية اجتماعية ضد ظلم الدولة السنية واستئثارها بالسلطة، فكانت هذه الثورة الجماعية مؤلفة من فقراء عرب العراق والبحرين واليمن وموالي الفرس والأرمن، ثم انضم اليها لاحقاً بربر شمال افريقيا.

يقول المستشرق برنارد لويس «صادفت الدعوة هوى في نفوس جماعات مختلفة في العنصر والدين، مزدكيين، مانونيين، صابئيين وشيعة وسنة ويهود من كل نوع، فانشأت بحكم الضرورة، نطاقاً قوياً من التداخل المعتقدي يقترب احياناً من مذهب عقلي خالص»(*).

اما الموحدون الدروز فهم تجمع بشري اعتنق عقيدة دينية عقلانية توخت الأفضل الآتي على عدم الركون للقائم الحاضر، الذي هو تكراراً لما هو قائم، فأرادوا الانعتاق من ربقة الحاضر وفتح مشارق مستقبلية على تقدم ديني وفكري، اذن الحركة التوحيدية لم تنبثق كالاسماعيلية نتيجة ظلم اجتماعي او تسلط سياسي او انتفاضة خليط من شعوب مختلفة بل كان جل من اعتنقها واسترشد بها من عرق عربي قبلي ترجع اصولهم الى قبائل عربية، كتنوخ وربيعة وتيم بن ثعلبة. وقال فيهم الشاعر:

يمشي الدم العربي في اعراقهم صرفاً صراحاً والدليل المنطق

يتضح مما سبق ان العقيدة الاسماعيلية وعقيدة التوحيد الدرزية ينهلان من نبع واحد فقط، هو فلسفة افلوطين، الشيخ الاسكندراني، اي عقيدة الفيض وعقيدة الامام المهدي المنتظر كما اتفقا في تفسير بعض العقائد الدينية، ولكن افترقا في الكثير من الأصول العقائدية، خصوصاً في تحكيم العقل الكامل عند الموحدين، واعتناق الايمان المطلق عند الاسماعيلية.

(*) كتاب «اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية»، ص ١٥٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قدمنا للقارئ براهين محدودة عن اختلاف او توافق بين العقيدة الاسماعيلية والعقيدة التوحيدية. ثم بالرغم من السرية التامة المفروضة على عقائد مذهب التوحيد، لجأنا بطريقة محدودة الى ما كتبه المفكران، الفرنسي «دي ساسي» والالماني «كرستيان زيبولد» عن دين الدروز، فأخذنا منهما بعض الحقائق التاريخية فقط، مع العلم ان «دي ساسي» نشر الكثير من رسائل الحكمة وقدم تفسيرات جمة عن المذهب التوحيدي في كتابه دين الدروز ولكننا لم نأت على ذكرها، لأنها خارجة عن موضوع هذه الدراسة وبالاضافة تحوطها السرية التامة.

الاّ ان السؤال الذي يطرح نفسه، وهو يقرر خلاصة هذه الدراسة. هل ان الامام حمزة بن علي، الذي كان داعياً اسماعيلياً، مطّلع على العقائد الاسماعيلية بصفته من كبار دعاتها، ومن المعروف ان كان له مناظرات في الندوات التي كانت تحصل في «دار الحكمة» ومجلس الخليفة الحاكم بأمر الله، اقتبس الفلسفة اليونانية من المصادر الاسماعيلية. او انه، وهو العالم الكبير وخريج جامعة «جنديسابور» في فارس، حيث كانت الفلسفة اليونانية تدرس من فلاسفة يونان وفرس، تخطى الفكر الاسماعيلي وما كتبه الفلاسفة والعلماء الاسماعيلية واتجه من دون وسيط الى الفلسفة اليونانية؟... اذا كان الجواب انه تخطى الاطار العقائدي الاسماعيلي، تكون العقيدة التوحيدية الدرزية غير منبثقة عن الدعوة الاسماعيلية. بالرغم من وجود بعض التوافق في بعض العقائد التاريخية الدينية كعقيدة الأدوار والأكوار واختلاف الزمان والدهور في عالم التكوين والنطقاء السبعة وأسسهم وظهور صاحب الكشف وقائم الحق وامام الزمان وهو الامام المهدي المنتظر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علم الكلام

يقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان «ويعتبر المعتزلة اقدم من زاول علم الكلام. ولا شك في أنهم يؤلفون مدرسة ذات طابع ديني بعيدة الأثر»[1] وبما ان العقيدة التوحيدية الدرزية تأثرت بالأفكار الاعتزالية، وخصوصاً التوحيد والعقل، فنظرة مقتضبة على علم الكلام تكون مفيدة لتوضيح أسس هذه المعتقدات..

يقول الشيخ المولوي، محمد بن علي التهانوي: «علم الكلام، ويسمى بأصول الدين ايضاً، وسماه ابو حنيفة بالفقه الأكبر، وفي مجمع السلوك يسمى بعلم النظر والاستدلال ايضاً، ويسمى ايضاً بعلم التوحيد والصفات»[2].

ويقول سعد الدين التفتازاني، في كتاب شرح العقائد، «هو العلم المتعلق بالأحكام الفرعية، اي العملية، ويسمى علم الشرائع والأحكام، وبالاحكام الأصلية اي الاعتقادية، ويسمى علم التوحيد والصفات»[3].

ويقول محمد احمد اسماعيل النسفي: «انه سمي كلاماً لأنه يورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات والزام الخصوم كالمنطق والفلسفة»[4].

ويقول احد مفكري الأشعرية: «يتعلق في علم الكلام اثبات الايمان والعقائد الدينية تعلقاً عقليا، لأن هذا العلم هو اثبات عقائد اساسية، كأزلية الله تعالى، والتوحيد والصفات، وذلك لكون صفات الله متعددة وموجودة في ذاته. الكلام هو العلم الأعلى، اذ تنتهي فيه العلوم الشرعية كلها وفيه تثبت موضوعها وحيثياتها، فليس له مبادئ تبين في علم آخر».

---

(١) كتاب «تاريخ الفلسفة الاسلامية»، ص ١٧٠ .

(٢) كتاب «كشاف اصطلاحات الفنون»، ص ٢٢ .

(٣) كتاب «مذاهب الاسلاميين»، عبد الرحمن بدوي، ص ١ .

(٤) كتاب «العقائد النسفية»، ص ١١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذم الحنابلة علم الكلام ونهوا عن الخوض فيه. ففي المناظرة التي جرت بين ابن حنبل وبين ابي دؤاد في حضرة المعتصم قال ابن حنبل: «لست انا صاحب كلام وانما مذهبي، الحديث» وينسب اليه انه قال: «لا يفلح صاحب كلام ابداً، ولا يرى احد نظر في الكلام الا وفي قلبه دغل»(٥).

ويقول المستشرق هنري كوربان: «مارس الشيعة علم الكلام ولكن الأئمة حذروا من مغبة التشبث المتعصب بعلم الكلام ومشاكله المتعددة. فالعرفان عند الشيعة يطغى عليه الطابع الاجتهادي، اي التفسير الديني، اكثر من الطابع الجدلي المنطقي فينأون عن البرهان العقلي، على اعتبار ان الايمان هو الجواب على كل استفسار وليس العقل»(*).

اما المعتزلة، وهم اول من زاول علم الكلام، فكانت لهم مدرسة قوامها التأمل الديني، وجميع طروحاتها الفكرية كانت تتنبع من المعطيات العقلية الاساسية في الاسلام.

اخذ علم الكلام في الانتشار منذ عهد الخليفة المأمون، خصوصاً بعد تعريب المؤلفات الفلسفية اليونانية واتباع انتشارها بصورة خاصة وبفضل اسحق بن حنين، فكان علم اثبات العقائد الدينية على الغير بايراد الحجج المقنعة واعتماد المنطق الفلسفي، وذلك من منطلق، بأن العقائد يجب ان تؤخذ من الشرع ليقيَّد بها وان كانت تستقل عن العقل.

ويعتبر الدكتور عبد الرحمن بدوي «الكلام هو العلم الاعلى اذ تنتهي اليه العلوم الشرعية كلها وفيه تثبت موضوعاتها وحيثياتها، فليست له مبادئ تتبين من علم آخر شرعيا او غيره، مبادؤه، اما مبينة بنفسها او مبينة فيه»(٦).

ويقول ابو حيان التوحيدي: «اما علم الكلام فانه باب من الاعتبار في أصول الدين، يدور النظر فيه على محض العقل في التحسين والتقبيح والأصالة والتصحيح

---

(٥) كتاب تحريم النظر في كتب أهل الكلام. موفق الدين بن قدامة المقدسي.

(*) كتاب الفلسفة الاسلامية، ص ١٧٠ .

(٦) كتاب مذاهب الاسلاميين، ص ١١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والايجاب والتحوير والاقتدار والتعديل والتوحيد والتفكير والاعتبار فيه ينقسم بين دقيق فينفرد العقل به، وبين جليل يفزع الى كتاب الله تعالى. وعلم الكلام بابه مجاور لباب الفقه والكلام فيهما مشترك، وان كان بينهما انفصال وتباين فان الشراكة بينهما واقعة والأدلة متضارعة»(٧).

روي عن ابي حنيفة قوله: «المتكلمون قوم يقولون في امور ليس تحتها عمل، فكلامهم نظري، لفظي لا يتعلق به فعل بخلاف الفقهاء والباحثين في الأحكام الشرعية العملية. علم الكلام رأي جهل وما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام الاّ فيما تحته عمل»..

عندما وقعت الفتن والنزاعات بين المسلمين وظهر اصحاب البدع وكثر الاختلاف في الآراء وفي عدد الفتاوى انبرى الفقهاء لتفسير المسائل والمذاهب وردع اصحاب البدع، فصار الفقه دعامة لعلم الكلام الذي أصبح تفسيراً لأحكام الشريعة لمعرفة أصول الأدلة والعقائد وتقديم الايمان على العقل لأن انتشار الفلسفة من دون تحديد أو تفسير أشاع أجواء فوضى في الفكر الاسلامي.

من الصعب جداً ان نبين التطور والتغيرات التي مر بها علم الكلام، حتى انتهى علماً للالهيات في الاسلام وأصبح المتكلمون من علماء اللاهوت. ويوصف علم الكلام: انه جدل عقلي يتناول الدين والعلوم اللاهوتية واستخدم للدفاع عن الدين والعقيدة الاسلامية كما اشار اليه الفيلسوف ابن سينا.

بما ان العقيدة التوحيدية الدرزية عقيدة لاهوتية عقلانية قوامها الفلسفة اليونانية، تعتمد التوحيد والعقل ولا تقر الاّ الايمان الذي يقبل به العقل باعتماد المنطق الفلسفي بايراد الحجج المقبولة عقليا فقط، فكان علم الكلام عند مفكري الدروز الأوائل ينطبق على الفكر المعتزلي الذي ينطلق من العقل المطلق ولا علاقة له بالفقه او الشريعة.

(٧) كتاب ثمرات العلوم، ص ١٩٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعتزلة

- نشأتها وتاريخها
- النزعات الدينية والجدل الفلسفي عند المعتزلة
- اعلام المعتزلة ومفكروهم الكبار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعتزلة

قبل ان نخوض في بحث مذهب الاعتزال علينا ان نلقي نظرة، ولو مقتضبة، على نشوء «القدرية» التي ظهرت قبل حركة الاعتزال وأصبحت ركنا من اركانها والشرارة الأولى في انطلاقها.

انتقل العرب من محيط الصحراء الضيق وحياة الاكتفاء، وحتى العوز، الى حياة الترف والرفاهية حيث أصبح المال من مستلزمات حياتهم، فطلبه الناس وتزاحموا على الحصول عليه، فتسبب ذلك في انتشار المعاصي من التهافت عليه ومن انفاقه. كثر الجدل في أسباب ذلك واتجه الى علاقة الدين بهذه الأوضاع التي طرأت على مسيرة حياتهم، اسبابها ومصادرها.

قال بعضهم بنفيها عن الانسان لأنه مجبر من الله على افعاله، ورفض الآخرون ان يكون الانسان لا اختيار له في أفعاله وانما تسيره يد القضاء والقدرة، فأطلت القدرية برأسها، تدعمها بعض الآيات في الكتاب الكريم، فكان اول من قال بها معبد الجهني، ثم عمر بن مقصوص وغيلان الدمشقي[1] فأطلق عليهم لقب اصحاب القدرية وكانوا اول راوّد حركة الاعتزال والركن الأساسي التي بنيت عليه.

ذابت الجهمية وانقرضت حركة القدرية ولكن تعاليمها بقيت محصورة في فرقة المعتزلة ولهذا يمكن اعتبار المعتزلة ورثة القدرية والجهمية.

---

(١) كتاب الفرق الاسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي، الدكتور حسين عطوان، فيه دراسة كاملة عن غيلان الدمشقي.

قتل الأمويون هولاء المفكرين لقولهم بالقدرية

قتل جعد بن درهم خالد بن عبدالله القسري والي العراق.

قتل جهم بن صفوان، سلم بن احوز عام ١٢٨هـ. الطبري جزء ٩ ص ٦٩ .

قتل عمر بن مقصوص مروان بن الحكم عام ٨٠هـ. كتاب ابن العبري ص ١٩١ .

قتل غيلان الدمشقي الخليفة عبد الملك بن مروان، كتاب الخطط، المقريزي، جزء ٤، ص ١٨١ .

قتل مكحول الدمشقي، هشام بن عبد الملك، كتاب شرح العيون، ص ١٥٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاعتزال كان من اوائل المدارس الفلسفية في الفكر الاسلامي، وقد اعتمد العقل في تقديم ما انزله الله تعالى على عبده، ثم رفض الايمان المطلق ان يكون الطريق الى الدين حتى ينص العقل بذلك.

العبادة والرضا والتسليم بما انزله الله تعالى في كتابه الكريم هي الطريق الى الايمان. والايمان قوام المعرفة التي تنير طريق المؤمن الى معرفة الله تعالى، قوامها النص «لكم ما قيل لكم وهو ما أنزل عليكم وانتم عباد الله المؤمنين».

ولكن المعتزلة قدمت العقل على الايمان وحاولت دمجهما ولكنها أعطت السيادة الكاملة للعقل، فأطلقت بذلك حرية التصرف الحر في معتقدات الانسان مكرسة مسؤوليته الشخصية عن أفعاله وما ينجم عنها من خير او شر، بعد أن كان دعاة الايمان المطلق يعتبرونه مسلوب الارادة خاضعاً للقدر مسيراً في اعماله وذلك ايماناً منهم بأن تلك هي ارادة الله تعالى، فالانسان بالتالي، غير مسؤول عن نتائج أعماله لأنها فرضت عليه فرضاً جبرياً لا حكم له عليها.

في العهدين، الأموي والعباسي، أصبح القول بالقدر وحرية الانسان في أفعاله، جدلاً لقاعدة فكرية وسياسية، قاومتها بشدة وشراسة السلطة الحاكمة التي نادت بالجبرية التي تقول ان الانسان لا حرية له في التصرف بأعماله لأن المولى يفرضها عليه ويجبره القيام بها.

كان ذلك التشدد بالجبرية تبريراً للأمويين والعباسيين لاغتصابهم الحكم من آل البيت والتصرف باموال المسلمين لمآربهم الشخصية من دون رادع. قال معاوية بن أبي سفيان: «لو أراد الله غيرنا للخلافة لفعل ذلك». كما قال: «المال؛ مال الله ونحن خزّانه نتصرف به كما أمرنا الله». كما ان الخليفة العباسي المنصور ابو جعفر (١٣٦ – ١٥٨هـ) قال في خطبة في الكوفة «ايها الناس، انما انا سلطان الله في أرضه، اسوسكم لتوفيقه وتأييده، وحارسه على ماله اعمل فيه بمشيئته وأعطيه باذنه، فقد جعلني الله عليه قفلاً، ان شاء ان يفتحني فتحني لاعطائكم وقسّم ارزاقكم، وان شاء ان يقفلني عليها اقفلني».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تأخذ المدرسة المعتزلية بقوله تعالى: «فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً[٢]». وكذلك: «واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعوا ربي عسى الاّ اكون بدعاء ربي شقياً[٣]». ثم حديث الرسول الكريم: «من اعتزل في الشر سقط في الخير». ونقل سفيان الثوري عن ابن الزبير عن جابر بن عبدالله عن الرسول: «ستفترق امتي الى بضع وسبعين فرقة ابرّها واتقاها الفئة المعتزلة وهو تمام الخير».

يقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان[٤] : «ويعتبر المعتزلة اقدم من زاول علم الكلام. لا شك في أنهم يؤلفون مدرسة ذات طابع ديني تأملي بعيدة الأثر وان مساعيهم ومحاولاتهم نابعة من المعطيات الدينية الاساسية في الاسلام[٥].

يقول الدكتور محمد عبد الرحمن مرحباً: «المعتزلة هم رواد النزعة العقلية في الاسلام وطلائعها. فهم يمتازون عن سائر الفرق الاسلامية الأخرى بتعظيم للعقل تعظيماً لا حدود له وبايمانهم به وثقتهم بمقدرته ثقة لا تجد لها نظيراً بين الفرق الدينية الاسلامية وغير الأسلامية»[٦].

يقول الامام الزيدي، احمد بن يحيى بن المرتضى: «والذي اختصت به المعتزلة استنباط المسائل التي تفرض عند تطبيق العقل على الايمان وافادة تلك المسائل بالألفاظ، فكانت هي التي تعرضت لمسألة النسبة بين الدين والعقل لأول مرة وبقوة فكرية عجيبة وثبات عظيم»[٧].

ومما يلفت النظر ان المعتزلة والموحدين الدروز يلتقون حول أمور عدة منهجية وعقائدية، وخصوصاً العقل الذي يعتمدونه في بناء فلسفتهم الدينية، فالموحدون

---

(٢) سورة مريم، آية ٢٢ .

(٣) سورة مريم، آية ٤٨ .

(٤) هنري كوربان كان لمدة طويلة رئيس قسم العلوم الدينية في جامعة طهران ثم انتقل الى جامعة السوربون في باريس حيث عمل مديراً لكلية اللغات الشرقية، يعتبر خبيراً كبيراً في علوم الدين الاسلامي وخصوصاً المذهب الشيعي، له مؤلفات كثيرة منها تاريخ الفلسفة الاسلامية.

(٥) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ١٧٠ .

(٦) كتاب من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية، ص ٦٣١ .

(٧) كتاب طبقات المعتزلة ص (ز).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدروز يقدسون العقل، فهو علة العلل والابداع الأول والمرتبة الثانية بعد الله عز وجل، وارادة الله على الأرض. اما المعتزلة فقد آمنوا بوجوب العقل قبل الشرع والايمان، وهو كذلك عندهم علة العلل والابداع الأول.

تعددت التأويلات حول اسم المعتزلة، فأبو محمد الحسن بن موسى النوبختي يقول: «ان الذين اعتزلوا عن علي بن ابي طالب وامتنعوا عن محاربته او المحاربة معه، بعد دخولهم في بيعته كانوا، سعد بن ابي وقّاص، وعبدالله بن عمر بن الخطّاب، ومحمد بن مسلّمة الانصاري وأسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، فسمّوا المعتزلة وصاروا اسلاف المعتزلة الى آخر الأبد»(٨).

اعتمد هولاء الصحابة في موقفهم مع الامام علي على الآية: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل»(٩). ولما لم يعرف هؤلاء الصحابة الباغي التزموا الاعتزال(١٠).

أشرنا الى أن بعض مؤرخي المعتزلة يرجع الى القرآن الكريم للدلالة على اطلاق هذا الاسم عليهم ويعتمدون الآية: «واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعوا ربي عسى ألاّ اكون بدعاء ربي شقياً(١١)».

ويقول الدكتور مصطفى الشكعة: «ان تسمية المعتزلة جاءت في تلك الصفة التي لازمت رجال الاعتزال في تقى وتقشّف وبعد عن ملاذ الحياة ومفاتنها فهم بذلك معتزلون الدنيا زاهدون فيها»(١٢).

ويمكن اطلاق الأوصاف نفسها على الموحدين الدروز، اذ يقول الدكتور مصطفى الشكعة: «والزهد عند مشايخ الدروز لا يعني التواكل، بل هو هدوء وعفة، وصدق ونزاهة وابتعاد عن الشبهات والمحرمات والشهوات، واعراض عن بهارج

---

(٨) كتاب فرق الشيعة، ص ٥ .

(٩) سورة الحجرات، آية ٩ .

(١٠) كتاب فجر الاسلام، احمد امين، ص ٢٩١ .

(١١) سورة مريم، آية ٤٨ .

(١٢) كتاب الاسلام بلا مذاهب، ص ٣٩٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدنيا وزخارفها وبعد عن الحكام والسلطان وتلاوة وعبادة مع توخي كسب الحلال من الرزق الذي يقيم الأود ويسد الرمق»[١٣].

والمتفق عليه بين القسم الأكبر من المؤرخين المسلمين، ان ابا حذيفة واصل بن عطاء، وهو مؤسس مدرسة الاعتزال، اعتزل مع عمرو بن عبيد بن باب، حلقة المفكر الكبير الفقيه حسن البصري[١٤] في مسجد البصرة، بعد جدل حول مسألة «المنزلة بين المنزلتين». ويروي المؤرخ الشهرستاني: «دخل احدهم على حسن البصري وقال: «يا امام، لقد ظهر في زماننا من يكفرون اصحاب الكبائر، والكبيرة[١٥] عندهم لا تضر مع الايمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة[١٦]. قبل ان يجيب حسن البصري، قال واصل بن عطاء: «انا لا أقول صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر بل فاسق»[١٧] وقام واعتزل الى ناحية في المسجد، فقال حسن البصري: «اعتزل عنا واصل»، فسمي اتباعه بالمعتزلة[١٨].

امّا المفكر اللبناني حسين مروه فيقول: «ان انتقال واصل من حلقة في مسجد البصرة الى حلقة اخرى في المسجد نفسه، هو الذي يحدد نشأة المعتزلة، بحيث يبدو على هذا انها وجدت بصورة عفوية ارتجالية فجائية بعمل جسدي انفعالي آني، وبتغير شخص معين مجلسه من مكان الى مكان آخر، ان فهم المسألة على هذه الصورة، لا

---

(١٣) كتاب اسلام بلا مذاهب، ص ٢٦٣ . سنرى في هذه الدراسة ان عقيدة التوحيد الدرزية تأثرت بأفكار المعتزلة منها، التوحيد، القدرية، وأهمية العقل وغيرها.

(١٤) هو ابو سعيد الحسن بن ابي حسن البصري، ولد في المدينة المنورة عام ٢١هـ. وكانت أمه مولاة لأم سلمة زوجة الرسول. ام سلمة هي التي وبخت الخليفة عثمان بن عفان امام جمع كبير من الناس، لضربه عمّار بن ياسر. حسن البصري هو صاحب الرسالة المشهورة عن القضاء والقدر التي ارسلها الى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان.

(١٥) الكبائر نوعان، كبيرة وهي الشرك بالله، وصاحبها كافر مخلد بالنار، وكبيرة دون الشرك وهي تسعة، قتل النفس التي حرم الله قتلها الا بالحق. الزنى. التنكر لحقوق الوالدين. شهادة الزور. السحر. اكل مال اليتامى. الربا. قذف المحصنات والتوالي عن الزحف.

(١٦) المرجئة فئة من المسلمين قالت بعدم تكفير المسلم وتركوا الحكم في مصير صاحب الكبيرة، في العالم الآخر، لله وحده.

(١٧) الفسق هو عدم طاعة الله ويشمل الكافر والمؤمن العاصي.

(١٨) كتاب الملل والنحل، جزء ١، ص ٤٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكفي ان نصفه بأنه تبسيط مبتذل لمفهوم حركة تاريخية فكرية من هذا النوع، لا شك ان الشهرستاني، وغيره من المؤرخين، لم يقصدوا هذا التبسيط المبتذل ولا هذا التشويه الغريب. ان نسب هذه الحركة تعبيراً عن موقف فكري، يمثل تياراً لا انفراداً ولا انشغالاً جسدياً في المكان الى شخص بعينه». ثم يقول: «فحركة المعتزلة بجملتها اذن، نشأت تعبيراً عن تيار فكري يتجه اتجاهاً معينا في فهم العقائد، ولم تنشأ حركة فردية عفوية. ومن هنا نقول ان البحث العلمي يرفض ما قد يستفاد من رؤية الشهرستاني السابقة ومن الروايات المماثلة لها بشأن نشأة المعتزلة ونشأة اسمها»[١٩].

الاّ ان المفكر زهدي جار الله يقول: «ان ما اورده ابو الحسن المسعودي[٢٠] في ان كلمة اعتزال في اصطلاح مذهب المعتزلة هو القول: «بالمنزلة بين المنزلتين» اي باعتزال صاحب الكبيرة من المؤمنين والكافرين، هو أقرب الى الصواب وادعى الى الأنصاف»[٢١].

وفي رأي المستشرق «جولد زهير» انهم سموا معتزلة لأن رؤساءهم الأولين، كواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وعبدو بن صبيح المردار وجعفر بن بشر وجعفر بن حرب، كانوا يعتزلون العالم ويحيون حياة التقشف والزهد»[٢٢].

ويروى عن أبي اسحق بن عياش انه قال عن نشوء مذهب الاعتزال: «لقد اخذ واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد المذهب عن ابي هاشم عبدالله، واخذه هذا عن ابيه محمد ابن الحنفية وهذا عن والده علي بن ابي طالب وأخذه علي عن النبي، صلى الله عليه وسلم»[٢٣].

قسّم احمد بن يحيى بن المرتضى المعتزلة الى اثنتي عشرة طبقة ابتداء من الخليفة ابي بكر الصديق وعمر بن الخطّاب حتى آخر الخلافة العباسية واهم هذه الطبقات، السادسة، لأنها تضم جميع مفكري المعتزلة. ولكن الواقع الأصح تقسيمهم الى معتزلة البصرة ومعتزلة بغداد.

---

(١٩) كتاب النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، ص ٦٣٩ .

(٢٠) كتاب مروج الذهب جزء ٦، ص ٢٢ ، وجزء ٧، ص ٢٣١ .

(٢١) كتاب المعتزلة، ص ١١ .

(٢٢) كتاب شرح مختصر الفرق بين الفرق، فيليب حتّي، ص ٩٨ .

(٢٣) كتاب المنية والأمل، ابن مرتضى، ص ٥٠٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معتزلة بغداد كانوا:

١ – ابو سهل بشر بن المعتمر الهلالي، توفي عام ٢١٠هـ وهو مؤسس فرع بغداد.
٢ – ثمامة ابن الاشرس، توفي عام ٢٣٤هـ
٣ – ابو موسى المردار، توفي عام ٢٢٦هـ
٤ – جعفر بن مبشر، توفي عام ٢٣٤هـ
٥ – جعفر بن حرب، توفي عام ٢٣٦هـ
٦ – ابو عبدالله احمد بن ابي دؤاد توفي عام ٢٤٠هـ
٧ – ابو جعفر محمد بن عبدالله الاسكافي، توفي عام ٢٤٠هـ
٨ – ابو الحسين الخيّاط، توفي عام ٢٩٠هـ
٩ – ابو القاسم عبدالله بن احمد بن محمود البلخي الكعبي، توفي عام ٣١٩هـ

اما معتزلة البصرة فكانوا:

١ – واصل بن عطاء، توفي عام ١٣١هـ
٢ – عمرو بن عبيد بن باب، توفي عام ١٤٣هـ
٣ – خالد بن صفوان، توفي عام ١٣٣هـ
٤ – ابو عمرو معمّر بن عباد السلمي، توفي عام ٢٢٠
٥ – ابو الهذيل محمد بن الهذيل العلاّف، توفي عام ٢٣٥
٦ – ابو سهل بشر بن المعتمر الهلالي، توفي عام ٢١٠هـ (مؤسس فرع بغداد)
٧ – هشام القوطي، توفي عام ٢١٨هـ
٨ – موسى الاسواري، توفي عام ٢٠٠هـ
٩ – ابو اسحاق ابراهيم بن سيّار النظّام، توفي عام ٢٣١
١٠ – معمّر بن عباد، توفي عام ٢٣٠
١١ – عمرو بن بحر الجاحظ، توفي عام ٢٥٦هـ
١٢ – ابو يعقوب يوسف بن عبدالله بن اسحق الشحام، توفي عام ٢٣٣
١٣ – ابو علي محمد بن عبدالله الوهاب الجبائي توفي عام ٣٠٣هـ
١٤ – ابو هاشم عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي توفي عام ٣٢١هـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بدأ النشاط السياسي لمعتزلة بغداد في عهد الخليفة العباسي الرشيد ابو جعفر هارون بن المهدي (١٧٠ - ١٩٣هـ) اذ كان واصل بن عطاء ورفاقه يعملون بنشاط في خدمة القضية العباسية وكان بنو العباس يعطفون عليهم.

عند استلام الخليفة الرشيد الحكم - وكان له نزوات عنيفة في دفاعه عن الدين - رفض بعض مقالات المعتزلة، خصوصاً قولهم بالقدرية، ثم بالولاء لآل البيت العلوي، واضطهدهم واخرجهم، مع قلة عددهم، من بغداد. ثم ابنه الخليفة الأمين، ابو موسى محمد بن الرشيد (١٩٣ - ١٩٨هـ) اصدر امراً بملاحقة المعتزلة وانزال الموت بهم[٢٤] وقد سبب هذا الاضطهاد، والتشريد والاعتقالات صدامات مباشرة مع السلطة[٢٥]. ولكن ابان خلافة المأمون، ابو جعفر عبدالله بن الرشيد، (١٩٨ - ٢١٨هـ) بلغت المعتزلة اوج ازدهارها الذي استمر الى عهد شقيقه المعتصم بالله ابو اسحاق بن الرشيد (٢١٨ - ٢٢٧هـ) كما امتد الى أيام الخليفة الواثق بالله ابو جعفر ابن المعتصم.

يقول الدكتور ماجد فخري: «كان المأمون أعظم راع للفلسفة والعلم في تاريخ الاسلام على اختلاف حقبه واحواله. فأخبار المناقشات الكلامية والفلسفية التي جرت في مجالسه بجرأة نادرة، تلقي ضوءاً ساطعاً على المشاكل العقلية والمناخ الفكري العام الذي ساد في ذلك العصر[٢٦].

انشأ الخليفة المأمون «بيت الحكمة» في بغداد عام ٢٠١هـ وأرسل وفوداً الى بلاد الروم وجلب الكتب العلمية والفلسفية اليونانية وتولى نقلها الىالعربية مترجمون لامعون منهم يوحنا بن ماسويه وحنين بن اسحاق وابنه اسحق بن حنين وعيسى بن بيحيا.

اعلن الخليفة المأمون عام ٨٢٧ ميلادية، ان عقيدة المعتزلة في خلق القرآن هي المذهب الرسمي للدولة، وأصدر بذلك منشوراً أجبر به القضاة وكبار موظفي الدولة، «على القول بخلق القرآن»، «ومن لا يوافق بذلك يطرد من منصبه ويعاقب لعدم الثقة

(٢٤) كتاب الصواعق المرسلة، ابن قيّم الجوزية، ص ١٣١ .

(٢٥) كتاب الوزراء (الجهشتاري)، ص ٢٣٣ .

(٢٦) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ٣٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بايمانه وبدينه». وقال «حتى لا تنفذ أحكام الله تعالى الاّ بشهادة أهل البصائر في الدين والاخلاص للتوحيد».

يقول بعض المؤرخين، ان عمل الخليفة المأمون والقاضي ابي دؤاد واصرارهما على تثبيت خلق القرآن وجعله قانوناً للدولة آثار غضب غلاة السنة كالاشاعرة والحنبليين وسبّب الفتنة المؤلمة التي ذهب ضحيتها الكثيرون من المعتزلة.

تبنى الخليفة المعتصم بالله وابنه الخليفة الواثق بالله فكرة جعل خلق القرآن في صلب سياسة الدولة العباسية والعمل بها كقانون شرعي، كما فعل الخليفة المأمون قبله، ولقيت هذه السياسة قبولاً من الجهات المختصة والقابضة على السلطة.

استمرت هذه السياسة حتى تولى الخلافة المتوكل على الله ابو الفضل جعفر بن المعتصم (٢٣٢ - ٢٤٧هـ)، وكان شديداً في مسألة الدين يؤمن بأن جميع المذاهب التي لا تؤمن بالنص، بدع ملحدة، فعزل جميع من كان يقول بالاعتزال من السلطة وقرّب اليه الامام ابن حنبل وأهل الحديث الذين كانوا يكرهون المعتزلة، فاضطهدوا المعتزلة وطاردوهم حتى قتلوا منهم اعداداً كثيرة، قيل أنها تخطت الألوف، تحت شعار «ان كل مخلوق يموت وكلام الله ازلي لا يموت». ولم تلبث ان انفجرت الفتنة في بغداد وانتشرت العامة في الأسواق يقتلون المعتزلة وينشدون:

لا والذي رفع السماء بلا عماد للنظر
ما قال قائل في القرآن بخلقه الاّ كفر
لكن كلام الله منزل من عند خلاّق البشر

واصبح اسم المعتزلة مقروناً بالتشيع والكفر حتى رفض الناس الصلاة خلف ائمتهم.

وجد المعتزلة أنفسهم، بعد عام ٢٣٧هـ، في أوقات عصيبة اذ اصبحت الدولة تلاحقهم وعامة الشعب تكرههم وتكيل لهم ضربات قاسية شديدة وأصبحوا جماعات مختلفة متنافرة ينهشها الانشقاق والتباغض حتى بلغوا درجة من الانحلال والانهيار فصار من الطبيعي بعدها ان يلجأوا الى الخفاء يمارسون نشاطهم بالسر بعيدين عن السلطة الحاكمة. ودراسة فلسفة الاعتزال واصحابها تثبت بأن الفلسفة اليونانية لعبت دوراً رئيسياً في تكوين الفكر واللاهوت الاسلامي، بالرغم من قربه من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فارس، لأن اليونان يؤمنون بالعقل مصدراً للمعرفة الدينية وفاصلاً بين الايمان المطلق المتعنت والانفتاح العلمي العقلاني.

والتراث الفكري العربي، قبل الاسلام وقبل تغلغل الفلسفة اليونانية في الفكر الاسلامي، كان يقتصر على تدوين أحداث تاريخية، جلها قصص وأساطير عن الحروب والغزوات وعلوم طبيعية بدائية تكونت عن خلفية من الأفكار المسيحية واليهودية والزرادشتية التي كانت تنتشر بين القبائل، كأناشيد عن بطولات وأخلاقيات. وكان الشعر الأكثر انتشاراً ولكن مواضيعه كانت محصورة في الغزل والفخر وتدوين وقائع الحروب.

امّا الذي نقل الاعتزال من البصرة الى بغداد فقد كان المعتزلي ابو سهل بشر بن المعتمر الهلالي المتوفى عام ٢١٠هـ، وهو من اهل الكوفة. وعندما قدم البصرة، التقى مع بن سعيد وأبو عثمان الزعفراني، فأخذ عنهما الاعتزال «والأصول الخمسة» الى بغداد(٢٧).

بعد سنوات عديدة من الخفاء والاستتار عادت المعتزلة في بغداد الى الانتشار بفضل الصاحب بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥هـ) الذي استلم الوزارة في عهد الأمير فخر الدولة البويهي، الذي حضن المعتزلة وقدم لهم التسهيلات والحماية كافة بعد عصر من الاضطهاد والقهر، وسلّم لهم مراكز قيادية في الادارة والقضاء فحقق لهم نجاحات وامتيازات كبرى، خصوصاً في عهد الأمير عضد الدولة الذي كان اكثر امراء بني بويه حماسةً وقرباً للاعتزال ومؤمناً بعقائدهم(٢٨).

بعد موت الوزير الصاحب بن عباد عام ٣٨٥هـ، الذي كان وجوده على رأس السلطة التنفيذية حماية للمعتزلة، تعرضت المعتزلة لمحنة قاسية أعادت للأذهان اضطهاد وظلم الخليفة المتوكل على الله، اذ تنكر الأمير فخر الدولة البويهي لهم وأمر بملاحقتهم وتشريدهم، وشاركه في الاضطهاد الخليفة القادر بالله الذي أمر بتصنيف كتاب في الأصول الدينية ذكر فيه كفر المعتزلة لقولهم: «بخلق القرآن». وفي الوقت

---

(٢٧) كتاب التنبيه والرد على اهل الاهواء والبدع، ابو الحسين محمد بن احمد المالطي، ص ٤٣ .

(٢٨) كتاب احسن التقاسيم، القدسي، ص ٤٢٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفسه طلب من السلطان سبكتكين الغزنوي، حاكم خراسان، التشدد بنشر مذهب السنة، بالرغم من تشيع البويهيين، ومطاردة المعتزلة والبطش بهم.

نجح سبكتكين الغزنوي في تشتيت المعتزلة في خراسان وحرق جميع كتبهم الدينية، والفلسفية، كما دمّر مكتبة «الري» الكبرى، التي كانت مرجعاً مهماً لطلاّب العلم والمعرفة.

كانت نتيجة هذه المحنة الشرسة القضاء نهائياً على النشاط السياسي الاعتزالي وغياب معتزلة بغداد عن المسرح العلمي والفكري.

اما معتزلة البصرة فلم ينغمسوا في الممارسات السياسية، بل اقتصر نشاطهم على نشر عقائدهم الفلسفية وتفسيراتهم العرفانية وجدلهم الديني مع الاشاعرة والحنابلة، ومحاربة اصحاب البدع والعقائد الثنوية، كالمانوية والديصانية وغيرهم، ولهذا لم يتعرضوا لاضطهاد السلطة والمحن التي واجهها معتزلة بغداد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النزعات الدينية والجدل الفلسفي عند المعتزلة

«ويعتبر المعتزلة اقدم من زاول علم الكلام، ولا شك في أنهم يؤلفون مدرسة ذات طابع ديني تأملي بعيدة الاتزان وان مساعيهم ومحاولاتهم نابعة من المعطيات الدينية الاساسية في الاسلام»[٢٩] في وقت كان فيه معظم الفلاسفة الاسلام يهملون حقائق الفلسفة الانسانية ويوجهون الفلسفة وجدلهم اللاهوتي للدفاع عن المبادئ الاسلامية التي يقوم عليها الدين الحنيف.

يتلخص مذهب الاعتزال في خمسة اصول هي:

١ – العدل

٢ – التوحيد

٣ – الوعد والوعيد

٤ – المنزلة بين المنزلتين

٥ – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الف كتاب «الاصول الخمسة» المفكر المعتزلي الكبير ابو الهذيل العلاّف معياراً مبدئياً لكل معتزلي ومقياساً لولائه العقائدي، ولا يعتبر اي شخص معتزلياً، الاّ بعد اقرار هذه الأصول الخمسة.

وهذه الاصول الخمسة، ميّز الايمان بها المعتزلة كمدرسة فلسفية عن غيرهم من الفرق والمذاهب التي اعتمدت بعض هذه الأصول. فالخوارج قالت بالعدل والتوحيد، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورفضوا المنزلة بين المنزلتين، لأنهم يعتبرون صاحب الكبيرة كافر. والشيعة الامامية لم يقبلوا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لاختلافهم مع المعتزلة حول الامامة، لقول الامامة بعصمة الامام. اما الشيعة الزيدية، فيضعون بدل المنزلة بين المنزلتين، الكتاب والسنة والنبوة.

---

(٢٩) كتاب «تاريخ الفلسفة الاسلامية»، هنري كوربان، ص ١٧٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على ان الاصلين الرئيسيين هما، العدل والتوحيد. الاّ ان المعتزلي، قاضي القضاة عبد الجبّار الهمذاني، في كتابه «المغني في ابواب التوحيد والعدل»[٣٠] جعلهما أصول الدين. ولكنه في كتابه «مختصر الحسن» قال: «ان اصول الدين أربعة، التوحيد والعدل والنبوات والشرائع» وجعل ما عدا ذلك من الوعد والوعيد، والأسماء والأحكام، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، داخلاً في الشرائع[٣١].

وترى المعتزلة ان المخالف في الأصول الخمسة، اما كافر او فاسق او مخطىء. فمن خالف في التوحيد ونفى عن الله ما يجب اثباته، واثبت ما يجب نفيه عنه، فانه يكون كافرا، وكذلك في الوعد والوعيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المفكر.

ويقول المعتزلة في: «الأصول الخمسة»، ان اثنين منها يتعلقان بالله، والثالث في مصير الانسان، اما الرابع والخامس فيبحثان في الالهيات الاخلاقية.

ابتدأت الحركة الاعتزالية مرحلتها الأولى لصياغة عقيدتها المذهبية في العدل والتوحيد. والواقع ان المعتزلة لقّبوا على مر السنين باسم «اصحاب العدل التوحيد».

والعدل الالهي عند المعتزلة، هو تنزيه الله تعالى عن أي ظلم، وعن انه لا يفعل قبيحاً وافعاله كلها حسنة. ويقول القاضي عبد الجبّار الهمذاني. «ان الله عدل وأفعاله كلها حسنة ولا يبخل بما هو واجب عليه، وانه لم يخلق أفعال العباد، بل يفعلون ما أمروا به ويمتنعون عمّا نهوا عنه من خلال القدرة التي جعلها فيهم»[٣٢].

ومن الآيات التي تفسر الالهي على نحو يؤكد مسؤولية العقل الانساني «ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة واحسنوا ان الله يحب المحسنين»[٣٣] فقد قال الله: «وما

---

(٣٠) توفي قاضي القضاة عبد الجبّار الهمذاني عام ٤١٥ هجري.

(٣١) كتاب شرح الأصول الخمسة، ص ١٢٢ .

(٣٢) كتاب شرح الاصول الخمسة، ص ١٣٢ .

(٣٣) سورة البقرة، آية ١٩٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يبدل القول لدي وما انا بظلّم العبيد»[٣٤] ولأنه لا يظلم مثقال ذرة تأكيداً لنفي الظلم عنه، ولأنه تعالى لا يتوجه الى فعل القبيح بأي حال»[٣٥].

ويقول قاضي القضاة عبد الجبّار الهمذاني: «ارجع النبوات والشرائع الى اصل العدل لأنه كلام من اللّه تعالى، اذا علم ان صلاحنا في بعثة الرسل، وان نتعبد بالشريعة، يجب ان يبعث ونتعبد. ومن العدل ان لا يبخل بما هو واجب عليه، ولذلك الوعد والوعيد داخل في العدل، لأنه كلام في انه اذا وعد المطيعين بالثواب، وتوعد العصاة بالعقاب، فلا بد من ان يفعل، ولا يخلف في وعده ولا في وعيده»[٣٦].

امّا الدكتور عبد الرحمن بدوي فيقول: «ومن قول المعتزلة لا يكلف العباد ما لا يطيقون ولا يعلمون، بل يقدرهم على ما كلفهم، ويعلمهم صفة ما كلفهم ويدلهم على ذلك ويبين لهم: «ليهلك من هلك عن بيّنة، ويحيٰ من حيّ عن بينة»[٣٧].

وانه اذا كلف المكلف، واتى بما كلف على الوجه الذي كلف به، فانه يثبه لا محالة. وثم يقول: «ومن علوم العدل ان نعلم ان جميع ما بنا من النعم فمن الله تعالى، سواء كان من جهة الله تعالى او من جهة غيره»[٣٨].

ويقول المستشرق هنري كوربان: «من معرض كلامهم عن العدل الالهي، يتعرض المعتزلة للمسؤولية وحرية الاختيار وهم يعنون بذلك، ان مبدأ العدل الالهي يوجب القول بحرية الانسان ومسؤوليته الناجمتين عن مبدأ العدل الالهي، والاّ فان فكرة العقاب والثواب في الآخرة تصبح مجردة من كل معنى، هذا الى جانب انعدام الثقة بالعدل الالهي»[٣٩].

---

(٣٤) سورة (ق)، آية ٢٩ .

(٣٥) كتاب تنزيه القرآن من المطاعن ومسائل العدل الالهي، القاضي عبد الجبّار الهمذاني، ص ٧٢ و ٧٧ .

(٣٦) كتاب «مختصر الحسن»، ص ١٢٣ .

(٣٧) سورة الانفال، آية ٤٢ .

(٣٨) كتاب مذاهب الاسلاميين، فصل العدل في الاصول الخمسة، ص ٦١ .

(٣٩) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ١٧٦ و ١٧٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علاقة الموحدين الدروز بالفكر المعتزلي تظهر في العدل الالهي والتوحيد بنفي الصفات عن الله، وان العقل هو الكائن الأول بعد المولى، عز وجل، ويعتقد الموحدون ان عدل الله بديهي لا يقبل الجدل والبرهان. ويسأل هؤلاء القوم: «هل الباري عادل أم جائر؟ لا بد من قولهم، هو عدل لا يجور».

والعدل عند المعتزلة لا يقتصر على تجنب الظلم الذي يصيب الانسان الفرد، بل هو عمل الجماعة ككل في سبيل العدالة والمساواة في المجتمع بكامله.

اما التوحيد، فيقول الله تعالى في كتابه الكريم: «قل هو الله احد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوءًا احد»(٤٠).

التوحيد يعني «الله واحد». اذن هو كون ذاته لا كثرة فيها مطلقاً، لا من حيث الكم ولا من حيث الماهية. وهذا يعني نفي كل عرض من اعراض الأجسام الطبيعية البشرية عن ذات الله، اي نفي صفات التشخيص والعضوية، وصفات اللون والرائحة، والأبعاد والجهات التي هي جميعاً بطبيعتها تقتضي الجسمية اي التركيب».

اجمعت المعتزلة على «ان الله تعالى واحد ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير(٤١) وليس بجسم ولا جثة ولا صورة ولا شخص ولا جوهر ولا بذي لون ولا رائحة، لا يتحرك ولا يسكن ولا بذي جهات وغيرها من نفي الصفات، لا تحاط به أقطار السماوات والأرض، هو المحيط بهن وبما فيهن من المخلوقين، فكينونته منهن ككينونته قبل ايجاد ما اوجد من سماواته وأرضه، فهو الأول الموجود من قبل كل وجود، الخالق غير المخلوق والقديم الأزلي الذي لا غاية له ولا نهاية، الذي لم يحدث بعد العدم ولم يكن لأزليته غاية في العدم»(٤٢).

ويقول الامام القاسم الراسي: «هو الواحد الاحد، الذي لا من شيء كان ولا من شيء خلق، خالق الأشياء لا من شيء خلقها ولا على مثال صورها، بل انشأها

---

(٤٠) سورة الاخلاص.

(٤١) كتاب النزعات المادية، حسين مروه ص ٦٥٠، المسعودي مروج الذهب مجلد ٢، ص ٣٥٠ .

(٤٢) كتاب العدل والتوحيد ونفي التشبيه، ص ١٠٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انشاء وابتدأها ابتداء. فهو جل ثنائه، لا يشبه الخلق ولا يشبهه الخلق لأنه الخالق الذي ليس كمثله شيء»(*).

يرجع المعتزلة في التوحيد الى القرآن الكريم. يقول الله تعالى: «... لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا فسبحٰن الله رب العرش عما يصفون»(٤٣) ثم يقول سبحانه وتعالى: «قل مَنْ ربُّ السموات والأرض قل الله، قل أفاتخذتم من دونه اولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا، قل هل يستوي الأعمى والبصير ام هل تستوي الظلمات والنور، ام جعلوا لله شركاء، خلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم، قل الله خلق كل شيء وهو الواحد القهّار»(٤٤).

المعتزلة آمنوا بوجوب العقل قبل الشرع، والموحدون الدروز قدّسوا العقل واطلقوا عليه اسم «الابداع الأول»، ثاني الله، علة العلل والارادة الالهية على الأرض.

نلمس تطابقاً واضحاً بين ما قال به المعتزلة وبين المعتقدات التوحيدية الدرزية، فان الموحدين اخذوا عنهم اسلوبهم العقلاني وشاركوهم بنفي الصفات عن الله وبالقول ان الانسان مخيّر باعماله وانه قادر على تصرفاته. واكد ذلك المستشرق سلفستر دي ساسي اذ يقول: «من السهل ان تعرف ان الدروز لم يكونوا بعيدين عن عقائدهم المعتزلة بالنسبة الى توحيد الله والى ان الانسان مخيّر في أعماله ومسؤول عنها»(٤٥).

الاعتقاد الشائع بين عامة الموحدين الدروز اليوم، هو ان كل شيء «مكتوب» وان الانسان مجبر على أعماله وليس له خيار بها بقولهم: «امشي على ما قدّر الله والكاتبه ربك بيصير» وكذلك قولهم: «ابن عشرة لا يموت ابن تسعة» هو انحراف بالتداول عن المعتقد الديني التوحيدي.

اما نفي الصفات عن الله، وهو أساس التوحيد، للمعتزلة اراء واضحة تماماً نبدأها بقول المعتزلي ابو الهذيل العلاّف: «ان الصفات تقسم الى صفات ذات

(*) المصدر نفسه، ص ١٠٤ .

(٤٣) سورة الانبياء، آية ٢٢ .

(٤٤) سورة الرعد، آية ١٦ .

(٤٥) كتاب Exposé de la Religion des Druzes, p. 13 - 14

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصفات امثال. الاولى تتضمن القدرة والعلم والحياة والحواس، فلا يجوز ان يوصف الله باضدادها. اما الثانية، فيجوز ان يوصف الله باضدادها وبالقدرة على اضدادها، كالارادة، فان الله يوصف بضدها في الكراهة». ثم قال: «ان ذات الله واحدة فعلمه هو ذاته وقدرته»(٤٦).

اما مؤسس المعتزلة، واصل بن عطاء، فينفي صفات الله، «وان الله تعالى قديم بذاته، عليم بذاته، وان صفات الارادة والسمع والبصر ليست من صفاته، وليست معاني قائمة بذاتها، وان الله لا رؤية له بالأبصار ولا تشبيه، وهذا النفي هو من صفات التوحيد»(٤٧).

يتبين لنا من هذه الدراسة المقتضبة، ان التوحيد هو مبدأ الاساس الأول في الاسلام، فشهادة المسلم، وهي اول الفروض والتي لا يصح اسلامه بدونها هي الشهادة: «لا اله الاّ الله». والدروز لقبوا بالموحدين وذلك لتوحيدهم المولى، عز وجل، وكما نسمع مشايخ الأجاويد الاتقياء يرددون في المأتم، باستمرار وخشوع: «قل هو الله احد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُوُاً احد»(٤٨). ثم نداء الصوفي المؤمن: «وحّدوه... لا اله الاّ هو...». والمشرك الكافر، صاحب الكبيرة، هو من يقول ان لله شريكاً، فالله، تمجد اسمه، لا شريك له، فهو «الله احد».

التوحيد ليس من استنباط المعتزلة، ولكن تميزوا به دون غيرهم وقالوا به وفسّروه تفسيراً شاملاً. التوحيد هو العلم والايمان بان الله لا يشاركه احد في الصفات لأن لا صفات له، فهو «موحداً» كما هو عليه في ذاته وهذا هو التوحيد عند عامة المؤمنين، وهو ان يكون الشيء واحدا دون البحث في صفاته نفيها او اقرارها. اما عند المعتزلة، او معظمهم، فهو العلم والاقرار والايمان بأن الله لا يشاركه غيره في الصفات، اذ لا صفات له كي يشارك بها. الله، عز وجل، ليس جسماً تحل به الصفات، ولا عنصراً،

(٤٦) كتاب مذاهب الاسلاميين، عبد الرحمن بدوي، ص ١٤٩ - ١٥٠ .
(٤٧) كتاب مذاهب الاسلاميين، عبد الرحمن بدوي، ص ٨٤ - ٨٦ .
(٤٨) سورة الاخلاص.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا جوهراً، بل هو تعالى، الخالق لهذه الأعراض كلها ومبدع الكون، قال له: «كن فيكون»(٤٩).

«الوعد ايصال الخير الى الغير او دفع ضرر عنه في المستقبل، والوعيد يتضمن ايصال ضرر الى الغير او تفويت نفع عنه في المستقبل». ان العدل الالهي يقضي بأن لا يعامل المؤمن والكافر على حد سواء. ويقول الله تعالى في كتابه الكريم: «ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصٰلحات كالمفسدين في الأرض، ام نجعل المتقين كالفجّار»(٥٠). فطبيعة القول الالهي يتضمن وعيداً للكافر ووعداً للمؤمن. اذا تساوى الكافر بالمؤمن سيؤدي ذلك الى انتقاء الثواب والعقاب.

رفض القاضي عبد الجبّار رأي المرجئة بمساواة الكافر بالتقي طالما كانا مؤمنين ويعتبر الآية «أَم حسبَ الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون»(٥١). وفي كتابه الكريم ايضاً: «ان الله لا يغفر ان يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً»(٥٢).

ويقول المستشرق الفرنسي، هنري كوربان: «ان يكون الله قد وعد المؤمنين من خلقه بالثواب وتوعد الكافرين منهم بالعقاب، فهذا أمر تقرّ به الفرق والمذاهب الاسلامية على اختلافها. ولكن المعتزلة، يربطون بين هذه العقيدة وبين مفهومهم للعدل الالهي، فالعدل الالهي ان لا يعامل الكافر والمؤمن على حد سواء، كما ان الحرية الانسانية تتضمن ان يكون الانسان مسؤولاً عن أفعاله سواء في الخير أم في الشر. وهكذا فان فكرة اللطف الالهي ليس لها الاّ مكان ثانوي في التعليم المعتزلي، اما العدل فهو الذي يحتل المكانة العليا»(٥٣).

---

(٤٩) سورة يس، آية ٨٢ . «انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون».

(٥٠) سورة ص، آية ٢٨ .

(٥١) سورة الجاثية، آية ٢١ .

(٥٢) سورة النساء، آية ١١٦ .

(٥٣) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ١٧٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتقول المعتزلة، ان وعد الله بالثواب ووعيده بالعقاب ووعده بقبول التائب، امور لا بد من الايمان بها، فلذلك لا يكون العفو بغير توبة. بذلك يرد المعتزلة على المرجئة الذين يقولون: «لا تضر مع الايمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة».

اما المنزلة بين المنزلتين فكان غلاة الخوارج يعتقدون، خصوصاً الازارقة[٥٤] والنجدات[٥٥] والاباضية[٥٦] ان الذين كفّروا عائشة ام المؤمنين، والزبير ابن العوّام وطلحة بن عبيدالله، وهما من كبار الصحابة، لقتالهم الخليفة الامام الأول علي بن ابي طالب في معركة «الجمل»، من مرتكبي الكبيرة، ومرتكب الكبيرة كافر وخالد في النار. واعتمدوا في ذلك قول الله تعالى: «إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً»[٥٧] اما المرجئة فقالت، ان مرتكب الكبيرة مؤمن حتى يحكم الله بأمره، وعند الله العدل المطلق»[٥٨].

وقال العالم الكبير حسن البصري: «ان مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً وليس كافراً بل منافقاً». وايده بذلك ابو عثمان عمرو بن عبيد ثم غيّر رأيه عندما قال واصل بن عطاء. «ان صاحب الكبيرة ليس مؤمناً او كافراً او منافقاً، بل بين المنزلتين، اي فاسق».

بعد جدل ونقاش بين حسن البصري وواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، ترك واصل حلقة حسن البصري وانتحى جانباً من المسجد مع جماعته، فقال حسن البصري: «لقد اعتزل واصل عناً، فسمي معتزلاً».

ان الكبيرة عند المعتزلة هي: الشرك بالله تعالى، قتل النفس التي حرّم الله قتلها الاّ بالحق، الزنى، عقوق الوالدين، شهادة الزور، السحر، أكل مال اليتامى، الربا، التواني عن الزحف، وقذف المحصنات.

---

(٥٤) اصحاب ابي راشد نافع بن الازرق. كانوا يعتبرون كل من يخالفهم مشركين، توفي عام ٦٠هـ.

(٥٥) اصحاب نجدة بن عامر الحنفي قالوا: ان الدين امران احدهما، معرفة الله ورسله، والثاني تحريم دماء المسلمين.

(٥٦) اصحاب عبدالله بن اباض من بني مرة، قالوا افعال العباد مخلوقة من الله ومرتكب الكبيرة كافر خالد بالنار.

(٥٧) سورة الانسان، آية ٣ .

(٥٨) المرجئة اعمدت قول الله تعالى «قالوا أرجه وأخاه وارسل في المدائن حاشرين» سورة الاعراف، آية ١١١ . اي امهله واخره.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشرك بالله تعالى هي الكبيرة المطلقة والله لا يغفر لمرتكبها وانه، عز وجل، لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقال جلّ ذكره: «من يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً»(٥٩).

واصل بن عطاء يثبت الفسق على صاحب الكبيرة في مناظرته مع أبي عثمان عمرو بن عبيد اذ يقول: «وليس تجد اهل الفرق يسمّون صاحب الكبيرة فاسقاً ويختلفون فيما عداه من اسمائه. فالخوارج تسميه كافراً وفاسقاً، والمرجئة تسميه مؤمناً فاسقاً، والشيعة تسميه كافر نعمة فاسقاً، والحسن البصري يسميه منافقاً فاسقاً، واجمعوا على تسميته الفسق، فنأخذ بالمتفق عليه، ولا نسمّيه بالمختلف فيه، فهو اشبه بأهل الدين»(٦٠).

يقول ابن قيم الجوزية: «كل ما نهى الله عنه في القرآن فهو كبيرة، وما نهى النبي فهو صغيرة. كذلك كل ما ثبت عليه في الدنيا او وعيد في الآخرة فهو كبيرة، وما يترتب عليه، لا هذا ولا هذا، فهو صغيرة»(٦١).

اذن عند المعتزلة، ان مرتكب الكبيرة لا كافر، كما قالت الخوارج، ولا مؤمن كما ادعت المرجئة، انه بين المنزلتين فاسق. والفسق هو عدم طاعة الله تعالى.

اما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد قالت المعتزلة، ان الله قال في كتابه الكريم: «ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واؤلئك هم المفلحون»(٦٢). ثم قال« عز وجل، «كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو أمن اهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون واكثرهم الفاسقون»(٦٢).

المعروف، هو كل فعل عرف فاعله حسنه او دل عليه واحسن به للغير، والنهي عن المنكر، هو النهي عن القبيح اذا عرف فاعله قبّحه او دل عليه.

ويقول قاضي القضاة عبد الجبّار الهمذاني: «يتأكد التمايز الاساسي بين الأمر

---

(٥٩) سورة النساء، آية ١١٦ .

(٦٠) كتاب المنية والأمل، احمد بن محيي المرتضى، ص ٣٦ و ٣٩ .

(٦١) كتاب الجواب الكافي، ص ١١١ .

(٦٢) سورة آل عمران، آية ١١٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالمعروف والنهي عن المنكر، ان الأمر بالمعروف يكفي - مجرد الأمر به - ولا يلزم حمل من ضيعه عليه. مثلاً، لا يوجب علينا ان نحمل تارك الصلاة الى الصلاة حملاً، بينما لا يكفي من النهي مجرد النهي، علينا ان نمنعه منعاً، فلو ظفرنا بشارب الخمر فان الواجب علينا ان ننهاه بالتدرج، بالقول اللّين، فان لم ينته، خشّنا له القول، وان لم ينته ضربناه، وان لم ينته قاتلناه. الأمر، فهو القول لمن دونه رتبة «افعل»، والنهي قول القائل لمن دونه لا تفعل»(٦٣).

المطلوب من الانسان ان يعلم أنّ المأمور به معروف والمنهي عنه منكر، وهذا الشرط لتجنب الخلط بين طرفي المعني في أمره والنهي عن فعله.

يقول المستشرق هنري كوربان: «ان مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتعلق بحياة الجماعة، انه يهدف الى التطبيق العملي لمبادئ العدالة والحرية في السلوك الاجتماعي. فالعدالة عند المعتزلة لا تنحصر في تجنب الأذى والظلم اللذين للفرد، بل هي ايضاً عمل الجماعة كلها في سبيل خلق جو من المساواة الاجتماعي»(٦٤).

يعتقد البعض ان لقب «بني معروف» الذي يطلق على الموحدين الدروز، يرجع الى عقيدة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، ولكن كتب التاريخ الاسلامية وكتب التوحيد الدرزية، لا تشير الى هذه المقولة، مع ان الأخلاق والمعاملة عند الموحدين الدروز تشير الى تمسكهم بهذه العقيدة. الاّ ان البعض الآخر يعتقد ان لقب «بني معروف» يعود الى معرفتهم بعقيدة التوحيد.

وقد يتساءَل البعض، ما سبب قصر اهتمام المعتزلة على «الأصول الخمسة»، اي التوحيد، العدل، المنزلة بين المنزلتين، الوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. القاضي عبد الجبّار الهمذاني، فسّر هذا الاهتمام في جمع جميع الاهتمامات والعقائد الفكرية ضمن الأصول الخمسة بقوله: «الا ترى ان خلاف الملحدة والمعطلة والدهرية والمشبهة قد دخل بالتوحيد، وخلاف المجبرة بأسرهم داخل في باب العدل،

(٦٣) كتاب شرح الأصول الخمسة، ص ١٤١ .

(٦٤) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ١٧٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وخلاف المرجئة داخل في باب الوعد والوعيد، وخلاف الخوارج داخل تحت المنزلة بين المنزلتين وخلاف الامامية داخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٦٥].

ولكن من الواضح في تاريخ الحركة المعتزلية ان العقل والقدرية وخلق القرآن كانت لهم اهمية كبرى ونتائج حاسمة فاقت «الأصول الخمسة»، ويكفي قولهم بخلق القرآن الذي تسبب في انهيار واندثار حركة الاعتزال.

من اهم العقائد التي قال بها المعتزلة واخذت حجماً كبيراً سياسياً كانت القدرية التي تقول ان الانسان خالق لأفعاله وله على ما يفعل ثوابٌ وعقابٌ في الدار الآخرة، وهو حر التصرف والفاعل للخير والشر ومنبع الايمان والكفر. اما الجبرية فتقول: ان الانسان مسيّر لا مخيّر، وان كل ما يحدث له قد قدّر عليه، وبذلك تنفي الفعل عن العبد وتضيفه الى الله تعالى.

ويقول الشهرستاني: «ان المعتزلة تقول «ان الانسان مسؤول عن اعماله وهو قادر عليها، ويقول واصل بن عطاء، ان الباري تعالى حليم عادل لا يجوز ان يضاف اليه شر ولا ظلم، ولا يجوز ان يريد من العباد خلاف ما يأمر، ويحتم عليهم ثم يجزيهم عليه. فالعبد هو الفاعل للخير والشر، الايمان، والكفر، والطاعة، والمعصية، هو المجازى على فعله، والرب تعالى اقدره على ذلك»[٦٦].

ترى الجبرية ان الفعل الانساني هو فعل خلقه الله في الانسان ولا تعلق للانسان به، لا تعلقاً ولا اكتساباً، وان الانسان وعاء له فقط. ويرد القاضي عبد الجبّار بقوله: «فلو كانت الأفعال الانسانية من خلق الله، لبطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وينتهي الثواب والعقاب لأنه لا يجوز ان يأمر الله بما لا يفعله وينهى عما خلقه». ثم يسأل القاضي عبد الجبّار. «وكيف يحسن من الله المساءلة والمحاسبة والعقاب، وجميع ما وقع من الأفعال وهو الذين خلقها؟»[٦٧].

ويقول القاضي عبد الجبّار: «والانسان يشاء الفعل فيفعل، وقد يشاء فلا يفعل،

---

(٦٥) كتاب شرح الاصول الخمسة، ص ١٢٤ .

(٦٦) كتاب الملل والنحل، جزء ١، ص ٤٧ .

(٦٧) كتاب المختصر في اصول الدين، ص ٢٠٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بمعنى ان المشيئة الانسانية هي حرية الفعل في تنفيذه او العدول عنه بالكيفية ذاتها»[٦٨].

ويقول الامام يحيى الزيدي: «لو شاء الله ان يهدي الجميع «جبراً» لفعله ولكنه لم يشأه الاّ بالاختيار، لأنه لو اجبرهم على ذلك وادخلهم غصباً - قهراً وجبراً - كان من المستوجب للثواب دونهم ألم يقل «ثم قيل للّذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون الاّ بما كنتم تكسبون»[٦٩] ألم يقل بمشيئتي لكم ولا بقضائي عليكم ولا بارادتي فيكم»[٧٠].

«واكدت المعتزلة بان الفعل الانساني فعلٌ ارادي ذاتيّ للانسان لا يتعلق بخلق الله تعالى، ولكن الذي يخلق القدرة على العقل في الانسان هو الله، اذاً، الله خالق القدرة على الفعل وليس الفعل».

يلتقي الموحدون الدروز مع المعتزلة في ايمانهم بالقدرية اذ يعتبرون الخلق مخيّرين وموقوفين للعرض والحساب والجزاء وهم يؤمنون انه لو كان أمر الله تعالى حتماً ونهيه جبراً لما شك احد واطاع الخلق بأسرهم لله، لأن أمره تخيير ونهيه تحذير والعدل يقوم بالتخير في الحقيقة.

يقول بعض المؤرخين: «فالموحدون يعتمدون منحى واسلوباً خاصاً في شأن القدرية يقوم على المنطق الفلسفي وعقلانية المتكلمين المعتزلة. ثم يقولون انما وردت هذه التعابير القرآنية والفلسفة الاعتزالية في كتبهم لكون من قام بالدعوة التوحيدية هم من العلماء الذين اطلعوا على القرآن وامضوا سنين عديدة يتلون آياته ويبحثون عن معانيها وتأويلاتها، كغيرهم من العلماء والمفكرين المسلمين، ثم انهم نشأوا في بيئة اسلامية، يستعمل افرادها آيات القرآن الكريم.

ويتفق الموحدون الدروز مع المعتزلة في القدرية ورفضهم الجبرية، اذ يقولون ان على الانسان ان يقدم، يوم القيامة، الحساب على افعاله. كما رفضوا الجبرية لأن القبول بها كان يعني نسبة الظلم الى الله، والله يحكم بالعدل.

---

(٦٨) كتاب فصل الاعتزال، ص ١٧٢ .

(٦٩) سورة يونس، آية ٥٢ .

(٧٠) كتاب رسائل العدل والتوحيد، جزء ٢، ص ٤٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول بعض المؤرخين ان أول من تكلم في القدر من المسلمين كان معبد الجهني[٧١] وقد اخذه عن رجل من اهل العراق يقال له «سوسن» كان نصرانياً فأسلم. ثم أخذ غيلان الدمشقي[*] الفكرة عن معبد الجهني ولهذا شاع القول ان أول من تكلم بالقدر كان معبد الجهني[٧٢].

اما القول بالجبرية فيرده بعض المؤرخين الى مقولة معاوية ابن ابي سفيان المعروفة: «لو لم يرني ربي اهلاً لهذا الأمر ما تركني واياه، ولو كره الله تعالى ما نحن فيه لغيّره». ثم قوله كذلك: «انا خازن من خزّان الله تعالى، اعطي من اعطاه وامنع من منعه، ولو كره الله امراً لغيّره».

كانت هذه المقولات الجبرية تبريراً لاغتصاب الامويين الحكم من آل البيت وهدرهم اموال المسلمين على مصالحهم الخاصة واهوائهم، ثم خوفهم ان مذهب القدرية قد يفتح امام المظلومين باب الأمل بالخلاص من الظلم ما دام قد ظهر هذا الظلم ليس قضاء الهياً مفروضاً عليهم قبوله، شاءوا ذلك ام ابوا. ثم رفع هذا الغطاء الالهي عن أعمالهم يفتح المجال للناس لمحاسبتهم على ما يقترفونه من اعمال لا يقرها الشرع او الدين.

ويقول القاضي عبد الجبّار الهمذاني عن شيخه ابي علي الجبائي قوله: «ان اول من قال بالجبر واظهره معاوية، وانه أظهر ان ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه، ليجعله عذراً فيما يأتيه ويوهم أنه مصيب فيه، وان الله جعله اماماً وولاّه الأمر وفشي ذلك في ملوك بني أمية»[٧٣].

---

(٧١) هو معبد بن خالد الجهني البصري. قال ابن الأثير، «الكامل في التاريخ» ان الحجاج قتله عام ٨٠هـ، قيل عنه «حديثه صالح ومذهبه رديء». نهى حسن البصري الناس عن مجالسته. قيل انه اول من تكلم بالقدر.

(*) الدمشقي. هو ابن مسلم الدمشقي وكنيته ابو مروان. قتله الخليفة هشام بن عبد الملك لقوله بالقدرية. كان مستشار وصديق الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز.

(٧٢) كتاب العبر. للذهبي، ص ٩٢ . وكتاب تهذيب التهذيب، ابن حجر، ص ٢٢٥ .

(٧٣) كتاب المغني في ابواب العدل والتوحيد، جزء ٨، ص ٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال المفكر طاش كبرى زاده: «كان الخلاف – اي الخلاف في مشكلة القدر – يتدرج شيئاً شيئاً الى آخر أيام الصحابة، حتى ظهر معبد الجهني وغيلان الدمشقي وواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد ويونس الأسواري، وخالفوا في القدر واسناد جميع الأمور الى تقدير الله، وهلم جرا، الى ان ظهرت قواعد الاعتزال»(٧٤).

ان البحث في مشكلة القدر، كما نرى من هذه الدراسة، ظهر قبل معبد الجهني وغيلان الدمشقي، حتى ان بعض المؤرخين، يرجعون به الى وقت الرسول الكريم. وقيل ان الامام علي بن ابي طالب، كان من اوائل المتكلمين بالقدر وانه ناظر القدرية في المشيئة وحرية الانسان في أفعاله. يقول الدكتور علي سامي النشار، ان علي بن ابي طالب «رأى قدرياً مشهوراً، في عهد عمر بن الخطّاب، هو عبدالله بن صبيغ ورأى كيف منعه عمر في الخوض في القدر»(٧٥). اذَن ان مسألة القدر اثيرت حتى في أيام الخليفة عمر بن الخطّاب.

يقول محمد الأسفرانيني، ان علي ابن ابي طالب قال: «لو وجدت رجلاً من أهل القدر لأخذت بعنقه واضربه حتى اكسر عنقه فانهم يهود هذه الأمة»(٧٦).

الاّ ان احمد بن يحيى بن المرتضى، يقول: «انصرف علي بن ابي طالب من صفين، فقام احد اتباعه وسأله: «اخبرنا عن مسيرنا في الشام، اكان بقضاء وقدر؟. قال علي، و«الذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما هبطنا وادياً ولا علونا قلعة الاّ بقضاء وقدر». وقال الشيخ الشامي: «ما لي من الأجر شيء» (اي تعبه راح هدراً). قال علي: «لم تكونوا من شيء من حالاتكم مكرهين ولا اليها مضطرين». ثم قال علي: «لعلك تظن قضاء واجباً وقدراً حتماً، لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد»(٧٧).

ويقال، ان مسألة القدر اثيرت حتى في ايام النبي، اذ يقول محمد مرتضى

---

(٧٤) كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة جزء ٢ ص ٢٤ . توفي طاش كبرى زاده عام ٩٦٨هـ.

(٧٥) كتاب نشأة الفكر في الاسلام، جزء ١، ص ٢٢٥ .

(٧٦) كتاب التبصر في الدين، ص ٥٨ .

(٧٧) كتاب المنية والأمل، ص ٧ و ٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الزبيدي، ان النبي كان يغضب أشد الغضب اذا سمع المجادلة في القدر حتى انه قال: «ما ضلّ قوم بعد هدي كانوا عليه الاّ اوتوا الجدل. وان القدرية هم مجوس هذه الأمة»[٧٨].

يقول بعض المفكرين الغربيين[٧٩] ان الفلاسفة المسلمين الأولين، الذين قالوا بالقدر، تأثر تفكيرهم بتفكير المفكرين النصارى الشرقيين الذين قالوا بفلسفة الاختيار، وان القول بالقدر، اثناء العهد الأموي، كان من تأثير الآراء المسيحية، ولا سيما كتابات الأسقف يوحنا الدمشقي الذي يقول فيها ان مسألة الجبر وحرية ارادة الانسان هما من مسائل الخلاف بين الاسلام والمسيحية.

يقول المفكر الالماني «جولد زهير» «ان علماء المسلمين القدامى اخذوا من علماء اللاهوت المسيحيي ما احدث عندهم الشك فيما اعتقدوه في أمر القدر الأزلي المطلق»[٨٠].

وكان الأسقف يوحنا الدمشقي[٨١] عالماً كبيراً ومعاصراً لغيلان الدمشقي ومعبد الجهني، وله رسالة «نقاش بين مسيحي ومسلم» وكتاب «الايمان الصحيح» وكانت له محاولات وجدل صريح بينه وبين علماء مسلمين عن القدرية والجبرية.

يقول الأسقف يوحنا الدمشقي: «الأشياء التي تحدث؛ سببها، اما الله، او الضرورة، او القدر، او الطبيعة، او البحث او العرض. فتحت اي واحدة من هذه تدرج ما يحدث بفعل الانسان، اذ ليس من الصواب ان ننسب الى الله افعالاً تكون

---

(٧٨) كتاب تيسير الوصول الى جامع الأصول في احاديث الرسول، جزء١، ص ٢٤٨ .

(٧٩) الفرد فون كريمر (كتاب مباحث حضارية في ميدان الاسلام). كارلو الفونسو نللينو (كتاب التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية) موريس سيل (اللاهوت الاسلامي) ادم متز (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع هجري). مكدونلد (مصدر اللاهوتية الاسلامية).

(٨٠) كتاب العقيدة والشريعة في الاسلام، ص ٩٤ .

(٨١) ولد الاسقف يوحنا الدمشقي في دمشق عام ٦٧٥ ميلادي، وهو حفيد الأسقف ابن سرجون الذي فتح باب دمشق الشرقي للمسلمين عند حصارها من ابو عبيدة بن الجرّاح وخالد بن الوليد. وكان ابن سرجون يلقب بالمنصور النصراني. حفيده يوحنا الدمشقي عاش في دمشق في عهد خلافة معاوية بن ابي سفيان. توفي عام ٧٤٩ ميلادي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خسيسة وظالمة. فلم يبق إلاّ ان نقول، ان الانسان الذي يفعل ويصنع هو منشئ افعاله وانه مخلوق مزوّد بحرية الارادة»[٨٢].

وقد يكون ممكناً ان اللاهوتيين المسيحيين في بلاد الشام اثروا على بعض المتكلمين في العقائد الدينية الاسلامية، ولكن لم يرد في كتب التاريخ الاسلامي اي اشارة لذلك، ولهذا يمكن القول، ان بحث العقيدة القدرية من الجانب المسيحي، بقي محصوراً، ولمدة قصيرة، في دمشق ابان وجود الأسقف يوحنا الدمشقي. ثم كانت رسالة حسن البصري[٨٣] الشهيرة في القدرية والجبرية الى الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ). يقول احمد بن يحيى بن المرتضى: «ان الحجاج بن يوسف الثقفي، بطلب من الخليفة، كتب الى حسن البصري - بلغنا عنك في القدر شيء، فاكتب الينا بقولك»[٨٤].

كان هدف الخليفة عبد الملك بن مروان، ان ينتزع من حسن البصري، وهو شخصية دينية وعلمية، نافذة الرأي في اوساط المفكرين والعلماء في البصرة، وكبير معلمي المذهب القدري، فتوى علمية دينية اسلامية تكون شجباً للقدرية، التي كان يتشدد الأمويون في محاربتها، ويتخذ منها سلاحاً دينياً يضرب به مذهب القدرية.

اعتمد الخليفة عبد الملك بن مروان على عقدة الخوف عند حسن البصري من اضطهاد السلطة له، اذا صرح برأيه الى جانب القدرية، وهو يعرف ما فعل الأمويون بعمرو المقصوص ومعبد الجهني وغيلان الدمشقي وغيرهم، ولهذا كان يأمل الخليفة عبد الملك بن مروان ان تكون الفتوى كما يشتهي فيستعملها سلاحاً ضد القدرية.

ولكن حسن البصري لم يخف في اعلان رأيه بدعم القدرية، فتعرض الى غضب الخليفة بقوله: «ان كل شيء لقضاء الله وقدره الاّ المعاصي». وبذلك اشار الى معاصي الحكّام الأمويين لسفكهم دماء المسلمين واغتصاب اموالهم.

---

(٨٢) كتاب Die Fide orthodox, p 25

(٨٣) كان لحسن البصري، العالم الكبير، مجلسٌ في البصرة يؤمه طلاب العالم والمعرفة، وكان حسن البصري من التقليديين المعروفيين «بطلائع التصوف» ومن مجلسه انبثقت حركة الاعتزال والعقيدة القدرية، ولد عام ٢١هـ وتوفي عام ١٠٩هـ.

(٨٤) كتاب طبقات المعتزلة، ص ١٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول حسن البصري في رسالته دعماً للقدرية: «فان ما ينهى الله عنه فليس منه، لأنه لا يرضى لعباده الكفر، فلو كان الأمر كما قال المخطئون، لما كان لمتقدم حمد فيما عمل ولا على متأخر لوم»(٨٥).

وابو الفتح محمد الشهرستاني، كان الوحيد بين المؤرخين الاسلام الذي قال ان هذه الرسالة كتبها واصل بن عطاء وليس حسن البصري(*)، واستدل على ذلك، من ورود دلائل العقل الذي اشتهر بعلمه واصل بن عطاء(٨٦).

كان تشدد الأمويين في عقيدة الجبرية، كما سبق ان ذكرنا، ذريعة لاضفاء غطاء الهي على تصرفاتهم على اعتبار أنهم فقط اداة لتنفيذ رغبة الله، كي يرضخ الشعب المظلوم علي ان ما يحصل من الظلم والتعدي على حقوقه، هو رغبة الله تعالى وليس من فعل الحكّام الأمويين.

ومن المسائل التي ثار حولها جدل عنيف بين المفكرين المسلمين هي مسألة، هل القرآن بما فيه من آيات متشابهة او متعارضة يقول بحرية الاختيار او بالقضاء والقدر.

ونزلت في القرآن الكريم آيات تقول بالجبرية وأخرى تقول بالقدرية. وقال الامام الأول علي بن ابي طالب لمنع الجدل في هذه الآيات. «اذ لم تعرف الحقيقة التي نزلت عليك، فعليك بالايمان فهو طاعة الله تعالى».

اعتمد المعتزلة التفسير عبر حياتهم المذهبية، فناضلوا من أجل التفسير التأويلي العقلي العقائدي وتجاوزا الظاهرية التي اعتبروها تهديداً مباشراً للعقيدة المعتزلية لتمسكها بآيات التشبيه بمعناها الظاهري. وقد فسّر ذلك الدكتور عبد الستار الراوي: «وقد حاولوا اعتماد التأويل من خلال الالتزام بالعقل لكي لا يخرج النص عن معناه الظاهري، الاّ اذا اخذ الكلام عن ظاهره يصطدم بموجبات العقل»(٨٧).

---

(٨٥) كتاب طبقات الاعتزال، احمد بن يحيى المرتضى، ص ١٩ و ٢٠ .

(*) رسالة الخليفة عبد الملك بن مروان مصورة رقم ٥١٢١ (ورقة ٢٠ - ٤) في مكتبة دار الكتب المصرية وجواب حسن البصري (ورقة ٥ - ٢٣).

(٨٦) كتاب الملل والنحل، مجلد ١، ص ٤٧ .

(٨٧) كتاب العقل والحرية، ص ٧٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول الدكتور محمد عماره: «تقول المعتزلة، ان التأويل لن يكون مطلقاً في عموم الآيات، انما في المتشابه فقط. ان المنهج الذي يعتمد على الحجج القرآنية يعتمد بالضرورة على الحجج العقلية، ويتخذ موقفاً من الآيات التي توحي ظاهرها بوجود تناقض بينها وبين ظواهر آيات اخرى تناولت ذات القضايا والمواضيع نفسها، وهو الموقف الذي جعل المشتغلين بالدراسات القرآنية يقسمون الآيات الى محكمة ومتشابهة، وواضحة وخفية وأصول وفروع»[٨٨]. امّا الآيات المحكمات، فلا تأويل لها غير تنزيلها.

وفي القرآن الكريم، آيات تؤذن بأن لا فاعل الاّ الله، وان الانسان مقدرة عليه أفعاله. والى جانبها آيات اخرى تقرر ان الانسان حر في أفعاله ومسؤول عنها.

من الآيات التي تقول بالجبرية هي:

١ – وما تشاءون الاّ ان يشاء الله رب العالمين، (سورة التكوير، آية ٢٩)

٢ – كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جند ربك الاّ هو، (سورة المدثر، آية ٣١)

٣ – وما كان مؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم، (سورة الاحزاب، آية ٣٦)

٤ – قل لن يصيبنا الاّ ما كتب الله لنا وهو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون، (سورة التوبة، آية ٥١)

٥ – قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً الاّ ما شاء الله»، (سورة يونس، آية ٤٩)

وكذلك نجد عدداً وفيراً من الآيات تقرر حرية الانسان في اعماله واختيار افعاله وهو مسؤول عنها وعن نتائجها.

١ – قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، (سورة الكهف، آية ٢٩)

٢ – ان الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، (سورة الرعد، آية ١١)

٤ – ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك، (سورة النساء، آية ٧٩)

---

(٨٨) كتاب مقدمة رسائل العدل والتوحيد، مجلد ١، ص ٣٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥ – من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها، (سورة الاسراء، آية ١٥)

٦ – كل نفس بما كسبت رهينة، (سورة المدثر، آية ٣٨)

٧ – قل ايها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما انا عليكم بوكيل، (سورة يونس، آية ١٠٨)

٨ – قد جاءكم بصائر من ربكم فمن ابصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما انا عليكم بحفيظ، (سورة الانعام، آية ١٠٤)

٩ – ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن اساء فعليها وماربك بظلاّم للعبيد، (سورة فُصّلت، آية ٤٦)

هذه بعض من الآيات الجبرية والقدرية كما جاءت في القرآن الكريم وخلقت بين المفكرين المسلمين جدلاً كبيراً. فمن كان يؤمن بالايمان المطلق قبلها كما هي، وكما قال الامام الأول علي: «فعليك بالايمان فهو طاعة الله تعالى». اما المعتزلة فحاولت دمج الايمان بالعقل في التفسير التأويلي ولكنها اصطدمت بأهل النص، كالاشاعرة والحنابلة فلم يكن النجاح من نصيبها.

ذكرت سابقاً، في فصل الأشعرية، فكرة «الكسب» التي قال بها ابو الحسن الأشعري، رداً على المعتزلة التي قالت بقدرة الانسان على فعله ارادة واختياراً والجبرية التي رفضت فاعلية الانسان وقالت انه مسيّر لا مخيّر، فأراد ابو الحسن التوفيق بين الاتجاهين المتعارضين فقال: «ان الانسان يريد الفعل الذي يختاره، ولكن التنفيذ من الله، اذن الله خالق لكل شيء وحرية الاختيار يخلقها الله في الانسان، وكذلك العقل الذي تنفذ بمقتضاه هذه الحرية، وهذا يعرف باسم – الكسب – اي ما يكسبه الله في الانسان»(٨٩). ثم يقول ابو الحسن الأشعري: «ان أفعال العباد مخلوقة لله، وليس للانسان فيها غير اكتسابها، اي ان الفاعل الحقيقي هو الله، وما الانسان الاّ مكتسب للفعل الذي احدثه الله على يدي هذا الانسان. والكسب هو تعلق قدرة الله وارادته بالفعل المقدور المحدث من الله الحقيقة»(٩٠).

---

(٨٩) كتاب اللمع في التصوف، ابو نصر السرّاج الطوسي، ص ٣٨ .

(٩٠) كتاب مذاهب الاسلاميين الدكتور عبد الرحمن بدوي، مجلد ١، ص ٥٥٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم كانت محنة «خلق القرآن» التي نتج عنها مقتل آلاف من المعتزلة وسببت اندثار عقيدة الاعتزال. وقد وصفها الدكتور مصطفى الشكعة «كانت هذه المحنة ضرباً من الهوس المذهبي، الذي لا يستحق كل هذا الغلو الذي لا يقدم ولا يؤخر في صلب عقيدة الاسلام»(٩١).

مما زاد في اسباب حدة هذه المحنة، ان الخليفة المأمون عبدالله ابن الرشيد (١٩٨ - ٢١٨هـ) وكان معتزلياً، أمر نائبه في بغداد، اسحق بن ابراهيم، ان يجمع القضاة والفقهاء وكبار موظفي الدولة وينذرهم بالعقوبة والطرد من وظائفهم ان لم يستجيبوا للقول بخلق القرآن، «وان من لم يؤمن بذلك يصبح غير موثوق بدينه، حتى لا تنفذ احكام الله تعالى الاّ بشهادة أهل البصائر في الدين والاخلاص للتوحيد»(٩٢).

الأسلوب المثير الذي جاهر به الخليفة المأمون وفرضه عقيدة «خلق القرآن» المذهب الرسمي للدولة آثار غضب ونقمة واستنكار أهل السنة والحديث، خصوصاً ان موقفه، وهو المعتزلي تلميذ ابو الهذيل العلاّف، كان دوماً موقفاً للريبة والقلق.

توفي الخليفة المأمون عام ٢٠٨هـ وظن الناس ان الفتنة انتهت بموته، ولكن خلفه شقيقه المعتصم بالله (٢١٨ - ٢٢٧هـ) الذي كان قوي الشكيمة واعتنق الاعتزال عن أخيه المأمون، تابع في اضطهاد أهل السنة، وخصوصاً زعيمهم الروحي احمد بن حنبل، صاحب المذهب الحنبلي، الذي ناله الكثير من ظلم وتعسف المعتصم(*).

---

(٩١) كتاب اسلام بلا مذاهب، ص ٣٩٩ .

(٩٢) المصدر نفسه، ص ٣٩٨ .

(*) هو احمد بن هلال بن اسد من بني شيبان، صاحب الفقه الحنبلي. ولد في بغداد عام ١٦٤هـ وكان والده قائداً في الجيش العباسي. كان يعتمد النص في القرآن وسنة الرسول والحديث وكان يعتبر فقيه «أثر» أي، فقيه سنة وحديث وليس فقيه «رأي» اي، الفقه المبني على القرآن والسنة والحديث والقياس والاجماع والعرف. كان يرفض القياس والاجماع ويقول: اصحاب «الرأي» اصحاب بدع وضلال. ويقول الأصل في العقيدة، هو الايمان المطلق، وينفي بشدة، نفي الصفات عن الله. وكان يقول: «الرحمن علّم القرآن» ولم يقل «الرحمن خلق القرآن». وكان يقول كل مخلوق يموت وكلام الله ازلي لا يموت. كان لا يفتي بقضية بغير نص من القرآن والسنة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

توفي الخليفة المعتصم بالله عام ٢٢٧هـ واستلم الخلافة ابنه الواثق بالله (٢٢٧ - ٢٣٢هـ)، وكان ورعاً تقياً يتحلى بالعلم في الفقه والدين ولكنه كان متمسكاً بعقيدة الاعتزال.

عند وفاة الخليفة الواثق بالله عام ٢٣٢هـ لم يترك للدولة ولياً للعهد فعيّن الاتراك، الذين كانوا قابضين على زمام الحكم، شقيقه المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) الذي انتصر لأهل السنة وقرّب اليه الامام احمد بن حنبل وعزل عن السلطة اصحاب الاعتزال الذين اصبحوا عرضة للاضطهاد والتنكيل والانتقام.

يقول ابو الحسن الاشعري: «مهما يكن من أمر، فان المعتزلة لم تكن من بين الفرق الكلامية الاولى، هي وحدها التي قالت بخلق القرآن، بل ان الخوارج والشيعة والجهمية، قد ذهبوا، على ما يبدو، هذا المذهب في خلق القرآن»(٩٣).

اول من قال «بخلق القرآن» كان الجعد بن درهم، وكان معلم الخليفة مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٤هـ) آخر خلفاء بني أمية. سكن جعد بن درهم دمشق واخذ علمه عن بيان بن سمعان الذي اخذها عن طالوت ابن اخت الرافضي لبيد بن اعصم. بعد قول الجعد بن درهم بخلق القرآن طلبه الخليفة الأموي لقتله لأنه اعتبر هذا القول بدعة والحادا، فهرب جعد الى الكوفة حيث قتله اميرها خالد بن عبدالله القسري لقوله: أن الله ما كلّم موسى تكليماً». ثم قال بخلق القرآن الجهم بن صفوان فقتله الوالي نصر بن سياد عام ١٢٨هـ.

اعتمد المعتزلة على نصوص في القرآن الكريم تقول على ان صفة الكلام منسوبة الى الله تعالى، كما جاء في الآية «وكلّم موسى تكليماً»(٩٤). والقرآن موصوف انه كلام الله تعالى والكلام محدث والمحدث مخلوق. ثم قالوا بالآية «إنّا انزلناه في ليلة مباركة وإنّا كنا منذرين»(٩٥). وقوله تعالى «انزلناه»، والانزال فعل حادث غير ازلي. ويقول المعتزلة ان كلام الله اذن حادث وهو مخلوق، لأن كلام الله ليس من الصفات المعادلة للذات وهو القرآن، فالقرآن اذن مخلوق.

---

(٩٣) كتاب مقالات الاسلاميين، ص ٥٨٢ . كتاب الانتصار ابو الحسن الخياط، ص ٩٢ .

(٩٤) سورة النساء، آية ١٦٤ .

(٩٥) سورة الدخان، آية ٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويشير المعتزلة، ان كلمة «جعل» هي لافعال محدثة، اي «فعل» يعني «خلق». وقول الله تعالى في كتابه الكريم «إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون»(٩٦). اذن ان الجعل هو الخلق. ثم الآية «الحمدلله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون»(٩٧) فالجعل هو فعل الخلق، والقرآن الكريم، هو فعل من افعال الله تعالى، اي الخلق، اذاً هو مخلوق.

وقالت المعتزلة، ان الكلام صفة قديمة لله، والقرآن باعتباره كلاماً الهياً فهو قديم ولكنه ليس بأزلي، فالأزلي هو الله تعالى وحده. أما أصحاب النص، الأشاعرة والحنابلة وبعض المرجئة فقالوا: «كل مخلوق يموت، وكلام الله أزلي لا يموت، وخلق القرآن بدعة كفر»(*).

كانت مجابهة اهل النص للمعتزلة في مسألة «خلق القرآن» شديدة وصارمة وقالوا حتى في منع الجدل والمناظرة في هذا الموضوع. «اذ على المؤمن الايمان بما جاء في القرآن وحديث الرسول والوقوف عنده، لأن لا يجوز البحث في صفات الله تعالى وكيف تصدر الأشياء عنه لأن ذلك يتجاوز قدرة العقل الانساني»(٩٨).

ويقول ابو محمد علي الظاهري المعروف باسم ابن حزم ما مختصره – «ان

---

(٩٦) سورة الزخرف، آية ٣ .

(٩٧) سورة الانعام، آية ١ .

(*) وتحدث الناس فقالوا: طلب الخليفة المعتصم بالله ان يأتوه بأحمد بن حنبل. فجيء به من السجن القيد في رجله. فقال له المعتصم: «كيف كنت في محبسك البارحة؟ فقال ابن حنبل: «يا أمير المؤمنين، قمت في آخر الليل للصلاة فلم اقدر ولم اتمكن من الكلام، فنظرت في زاوية المحبس فاذا القرآن ميتاً، فغسلته وكفنته وصليت عليه ودفنته. فصاح به المعتصم «ويلك يا كافر، القرآن يموت؟!» فقال ابن حنبل: «انت يا أمير المؤمنين تقول ذلك عند قولك القرآن مخلوق، وكل مخلوق يموت».

بقي احمد بن حنبل في السجن ثمانية وعشرين شهراً. ابتدأت محنة خلق القرآن عام ٢١٢هـ وانتهت عام٢٣٢هـ.

(٩٨) كتاب النزعات المادية، حسين مروه، ص ٦٧٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القرآن كمادة وهو مؤلف من ورق وجلود الحيوان وعفص وماء وصمغ فهو مخلوق اما كلامه، فهو علم الله تعالى، فأزلي، اذن القرآن غير مخلوق»[٩٩].

يأتي موقف ابو الحسن الأشعري كحلٍ وسط بين هذين الموقفين المتطرفين، فهو يرى ان طبيعة الكلام، سواء بشرية او الهية، لا تعود فقط، كما ترى المعتزلة الى اصوات وكلمات تلفظ وتحكى، بل انها ايضاً «حديث نفسي» وهي بهذا مستقلة بذاتها عن «الحديث اللفظي». ثم يقول ان القرآن مؤلف من كلمات وهو مكتوب فلهذا فهو فعل زمني مخلوق، على عكس ما يعتقده أهل النص، واذا سأل سائل، وكيف تقول انه مخلوق وغير مخلوق في آن واحد؟ يجيب الأشعري: «عليك ان تؤمن بذلك، فالايمان طاعة الله تعالى»[١٠٠].

بما ان قضية خلق القرآن، خلقت جدلاً كبيراً ووقع بسببها الكثير من الأحداث العنيفة والدامية، وكان ذلك فقط في تفسير اعتقادات واراء لا علاقة لها بالأصول الدينية، ويرفضها المنطق العقلاني كونها انفعالات نفسية انبثقت من تعصب مذهبي. وبما ان هذه المقولات والجدل لا علاقة لها او تأثير على المعتقدات التوحيدية الدرزية، التي هي موضوع هذه الدراسة، فقد اختصرنا البحث فيها وحصرناه في تفسيرات مقتضبة لتوضيح هذا الحدث الذي كان من الأسباب الرئيسية لانهيار حركة الاعتزال.

ان حرية الفرد في اعماله والعدالة والتوحيد اخذت من الفكر اليوناني العقلاني، الذي ظهرت بوادره قبل انتشار الاسلام وكان ذلك بواسطة المترجمين السريان النصارى الذين عملوا بنشاط في مدارس الرها، والاسكندرية، ونصيبين وحرّان ودير قنسيرين، ثم في مدرسة جنديابسور التي انشأها كسرى انوشروان. ولكن هذا النشاط العلمي، لم يبدأ بطريقة جدية علمية، الاّ في العهد العباسي الأول، وخصوصاً عهد الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ) الذي قيل عنه انه كان: «أعظم راع للفلسفة والعلم».

---

(٩٩) كتاب الفصل في الملل والنحل، مجلد ٣، ص ٩ .

(١٠٠) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنري كوربان، ص ١٨٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انشأ الخليفة المأمون «بيت الحكمة» في بغداد عام ٢١٥هـ وأرسل وفوداً الى بلاد الروم في طلب كتب اليونان العلمية والفلسفية، حيث تولى نقلها الى العربية فريق من خيرة علماء المسلمين والنصارى. وقيل ان هذه المكتبة، التي دمرها المغول عام ٦٥٦هـ، كانت تحتوي على اكثر من ثلاثمائة الف كتاب، معظمها في الفلسفة اليونانية.

من أهم علوم الفلسفة اليونانية التي اخذها وتداولها مفكرو المعتزلة، كانت فلسفة العقل، وخصوصاً محاولة دمجه مع الايمان المطلق، او الأصح المغلق، الذي كان يستحوذ على فكر أهل النص، كالأشاعرة والحنابلة وأصحاب الحديث.

وقال ابو الحسن الأشعري في دحض محاولات المعتزلة ما يلي: «ان اعطاء الأهمية المطلقة للعقل لا يفضي الى دعم الدين، كما زعم المعتزلة، بل ان ذلك على العكس، يفضي الى نفي الدين والى استبدال الايمان بالعقل. اذ ما هي قيمة الايمان بالله اذن وبالكتاب المنزل، ما دام العقل بحد ذاته اسمى وأرفع من المعطيات الدينية»[١٠١] ثم ينكر ابو الحسن الاشعري استخدام الادلة العقلية بحجة «ان النبي والصحابة ما استعملوا مثل هذه الادلة».

اما قاضي القضاة عبد الجبّار الهمذاني المعتزلي فيقول: «ان معرفة الله لا تنال الاّ بحجة العقل، لأن العقل هو الطريق الذي يصل بالانسان الى معرفة الغير، وان معرفة الله لا تنال الاّ بهذه الحجة. اما ما عدا العقل، فليس الاّ فرعاً على معرفة الله في توعيده وعدله، هو شأن المصادر الثلاثة، كتاباً وسنة واجماعاً. العقل المقياس الشرطي للحقيقة وهو الطريق الوحيد الى المعرفة[١٠٢].

اما الدكتور عبد الستار الراوي فيقول: «ان المنهجية التي يعتمدها المعتزلة في معرفة الله والعلم بتوحيده وعدله، معرفة قوامها العقل عبر النظر والاستدلال، لهذا رتب المعتزلة ادلتهم على النحو الذي جعل العقل على رأس حججهم ثم جعلوا

---

(١٠١) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنري كوربان، ص ١٨٣ .

(١٠٢) كتاب فصل الاعتزال، ص ٨٣٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتاب والسنة والاجماع حججاً مكملة لحجة العقل ومثبتة لها على ان تكون مطابقة للعلم، اي ما يدركه العقل بالبداهة»[١٠٣].

تركت المسيحية اثراً كبيراً في الاعتزال واسندت الخلافة الأموية مناصب عالية للمسيحيين، فمعاوية ابن ابي سفيان ولّى سرجون بن منصور الروحي امانة مكتبه وأطلق يده في اعمال الدولة الادارية[١٠٤] ثم كان الأسقف يحيى الدمشقي الذي اعتزل عمله في ادارة الدولة عام ١١٢هـ والتحق بأحد الأديرة في مدينة القدس، ومن بعده أسقف حرّان ثيودور ابو قرة الذي قال عن العقل: «هو من خير الله الفياض وفضله لا يناهي بتعظيمه العقل البشري، وان الانسان بالعقل قادر على ان يعرف الخالق، وان الله تعالى انما وهب الانسان العقل ليتمكن به من معرفة الله، وان الانسان اذا كان يستطيع بالعقل ان يعرف الخالق ويبصر صفاته، فهو لذلك ان يدرك به الحسن والقبيح ويفرق بين الخير والشر[١٠٥].

ويقول الشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين التنوخي: «فلذلك استودعت الأشكال الكرّية جميعها بالقوة بل بروزها الى العقل، واختصت في المبدع تعالى وتقدس بالخصائص الربانية، والعطايا الالهية والقوات الفيضية، والكمالات الكلية، والأمثال الحكيمة، وهو المسمى بالعقل الكلي»[١٠٦].

لأعلام المعتزلة ومفكريهم، وهم كثيرون، أفكار متميزة عن أفكار معاصريهم، لأن الاعتزال كان مدرسة فلسفية قامت على قواعد فكرية عقلانية لم تتفق مع تزمت أهل النص في اعتمادهم على الايمان المطلق. وكان بعض مفكري المعتزلة يقول – من عرف العقل عرف الطريق الى الله، والعلم بالله اولى واجبات الانسان، لأن سائر الشرائع من قول وفعل لا قيمة لها الاّ بعد معرفة الله.

---

(١٠٣) كتاب العقل والحرية، ص ٢٤٨ .

(١٠٤) كتاب تاريخ الرسل والملوك، محمد الطبري، مجلد ٤، ص ١٨٣ .

(١٠٥) كتاب تاريخ الرسل والملوك، محمد الطبري، مجلد ٤، ص ١٨٣ .

(١٠٦) كتاب الخالق والدين القويم، ص ٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يلتقي مفكرو المعتزلة والموحدون الدروز على أهمية العقل، حتى تقديسه عند الموحدين. فالعقل نور محض، علة العلل، ثاني الله، اوكل اليه تعالى مهمة تدبير العالم وجعله خالق الموجودات واجرى فيه ينابيع الحكمة والمعرفة، وهو ابداع نور الله الشعشعاني.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اعلام المعتزلة

ان لاعلام المعتزلة ومفكريهم الكبار افكاراً متميزة عن افكار معاصريهم، لأن الاعتزال كان مدرسة فلسفية ذات طابع ديني تأملي قامت على قواعد خاصة فكرية تعارضت مع تزمت اهل النص، خصوصاً، اعتمادهم المطلق على العقل ومحاولتهم دمجه مع الايمان المغلق.

١ – واصل بن عطاء.

صاحب المدرسة الواصلية. كان عالماً مجتهداً انتشرت اعماله في كل بلاد الشام، والعراق وفارس، حتى شمال افريقيا، وكانت اقواله حجة في الاعتزال.

لقب بالغزّال لأنه كان يلزم ابا عبدالله مولى قطن الهلالي الغزّال في سوق الغزّالين ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن[١].

ولد واصل بن عطاء في المدينة عام ٨١هـ. وتوفي في البصرة عام ١٣١هـ، وكان مولى لبني مخزوم[٢] العائلة الاولى في قريش، وكان لهم القيادة والحرب في الجاهلية، ومنهم القائد الكبير خالد بن الوليد والشاعر عمر بن ابي ربيعة.

كان واصل بن عطاء طويل العنق، يلثغ بحرف الراء وكان يتجنبها في كلامه، حملت الجاحظ، الكاتب المعروف، على وصفها في كتاب البيان والتبيين، وقال فيها الشاعر بشار بن برد.

فقام مرتجلاً تغلي مراجله كمرجل القين لمّا حق باللهب
وجانبَ الرّاءَ، لم يشعر بها أحدٌ قبل التصفّح والاغراق بالطلب

ثم قال بشّار بن برد عن طول عنقه.

---

(١) كتاب طبقات المعتزلة، احمد بن يحيى بن المرتضى، ص ٢٩ .

(٢) كتاب وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، ابن خلكان، مجلد ٥، ص ٦٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مـالـي اشايـع غـزّالاً لـه عـنـــق كـنـقـنـق الـدوّ، وان ولّـى وان مـثـلا
عـنـق الـزرافـة، مـا بـالـي وبـالـكـم تكفرون رجـالاً كـفّـروا رجـلا[٣]

ارتحل واصل بن عطاء من المدينة الى البصرة، مدينة اهل العلم والمعرفة، حيث انضم الى حلقة العالم الكبير حسن البصري وتعرف الى الشاعر بشّار بن برد، وتزوج اخت المعتزلي عمرو بن عبيد.

واصل بن عطاء هو الذي تجادل مع حسن البصري وقال ان صاحب الكبيرة ليس بكافر كما تقول غلاة الخوارج، وليس بمؤمن كما تقول المرجئة، ولكن في منزلة بين المنزلتين، اي فاسق[٤]، وكان هذا الجدل سبب انفصال واصل عن حلقة حسن البصري في مسجد البصرة وأخذ له حلقة، فقال حسن البصري: «لقد اعتزل عنا واصل» فكان هذا القول، عند بعض المؤرخين، اساس تسمية المعتزلة.

بعث واصل بن عطاء الدعاة الى البلاد الاسلامية لنشر مذهب الاعتزال ومجادلة المذاهب الأخرى. وقال احمد بن يحيى المرتضى: «قال ابو الهذيل العلاّف، بعث واصل عبدالله بن الحارث الى المغرب، والى خراسان بعث حفص بن سالم، والقاسم بن السعدي الى اليمن، والحسن بن ذكوان الى الكوفة، وعثمان الطويل الى أرمينة وأيوب الى الجزيرة»[٥].

وكان واصل بن عطاء واضع عقيدة: «الأصول الخمسة: العدل - التوحيد - الوعد والوعيد - المنزلة بين المنزلتين - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، التي ترتكز عليها مبدأ الاعتزال[٦].

قال واصل بن عطاء بخطأ الامام علي لحربه في موقعة الجمل والنهروان. استنكر الشيعة هذا القول لأنهم يقولون بعصمة الامام وعلي الامام الأول فلا يجوز تخطئته. لواصل بن عطاء مؤلفات عديدة ذكرها ابن النديم في «الفهرست» وكذلك ذكرها

---

(٣) النقنق ويقال له الظليم هو ذكر النعام، الدوّ الفلاة الواسعة.

(٤) المنزلتان هما الكفر والايمان، والفاسق هو الذي يعصى أوامر الله.

(٥) كتاب المنية والأمل، ص ٣٢ - كتاب مذاهب الاسلاميين، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ٨١ .

(٦) كتاب الأصول الخمسة كتبه ابو الهذيل العلاّف.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العباس احمد بن خلكان في كتاب «وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان». ومن مؤلفاته: اصناف المرجئة - التوبة - المنزلة بين المنزلتين - الخطبة - معاني القرآن - السبيل الى معرفة الحق - الخطب في التوحيد - والدعوة.

واصل بن عطاء من معتزلة البصرة.

٢ - عمرو بن عبيد بن باب.

هو عمرو بن عبيد بن باب، وباب من سبي كابل من ثغور بلخ. وهو مولى لآل عرّادة من يربوع بن مالك، وكنيته ابو عثمان[٧]. ولد عمرو بن عبيد في البصرة عام ٨٠هـ وتوفي عام ١٤٤هـ. وهو شقيق ام يوسف زوجة واصل بن عطاء.

كان عمرو بن عبيد من اعلم الناس بأمر الدين ومن رواة الحديث، اشتهر بالزهد والتقشف والورع. قال عنه الجاحظ «صلى عمرو بن عبيد اربعين عاماً صلوة الفجر بوضوء المغرب وحج اربعين مرة حجة ماشياً». وكان يقول بالقدر وينكر صفات الله، ويقول ذلك هو التوحيد.

بعد المناظرة مع واصل بن عطاء في عقيدة «المنزلة بين المنزلتين» قال عمرو بن عبيد لواصل «ما بيني وبين الحق عداوة والقول قولك واشهد من حضر اني تارك ما كنت عليه من المذهب»[٨].

مات عمرو بن عبيد في موضع يقال له: «مران» في طريق مكة من البصرة وصلى عليه الفقيه سليمان بن علي، وقيل لما مرّ الخليفة المنصور بن جعفر ١٣٦ - ١٥٨هـ.) بقبره وكان يقدره ويحبه، رثاه بالأبيات التالية:

صلى الله عليك من متوسد ... قبراً مررت به على «مران»
قبراً تضمن مؤمنا متخشعاً ... عبد الاله ودان بالقرآن
واذا الرجال تنازعوا في شبهةٍ ... فصل الحديث بحجة وبيان
لو ان هذا الدهر ابقى صالحاً ... ابقى لنا عَمْراً ابا عثمان[٩]

(٧) كتاب طبقات المعتزلة، احمد يحيى بن المرتضى، ص ٣٥ .
(٨) كتاب الغرر والدّرر، احمد بن يحيى بن المرتضى، ص ١٦٧ .
(٩) كتاب طبقات المعتزلة، احمد يحيى بن المرتضى، ص ٤٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عمرو بن عبيد من معتزلة البصرة.

٣ – ابو الهذيل محمد بن الهذيل العلاّف العبيدي.

هو ابو الهذيل محمد بن الهذيل العلاّف العبيدي، وكان مولى لعبد قيس[١٠]. ولد في البصرة عام ١٣٥هـ في مكان يسمى بالعلاّفين فكانت كنيته بالعلاّف. اخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل وعن واصل بن عطاء. توفي في البصرة عام ٢٣٥هـ وحضر مأتمه الخليفة العباسي المعتزل الواثق بالله تكريماً له[١١].

كان ابو الهذيل العلاّف شيخ المعتزلة ومقرر طريقتهم والذاب عنها والقوة والدافع وراء تغلغل الفلسفة اليونانية، التي كان ملماً بها، في الفكر المعتزلي.

وكان لأبي الهذيل تأثير كبير على علم الكلام، وشدد على القياس، وهو علم الشيء على ما قبله من الأفعال والحوادث. كما وانه اعتمد على قياس ما اخرج من القرآن والسنة وأصر على انه ما آتى من القرآن، على ما هو الآن في ما يحدث، وان حرية الفكر والتعبير هما المعرفة الصادقة للمعرفة الدينية.

وفي خلافة المتوكل على الله العباسي، وكان يضطهد وينكل بالمعتزلة، الف ابو الهذيل كتاباً اسماه «الاصول الخمسة»، فكان اذا التقى معتزلي برجل يقول له: «هل قرأت الأصول الخمسة»؟ فاذا قال نعم، عرف انه على مذهبهم[١٢].

اخذ ابو الهذيل فلسفة الذرة عن الفلاسفة اليونان «ليوقيس» «وكديموقريطس». وقال: «من صفات جوهر الفرد انه لا طول له ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع فيه، ولا افتراق، وكذلك ان يكون الجوهر الفرد جسماً لأن هذه الصفات التي نفيناها عنه هي صفات الاجسام»[١٣].

---

(١٠) كتاب تاريخ بغداد، احمد بن علي الخطيب البغدادي، مجلد ٣، ص ٣٦٦ .

(١١) كتاب طبقات المعتزلة، احمد بن يحيى بن المرتضى، ص ٤٨ .

(١٢) كتاب نشأة التفكير الفلسفي في الاسلام، علي سامي النشّار، مجلد ١، ص ٤٨٥ . نقلاً عن مخطوط لأبي معين النسفي، موجود في مكتبة التيمورية في القاهرة رقم ٥١٤ .

(١٣) كتاب مقالات الاسلاميين، الاشعري، مجلد ٢، ص ٣٠٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اعترض بعض مفكري المعتزلة على ما قال به ابو الهذيل منهم، عيسى بن صبيح ابو موسى المردار في كتاب «تفكير ابي الهذيل». وجعفر ابن حرب في كتاب «توبيخ ابي الهذيل». وسبب ذلك موقفه في كثير من الأفكار تختلف عن موقفهم. العقل عند ابي الهذيل لمعرفة الحقيقة كاملة وليس الدين بمفرده.

كان ابو الهذيل يقول: «ان الانسان ان لم يقتل مات في ذلك الوقت، ولا يجوز ان يزاد العمر او ينقص» ويتفق هذا القول مع ما يعتقده عامة الموحدون الدروز من ان عمر الانسان مكتوب عندالله وان ابن العشرة لا يموت ابن تسعة».

قال ابو الحسين عبد الرحمن الخياط ان ابا الهذيل الف كتاب «الحجج» في الفقه وكتاب «القوالب» في الرد على الدهرية وان له ما يزيد عن الستين كتاباً في الرد على المخالفين في علم الكلام(١٤). ويذكر له ابن خلكان في كتابه «وفيات الاعيان» كتاباً اسمه «ميلاس»(١٥).

ابو الهذيل من معتزلة البصرة.

٤ - ابو اسحاق ابراهيم بن سيار بن هاني البلخي، المعروف بالنظّام.

هو ابو اسحاق ابراهيم النظّام، تنتسب اليه الفرقة النظّامية وهو تلميذ ابي الهذيل العلاّف. ولد في البصرة عام ١٨٥هـ. وتوفي عام ٢٣١هـ. عاش ٤٦ سنة. كان النظّام مولى بني بجير بن الحارث بن عباد الضبعي.

عرف عن ابو اسحاق النظّام معاشرته للثنويين وملحدة الفلاسفة، وكان صديقاً لهشام ابن الحكم الرافضي الذي اخذ عنه قوله: «بابطال الجزء الذي لا يتجزأ». كما انه كان مقرباً من الوزير يحيى بن خالد البرمكي وصديقاً لعمرو بن بحر الجاحظ الذي خلّده في كتبه.

ابو اسحاق النظّام هو ابن اخت ابي الهذيل العلاّف الذي اخذ عنه علم الاعتزال، كما انه اطلع على الكثير من كتب فلسفة اليونانيين، وخصوصاً الالهيين

---

(١٤) كتاب الفرق بين الفرق، البغدادي، ص ١٢٤ .

(١٥) ميلاس رجل مجوسي اسلم بعد اجتماعه مع ابي الهذيل وجماعة من الثنوية ومجادلتهم في علم المذهب المزدكي واسكتهم ابو الهذيل فأسلم «ميلاس».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والطبيعيين، كما نادى بالبدع الشبه ملحدة في دين الاسلام. قال النظّام، كالبراهمة، يبطل النبوات وانكر معجزات النبي، حتى انه انكر نبوته وطعن في فتاوى اعلام الصحابة.

وقال الدكتور مصطفى الشكعة: «وكان عنيفاً في تعبيره عما يعتقد، لا يتوخى الصيغ المهذبة عندما يتحدث عن الذات الالهية، كقوله: «ان الله لا يقدر على فعل الشر ولا يقدر ان يفعل الاّ ما يعلم انه الأصلح لعباده، وانه لا يقدر على ان يخلق اكثر مما خلق بالفعل، والاّ فما الذي يمنعه من ان يظهر كل ما عنده من القدرة على خلق اشياء جديدة»[١٦].

وقال قولته التي اثارت جماعة السنة وحتى بعض المعتزلة: «ان نظم القرآن وحسن تأليف كلماته، ليس بمعجزة للنبي، عليه السلام، ولا دلالة على صدقه في دعواه، وما فيه من الأخبار على الغيوب. اما نظم القرآن وحسن تأليف آياته، فان العباد قادرون على مثله وعلى احسن منه في النظم والتأليف»[١٧].

اثار هذا القول غضب وسخط اهل السنة لأنه ضد قول الله تعالى: «قل لئن اجتمعت الأنس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»[١٨].

كان ابو اسحاق النظّام من اعظم شيوخ المعتزلة واقدرهم على الكلام واكثرهم تعمقاً في الفلسفة ولكنه كان يعتمد النفي والسلبية كبرهان لايجابياته.

هاجم النظّام الكثير من المعتزلة واتهموه بالكفر والالحاد ومنهم ابو هشام الجبائي والقاضي ابو بكر محمد الباقلاني في كتابه «كفار المتأولين»، ولأبي حسن الأشعري ثلاثة كتب في تكفير اسحاق النظّام.

الاّ ان الجاحظ مجّد النظّام وقال فيه احسن الاقوال منها: «الاوائل يقولون، في كل الف سنة رجل لا نظير له، فان هذا صحيح، فهو ابو اسحق النظّام» ثم اردف

---

(١٦) كتاب اسلام بلا مذاهب، ص ٤٠١ .

(١٧) كتاب مذهب الاسلاميين، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ٢١٣ .

(١٨) سورة الاسراء، آية ٨٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قائلاً: «كان ابراهيم مأمون اللسان، قليل الزلل والزيغ في باب الصدق والكذب»[١٩].

كان ابراهيم النظّام على مذهب الشيعة وقال: «لا امامة الاّ بالنص والتعيين ظاهراً مكشوفاً. وقد نص النبي، صلى الله عليه وسلم، على علي رضي الله عنه، في مواضع وأظهره اظهاراً لم يشتبه على الجماعة الاّ ان عمر كتم ذلك»[٢٠].

وقال النظّام: «ان الاجماع ليس بحجة في الشرع، وكذلك القياس في الأحكام الشرعية لا يجوز ان يكون حجة، انما الحجة في قول الامام المعصوم».

ولأبي اسحاق النظّام مؤلفات قليلة، هي كتاب «الجزء» وهو عرض لأقوال المسلمين في مسألة الذرة. وكتاب حركة الاجسام وفيه يقول: «الحركات هي الكون لا غير ذلك. وكتاب «العلم» وفيه ما قاله الملحدون في العالم. وكتاب «التوحيد» ذكره الخياط في كتابه «الانتصار»[*].

ابو اسحاق ابراهيم النظّام من معتزلة البصرة.

٥ - ابو سهل بشر بن المعتمر الهلالي.

ولد في الكوفة ثم انتقل الى بغداد حيث صار رئيس المعتزلة. قال القاضي عبد الجبّار الهمذاني: «كان بشر بن المعتمر زاهداً، عابداً ورعاً داعياً الى الله تعالى وكان شاعراً مشهوراً قال الكثير من الشعر، ومن شعره»[٢١].

ان كنت تعلم ما اقول ... وما تقول فأنت عالم
وان كنت تجهل ذا وذاك ... فكن لأهل العلم لازم
لا تطلبن رئاسة ... بالجهل انت لها مخاصم

كان ابن المعتمر يقول: «ان الله قادر على ان يظلم ولو ظلم لكان بذلك عادلاً».

---

(١٩) كتاب الحيوان، مجلد ٤، ص ٢٠٦ .

(٢٠) كتاب الملل والنحل، الشهرستاني، ص ٥٧ .

(*) هو ابو الحسين بن ابي عمرو الخياط استاذ ابي القاسم بن محمد الكعبي.

(٢١) كتاب طبقات المعتزلة، احمد بن يحيى المرتضى، ص ٥٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من تلامذة ابن المعتمر كان بشر ثمامة بن الاشرس النميري. توفي ابن المعتمر عام ٢١٠هـ.

ابن المعتمر من معتزلة بغداد.

٦ – بشر ثمامة بن الأشرس النميري.

ويكنّى ابا معن النميري، كان وراء اقناع الخليفة عبدالله المأمون بالفكر المعتزلي عندما كان والياً على خراسان. لعب دوراً مؤثراً في الانقلاب الفكري الذي سيطر في عهد المأمون والمعتصم والواثق عندما أصبح الاعتزال عقيدة الدولة العباسية.

ولد الأشرس في البصرة التي فارقها الى خراسان حيث عمل والياً، ثم اتى بغداد والتحق بخدمة الخليفة المأمون الذي كان يعود اليه بالاستشارة في تعيين او عزل الوزراء والولاة.

وصفه الشهرستاني في كتاب الملل والنحل انه كان خليعاً ماجناً. وقال عنه العسقلاني انه كان ملحداً وينتقص من الاسلام. اما ابن النديم فيقول عنه انه كان من جلة المتكلمين في المعتزلة فصيحاً بليغاً عالماً في أمور الدين.

اتهم بالبدع والالحاد ومن قوله: «ان الأفعال المتولدة افعال لا فاعل لها، وهذا يعني، ان لا صانع لحدوث العالم». وقال، ان المعرفة متولدة من النظر، والنظر فعل لا فاعل له كسائر المتولدات». توفي عام ٢١٣هـ.

الأشرس من معتزلة بغداد.

٧ – ابو موسى بن مراد عيسى بن صبيح الكوفيّ.

قال عنه ابن الأخشيد[٢٢]: «ابو موسى الكوفي من علماء المعتزلة، ومن المقدمين فيهم، وكان من احسن عباد الله قصصاً وافصحهم منطقاً واثبتهم كلاماً. وكان يسمى راهب المعتزلة لاختلاطه بالمسيحيين في البصرة والقول بعقيدتهم». ساعد

(٢٢) ابن الاخشيد هو ابو بكر احمد بن علي الاخشيد معتزلي، من مؤلفاته كتاب «ابي علي في النفي والاثبات، واختصار تفسير الطبري» توفي عام ٣٢٦هـ وهو من معتزلة بغداد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استاذه بشر بن المعتمر في نشر مذهب الاعتزال في بغداد. ومن تلامذته جعفر بن حرب الثقفي وجعفر بن بشر الهمذاني.

اتهم بالالحاد وقال في القرآن: «ان الناس قادرون على مثل القرآن، فصاحة ونظماً وبلاغة». وقال في خلق القرآن - كفر من قال انه ازلي[٢٣].

وقال الشهرستاني: «ان ابا موسى بن مراد قال - ان العقل يوجب معرفة الله تعالى بجميع احكامه وصفاته قبل ورود الشرع، وعليه يعلم انه وان قصر ولم يعرفه ولم يشكره، عاقبه عقوبة دائمة، فاثبتنا التخليد واجباً للعقل»[٢٤]. توفي ابن مراد الكوفي عام ٢١٣هـ.

الكوفي من معتزلة بغداد.

٨ - خالد بن صفوان.

كان من اتباع عمرو بن عبيد، قال في خلق القرآن ونفي الصفات عن الله والقدر. اعتزل مع عمرو بن عبيد عند الجدل مع حسن البصري في مسألة المنزلة بين المنزلتين ولكنه حذا حذو الخوارج الازارقة في تكفير جميع من قاتل في معركة الجمل.

قال خالد بن صفوان: «ان علي بن ابي طالب وقومه قاتلوا ام المؤمنين عائشة والزبير بن العوّام وطلحة بن عبيد الله وجموعاً من المسلمين، جلهم من الصحابة». وانا اقول: «لا يحق لمسلم ان يقتل أخاه المسلم الاّ على الحق. فأين الحق في مقتل آلاف من حفظة القرآن!». توفي عام ١٣٣هـ.

خالد بن صفوان من معتزلة البصرة.

٩ - ابو عمرو محمد بن عبّاد السلمي.

قال احمد بن يحيى بن المرتضى: «كان السلمي عالماً عدلاً وتفرد بمذاهب،

---

(٢٣) كتاب الملل والنحل، ص ٦٩ .

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٧٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سنذكرها انشاءالله. وكان بشر بن المعتمر، وهشام عمرو وابو الحسن المدائني من تلامذته. ثم حكي ان الرشيد وجه به الى ملك السند ليناظره، وان ملك السند دس له من سمّه في الطريق فمات»[٢٥].

وقال ابو الحسن الأشعري: «وقال معمر بالتعجيز لله وانه لا يوصف بالقديم، وانه قادر الاّ على الجوهر، وان الاعراض فلا يجوز ان يوصف بالقدرة عليها، وانه ما خلق حياة ولا موتاً، ولا صحة ولا سقماً، ولا قوة ولا عجزاً[٢٦]. توفي عام ٢٢٠هـ.

ابو عمر بن عباد السلمي من معتزلة البصرة.

١٠ - هشام بن عمرو الفوطي.

ولد في البصرة وينتسب الى «شيبان» قال فيه القاضي عبد الجبّار الهمذاني: «كان عظيم القدر عند الخاصة والعامة». حكي عن يحيى بن الأكثم: «كان اذا دخل على المأمون، يتحرك حتى يكاد يقوم»[٢٧].

ومن اقواله، التي اعتبرت بدعاً وكفراً: «ان الله لا يؤلف بين قلوب المؤمنين بل هم المؤتلفون باختيارهم[٢٨]. ويرد عليه عبد القادر البغدادي بالآية «والّفَ بين قلوبهم لو انفقت ما في الأرض جميعاً ما أَلفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم، انه عزيز حكيم»[٢٩].

ثم يقول: «ان الله لا يحبّب الايمان الى المؤمنين ولا يزينه في قلوبهم» فيرد عليه الشهرستاني بالآية: «حبب اليكم الأيمن وزيّنه في قلوبكم»[٣٠].

وحرّم هشام الفوطي على الناس ان يقولوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل» لأن

(٢٥) كتاب طبقات المعتزلة، ص ٥٤ . كتاب الفرق بين الفرق، البغدادي، ص ١٥١ .

(٢٦) كتاب مقالات الاسلاميين، مجلد ٢، ص ٥٤٨ .

(٢٧) كتاب طبقات المعتزلة، ص ٦٠ .

(٢٨) كتاب الفرق بين الفرق، البغدادي، ص ١٦٠ .

(٢٩) سورة الانفال، آية ٦٣ .

(٣٠) سورة الحجرات، آية ٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوكيل يقتضي موكلاً فوقه وهذا لا يجوز على الله، لأن لا شيء فوقه تعالى. واستبدل هذا القول: «حسبنا الله ونعم المتوكل عليه»[٣١].

توفي عام ٢١٨ هجري وهو من معتزلة البصرة.

١١ - ابو محمد جعفر بن مبشر الثقفي.

قال محمد بن يزداد: «ولقد بلغ في العلم والعمل هو، وجعفر بن حرب، حتى كان يضرب بهما المثل فكان يقال: «علم الجعفرين وزهدهما كما يضرب المثل في حسن السيرة بالعمرين»[٣٢].

كان فقيراً زاهداً وكان يرفض المساعدة، حتى من اقرب الناس اليه. قيل ان الخليفة المأمون قال لوزيره، احمد بن دؤاد، «لمَ لا تولي اصحابي (المعتزلة) القضاء كما تولي غيرهم؟ فقال بن دؤاد أرسلت الى جعفر الثقفي مالاً، فأرجعه، فذهبت بنفسي، فهددني بالقتل وقال: «لا أريد أكثر مما يسد رمقي. فكيف اولي القضاء مثله[٣٣].

قال: «ان لا يوجد من المعاصي كبائر وصغائر، كل المعاصي كبائر». بهذا اتفق في رأيه مع الخوارج الازارقة والنجدات واختلف مع جماعة الاعتزال وهو من كبار مفكريهم.

توفي عام ٢٣٤هـ وهو من معتزلة بغداد.

١٢ - جعفر بن حرب ويكنّى ابا الفضل.

كان عالماً ورعاً زاهداً. وقيل ان في آخر عمره ترك ضياعه وما يملك واعتزل الناس واقبل على التأليف. كان يبيع كتبه في السوق لسد حاجاته من ثمنها، وينفق ما يدخله من ضياعه على الفقراء والمحتاجين.

---

(٣١) كتاب الفرق بين الفرق، البغدادي، ص ١٥٩ .

(٣٢) العُمَران هما عمر بن الخطّاب والخليفة الأموي الثامن عمر بن عبد العزيز الملقب بالخليفة الزاهد، امه ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

(٣٣) كتاب الفرق بين الفرق، البغدادي، حاشية ٣، ص ١٦٧ (تفصيل كامل للقصة).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان يحضر مجلس الخليفة الواثق بالله ويشترك في المناظرات والجدل الديني. ولما انقطع عن الحضور قيل للخليفة انه مريض والواقع انه انقطع عن حضور مجلس الواثق بالله لأنه لم يتفق مع بعض العلماء في كثير من الآراء الفقهية.

اما احمد بن يحيى بن المرتضى فيقول: «انه امتنع عن حضور مجلس الواثق بالله لأنه تنحى عن مجلسه في الصلاة وصلى منفرداً. فقال له الوزير احمد بن ابي دؤاد: «ان هذا لا يحتملك على هذا الفعل، فان عزمت عليه فلا تحضر مجلسه». فقال «ما اريد الحضور لولا انك تحملني عليه» ولم يحضر مجلس الواثق بالله بعد ذلك»(٣٤).

ومن مؤلفاته كتاب «الايضاح والنصيحة العامة». وكتاب شرح «الأصول الخمسة». وفي مقالات ابو القاسم البلخي الكعبي: ان جعفر بن حرب كان يقول: «ان الممنوع من العقل قادر على الفعل، وليس يقدر على شيء، وان العالم بشيء ليس غير العالم به»(٣٥).

وقال البغدادي: «كتبنا كتاب – الحرب على ابن حرب – كي ننقض ما قاله في مؤلفاته».

توفي عام ٢٣٦هـ وهو من معتزلة بغداد.

١٣ – موسى بن سيار الاسواري.

قال عنه الجاحظ: «كان من اعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية من وزن فصاحته في العربية. وكان يجلس في مجلسه، المشهور به، فيقعد العرب على يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدري بأي لسان هو ابين. واللغتان اذا التقتا في اللسان الواحد، ادخل كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها. الاّ ما ذكرنا من لسان موسى بن سيّار الاسواري»(٣٦).

---

(٣٤) كتاب طبقات المعتزلة، ص ٧٤ . كتاب الفرق بين الفرق، البغدادي. حاشية، ص ١٦٧ .

(٣٥) كتاب الفرق بين الفرق، البغدادي، ص ١٦٩ .

(٣٦) كتاب «البيان والتبيين» مجلد ١، ص ٣٦٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قيل انه فسّر القرآن ثلاثين سنة ولم يتم تفسيره[٣٧].
توفي عام ٢٠٠هـ وهو من معتزلة البصرة.

١٤ - ابو القاسم عبدالله بن احمد بن محمود البلخي الكعبي.

قال ان الله تعالى لا يرى نفسه كما انكروا ان يراه غيره الاّ على معنى علمه بنفسه وبغيره. وتبع قول ابراهيم النظّام: «ان الله تعالى لا يرى شيئاً من الحقيقة»[٣٨].
كان تلميذ ابو الحسين الخيّاط، وكان زعيماً لطائفة «الكعبية». توفي عام ٣١٩هـ. وهو من معتزلة بغداد.

١٥ - ابو مضر بن ابي الوليد احمد بن ابي دؤاد الايادي.

كان قاضي القضاة في عهد الخليفة الواثق بالله المعتزلي (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) وقيل ان القاضي ابن دؤاد كان من غلاة الجهمية وهو الذي حرّض على امام اهل النص، احمد بن حنبل، وافتى بقتله. غضب عليه الخليفة المتوكل على الله عام ٢٣٧هـ فصادر امواله وحبسه. توفي عام ٢٤٠هـ، وهو من معتزله بغداد.

١٦ - ابو الحسين الخيّاط عبد الرحيم بن محمد بن عثمان.

استاذ عبدالله بن ابي قاسم البلخي الكعبي. كان عالماً فاضلاً فقيهاً ورعاً، وكان من غلاة الشيعة. ومن قوله في الامام علي بن ابي طالب: «انه من افضل الصحابة، لأن الخصال التي فضل الناس بها متفرقة في الناس وهي مجتمعة فيه. وقال: الصديقون ثلاثة، حزقيل مؤمن آل فرعون، وحبيب النجّار مؤمن آل يس، وعلي بن ابي طالب وهو افضل الثلاثة. وقال: ان الرسول قال، «اشتاقت الجنة الى ثلاثة، علي وعمّار وسلمان»[٣٩].

---

(٣٧) كتاب طبقات المعتزلة، ابن المرتضى، ص ٦٠ .
(٣٨) كتاب الفرق بين الفرق، البغدادي، ص ١٨١ .
(٣٩) كتاب طبقات المعتزلة، احمد بن يحيى بن المرتضى، ص ٨٦ و ٨٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اختلف المعتزلة في تسمية المعدوم شيئاً. فيهم من قال، لا يصح ان يكون المعدوم معلوماً ومذكوراً، ولا يصح ان يكون شيئاً ولا ذاتاً ولا جوهراً ولا عرضاً. فقال ابو الحسين الخيّاط، وغالى بذلك، في اثبات المعدوم. «الشيء ما يعلم ويخبر عنه، والجوهر جوهر من العدم والعرض عرض من العدم ولم يبق الاّ صفة الوجود او الصفات التي تلزم الوجود والحدوث والمعدوم هو لفظ الصفات»(٤٠).

وقال عبد القادر البغدادي: «وكان هولاء الخيّاطية يقال لهم «المعدومية»(*) لافراطهم بوصفهم المعدوم بأكثر اوصاف الموجودات»(٤١).

الّف ابو الحسين الخيّاط كتاب: «الانتصار والرد على ابن الروندي» دافع فيه عن المعتزلة وبرأهم مما قال فيهم ابن الروندي.

توفي عام ٣٠٠هـ. وهو من معتزلة بغداد.

١٧ - عمرو ابن بحر الجاحظ.

كنيته ابو عثمان ولقّب بالجاحظ لجحوظ عينيه وقيل انه كان مولى لبني «كنان» او كناني النسب. اما ابو القاسم محمود البلخي الكعبي فيقول: «انه كناني من بني كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر»(٤٢).

عاش في عهد الخلفاء العباسيين، المأمون والمعتصم بالله. وكان ذلك العصر من ازهى عصور الحضارة الاسلامية اذ كانت حركة الترجمة تنقل الى المسلمين تراث الشعوب المتحضرة في ذلك الوقت، كما ان العقل الاسلامي احتك بحضارات البلاد التي انتشر فيها الاسلام.

ولد ابو عثمان الجاحظ في مدينة البصرة، وكان فقيراً يعتمد على أمه في نفقته وكانت أمه أرملة تخدم في بيوت الاغنياء.

---

(٤٠) كتاب الملل والنحل، الشهرستاني، ص ٧٨ .

(*) الموحدون الدروز يقولون: «ان العاقل لا يعبد المعدوم».

(٤١) كتاب الفرق بين الفرق، ص ١٦٤ .

(٤٢) كتاب الفرق بين الفرق، البغدادي، ص ١٧٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التحق الجاحظ بالوزير محمد بن عبد الملك بن الزيّات، الذي كان على عداء مع القاضي المعتزلي المشهور احمد بن دؤاد، فلما قتل صديق الجاحظ، محمد بن عبد الملك بن الزيّات، اعتقل القاضي بن دؤاد الجاحظ وسجنه ثم اخلى سبيله، لكون ابي دؤاد من رجال الاعتزال المرموقين، ولكن بعد ان قال للجاحظ امام جمع من الناس: «ما علمتك الاّ متناسيا للنعمة، كفوراً للصنيعة، معدناً للمساوئ وما فُتّني باستصلاحي لك، ولكن الأيام لا تصلح فيك لفساد طويتك ورداءة طبيعتك»(٤٣).

نفى الجاحظ العصمة عن الانبياء وقال: «ان الانبياء اعتمدوا المعاصي ووافقوها على غير تأويل مع العلم ان الله قد نهى عنها».

ووافق ابو بشر ثمامة ابن الأشرس النميري الجاحظ على «ان لا فعل للعباد الاّ الارادة، وان سائر الأفعال تنسب الى العباد على معنى أنها وقعت منهم طباعاً، وانها وجبت بارادتهم»(٤٤). كما قال ابو القاسم عبدالله البلخي الكعبي، ان الجاحظ قال: «ان المعارف كلها طباع، وهي مع ذلك فعل للعباد وليست باختيار لهم»(٤٥).

كان ابو عثمان الجاحظ، منذ حداثته، ميّالاً الى علوم الفلسفة وخصوصاً العقل. وقال عنه الشهرستاني: «انه طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وخلط وروّج لعبارته البليغة وبراعته اللطيفة، وكان اكثر ميله الى الفلاسفة الطبيعيين، فجاءت اقواله مصبوغة بفلسفتهم»(٤٦).

اعتنق الجاحظ مذهب الاعتزال وكان تلميذاً لابراهيم النّظام، وكما قلنا سابقاً، قال فيه: «الاوائل يقولون في كل الف سنة رجل لا نظير له، فان كان ذلك صحيحاً، فهو ابو اسحق النظام»(٤٧).

---

(٤٣) كتاب طبقات الاعتزال، ابن المرتضى، ص ٦٩ . بعد هذا التأنيب القاسي اهدى الجاحظ كتابه «البيان والتبيين» الى القاضي ابن دؤاد.

(٤٤) كتاب الملل والنحل، الشهرستاني، مجلد ١، ص ٨٠ .

(٤٥) كتاب الحيوان، مجلد ٤، ص ٢٠٦ .

(٤٦) كتاب وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، ابن خلكان، مجلد ٣، ص ٣٩٨ .

(٤٧) كان ابو يعقوب يوسف بن اسحق السكّام من اصحاب ابي الهذيل العلاّف، وكان من احذق الناس في تفسير القرآن وقد اختاره القاضي بن ابي دؤاد ناظراً في مكتب الانشاء. وهو من معتزلة البصرة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اخذ الجاحظ علم اللغة عن الاصمعي، والأدب والتاريخ عن ابي زيد الانصاري والفلسفة والاعتزال عن ابراهيم النظام.

قيل انه كتب ما ينوف عن مائة وسبعين كتاباً، ولكن لسوء الحظ، اتلف قسم كبيراً منها ولم يصل الينا الاّ كتاب الحيوان وكتاب البخلاء وكتاب البيان والتبين ورسالة التربيع والتدوير. توفي عام ٢٥٥هـ بعد ان اصيب بالفالج.

ابو عثمان الجاحظ من معتزلة البصرة.

١٨ - ابو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي.

هو ابو علي محمد بن الوهاب بن سلام بن خالد بن حمران بن ابان الجبائي، مولى عثمان بن عفان. جبائي نسبة الى بلدة «جباء» وهي من اعمال خراسان[٤٨].

كان ابو علي الجبائي شيخ المعتزلة في البصرة، وكان فقيهاً ورعاً زاهداً. واذعنت له شيوخ المعتزلة بالرياسة بعد موت ابي الهذيل العلاّف. «اخذ الاعتزال عن مدرسة ابي الهذيل العلاّف استاذ ابي يعقوب السحّام[٤٩].

ولد ابو علي الجبائي عام ٢٣٥هـ[٥٠] وتوفي عام ٣٠٣هـ ودفن في مسقط رأسه «جباء»[٥١].

كان ابو علي الجبائي معروفاً بقوة الجدل وحسن المناظرة وله مناظرة مع تلميذه ابو الحسن الأشعري سجلتها كتب التاريخ الاسلامية ويقال ان الأشعري ربح المناظرة.

اشتهر ابو علي الجبائي بقوله: «ان الاشياء تُعلم اشياء قبل كونها، وتسمى اشياء قبل كونها، وان الجواهر تسمى جواهر قبل كونها، وكذلك الحركات والسكون والألوان والطعوم والأراييح والارادات وكذلك ان الطاعة تسمى طاعة قبل كونها،

---

(٤٨) كتاب الفهرست ابن النديم، ص ٢٥٦ وكتاب ياقوت، مجلد ٢، ص ١٣ .

(٤٩) كتاب وفيات الأعيان، ابن خلكان، مجلد ٣، ص ٣٩٩ .

(٥٠) المصدر نفسه.

(٥١) المصدر نفسه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكذلك المعصية تسمى معصية قبل كونها»[٥٢]. المسألة التي اثارها ابو علي الجبائي هي «هل معلومات الله معلومات قبل كونها، وكذلك مقدوراته هل هي مقدورات قبل كونها، وكذلك هل الاشياء اشياء قبل كونها؟ تصدى لأبي علي الجبائي بعض المتكلمين وقالوا «بأن علم الله بالشيء هو كونه ومعنى هذا ان الشيء موجود منذ الأزل، لأن علم الله قديم ورفض ذلك يتنافى مع فكرة الخلق والايجاد»[٥٣].

اختلف ابو علي الجبائي مع ابنه ابو هشام بن محمد الجبائي في جملة من المسائل، وكتب في ذلك الخلاف القاضي عبد الجبّار الهمذاني كتابه «الخلاف بين الشيخين».

كان ابو علي الجبائي على مذهب الشيعة وهو الذي قال: «روي عن النبي، صلى الله عليه وسلم، انه قال لعلي والحسن والحسين وفاطمة: «انا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم»، ويقول ابو علي: «العجب من هؤلاء النوابت يروون هذا الحديث ثم يقولون بمعاوية»[٥٤].

وكان يقول ابو علي الجبائي: «حقيقة الطاعة عندي موافقة الارادة، وكل من فعل مراد غيره فقد اطاعه» فتصدى له ابو الحسن الأشعري. «يلزمك على هذا الأصل ان يكون الله مطيعاً لعبده اذا فعل مراده. خالفت اجماع المسلمين وكفرت برب العالمين. لو جاز ان يكون الله تعالى مطيعاً لعبده، لجاز ان يكون خاضعاً له، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً»[٥٥].

---

(٥٢) كتاب مذاهب الاسلاميين، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ٢٨٧ .

(٥٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٨ .

(٥٤) كتاب طبقات المعتزلة، ابن المرتضى، ص ٨٢ .

(٥٥) كتاب الملل والنحل، الشهرستاني ص ٧٨ (الحاشية).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٩ - ابو هاشم عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي.

هو ابن المعتزلي الكبير ابو علي الجبائي ولد عام ٢٧٧هـ في مدينة البصرة، التي كانت منارة العلم والمعرفة في ذلك الزمن. ثم قدم بغداد عام ٣١٤هـ[٥٦] حيث اقام فيها حتى توفي عام ٣٢١هـ ودفن في مقبرة البستان.

درس علم النحو واللغة على يد ابن العباس المبرّد، وعندما قيل له: «ان في المبرّد سخفاً»، قال: «رأيت احتماله اولى من الجهل بالعربية»[٥٧]. وأخذ علم الكلام والاعتزال عن ابيه ابي علي الجبائي. «كان ملحاً في السؤال حتى كان ابوه يتضايق منه ويتأذى به وكان يسأل، حتى في الليل»[٥٨].

اختلف مع ابيه، ابو علي الجبائي، في مسائل كثيرة ولكنه وافقه في قضية «الفناء» وقضية «المعدوم»[٥٩] وغيرها في مسائل الفقه وتفسير القرآن.

كان من احذق العلماء في الجدل والمناظرة، ورعاً، زاهداً عالماً في أمور الدين والفقه، له مؤلفات عديدة. قال عنه القاضي عبد الجبّار الهمذاني: «كان ابو هاشم من احسن الناس اخلاقاً واطلقهم وجهاً. وقد استنكر بعض الناس خلافه على ابيه، وليس مخالفة التابع للمتبوع في دقيق الفروع بمستنكر، فقد خالف اصحاب ابي حنيفة ابا حنيفة»[٦٠].

---

(٥٦) كتاب الفهرست، ابن النديم، ص ٢١٦ .

(٥٧) كتاب طبقات المعتزلة، ابن المرتضى، ص ٩٦ .

(٥٨) كتاب مذاهب الاسلاميين، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ٣٣١ .

(٥٩) كتاب المعتزلة، زهدي يكّن، ص ١٦٠ .

(٦٠) كتاب طبقات المعتزلة، ابن مرتضى، ص ٩٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي القرن الرابع، اي في عهد الوزير الصاحب بن عبّاد كان المعتزلة على مذهب ابي هاشم الجبائي، الذي انتشر وازدهر بفضل مساعدة ورعاية الصاحب بن عباد الذي كان من غلاة المعتزلة، فاغدق عليهم الصلات وولاّهم المناصب المهمة في القضاء والادارة(٦١).

كان لأبي هشام الجبائي الكثير من التلاميذ اللامعين، منهم، أبو علي بن خلاد صاحب كتاب «شرح الأصول». وابو عبدالله الحسين بن علي البصري، وابو اسحق العياش، ابو الحسين الأزرق وابو الحسين الطوائفي البغدادي.

ترك ابو هاشم مؤلفات عديدة ولكن لسوء الحظ اتلف القسم الأكبر منها عندما دمّر المغول عام ٦٥٦هـ مكتبة بغداد، كما دمّر الأمير الغزنوي سبستكين عام ٤٢٠هـ مكتبة «الري» كما كان للاشاعرة والحنابلة اليد الطولي في اتلاف كتب الاعتزال في عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله وغيره من الخلفاء العباسيين.

ابو هاشم الجبائي من معتزلة البصرة.

٢٠ - قاضي القضاة عبد الجبّار احمد بن الجبّار بن احمد بن الخليل بن عبدالله ابو الحسن الهمذاني الأسد اباذي(٦٢).

وعن مولده قال ابن الأثير، ان القاضي عبد الجبّار توفي عن عمر جاوز التسعين سنة، فيكون مولده حوالي عام ٣٢٠هـ(٦٣) وتوفي في مدينة «الري» عام ٤١٥هـ(٦٤).

- ابن الراوندي، هو ابو الحسين احمد بن يحيى وكنيته ابن الراوندي. كان من المعتزلة ولكنه اظهر الالحاد والزندقة فطردته المعتزلة. كتب كتاب «التاج في الرد على الموحدين» وكتاب الدافع في الرد على القرآن. وكتاب الطبائع والزمرد والامامة وكتاب فضائح المعتزلة. كتب لليهود واهل الثنوية. رد عليه ابو علي الجبائي وابو الحسين الخياط في كتاب «الانتصار والرد على الراوندي».

(٦١) كتاب مذاهب الاسلاميين، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ٣٣٧ . الفرق بين الفرق، البغدادي ص ١٨٥ .

(٦٢) كتاب العقل والحرية، الدكتور عبد الستار الراوي، ص ٣٦ .

(٦٣) كتاب الكامل في التاريخ، مجلد ٩، ص ٦٣٨ .

(٦٤) كتاب تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، مجلد ١١، ص ١١٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابتدأ القاضي عبد الجبّار دراسته في مدينة «قزوين»[٦٥] على يد الفقيه الزبير بن عبد الواحد الأسد اباذي وعلى يد ابي الحسن بن سلمة القطّان. وفي عام ٣٤٠هـ توجه الى همذان فدرس الحديث على يد ابن محمد بن حمدان الجلاّب ثم سار عام ٣٤٥هـ الى اصفهان فقرأ على ابي محمد عبدالله الاصفهاني ومحمد عمرو البصري واحمد بن ابراهيم التميمي ومحمد الرامهرمزي[٦٦].

ومن اصفهان توجه القاضي عبد الجبّار الى البصرة حيث اعتنق الاشعرية والمذهب الشافعي وكذلك اتصل برجال المعتزلة وحضر ندواتهم ودرس فكر الاعتزال «حتى عرف الحق وانقاد له»[٦٧]. اخذ القاضي مذهب الاعتزال عن ابي اسحق بن عياش[٦٨].

ومن البصرة توجه القاضي عبد الجبّار الى بغداد، منارة العلم والفكر والثقافة، حيث انضم الى حلقة الحسين بن علي عبدالله البصري الذي اخذ عنه علم الفقه والدين واقام عنده مدة طويلة يرعاه كابنه.

استدعاه الصاحب بن عباد الذي كان معتزلياً ووزير الأمير البويهي مؤيد الدولة وعينه قاضياً على اقليم «الري» وقزوين «وزنجان» وعرف بعد ذلك بلقب قاضي القضاة، ولا يطلق المعتزلة هذا اللقب على احد غيره. استخدم الصاحب بن عباد نفوذه في نصرة الاعتزال فأسند الى المعتزلة المناصب العالية واعاد لهم الكثير من مجدهم وهيبتهم بعد المحنة التي انزلها بهم الخليفة المتوكل على الله.

كان القاضي عبد الجبّار مفكراً، عالماً، واديباً بليغاً، واسع الاطلاع عميق التفكير والتحليل وكان موسوعة كاملة في علوم الدين وفلسفة مذهب الاعتزال. اتجهت معارفه نحو التدقيق في معرفة أصول المذهب وجميع ما قالته شيوخ المعتزلة من واصل بن عطاء الى ابي هشام الجبائي.

---

(٦٥) قزوين احدى مدن فارس الجبلية ولد فيها الامام «ابن باجه» صاحب كتاب السنن وزكريا ابن محمد القزويني صاحب كتاب عجائب المخلوقات.

(٦٦) كتاب طبقات الشافعية الكبرى عبد الوهاب السبكي، مجلد ٣، ص ٢٢٠ .

(٦٧) كتاب شرح عيون المسائل، ابو السعد البهيقي، ص ٣٦٦ .

(٦٨) هو ابراهيم بن عياش البصري، معتزلي عرف بالعلم والتقوى والزهد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المؤلفات التي تركها القاضي عبد الجبّار كانت وفيرة جداً وتبحث في مختلف المواضيع الدينية والفلسفية وتزخر بالشروح والتعليقات الوفيرة المتداخلة من الأبحاث الفكرية والدنيوية، مما يجعل هذه الدراسة المقتضبة تضيق حتى بقسم منها مهما حاولنا الاختصار. ولهذا السبب نكتفي بطريقة الدكتور عبد الستار الراوي[٦٩] في حصر الشرح في المواضيع الاساسية فقط.

١ - العلوم القرآنية[٧٠].

وجه القاضي عبد الجبّار عناية خاصة الى علوم القرآن الكريم للتوصل الى بيان أوجه التوافق بين اصولياته الاعتزالية.

وللقاضي في علوم القرآن كتاب «المتشابه في القرآن»، وكتاب «تنزيه القرآن عن المطاعن»، والتفسير المعروف «بالمحيط»[٧١] ثم كتاب «الأدلة» «وشهادات القرآن» وكتاب «دلائل نبوة سيدنا محمد».

٢ - الاعمال الاصولية[٧٢].

حتى يتمكن القاضي عبد الجبّار من تخليص الاعتزال من مقولات غلاة المعتزلة في التفسير الضيق المنطلق من التعصب الديني، فكان عليه ان يبسط المذهب على الأسس التي قام عليها، اي العدل والتوحيد والعقل.

---

(٦٩) كتاب العقل والحرية، من ص ٤٢ - ٥١ .

(٧٠) المصدر نفسه، ص ٤٢ .

(٧١) يقول المؤرخ ابو السعد الحمشي البهيقي. «شرح عيون المسائل» ان اجزاء هذا التفسير تقع في مائة مجلد.

(٧٢) كتاب العقل والحرية، ص ٤٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ – القضايا المذهبية[٧٣].

احتوت كتب القاضي عبد الجبّار شرحاً وافياً لمفهوم عقائد الاعتزال المذهبية. كتاب «الخاطر» وكتاب «الفعل والفاعل» وكتاب «الجمل».

٤ – الشروح[٧٤].

ابرز شروح القاضي عبد الجبّار هي: كتاب «شرح المحيط»، كتاب كشف الاغراض عن الاعراض، «تهذيب الشرح» وكتاب «شرح المقالات» «ونقض المعرفة».

٥ – الجدليات[٧٥].

من اخص تقاليد المعتزلة في الجدل كان كتاب «ما يجوز فيه التزايد وما لا يجوز» ثم كتاب «أدب الجدل» وكتاب «الخلاف بين الشيخين» وكتاب «الخلاف والوفاق».

٦ – النقوض[٧٦].

يقول الدكتور عبد الستار الراوي «بقدر عناية القاضي بالدفاع عن مذهبه ويقظته ازاء تحديات فرق الخصوم والمعترضة في كافة الفصائل والاتجاهات، فانه وجد ان مهمته النقدية الأولى لا بد ان تتوجه الى الاعتزال ذاته في طرح كل الآراء المخالفة لأصوله واقصاء تطرقاتها[٧٧].

وفي شرحه للنقض كتب «البدل» «واللمع» «والآراء والرد على النصارى».

---

(٧٣) المصدر نفسه، ص ٤٧ .
(٧٤) المصدر نفسه، ص ٤٧ .
(٧٥) المصدر نفسه، ص ٤٩ .
(٧٦) المصدر نفسه، ص ٥٠ .
(٧٧) المصدر نفسه، ص ٥٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٧ - المسائل والجوابات[٧٨].

حدد في كتاب «المقدمات» ان المسائل هي في الموجبات المؤثرات في القضايا التي اثارها أبو الحسين الخيّاط والجبائيون والنيسابوري وقال: «ان المشايخ اجابوا بصحيح وفاسد ويجب اصلاح اخطائها».

والجوابات كانت عن المسائل التي اثيرت معه في رحلاته وخلال مناقشاته وجدلياته فكتب كتاب اجوبة «المرازيات» «والنيسابوريات» «والطرمايات» «والمصريات» «والكوفيات» «والمكيات» «والخوارزميات» «والعسكريات».

٨ - تاريخ الاعتزال وطبقاته[٧٩].

فصل الاعتزال وطبقاته هو احتواء ما قام به الحاكم الجمشي البهيقي في كتابه «شرح عيون المسائل»، واحمد بن يحيى بن المرتضى في كتابه «طبقات المعتزلة».

من اهم كتب القاضي عبد الجبّار هو كتاب «المغني في ابواب التوحيد والعدل» التي استغرقت كتابته مدة عشرين سنة، ابتداء من سنة ٣٦٠هـ في مجلد «رامهرمزي» وكتب آخر اجزائه «الاقامة» عام ٣٨٠هـ في مدينة «الري».

كتاب المغني «موسوعة كاملة في عقيدة التوحيد والعدل» ويغطي مذهب الاعتزال بكل مبادئه المبدئية والهامشية.

اثار الجزء الأخير، اي العشرين (الامامة) حملة استياء في اوساط الشيعة، وكان رد الشريف المرتضى، وهو تلميذ القاضي عبد الجبّار، في كتابه «الشافي» قاسياً وشديد اللهجة.

---

(٧٨) المصدر نفسه، ص ٥١ .

(٧٩) المصدر نفسه، ص ٥٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اعتبر القاضي عبد الجبار مسألة الامامة «فرعية لا ترمي الى الفكر الديني الأصولي» وابطل قضية «الغيبة» وهي عقيدة الشيعة الاثني عشرية وكذلك الاسماعيلية، بأن المهدي المنتظر، امام الزمان وقايم الحق، سيظهر في الوقت المناسب، وهو الآن في غيبة.

ثم كتب القاضي عبد الجبّار كتاب «شرح الأصول الخمسة». «والقضاء والقدر». «ومختصر الحسنى». «الدواعي والصوارف». «الحكمة والحكيم» وغيرهم من الكتب التي لا مجال لتعدادها في هذه الدراسة القصيرة.

كانت مدرسة القاضي عبد الجبّار تضم، اضافة الى تلامذته من المعتزلة، العديد من مفكري الزيدية، والشيعة الامامية، درسوا عليه واخذوا علم الدين والفقه عنه.

من تلاميذ القاضي عبد الجبّار المرموقين الذين تركوا اثراً في الفكر الاسلامي:

١ – ابو رشيد سعيد بن محمد النيسابوري. كتب «الأصول في التوحيد» وكتاب «المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين».

٢ – الشريف المرتضى ابو القاسم علي بن الحسين الموسوي. كان نقيب الاشراف الطالبيين في بغداد. له كتاب «الشافي» رد فيه على كتاب «المغني»(*). وكتاب غرر الفوائد ودرر القلائد. والشريف المرتضى جمع كتاب «نهج البلاغة» الذي يحوي أقوال وحكم الامام الأول علي بن ابي طالب.

٣ – ابو محمد عبدالله بن سعيد اللّباد. كان يدير حلقات الجدل وله كتاب «النكث».

٤ – محمد بن علي الطيب ابو الحسن البصري. اعتمد على الفلسفة اليونانية في ابحاثه، الف كتاب المعتمد في اصول الفقه».

(*) كتاب المغني عشرون جزءاً لم يعثر الاّ على اربعة عشر جزءاً. ٤ – رؤية الباري. ٥ الفرق غير الأسلامية ٦ – التعديل والتحوير. ٦ – الارادة. ٧ – خلق القرآن. ٨ – المخلوق. ٩ – التوليد. ١١ – التكليف. ١٢ – النظر والمعارف. ١٣ – اللطف. ١٤ – الاصلح واستحقاق الذم. ١٥ – النبوءات والمعجزات. ١٦ – اعجاز القرآن. ٢٠ – الامامة. حقق هذا الكتاب مجموعة من المفكرين المصريين على رأسهم أمين الخولي. عبد المنعم محمود. توفيق الطويل وغيرهم باشراف الدكتور طه حسين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥ – ابو يوسف عبد السلام محمد القزويني. كان عالماً وثقة في العلوم القرآنية وجريئاً في القول في عقيدة الاعتزال.

٦ – ابو محمد الحسن بن احمد ابن مثويه. شرح كتاب القاضي عبد الجبّار «في احكام الجواهر والاعراض» «والمجموع في المحيط والتكليف».

كان لا بد من اعطاء هذا الشرح المستفيض لاعمال القاضي عبد الجبّار الهمذاني، لأنه المفكر المسلم الوحيد الذي ترك للقارئ العربي دراسة شاملة عن الاعتزال، وذلك بالنسبة لضآلة المصادر الأصلية لهذه الفلسفة، اذ بالاضافة الى حرق مكتبة «الري» عام ٤٢٠هـ وتدمير مكتبة المأمون عام ٦٥٦هـ، اشترك الاشاعرة والحنابلة وبعض الخلفاء العباسيين، كالمتوكل على الله، في اتلاف كتب الاعتزال حتى غابت عن المكتبة العربية معظم مصادر الفكر المعتزلي.

يلتقي الموحدون الدروز وأصحاب الاعتزال في ركنين اساسيين هما من صلب معتقداتهم الدينية ومنارة معرفتهم، وايمانهم الالهي ومسلكهم في عباداتهم لله تعالى. وهذان الركنان هما العقل والتوحيد. فلسفة الاعتزال تزخر في تمجيد العقل وتنادي بالتوحيد، والموحدون الدروز، ايمانهم الأعلى هو التوحيد، ولقبهم الموحدون ويقدسون العقل وهو لهم ثاني الخالق، الارادة الالهية على الأرض ومدبر الكون.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاشعرية

بعد الاعتزال لا بد من لمحة موجزة عن الأشعرية التي كانت خصمها الفكري الأول والتي سعى أربابها لتعطيل دور الاعتزال في الفكر الاسلامي، وبالاشتراك مع الحنابلة ونجحوا بذلك.

عندما لم يتمكن المعتزلة من دمج العقل بالايمان في المعتقدات الدينية، تغلب التشبث بالايمان، كأساس للعرفان، وتقلص الاعتماد على العقل عند المسلمين واستمر على مرّ القرون، فتوطد منحى الايمان المطلق الى حد سبب في منع البحث او الجدل في كل العقائد التي لا تتوافق مع الايمان الذي فرضه النص.

مؤسس الأشعرية ابو الحسن الأشعري، هو علي بن اسماعيل بن اسحق بن سالم بن عبدالله بن موسى بن بلال ابي بيردة بن ابي موسى الأشعري[1].

وابو موسى الأشعري الذي ينتسب اليه ابو الحسن، صحابي جليل وقائد اشتهر بشجاعته واقدامه. ولد ابو موسى الأشعري عام ٦١٤ ميلادية في اليمن التي غادرها مع بني الأشعر ولحق بالرسول الكريم اثناء غزوة خيبر عام ٧هـ. ثم شارك في غزوة حنين عام ٨هـ، وبعدها أرسله رسول الله الى اليمن لنشر الدعوة هناك. ولاّه أمير المؤمنين، عمر بن الخطّاب على الكوفة عام ٢٢هـ ثم نقله والياً على البصرة.

اشترك ابو موسى الأشعري في فتوح فارس والعراق، ولما حدثت الفتنة وقتل الخليفة عثمان بن عفان، كان ابو موسى والياً على الكوفة فأخذ من أهلها البيعة للامام علي بن ابي طالب، ولكن لما وقعت حرب الجمل دعا رعاياه لاتخاذ موقف الحياد مثل العديد من الصحابة، كعبدالله بن عمر بن الخطّاب، واسامة بن زيد بن حارثة وعبدالله بن العباس وغيرهم، اغضب حياد ابي موسى الامام علي بن ابي طالب فبعث اليه كتاب عزله، وكان شديد اللهجة.

---

(١) كتاب مذاهب الاسلاميين، عبد الرحمن بدوي، ص ٤٨٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حين وقع التحكيم في معركة صفين أجبر بعض الصحابة وبعض زعماء القبائل، ولا سيما كندة، الامام علي بن ابي طالب على اختيار ابو موسى الأشعري حكماً، بوصفه صحابياً محترماً ورجلاً محايداً، ولكن عمرو بن العاص، مندوب معاوية، خدعه وكانت نتيجة تلك الخدعة، ان استولى معاوية بن ابي سفيان على الخلافة وقامت الدولة الأموية العربية التي استمرت حوالي القرن من الزمن وانتهت بخلافة مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢هـ) بعد معركة الزاب مع العباسيين التي جرت في شهر جمادى الآخرة عام ١٣٢هـ.

ولد ابو الحسن الأشعري عام ٢٦٠هـ[٢] في البصرة ثم انتقل الى بغداد عام ٣٠٣هـ وتوفي فيها عام ٣٢٤هـ ودفن في مكان يقال له «مشرعة الروايا»[٣].

درس ابو الحسن الأشعري الاعتزال على المعتزلي ابو علي الجبائي، واخذ الفقه عن ابراهيم بن احمد المعروف بابن اسحق المروزي وهو من الأئمة الشافعيين.

وحين بلغ ابو الحسن الأشعري الأربعين من العمر ترك الاعتزال بسبب اختلاف المسلمين وانقسامهم الى فئتين متخاصمتين:

الفئة الأولى: المعتزلة اصحاب العقل المطلق الى حد تبني التعطيل وتحويل الألوهية الى مجرد فكرة لا رابط لها بالانسان، والى الدعوة الى سيطرة العقل على الايمان.

الفئة الثانية: اهل النص الكامل على القرآن، وهم الذين قاوموا المعتزلة ونزعتها العقلية الى حد الوقوع في تزمت فكري.

ويقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان: «لقد اشفق ابو الحسن على دين الله وسنة رسوله من ان يذهبا ضحية الآراء المتطرفة، نفي المعتزلة بها من جهة ونظرتهم التجريدية الى صفات الله، واهل النص من جهة اخرى، وهم الذين قاوموا النزعة العقلية المعتزلة فأفضى بهم موقفهم هذا الى حالة تحجر وجمود»[٤].

---

(٢) كتاب تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، جزء ١١، ص ٣٤٧هـ.

(٣) كتاب التبيين، ابو بكر بن فورك، ص ٥٦ .

(٤) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ١٨١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خاف ابو الحسن الأشعري ان يؤثر الاعتزال على الدين ويُفرق الايمان بالتحليل العقلي ويستولي الشك على الفكر الديني فيزعزع يقين المسلمين بمعتقداتهم الدينية.

ترك ابو الحسن الأشعري الاعتزال بطريقة مسرحية، اذ يقول احد المؤرخين(٥) «لم نشعر يوم الجمعة واذ بالأشعري قد طلع على منبر الجامع ونادى في الناس باعلى صوته «من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، انا ابو الحسن الأشعري، كنت اؤمن بمذهب الاعتزال، وكنت اقول بخلق القرآن وان الله لا تراه الأبصار منكراً ان تكون لله صفات ايجابية، انا تائب مقلع الرد على المعتزلة، مخرج لفضائحهم ومعايبهم».

بالرغم من ان أبا الحسن الأشعري جاهر برفضه لأقوال أهل الاعتزال الاّ انه لم يقبل الايمان المطلق كما يدعو اليه اهل النص، بل اخذ حلاً وسطاً فقال في حرية الانسان عن افعاله وان للانسان قدرة على كسب الأفعال لا على خلقها، كما تقول المعتزلة، فعل الخلق من الله وفعل الكسب من عند الانسان. حرية الانسان تقوم اذن على هذا التوافق بين الاله الخالق والانسان الكاسب.

«الكسب» عند الأشعرية اذن، هو عملية الاقتران بين فعل الله تعالى وبين العبد الذي يظهر عليه ومنه فعل الله. ويقول محمد بن علي التهانوي: «فعندهم ان أفعال العباد واقعة بقدرة الله تعالى وحدها، وليس لقدرتهم تأثير فيها، بل سبحانه اجرى العادة بأنه يوجد في العبد قدرة واختيارا، فاذا لم يكن هناك مانع، اوجد فيه فعله المقدور مقارناً لهما، فيكون فعل العبد مخلوقاً لله تعالى ابداعاً واحداثاً، ومكسوباً للعبد، والمراد بكسبه اياه مقارنته بقدرته وارادته من غير ان يكون هناك منه تأثير ومدخل في وجوده سوى كونه محلا له»(٦).

اما الدكتور محمد عمارة فيقول: «ولقد فند المعتزلة فكرة «الكسب» هذه، وحكموا بأنها اكثر تهافتاً من فكر الجبر الخالص عند المجبرة الجهمية في هذا الباب،

---

(٥) يقال انه ابو عبدالله الحمراني، يعلق ابن عساكر على هذه الرواية فيقول: الحمراني مجهول ولعل هذه الرواية تكلف وزيغ، لانها فضلاً عن افتعالها انما تقرر أن الاعتزال كفر وان المعتزلي كافر، ومن غير المعقول ان يكون الأشعري قد قال مثل هذا الكلام واصدر هذا الحكم بهذه الحدة.

(٦) كتاب كشاف الفنون، ص ١٢٤٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك لأن هذا «الكسب» لا يحدد وجوده او عدم وجوده الانسان «المكتسب» ولا يتوقف على «الفاعل» له الوجود الحقيقي له او عدم الوجود، لأنه ثمرة ايجاد الله للفعل وخلقه له، وهو ما لا يستطيع الانسان، حتى على رأي الأشعرية توقيت حدوثه او التحكم فيه، فضلاً عن خلقه او الامتناع عن هذا الخلق وذلك الايجاد، ومن ثم فانه لا يمكن ان يكون مصدراً لمدح او ذم يلحق بالانسان «المكتسب» بسبب هذا «الكسب»، ومن باب اولى لا يمكن ان يكون سبباً لثواب او عقاب يقع لهذا الانسان»(٧).

ويقول سامي النشار: «يقول ابن تيمية، ان «الكسب» وسط بين الجبر والاختيار وبين المجبرة وبين المعتزلة. ان المذهب «الكسبي» يقرر ان الله خالق الفعل وان الانسان يكتسب فعله من هذا الخلق، وكان لا بد من هذا الحل الوسط لانقاذ قدم العالم الالهي، الله يعلم بصيغة الفعل لا بصيغة الأمر»(٨).

لم يتخل ابو الحسن الأشعري عن العقل في تفسير ودعم العقيدة كغيره من اهل النص، ولكنه كان يعتقد ان اعطاء العقل الأهمية المطلقة لا يفضي الى دعم الدين بل الى استبدال الايمان بالعقل وكان يقول: «ما هي قيمة الايمان بالله اذن وبالكتاب المنزل، ما دام العقل بحد ذاته اسمى وارفع من المعطيات الدينية»(٩).

اذن كان جوهر الخلاف بين المعتزلة واصحاب النص، والنص هو ما جاء به القرآن الكريم، والمعتزلة لم يقبلوا الاّ بالعقل المطلق، وكذلك الموحّدون الدروز لا يقبلون الا بما هو عقلي محض، والعقل عندهم مقدس، اما الأشعرية فقد رفضوا العقل مقياساً للايمان وتمسكوا بحرفية النص لأنه كلام الله المنزل. وكان ابو الحسن الأشعري يؤمن. «ان الايمان حقيقة روحية والعقل قد يبعث على الشك، والشك يزعزع الايمان والايمان حقيقة لا يمكن ادراكه عن طريق العقل(١٠).

---

(٧) كتاب المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية، ص ٣٩/٣٨ .

(٨) كتاب الفكر الفلسفي في الاسلام، مجلد ١، ص ٢٨٥ .

(٩) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنري كوربان، ص ١٨٣ .

(١٠) كتاب مقالات الاسلاميين، ابو الحسن الأشعري، تحقيق محمد الدين عبد الحميد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان ابو الحسن الأشعري ملمًّا الماماً شاملاً بجميع مذاهب السنة وكان يقول باتفاق جميع المذاهب على انها واحدة في الأصل، نختلف فقط في الفروع، واليه يعزى القول الذي رواه عنه ابن عساكر: «كل مجتهد مصيب، وكلهم على حق، وانهم لا يختلفون في الأصول انما اختلافهم في الفروع»(١١).

انشأ الأشاعرة، اي اتباع ابو الحسن الأشعري، في القرن الرابع هجري، المدرسة الأشعرية، التي بقيت قروناً عديدة المرجع الأول للعقيدة الاسلامية السنية، ولكنها تعرضت لهجوم المعتزلة والحنابلة وعلى رأسهم اهل الحديث الذين ارادوا الرجوع الى النص المنزل دون تأويل او تحريف وأخذوا على الأشعرية الانحراف عن النص الحرفي كما ورد في القرآن الكريم. وكان من المتشددين في الهجوم عليها، تقي الدين ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية.

وكان لأبي حسن الأشعري مناظرات عديدة مع استاذه ابي علي الجبائي، اهمها مناظرة في «الأصلح والتعديل» ومناظرة في «اسماء الله هل هي توفيقية» ويقال ان ابا الحسن تفوق على ابي علي الجبائي، لأن الجبائي كان قوياً في التصنيف والكتابة وابو الحسن متفوقاً في الجدل.

الف ابو الحسن الأشعري كتباً كثيرة بقي منها كتابان فقط، هما «مقالات الاسلاميين» وفيه شرح لمختلف المذاهب الكلامية والفقه الاسلامي، وكتاب «اللمع» في الرد على الزيغ والبدع واهل التشبيه والدهريين».

وكان من تلاميذ ابو الحسن الأشعري كل من، ابو الحسن الباهلي، والقاضي ابو بكر محمد بن الطيب الباقلاني صاحب كتاب «التوحيد» وابو جعفر محمد السمعاني صاحب كتاب «الارشاد» ومحمد بن عبد الكريم الشهرستاني، صاحب كتاب «الملل والنحل» وفخر الدين الرازي، والجرجاني، وابن اسحق الأسفراني وغيرهم..

الجدير بالاشارة اليه ان الأشعرية ساهمت في القضاء على المعتزلة بالاشتراك مع الحنابلة وأهل الحديث ولكن لم يكن لها تأثير يذكر على العقائد التوحيدية الدرزية،

---

(١١) كتاب تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنري كوربان، ص ١٨٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد ذكرناها في هذه الدراسة لأنها كانت مدرسة فكرية تركت اثراً كبيراً في الدفاع عن العقائد الاسلامية التي كانت تقول بالتشبث بالنص على ما أنزله الله تعالى في القرآن الكريم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصوفية

- نشوء وتاريخ التصوف الاسلامي
- اهل الزهد التقليدي الاسلامي وطلائع التصوف الاسلامي
- الصوفية بعد القرن الثاني الهجري
- شرح المناحي الفكرية والمصطلحات والاحوال والمقامات ومدارج التصوف الاسلامي
- الموحدون الدروز والتصوف
- اقوال بعض مشايخ الصوفية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصوفية

يقول الصوفي أبو القاسم عبد الكريم القشيري:(*) التصوف، هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال: رجل صوفي وللجماعة صوفية، ومن يتوصل الى ذلك يقال متصوف وللجماعة، المتصوفة، وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق والا ظهر فيه انه كاللقب(١).

ويروي المتصوف معروف الكرخي: «التصوف هو الأخذ بالحقائق والأعراض مما في يد الخلائق، وقلب مليء بحب الله تعالى»(٢).

«الصوفية الاسلامية، فكر فلسفي وممارسة دينية وسلوك روحاني ترتكز على تقربها من الله تعالى، عز وجل، ومحاولة المشاهدة بالتجلي او الحلول او الاتحاد بالمولى الكريم، وفي اعتقادها ان الوجود الكلي الكامل واحد، وان الخالق والمخلوق يتحدان بصفاء الروح والاشراق اي، نور الله تعالى في الانسان، وان العقل يستمد علمه من مصدر آخر غير الحس، وان النفس من السهل ان تتصل بالعالم العقلي عن طريق تصفيتها من الشهوات والنزوات الجسدية والتجرد من المادة والتوجه الروحي الى المولى، جل شأنه، يتجلى سبحانه للانسان الطاهر التقي الذي يخضع لمشيئته ويفنى في عبادته فيصير التصوف بالعبادة»(٣).

(*) القشيري هو ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري النيسابوري. لقب قشيري نسبة الى قشير وهي بطن من سعد العشيرة القحطانية ولد عام ٣٧٦هـ في بلدة «اسوا» في فارس وتوفّي عام ٤٦٥هـ في نيسابور التي كانت عاصمة خراسان. اخذ العلم عن محمد بن علي الطوسي، وعن الدقاق حسن بن علي والتميمي الأسفرانيني.

(١) كتاب الرسالة القشيرية، ص ١٢٦ .

(٢) معروف الكرخي بن فيروز ولد في الكرخ، حي من بغداد وتوفي عام عام ٢٠٠هـ وكان استاذ سري السقطي. ولد نصرانيا ثم اسلم وكان حنفياً.

(٣) كتاب اللمع في التصوف، ابو نصر الطوسي، ص ٢٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكما قلنا، التصوف بالتعبد، وهو اخماد الشهوات والأعراض عن المغريات الجسدية، والرضا والتسليم لمشيئته تعالى والخضوع لأمره، والانقياد الى الحق والتأمل في اسرار الوجود، والانقياد المطلق للعقل، والعقل ثاني الله تعالى، علة العلل، والقدرة الالهية على الارض، ومدبر الكون، وهذه صفات يعتمد ويلتزم بها الصوفي ويعتنقها مشايخ الأجاويد الموحدين فهم، بدون شك او جدل، متصوفة مذهب التوحيد.

من المعروف، ان الخليفة الامام الحاكم بأمر الله، كان متقشفاً زاهداً، نهى عن الزينة والشهوات ولبسَ الصوف ومنع التعظيم وتأليه الانسان، كما رفض ان يقبل الناس يده او ينادونه الاّ بلقب أمير المؤمنين، غرق في بحر التأمل والسعي الى الحقيقة والاتصال بها، لأن الحقيقة الالهية هي تجسيد الحق، والحق ارادة الله تعالى، او الله(٥).

تختلف الروايات في اصل تسمية الصوفية وهي مشكلة تناولتها معظم كتب التصوف، مثل كتاب، «اللمع في التصوف»، لأبي نصر السّراج الطوسي، والرسالة «القشيرية في علم التصوف»، لعبد الكريم القشيري النيسابوري.

يقول ابو نصر السراج الطوسي: «ان اسم الصوفية محدث ولم يوصف به احد من اصحاب رسول الله ولا من بعدهم، ولا يعرف الناس الاّ العباد والزهاد والسيّاحين والفقراء. وما قيل لأحد من اصحاب رسول الله صوفي. لأنّ السبب في ذلك انهم نسبوا الى الصحبة، صحبة رسول الله، وهي اشرف من النسبة الى الصوف»(٤).

والدكتور عبد الرحمن بدوي يقول: «ولعل اقدم ما وصلنا من مؤلفات ذكرت اسم الصوفي والصوفية هو كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٠هـ أو ٢٥٥هـ، اذ يذكر «الصوفية من النسّاك ويورد اسماء من عرف بالفصاحة منهم»(٥).

---

(٥) ابتدأ التقشف مع الحاكم عام ٤٠٤هـ حيث لبس الصوف الأبيض وتخلى عن ركوب الجياد واستعاض عنها بالحمير ونزع العمامة ولبس فوطة بيضاء.

(٤) كتاب اللمع في التصوف، ص ٢٠ .

(٥) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، ص ٨ . كتاب الجاحظ «البيان والتبيين»، مجلد ١، ص ١٣٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول بعض المؤرخين، ان الصوفية تعني الصفة وهي زاوية اقامها رسول الله خارج مسجد الصفا في المدينة، وكان بعض المهاجرين مثل، ابو ذر الغفاري، سلمان الفارسي، عمّار بن ياسر، صهيب الرومي، بلال بن رباح الحبشي، عبدالله بن الأسد المخزومي، حذيفة بن اليمان، عكاشة بن محسن الأسدي، خباب بن الأرث وابو لبابة الانصاري، يأوون اليها اتقاء للبرد والحر»[٦]. ويقال ان هؤلاء نزلت بهم الآية الكريمة. «للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل اغنياء، من التعفف تعرفهم بسيماهم، لا يسألون الناس الحافاً وما تنفقوا من خير فان الله به عليم»[٧].

يقول المفكر سميح عاطف الزين: «التصوف لا يمكن ارجاع اصله الى «الصّفة»، وابسط الأمور الدالة على ذلك هو الدليل اللغوي، ان النسبة الى «الصفة» صفي وليس صوفي[٨].

شطحت مخيلة بعض المؤرخين في نشأة التصوف حتى تجاوزت المعقول. هذا الزبير بن بكار وعبد الرحمن بن الجوزي ومحمد بن اسحق بن يسار يرجعون بالتصوف الى العصر الجاهلي. ويقول ابن اسحق: «انه قبل الاسلام قد خلت مكة، في وقت من الأوقات، حتى كان لا يطوف بالبيت احد، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف»[٩].

اما الزبير بن بكار وعبد الرحمن بن الجوزي فيقولان: «كانت الاجازة بالحج للناس من عرفة الى منى الى الغوث بن مرة، ثم صارت له في ولده ويقال له «صوفة»، لأن امه علقت برأسه صوفة لأنها لم تلد الاّ بناتٍ، فهولاء انقطعوا الى الله تعالى وقطنوا الكعبة، فمن تشبه بهم، فهم الصوفية وهم من ولد الغوث بن مرة أخي تميم بن مرة»[١٠].

---

(٦) كتاب الصوفية في نظر الاسلام سميح عاطف الزين، ص ١٤ .

(٧) سورة البقرة، آية ٢٧٣ .

(٨) كتاب الصوفية بنظر الاسلام، ص ١٧ . وكتاب التصوف الدكتور اسعد السحمراني، ص ١٧٠ .

(٩) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ٦ .

(١٠) كتاب الصوفية بنظر الاسلام، سميع عاطف الزين، ص ١٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اما ابو نصر السرّاج في كتابه «اللمع في التصوف» فيطلق عليهم اسم الصوفية، نسبة الى لبس الصوف لأن لبس الصوف هو الغالب عليهم، وهو لبس الأنبياء والاولياء والاصفياء والصديقين وشعار المساكين المتنسكين. ولكن الصوفي عبد الكريم القشيري طعن في هذا القول على أساس ان «المتصوفة لم يختصوا بلباس الصوف دون غيره من الأقمشة، بل معظم لبسهم كان من أقمشة مختلفة الأشكال والانواع والالوان».

وقيل ان الصوفية منسوبة الى كلمة «صوفيا» اليونانية ومعناها «الحكمة»، وذلك لأن الصوفية يطلبون الحكمة الالهية[١١].

ويزعم بعض المفكرين ان الصوفية منسوبة الى «الصفاء» لأن المتصوفة يطهرون نفوسهم حتى تصفو وتنقى. قال في ذلك ابو الفتح البستي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا
فيه وظنوه مأخوذاً من الصوف
ولست انحل هذا الاسم غير فتى
صافي فصفي، حتى سمي الصوفي[١٢]

ويقول احمد بن تيمية في كتاب التصوف: «لا تصح النسبة الى اهل الصفة، لأنه لو كان كذلك لقيل «صفيّ»، لا تصح النسبة الى «الصف المقدم بين يدي الله» لأنه لو كان ذلك لقيل «صَفي»، ولا تصح الى «الصفوة من خلق الله»، لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند اكثر النسّاك، ولأنه لو نسب النسّاك الى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة وتابعيهم اولى»[١٣].

وينهي ابن خلدون هذا الخلاف في مقدمته بقوله: «ان الأظهر اشتقاق كلمة التصوف من «الصوف» لأن الصوفية مختصون بلبسه في الغالب».

---

(١١) كتاب الغزالي والتصوف الاسلامي، احمد الشرباصي، ص ١٤٨ .
(١٢) المصدر نفسه، ص ١٤٨ .
(١٣) المصدر نفسه، ص ١٤٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اما عن نشأة التصوف، فيقول المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون[١٤] الذي قال عنه الدكتور عبد الرحمن بدوي، انه اعظم باحث في التصوف الاسلامي على الاطلاق،. «ان التصوف الاسلامي نشأ من اصول اسلامية خالصة مستمدة من القرآن الكريم وسنة الرسول وحياته وحياة اصحابه ذوي النزعات الزاهدة»[١٥].

ويقول بعض المفكرين المسلمين، ان التصوف الصحيح المستقيم هو مرتبة «الاحسان» التي تلي مرتبة «الاسلام». والايمان والاحسان من أصول التصوف ومن الحديث النبوي. «الاحسان ان تعبد الله كأنك تراه، فان لم تكن تراه فانه يراك؛»[١٦]. وهذه الأحوال الثلاثة، الاسلام والاحسان والايمان مراتب للسلوك الصوفي للتقرب من الله تعالى.

اذن ان الوصول الى الله تعالى يكون اسلام وايمان واحسان. فمن اعتمد العبادة وحدها فهو في مقام الاسلام، او مقام الشريعة، والشريعة هي الدين، واذا انتقلت العبادة الى القلب وتحققت باليقين والاخلاص فهو في مقام الايمان، واذا وصل العابد مرتبة الشعور بوجود الله، اي المشاهدة الروحية، فهو في مقام الاحسان. ولذلك يقولون، «الشريعة ان تعبده، والطريقة ان تقصده والحقيقة ان تشهده»[١٧].

لا تعني المشاهدة عند المتصوفة النظر الحسي الفعلي بالعين بل ما يكون حاضراً في قلب الانسان فيقولون فلان يشاهد الحال او يشهد الوجد او الحب، وهو ما كان الغالب ذكره وان كان غائباً عنه، اي ما يستولي على قلب صاحبه. وعندما يقول

---

(١٤) ولد المستشرق لويس ماسينيون عام ١٨٨٣ في بلدة Nogent Sur Marne في ضواحي باريس ودرس في المدرسة الوطنية للغات الشرقية ثم درس في جامعة «السوربون» ثم ذهب الى القاهرة عام ١٩٠٦ حيث التحق بالمعهد الفرنسي ثم،توجه الى العراق. وخلال الحرب العالمية الاولى التحق بجيش اللنبي في فلسطين وبعد الحرب انضم الى المجتمع العربي في باريس وتوفي عام ١٩٦٢ . تخصص في الصوفية الاسلامية.

(١٥) كتاب التصوف الاسلامي، الدكتور محمد الشرقاوي، ص ١٦٩ .

(١٦) كتاب الغزالي في التصوف الاسلامي، احمد الشرباصي، ص ١٥٥ .

(١٧) مقتطفات من كتاب الغزالي، احمد الشرباصي، ص ١٦٤ - ١٦٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المتصوفة بمشاهدة الله تعالى، يعنون معرفته في قلبهم والشعور بوجوده. اما المشاهدة الحسية البصرية فهي غير ممكنة بعد نفي الصفات عن الله، عز وجل.

ان المعرفة في القلب، اي المشاهدة، هي معرفة مباشرة بدون مقدمات او براهين، وهي تدرك بالعقل ليس بالحس وتسمى عند المتصوفة «كشفا». وهي ما يعرف عند المسيحيين «بالغنوص» اي رؤية الحق مباشرة عن طريق القلب لا عن طريق البحث والبرهان.

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: «والغنوص يقوم على اساس ان الانسان لا يستطيع بقواه العادية الوصول الى المعرفة العليا، ولهذا يحتاج الى مصدر عال لايصالها اليه. ولا يستطيع المرء تحصيل الاستعداد للاتصال بهذا المصدر الاّ اذا تطهر قلبه. يقول «فالنتيوس»، وهو اكبر الغنوصيين – من له قلب مطهر يشع بالنور، هو الذي يظفر برؤية الله»(١٨).

ويقول الصوفي ابو القاسم الجنيد: «مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة» ثم يقول: «من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة»(١٩).

وحجة الاسلام، ابو حامد محمد الغزالي، الذي يعتبر الدين وسنة الرسول، من أسس التصوف يقول في كتابه «ميزان العمل»: «اعلم ان سالك سبيل الله تعالى قليل والمدعي فيه كثير، ونحن نعرفك علامتين له العلامة الاولى، ان تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع، موقوفة على حد توقيفاته، ايراداً واصداراً، اقداماً واحجاماً، اذ لا يمكن سلوك هذا السبيل الا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها، ولا يصل فيه الاّ من واظب على جملة النوافل، فكيف يصل اليه من اهمل الفرائض؟.. والسالك لسبيل الله يعرض عن الدنيا اعراضاً، ولو ساواه الناس كلهم لخرب العالم»(٢٠).

---

(١٨) كتاب تاريخ التصوف الاسلامي، ص ٢٢/٢١ .

(١٩) كتاب الغزالي في التصوف الاسلامي، احمد الشرباصي، ص ١٦٣ .

(٢٠) كتاب الغزالي والتصوف الاسلامي، ص ١٦٦ .